

البؤساء

رصيد

الرَّوَايَةُ كَامِلَةٌ
فِي خَمْسَةِ مَجَلَّدَاتٍ



البؤساء

لشاعر فرنسة العظيم
فيكتور هيغو

١

نقله إلى العربية
مُنِير البعلبكي

دار العلم للملايين
بيروت

البُؤْسَاءُ

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

مقدمة

إذا كانت « البؤساء » قد حظيت حين نشرها ، ولا تزال تحظى الى اليوم ، في فرنسا والديار الأوروبية والأميركية ، بمكانة أدبية تكاد لا تدانيها عند جمهور القراء أيما مكانة لأيما رائعة من الروائع الانسانية الخالدة ، فليس من شك في انها 'تعتبر أعظم الحوادث الكلاسيكية الغربية شهرة' في العالم العربي ايضاً ، لا استثنى من ذلك حتى مسرحيات شكسبير نفسها . وآية هذا ان من النادر ان تجد انساناً في العرب اليوم لم يسمع باسم « البؤساء » لفكتور هيجو أو لم يقرأ عنها ، أو يطالع مختصراً من مختصراتها الكثيرة التي صدرت بالعربية في عشرات الطبعات ، أو لم يشاهدها على الشاشة البيضاء . فمنذ ان اصدر شاعر مصر البائس ، حافظ ابراهيم ، بضعة فصول من الرواية في جزئين صغيرين لا يبلغان عشر الاصل ، أو اقل من ذلك قليلاً ، وشخصية « جان فالجان » الخالدة حية في مخيلة الناشئة العربية جيلاً بعد جيل ، فهي تحبها وتأسى لها وتكبر فيها خيرية الانسان القاهرة شرور المجتمع كلها ، الخارجة من اتون تلك الشرور وهي اصفى جوهرأ ، وخير صقلاً . ومن هنا كان في ميـورنا ان نقول ان « البؤساء » خالطت الوجدان العربي ، وعملت على إبقائه 'مسهة' في خلق الوعي الاجتماعي

الجديد الذي ننعم به اليوم في ارض العرب من اقصاها الى اقصاها .
ومن أسف ان يكون اطلاق الاجيال العربية على « البؤساء » منذ
عهد حافظ ابراهيم حتى هذه الساعة ، اطلاقاً منقوصاً مشوهاً لم يَسَلَمْ
معه من تلك الملحمة الانسانية الراسخة ورسوخ الاطواد غير هيكلها
المجرد ، واحداثها العاطفية المثيرة . اما التحليل النفسي ، واما العبير
الشعري الذي يغلف كل صفحة من صفحات الكتاب ، واما التصوير
الفني البارع الذي اشتهر به هيجو ، واما اللوحات التاريخية التي انتشرت
في حنايا الاثر ، فقد ' كَتَبَ على ذلك كله أن يُسَحَقَ ويُزاح من
الطريق لكي يكون في الامكان صَفْطُ ألفين وخمسة صفحة من القطع
الكبير في ثلاثئة او اربعئة صفحة صغيرة ليس غير ! ذلك لأن اياً من
الاقلام العربية لم يجرؤ - برغم نشاط حركة الترجمة نشاطاً متعاضداً -
على ان ينقل الى العربية هذا الاثر الادبي الخالد نقلاً كاملاً لا حذف فيه
ولا تشويه ، وذلك لأن اياً من النashرين العرب لم يجرؤ - برغم نشاط
حركة النشر نشاطاً متعاضداً ايضاً - على التفكير في عمل كهذا وإخراجه
للناس . لكانه قدّر على القاريء العربي ان ينتظر الذكرى السبعينية *
لوهة شاعر فرنسة العظيم حتى يَنعَمَ لأول مرة بقراءة « البؤساء » كاملة
غير منقوصة .

وأياً ما كان فقد تطورت منذ عهد هيجو مقاييس الفن الروائي
واختلفت مفاهيمه ومذاهبه ، ولكن تطوّر المقاييس واختلاف المفاهيم
وحدهما لا يصلحان ذريعةً لأغفال الحوالم الادبية وتجاوزها الى النماذج
الحديثة دون غيرها ، لأن الاثر الادبي الممتاز يترد على هذه القواعد
ويزري بها لما يضج به من حياة باقية على الدهر ، ومن قبة ذاتية هي
فوق القوالب والاساليب . وهل غصّ تطوّر المفاهيم الفنية والمقاييس

* تصادف هذا العام ذكرى انقضاء سبعين سنة على وفاة هيجو (٢٢ نوار ١٨٨٥) .
ومن محاسن المصادفات ان يصدر الجزء الاول من هذه الترجمة في يوم الذكرى بالذات ايضاً .

النقدية من ادب المعري ، وديكنز ، وبلزاك ، وتولستوي ، ومكسيم غوركي ، وذهبَ بجذته ؟ إن الآثار الادبية الانسانية كالآثار المعمارية والفنية لا تزاد مع الايام الا 'حرمة' ونفاة' بل واشراقاً في بعض الاحيان . وانما يتأكد هذا المعنى اكثر حين تكون القضايا التي يعالجها الاثر الخالد مطروحةً ، ما تزال ، في بلادنا ، سواء على الصعيد النظري او على الصعيد العملي ، او على الصعيدين النظري والعملي جميعاً . ومن هنا ندرك حاجتنا الماسة الى ترجمة صحيحة للبؤساء -- ولو بعد قرابة مئة سنة من نشرها -- بالاضافة الى انه لا يجوز ان تخلو المكتبة العربية وحدها بين مكتبات الامم الحية كلها من ترجمة كاملة للبؤساء ، بل لا يجوز ان تخلو من اي اثر ادبي خالد من آثار الفكر الانساني المجرد انه عتيق . وعلى أية حال فالبؤساء ابعد ما تكون عن العتق او الشيخوخة . ألم يقل هيجو في الاسطر القليلة التي قدم لها بها :

« ... ما دامت مشكلات العصر الثلاث - الخط - من قدر الرجل بالفقر ، وتحطيم كرامة المرأة بالجوع ، وتقزيم الطفولة بالجهل - لما نخل - بعد ؛ ما دام الاختناق الاجتماعي ممكناً ما يزال ، في بعض البقاع ... ما دام على ظهر هذه الارض جهل وبؤس ، فان كتباً مثل هذا الكتاب لا يمكن ان تكون غير ذات غناء . »

وبعد ، فمن الخير ان نقدم الى القراء الآن كلمة موجزة في حياة المؤلف وآثاره .



حياته

ولد فيكتور هيجو في بيزانسون ، عاصمة الـ « فرانش كونتي » ، شرقي فرنسا ، في ٢٧ شباط سنة ١٨٠٢ من أب كان ضابطاً في جيش الامبراطورية ثم غدا جنرالاً . وانتقل هيجو الفتى مع أبيه الى ايطالية ،

وكورسيكة ، وجزيرة ألبا ، ثم الى اسبانية (سنة ١٨١١) حيث قضى عاماً واحداً مع أخيه اوجين في كلية النبلاء بمدرسة . وفي عام ١٨١٢ رجع الى باريس حيث تلقى العلم على د أميه وعلى كاهن عجوز وحديقة ، ثم التحق بمدرسة البوليتكنيك *Polytechnique* ، ولكن المهوم الأدبية شغلته في سن مبكرة ، فاشتترك في مسابقة نظمها الاكاديمية الفرنسية ، وهو بعد في الخامسة عشرة من العمر ، ففاز بجائزة شعرية لقصيدته « حنات الدراسة » . وفي اواخر سنة ١٨١٩ أسس مع اخويه ، وبمساعدة « سوميه » و « فيني » صحيفا « المحافظ الادبي » *Conservateur littéraire* ، فلم تعيش غير سنة ، وقد كتب هو فيها ٢٧٢ مقالة . وفي سنة ١٨٢٢ أجرى عليه لويس الثامن عشر راتباً بعد نشر ديوانه الاول الموسوم بـ « نشائد *Odes* » وفي هذه الفترة تزوج من آديل فوشيه فأنجبت له اربعة اولاد ، ثم توفيت سنة ١٨٦٨ .

وابتداء من عام ١٨٢٧ الذي صدرت فيه مسرحيته التاريخية « كرومويل *Cromwell* » بمقدمتها الشهيرة التي سنّ فيها حرباً لا هوادة فيها على المفاهيم المسرحية الكلاسيكية اعتُبر هيجو زعيم الحركة الرومانتيكية . وتعدّ هذه الفترة التي امتدت حتى عام ١٨٤٣ انصب عهده بالانتاج الأدبي اذ وضع فيها مقطوعاته « الشرقيات *Les Orientales* » ومسرحية « هيرفاني *Hernani* » وقصة « نوتر دام دو باري *Notre - Dame de Paris* » حتى اذا كان عام ١٨٤١ انتُخب عضواً في الاكاديمية الفرنسية بعد أن أخفق في ذلك أربع مرات متعاقبات . وطوال العشر السنوات التي تلت انصرف هيجو الى النضال السياسي ، مجتهداً نفسه في خدمة الافكار الديمقراطية والجمهورية . وبعد ثورة ١٨٤٨ انتُخب عضواً في الجمعية التأسيسية ، ثم في الجمعية التشريعية . وفي تلك الفترة شرع في كتابة روايته الكبرى « البؤساء » . حتى اذا تمّ انقلاب كلون الاول سنة ١٨٥١ ، وأطاح نابليون الثالث بالجمهورية ليعلم في العام التالي

Qui lui soit impossible, et toi, c'est la bonheur ?
 Ça n'est pas pour moi ! cherche en vain l'espérance !
~~J'y ai mis la main à la fin de la fin~~
~~Je n'ai rien fait pour ! c'est la fin de la fin~~
 Quand le Dieu !

S. Sol.

Donc le z'irais par assey !
~~Je n'ai rien fait pour ! c'est la fin de la fin~~
~~Je n'ai rien fait pour ! c'est la fin de la fin~~
 Ah ! pour a a l'army plus ! c'est la fin de la fin.

Hermann

Et ! que veux tu me dire,
 C'est toi ! l'air de fige dans un lieu sans flamme,
 C'est toi ! a m'en faire par de fuir, de adieu !

S. Sol.

J. a l'un. Un peu. Surtout, j'en meure !

Hermann.

He ! pour qui ? pour moi ? d. pour ail que le monde
 Pour a peu ?

S. Sol. ^{le monde} ~~pour a peu~~ de l'army.

صفحة من مسرحية « هيرفالي » لفكتور هيجو بخط يده .

قيام الامبراطورية الثانية ، وقف فيكتور هيجو في صفوف المعارضة ، فنُفي الى بروكل ، ومنها انتقل الى جيرزي واخيراً الى غورنيسي وهما جزيرتان من الجزائر الانكليزية النورماندية * وأكسب النفي عبقريته الشعرية رحابة وقوة جديدتين فمهر الادب في هذه الفترة باروع آثاره : « التأملات » (١٨٥٦) *Les Contemplations* ، والقسم الاول من « خوافة العصور » (١٨٥٩) *La Légende des Siècles* « والبؤساء » (١٨٦٢) *Les Misérables* وفي ٥ ايلول سنة ١٨٧٠ رجع الى باريس فشهد احوال الحرب وذل الهزيمة ، ثم انتخب عضواً في الجمعية الوطنية ، عام ١٨٧١ ، فعضواً في مجلس الشيوخ ، عام ١٨٧٦ . ذلك كان عهد الشيخوخة ، ولقد ظلّ خصباً حافلاً . وفي سنة ١٨٨٢ احتفلت الامة الفرنسية احتفالاً مهيباً ببلوغه الثمانين من العمر . وما هي الا سنوات معدودات حتى قضى نحبه (٢٢ نوار سنة ١٨٨٥) فأقامت له باريس مأتماً عظيماً . وفي نوار - حزيران من عام ١٩٣٥ احتفلت فرنسة بالذكرى الخمسينية لوفاته احتفالاً يعزّ نظيره .

عبقريته

يجمع النقاد ، او يكادون ، على ان فيكتور هيجو أعظم شاعر غنائي فرنسي ، وواحد من اعظم شعراء العالم في مختلف العصور . ورأس مواهب هيجو قوة خارقة على الخيال الموضوعي ، وبراعة عجيبة في التصوير تردفها قدرة فريدة على السمو بالكلمة حتى لتصبح نغماً . وقد لا تكون حساسيته الشعرية على مثل العمق الذي يميز الحساسية الشعرية عند لامرتين ، او على مثل الجليشان الذي يطبع الحساسية الشعرية عند ألفرد دو موسيه ، ولكنها تتمتع برحابة او بسعة اعظم بكثير . إنما تتبدى نابضة بالحياة ، مشوبة بخاصة حين توجه نحو الاطفال

* هي مجموعة من الجزر الانكليزية القائمة على الشاطئ النورمندي .

والمستضعفين من الناس . *

ولئن لم يتسم تفكير هيجو بأصالة الخلق وعمق الابتداع فليس من ريب في انه امدت انتاجه الشعري بغذاء من الافكار غني . انه لم 'يجر' القلم قط على قرطاس إلا ليمجد افكاراً عظيمة ، أو ليدافع عن افكار عظيمة . وما الشاعر ، عنده ، إلا المنارة التي يتعين عليها ان ترشد الجماهير وتهديهم سواء السبيل ، والصوت المقدس الذي يحمل اليهم انجيلهم . ** ومن هنا أثار عدداً كبيراً من المشكلات الاخلاقية والاجتماعية التي يتناظر فيها الفلاسفة : الخير والشر ، والانسان والله ، والله والخلق ، والحكمة والعلم ، والجهل والشر ، والرذيلة والبؤس ، والسعادة والتقدم ، معبراً عن ذلك كله في صور قوية ساطعة .

شعره

كان هيجو شاعراً غنائياً في المحل الاول . ولكن غنائنته كانت دون غنائية لامرتين عفوية وصحيحة ، وان تكن اكثر منها تنوعاً . والحق ان هيجو وصف نفسه فقال إنه « نفس من البلور » و « صدى » مرنان ، يعني أنه قد عكس ، ورجع ، وكثر ، وافرغ في نظام أوركستوي جميع الاغراض الغنائية . لقد غنى ، قبل كل شيء ، جميع انطباعات عصره فكان روح القرن التاسع عشر الشعرية تحياً في قصائده من جديد . وغنى جميع العواطف الانسانية ، من مثل الحب النبوي ، والحب الأبوي ، والآمال ، والاحزان ، والامرة ، والوطن . ثم اضاف الى هذا كله الألم الفلسفي ، والتطور الديني ، ولغز الموت والمجهول ، وتوق الانسان الى الجمال والخير ، والتأمس للعدالة ، وإيمانه بمستقبل قوامه الحرية والتقدم . وعلى الجملة ، فقد كانت أشبه بموسوعة

* راجع Quillet ; Dictionnaire Encyclopédique p. 2282.

** المصدر السابق نفسه .

غنائية للعصر الذي عاش فيه . *
 واشهر آثاره الغنائية « نشاند » (١٨٢٢) Odes ، و « نشاند
 جديدة » (١٨٢٤) Odes Nouvelles ، و « الشرقيات » (١٨٢٩)
 Les Orientales ، و « أوراق الخريف » (١٨٣١) Les Feuilles d'automne ،
 و « الاصوات الداخلية » (١٨٣٧) Les Voix Intérieures ، و « الاشعة
 والظلال » (١٨٤٠) Les Rayons et les Ombres ، و « التأملات »
 (١٨٥٦) Les Contemplations .

وكان كذلك شاعراً ملحمياً أعطى الادب العالمي لوحات تاريخية
 خالدة هي شبه ما تكون بلحمة في الانسانية تمثل لنا العصور الغابرة ،
 والحقة المعاصرة ، وحروب القرن التاسع عشر الكبرى . وهذا التراث
 الضخم تنتظمه كله فكرة التقدم ، وتصعيد البشرية البطيء نحو النور
 عبر الصراع المخوف بين الخير والشر . وما هذه الملحمة غير « اسطورة
 العصور » La Légende des Siècles ، وقد نشرت في ثلاثة اجزاء متعاقبة
 (سنة ١٨٥٩ ، و ١٨٧٧ ، و ١٨٨٣) .

مسير حياته

واقترح هيجو ميدان التأليف المسرحي بدراما « كرومويل »
 التي عُدَّت مقدمتها الشهيرة بمثابة « البيان » أو « المانيفستو » للمدرسة
 المسرحية الناشئة التي نادى بضرورة الأخذ بشكل مسرحي اكثر حرية .
 ولكن هيجو لم يوفق على العموم في هذا الميدان ، فشخصه « غنائيون »
 اكثر مما ينبغي . وبسبب من أنهم غنائيون لم يكن في ميورهم ان
 يكونوا « مسرحيين » . انهم ليسوا ارادات تعمل ، ولكن احساس
 تتلاعب بها الظروف الخارجية وكأنها دمية من الدمي .

وأياً ما كان فأشهر مسرحيات هيجو « كرومويل » ، وهي شعرية (١٨٢٧) ، و « هيرفاني » وهي شعرية (١٨٣٠) ، و « الملك يلهو » وهي شعرية أيضاً (١٨٣٢) *Le Roi s'amuse* ، و « ولوكويس بوجيا » وهي نثرية (١٨٣٣) *Lucrèce Borgia* ، و « ماوي تيودور » وهي نثرية (١٨٣٣) *Marie Tudor* .

رواياته : « البؤساء »

واعطى هيجو روايات عديدة منها « فوتر دام دو باوي » (١٨٣١) و « الرجل الذي يفتحك » (١٨٦٩) *L'Homme qui rit* ، و « ثلاثة وتسعون » (١٨٧٢) *Quatre - vingt - treize* . اما اعظم رواياته جميعاً وأبقاها على الدهر فهي « البؤساء » ، وقد شرع في كتابتها ، كما رأينا ، قبل عام ١٨٥٠ ولم ينجزها الا عام ١٨٦٢ . وإنما وضع هيجو روايته هذه تحت تأثير التعاليم الانسانية والاشتراكية التي نادى بها « كايه » * و « برودون » ** فدافع فيها عن قضية جميع اولئك الذين يحترقون المجتمع ، والذين ينبغي ان تعزى جرائمهم الى فساد ذلك المجتمع نفسه .

والواقع ان « البؤساء » هي في المحل الاول رواية اجتماعية قصد بها هيجو الى التنبيه على المظالم التي يزرع تحت عبثها المعذبون في الارض باسم النظام حيناً ، وباسم العدالة حيناً ، وباسم الاخلاق حيناً ، وباسم

* Gabriel مفكر فرنسي (١٧٨٨ - ١٨٥٦) غيّل مدينة فاضلة اشتراكية في كتابه « رحلة في إيكارب » *Voyage en Yearie* . ولقد حاول ان يحقق نظرياته من طريق انشاء مدينة نموذجية في تكساس ، ثم في ايلينويس ، ولكنه اخفق .

** Proudhon اشتراكي فرنسي (١٨٠٩ - ١٨٦٥) وضع نظريات مشهورة في الملكية الشخصية ، وحاول ان يوفق ما بين البورجوازية والبوليتاريا لكي ينشئ منها طبقة وسطى . ومن مؤلفاته : « ما الملكية الشخصية ؟ » و « تناقضات اقتصادية » .

الشعب دائماً . ورواية تاريخية ارادها صاحبها معرضاً لافكاره الديمقراطية ونزعائه التحررية ، فزّينها - على حساب الفن القصصي احياناً - بلوحات قلمية جدد فيها تاريخ فرنسا في حقبة من اخطر الحقب لا في حياة ذلك البلد فعصب ، بل في حياة اوروبية كلها ، اعني تلك الحقبة المنسجبة على عهدي نابوليون بوناپرت ولويس فيليب بما حفل به من انتفاضات ثورية وانتكاسات رجعية ... وهي الى هذا وذاك قارورة طيب ، ووعاء فلسفة ، وملحمة نضال . انها بكلمة ، نشيد الحرية ، وانجيل العدالة الاجتماعية ، وسيفونية التقدم البشري - عبر العرق والدمع والدم - نحو الغاية التي عمل من اجلها المصلحون في جميع العصور : تحقيق إنسانية الانسان وإقامة المجتمع الامثل . ولعل اروع صفحاتها تلك التي صور فيها شخصية الاسقف ميربيل ، وآلام فانتين ، وفرار جان فالجان ، ومعركة واترلو ، وثورة عام ١٨٣٢ . بل لعل اروع ما فيها قلب هيجو الكبير النابض من وراء كل كلمة من كلماتها ، وكل فكرة من فكراتها ، وشاعريته العارمة الحيرة التي تتخطى الحدود والحدود ، ولا تعرف هدفاً غير المحبة ، والعدل ، والخير العام .



وبعد ، فيسعدنا ان نؤف الى القراء الكرام في سلسلة « خوالد التراث الكلاسيكي » هذه اول ترجمة صحيحة كاملة للبؤساء ، راجين ان يكون في صنعنا هذا * مدّة لبعض النقص الذي ما تزال مكنتنا الحديثة تعانيه من دون سائر مكنتات الشعوب الحية ، أعني حاجتها الى نسخة عربية كاملة عن كل اثر من الآثار الانسانية الشائعة التي ابدعها الفكر البشري في قديم الايام وحديثها .

بيروت ، ٥ نوار ١٩٥٥

منير البعلبكي

* وفي ترجمتنا النص الكامل لرائمة تشارلز ديكنز « قصة مدينتين » التي تؤلف الحلقة الاولى من هذه السلسلة .

كلمة أولى

ما دام غنة ، بسبب من القانون والعرف ، هلاك اجتماعي
يخلق 'صناعياً' ، وعلى مرأى من الحضارة وسمع ، ضروباً من
الجحيم على الأرض ، ويعتقد في قضاء بشري محتوم مصيراً هو الآتي ؛
ما دامت مشكلات العصر الثلاث - الخط من قدر الرجل بالفقر ،
وتحطيم كرامة المرأة بالجوع ، وتقزيم الطفولة بالجهل - لما 'تحل'
بعد ، ما دام الاختناق الاجتماعي ممكناً ما يزال ، في بعض البقاع ؛
وبكلمة أخرى ، ومن وجهة نظر ارحب واعم ايضاً ، ما دام على
ظهر هذه الأرض جهل ويؤس ، فان كتباً مثل هذا الكتاب
لا يمكن ان تكون غير ذات غناء .

هوتفيل هاوس ، ١٨٦٢

فيكتور هيغو

القِسْمُ الْأَوَّلُ

فَنَتَيْنِ

الكتاب الأول

رَجُلٌ مُسْتَقِيمٌ

١

مسيو ميريل

في عام ١٨١٥ كان صاحب السيادة شارل فرانسوا بينفينو ميريل هو
أسقف ... * كان رجلاً في الحامة والسبعين ، وكان قد شغل اسقفية ...
منذ عام ١٨٠٦ .

وبرغم ان بعض التفاصيل لا تمس بطريقة ما اساس القصة التي سنرويها ، فليس
من غير المفيد - ولو من اجل الدقة في الاشياء جميعاً على الاقل - ان نشير هنا
الى الاقاويل والاشاعات التي نشأت على حابه منذ ان وفد الى الابرمسية .

* يقصد مدينة ديني Digne حاضرة احدى المقاطعات الفرنسية الواقعة في اقصى الجنوب الشرقي
على بعد ٧٦٤ كيلومتراً جنوبي شرقي باريس .

وسواء أكان ما يُقال عن الرجال صدقاً أم كذباً فإنه كثيراً ما يترك في حيواتهم ، وفي مصائرهم بخافة ، أثراً اعظم من ذلك الذي تركه افعالهم . كان مسيو ميريل ابن مستشار لبرلمان إيكس * فهو يتمتع بشرف النبالة الذي كان يُخلع على رجال القانون . وإذ أحب الاب ان يخلفه ابنه في منصبه ذاك ، فقد عمد الى تزويجه في سن مبكرة جداً - في الثامنة عشرة ، او العشرين - وفقاً لعرف سائد عند الأسر البرلمانية . ولقد قيل ان شارل ميريل كان ، برغم زواجه ، موضوع اهتمام القوم واحاديثهم . كان شخصه مُفرغاً في قالب رائع . وكان على الرغم من قصر قامته أنيقاً ، كيتساً ، ظريفاً . لقد وقف الشطر الاول من حياته ، كله ، على الحياة الاجتماعية وملذاتها . ثم جاءت الثورة ، وتعاقبت الاحداث سراعاً ؛ وتشتت الأسر البرلمانية ، بعد ان قُتل منها خلقٌ كثير ، وبعد ان طوردت ولوحقت . وعند اندلاع الثورة ، هاجر مسيو شارل ميريل الى ايطالية . وهناك ، توفيت زوجته من علة في الرتين طالما تهددت حياتها بالخطر . ولم تختلف ايما ولد . ولكن ايّ جديد طرأ على مصائر مسيو ميريل بعد ذلك ؟ هل اثار تفنُّع المجتمع الفرنسي القديم ، وسقوط أسرته نفسها ، ومشاهد عام ١٧٩٣ الفاجعة ، التي كانت اشد فظاعة في اعين المهاجرين الذين رأوها من بعيد وقد ضخَّها الذعر - هل اثار ذلك كله افكاراً تدعو الى الاعتزال وقهر الذات ؟ هل اصاب فجأة ، وسط موجة من موجات الانفعال وشرود الذهن التي استغرقت حياته آنذاك ، بوحدة من تلك الضربات الرهبة الغامضة التي تصرع احياناً - بطعنة في القلب - الرجل الذي عجزت الكوارث العمومية عن زعزعته ، بأن تسدّد دُجج كفه الى حياته او قدَرِه ؟ ذلك ما لم يكن احد بقادر على الاجابة عنه . كل ما عرفه الناس انه حين رجع من ايطالية كان يرتدي ثوب الكهنوت .

وفي سنة ١٨٠٤ كان مسيو ميريل كاهن ب ... (برينّيُول) ** . كان

* Aix عاصمة « البروفانس » القديمة ، وتقع على بعد ٢٨ كيلومتراً عن مرسيليا .

** Brignolles بلدة صغيرة من اعمال مقاطعة فار (وعاصمتها تولون) على الساحل الجنوبي الشرقي من فرنسا .

أتذاك رجلاً عجوزاً ، وكان يجيأ في عزلة مطلقة .

وحوالى عهد التتويج * دعتة مسألة صغيرة متصلة بوظيفته الدينية - ولم يبقَ في الامكان معرفة تلك المسألة الآن - الى ان يقصد الى باريس .
وهناك زار الكاردينال فيش فيمن زارهم من رجال السلطان خدمة لبعض مصالح رعيته .

وذاث يوم ، حين وفدَ الامبراطور لزيارة عمه ، التقى في طريقه بالكاهن الجليل ، الذي كان في غرفة الانتظار . وإذ لاحظ نابوليون ان الرجل العجوز نظر اليه في شيء من الفضول ، استدار وتساءل في خشونة : « من هذا الرجل الساذج الذي ينظر اليّ ؟ »

فقال مسيو ميريل : « مولاي ، إنك لترى الى رجل ساذج ، وإني لأرى الى رجل عظيم . وفي ميسور كل منا ان يفيد من ذلك . »
وتلك الليلة سأل الامبراطورُ عمه الكاردينال ما اسم الكاهن . وبعد فترة وجيزة فخر الدهش مسيو ميريل إذ عرف أنه عُيِّن أسقفاً لمدينة د ...

وفيما عدا ذلك ، لم يعلم أحدٌ ايّ قدر من الصحة كانت تنطوي عليه تلك الحكايات التي سارت بين الناس ، والتي تتصل بالشرط الاول من حياة مسيو ميريل . ولكنَّ أسراً قليلة كانت تعرف أسرة ميريل قبل الثورة .

وتعَيَّن على مسيو ميريل ان يذعن للقدَر الذي يُلمَّ بكلِّ وافد جديد الى مدينة صغيرة ، حيث توجد ألسنٌ كثيرة تتكلم ، وروؤوس قليلة تفكر . لقد تعَيَّن عليه أن يذعن برغم انه كان أسقفاً ، ولأنه كان أسقفاً . وعلى أية حال ، فقد كانت الاقاويل المتصلة باسمه مجرد أقاويل ليس غير : لفظي ، وحديث ، وكلمات ، بل اقلَّ من كلمات : *palabres* كما يعتبر اهل الجنوب في لغتهم العنيفة .

ومها يكن من أمر ، فبعد ثع سنوات من نموضه بأعباء الاسقفية وإقامته في د ... نضالت جميع تلك الحكايات وموضوعات اللغو ، التي تشغلُ ،

* اي تتويج نابوليون بوناپرت امبراطوراً ، في ١٨ نوار سنة ١٨٠٤ .

بادي. الأمر ، المدن الصغيرة والناس الصغار ، وغرقت في نسيان عميق . إن
أحداً ما عاد يجروء على ان يتحدث عنها ، بل إن أحداً ما عاد يجروء على ان
يتذكرها .

وحين وفد مسيو ميريل على مدينة د... كانت تصعبه عانس تدعى الآنسة
بابتيستين . وكانت هذه العانس هي أخته ، وكانت اصغر منه بعشر سنوات .
وكانت خادمتها الوحيدة امرأة في مثل سن الآنسة بابتيستين تدعى السيدة
ماغلوار . وبعد ان كانت هذه السيدة تعرف من قبل بـ « خادم السيد الكاهن »
غدت الآن تحمل هذا اللقب المزدوج : وصيفة الآنسة ، ومدبرة منزل صاحب
السيادة .

وكانت الآنسة بابتيستين مخلوقة طويلة القامة ، شاحبة الوجه ، مهزولة
الجسم ، رفيقة الحاشية . كانت تحقيقاً للصورة المثالية التي تعبر عنها لفظة
« محترمة » ؛ إذ يبدو وكأن من الضروري ان تكون المرأة أمّاً لكي تكون
جليلة . إنها لم تكن جميلة في يوم من الايام . وكانت حياتها كلها ، التي لم تكن
غير سلسلة موصولة من أعمال التقى ، قد خلعت عليها ضرباً من البياض الشفاف ،
حتى اذا شاخت اكنسبت ما يمكن ان ندعوه جمال الصلاح . إن ما كان في صباها
هزلاً انتهى الى ان يصبح في كهولتها شفافية ؛ وهذه الاثيرة كانت تمكن
الناظر اليها من أن يرى الملاك الذي في ذات نفسها . كانت روحاً اكثر منها
عذراء فانية . كان شخصها أشبه بالطيف ، فليس فيها من الجسد ما يكفي لأن
يوقع في نفس المرء فكرة الجنس — قليل من المادة ينطوي على شزارة — عيان
واسعتان مطرقتان الى الارض ابدأ ؛ ذريعة تتخذها الروح للبقاء على هذه
الارض .

أما السيدة ماغلوار فكانت امرأة عجوزاً ضئيلة الجسم ، بيضاء البشرة ،
بدينة ، نشيطة ، مشغولة على نحو مطرد . كانت دائماً مبهورة منقطعة
النفس ، بسبب من نشاطها الموصول ، أولاً ، وبسبب من داء الربو الذي
تشكو منه ثانياً .

وكان مسيو ميريل ، لدن وصوله الى المدينة ، قد أنزل في قصره الاسقفى ،
 محوطاً بآيات الأجلال المنصوص عليها في المراسيم الامبراطورية التي تجعل
 الاسقف في رتبة تلي رتبة قائد الجيش مباشرة* . كان العمدة والرئيس يقومات
 بزيارته قبل زيارتهما أيما شخصية اخرى في المدينة ، وكان هو بدور - يجمع الشرف
 نفسه على الجنرال والمحافظ .
 حتى اذا استقر في قصره ، غدت المدينة مشوقة الى ان ترى اسقفها ينصرف
 الى العمل .

٢

مسيو ميريل يصبح مونسينيور* بينفينو

كان قصر الاسقف في مدينة د ... محاذياً للمستشفى : كان صرحاً رجباً
 جميلاً ، شيد من الحجارة ، في اوائل القرن الماضي صاحب السيادة هنري بوجيه
 - وكان دكتوراً في اللاهوت من جامعة باريس ، ورئيس دير سيمور - الذي
 غدا اسقف د ... في عام ١٧١٢ . كان ذلك القصر ، في الحق ، "نزلاً" أميرياً
 فخماً ، وكانت سيما الأبهة تغلب على كل شيء فيه : "حجرات الاسقف ، والاباء ،
 والغرف ، وقاعة الشرف - التي كانت رحبة جداً تحيط بها ردهات ذات اقواس
 رفعت على الطراز البندقي** العتيق - والحديقة الزاهية بضروب الاشجار الرائعة .
 وفي قاعة الطعام كان رواق طويل فخيم مستور مع سطح الارض ، منفتح
 على الحديقة . وكان صاحب السيادة هنري بوجيه قد اقام مأدبة كبرى ، في ٢٩
 تموز سنة ١٧١٤ ، لصاحب السيادة شارل بولاردو جيليز ، كبير اساقفة
 ايمرون ، وأنطوان دو ميسغرينسي الكبوشي ، أسقف غراس ، وفيليب دو

* او صاحب السيادة ، وهو اللقب الخاص بالاساقفة .

** أو : الفلورنسي .

فاندوم ، كبير رؤساء الاديار في فرنسا ، ورئيس دير سان اونورية دو ليرين ،
وفرانسوا دو برتون دو غريون ، رئيس اساقفة قنس ، وسيزار دو سايرا
دوفوركالكيبه ، رئيس اساقفة غلانديف ، وجان سوانسين ، كاهن كنيسة
الأوراتوار ، وواعظ الملك ، ورئيس اساقفة سينز . وكانت صور هؤلاء الرجال
السبعة الموقرين تزين القاعة ، وكان هذا اليوم التاريخي ، يوم ٢٩ تموز سنة ١٧١٤ ،
منقوشاً بأحرف من ذهب على لوحة رخامية بيضاء .

أما المستشفى فكان بناء منخفضاً ضيقاً ، ذا دور واحد ، وحديقة صغيرة .
وبعد ثلاثة ايام من وصول الاسقف الى المدينة ، زار المستشفى . حتى اذا
تمت الزيارة دعا المدير الى ان يفد عليه في قصره .

وقال لمدير المستشفى : « كم مريضاً عندك ، يا سيدي ؟ »

— « ستة وعشرون ، يا صاحب السيادة . »

فقال الاسقف : « أي كما عدّدتهم أنا . »

فتابع المدير : « ان اجنحة المستشفى تفصل بالسرور التي حشرت فيها
حشراً . »

— « لقد لاحظت ذلك . »

— « وليست الاجنحة غير غرف صغيرة ، غرف ليس في الامكان تهويتها

بسهولة . »

— « هذا ما يبدو لي . »

— « وفوق ذلك ، فعين تصل الشمس اشعتها الدافئة تضيق الجنيحة الصغيرة

بالناقيين . »

— « ذلك ما كنت افكر فيه . »

— « ومن الاوبة عرفنا التيفوس هذا العام . ومنذ سنتين كان عندنا الحمى

العسكرية ، وبلغ عدد مرضانا المئة . إننا لا ندري ما الذي ينبغي ان نصنعه . »

— « ذلك ما خطر لي تماماً . »

فقال مدير المستشفى : « اي شيء نستطيع أن نصنعه ، يا صاحب السيادة ؟ »

يجب ان نفوض أمرنا الى الله .

وانما دارت هذه المحادثة في قاعة الطعام من الدور الارضي .
وصمت الاسقف بضع لحظات . ثم التفت فجأة الى مدير المستشفى .
وقال : « كم سريراً تستطيع هذه القاعة وحدها ان تضم يا سيدي ؟ »
فصاح المدير مشدوهاً : « قاعة طعام صاحب السيادة ! »
وأجال الأسقف عينيه في القاعة ، وبدأ وكأنه يقيس طولها وعرضها
ويحسب .

وقال مخاطباً نفسه : « انها تتسع لعشرين سريراً . » ثم رفع صوته وقال :
« اسمع ، يا سيدي المدير ، الى ما سأقوله . إن هنا خطأ من غير شك . انتم ستة
وعشرون شخصاً تشغلون خمس غرف اوست غرف صغيرة . ونحن ثلاثة فقط ،
ومع ذلك فنحن نحتل مكاناً يتسع لستين . اقول لك ان هناك خطأ . انتم
نحتلون بيتي وانا احتل بيتكم . أعيدوا بيتي الي . وانزلوا هنا في هذا المكان ،
فهو لكم . »

وفي اليوم التالي 'نقل المرضى البائدون الستة والعشرون الى قصر الاسقف
وانتقل الاسقف الى المستشفى .

ولم يكن صاحب السيادة ميريل يملك ثروة " ما بعد أن دمرت الثورة أسرته .
كان لاخته ملك " تتصرف به طوال حياتها ولا يحق لها ان تنزل عنه لاحت ، ولكن
هذا الملك ما كان يعود عليها باكثر من خمسة فرنك ، كانت - قبل ان يغدو
أخوها اسقفاً - تسد نفقاتها الشخصية . حتى اذا رفع ميو ميريل الى مقام
الاسقفية تقاضى من الحكومة راتباً مقداره خمسة عشر الف فرنك . ويوم انتقل
الى بيته الجديد في بناية المستشفى اعتزم ان يقف هذا المبلغ ، مرةً الى الابد ،
على الاغراض التالية . وهما نحن اولاء ننقل ههنا هذا الثبت الذي كتبه هو
بخط يده .

ثبت بتنظيم نفقاتي المنزلية

- المعهد الاكاديمي الصغير الف وخمسة ليرة .
- رهبانية الارسالية مئة ليرة .
- لعاذاري مونديديه مئة ليرة .
- معهد الارساليات الاجنبية في باريس مئتا ليرة .
- رهبانية الروح القدس مئة وخمسون ليرة .
- المؤسسات الدينية في الارض المقدسة مئة ليرة .
- الجمعيات الخيرية التي ترعى الأمومة ثلاثئة ليرة .
- علاوة لجمعية آول المهنة بالامومة خمسون ليرة .
- لتحسين الاوضاع في السجون اربعئة ليرة .
- لاسعاف الجناء واطلاق سراحهم خمسة ليرة .
- لتحرير ارباب الأسر المسجونين بسبب الديون الف ليرة .
- علاوات على رواتب مدرسي الابرشية الفقراء ألفا ليرة .
- غزن الحبوب الشهي في مقاطعة الالب المليا مئة ليرة .
- جمعية سيدات د... ومانوسك وميسترون لتعليم الفتيات المهدات بالمجان، الف وخمسة ليرة .
- للفقراء مئة آلاف ليرة .
- نفقاتي الشخصية الف ليرة .
- المجموع خمسة عشر الف ليرة .

ولم يحدث مسيو ميريل ايما تغيير في هذه الحطة طوال المدة التي تولّى خلالها أسقفية د... كان يدعوها ، كما نرى ، « تنظيم نفقاته المنزلية » .

وتقبلت الآنة بابيتسين هذا التدبير في إذعان مطلق . فقد كان ميسو ميريبيل هو أخاها واسقفا في آن معاً ؛ كان صديقها برابطة الدم ، ورئيسها بحكم السلطة الاكليريكية . كانت تحبه وتحترمه في غير تكلف . فاذا ما تكلم ، أنصت ، واذا ما عمل منحه تعاونها . اما السيدة ماغلوار ، خادمتها ، فكانت تتدمر بعض الشيء . وكان الأسقف ، كما رأينا ، قد احتفظ لنفسه بألف فرنك ليس غير ، فاذا أضيف هذا المبلغ الى دخل الآنة بابيتسين أمسي ألفاً وخمسة فرنك سنوياً . وهذه الالف والخمسة فرنك تعين على هؤلاء المعجائر الثلاثة ان يعيشوا .

ومع ذلك فقد كان في ميسور الاسقف ان يحسن وفادة ائما كاهن من كهان القرى يَفِدُ على د ... وإنما يرجع الفضل في هذا الى اقتصاد السيدة ماغلوار الصارم ، وحسن تدبير الآنة بابيتسين .

وذات يوم - وكان قد انقضى نحو من ثلاثة اشهر على مقامه في د ... - قال الاسقف : « ومع هذا كله أجدني في ضائقة مالية شديدة . » فصاحت السيدة ماغلوار : « أنا اظن ذلك ايضاً . ان صاحب السعادة لم يطالب حكومة المقاطعة حتى بنفقات مركبته في البلدة ، ونفقاتها اثناء جولاته في الابرشية . لقد كان جميع الاساقفة السابقين يفيدون من هذه التخصصات . » فقال الاسقف : « اجل ! أنت على صواب ، ايها السيدة ماغلوار . » وطالب بحقه ذلك .

وبعد برهة اقرّ مجلس المقاطعة العام مطلب الاسقف ، وصوت على قرار بمنحه تعويضاً سنوياً مقداره ثلاثة آلاف فرنك تحت هذا العنوان : « تعويض للأسقف يسدّ به نفقات عربته ، ونفقات جولاته الرعائية في ارجاء الابرشية . » واثار ذلك بورجوازي البلدة اثاره بالغة . ولهذا المناسبة كتب احد شيوخ الامبراطورية - وكان من قبل عضواً في مجلس الخمسة * ، ومناصرأ لحركة

* Conseil des Cinq - Cents وكان يتألف من خمسة عضو ويشكل ، هو « مجلس القدماء » السلطة التشريعية وفقاً ل دستور السنة الثالثة من الجمهورية . وقد حلها نابوليون في ١٨ برومير .

١٨ برومير * ، وكان يُقيم الآن في مقرّه له فخم قرب د ... - كتب الى السيد بيغو بريامينو ، وزير العقائد ، رسالةً مهتاجة وسريّة تقتطف منها الفقرة التالية :

« نفقات عربية ! وما حاجته اليها في بلدة يقلّ عدد سكانها عن اربعة آلاف ؟ نفقات زيارات رعائيّة ! وايّ فائدة لهذه الزيارات ، في المحل الاول ؟ وفوق ذلك ، كيف السبيل الى التجوّل بمركبة البريد في هذه المنطقة الجبلية ؟ ليس ثمة طرق . وليس في ميسور المرء أن يقصد الى هناك إلا على صهوة الجواد . وحتى الجسر القائم فوق الـ « دورانس » عند شاتو آرنولا يكاد يحمل عربات الثيران إلا بشق النفس . ان هؤلاء الكهان هم هكذا دائماً : طمّاعون أشعاء . ولقد قام هذا الكاهن بدور الرسول الصالح بُعيد وصوله ؛ وها هو ذا الآن يسلك مسلك الآخرين . إنه يريد عربيةً وسركبةً أجرة . إنه ينتهي الترف مثل الاساقفة السابقين . اوه ! تبا لهذا الكهنوت كله ! سيدي الكونت ، إن الاحوال لن تغدو خيراً مما هي إلا اذا أنقذنا الامبراطور من كهّان المعكرونة هؤلاء ، فليسط البابا ! (كانت العلاقات قد ساءت مع رومة) أما من ناحيتي ، فأنا لقيصر وحده الخ . الخ . »

وسرّ الطلب الذي تقدّم به الاسقف الى مجلس المقاطعة العام السيدة ماغلوار ، من ناحية ثانية ، سروراً عظيماً فقالت للآنسة بابيتستين : « لقد استهلّ صاحب السيادة أعماله بالتفكير في الآخرين ؛ ولكنه وجد آخر الامر ان عليه ان ينتهي بالاهتمام بنفسه . لقد سوّى مهامه الحيوية كلها ، وها قد حصلنا على ثلاثة آلاف فرنك خالصة لنا ، في النهاية . »

* برومير Brumaire هو الشهر الثاني من التقويم الذي اصطنعه الجمهوريون بمبدأ الثورة الفرنسية ، وهو يقع ما بين ٢٣ تشرين الاول و ٢١ تشرين الثاني . اما يوم ١٨ برومير فهو اليوم الذي اطاح فيه نابوليون بوناپرت - اثر عودته من مصر - بحكومة الادارة يعاونه « فوشيه » و « سيس » واخوه لوسيان بوناپرت (٩ تشرين الثاني ١٧٩٩ ، في السنة الثامنة من الجمهورية .)

وفي الليلة نفسها كتب الاسقف مذكرة ضمتها الكلمات التالية وقدمها
الى شقيقته :

نفقات العربية والتجول

- لتقديم مرق اللحم الى مريضى المستشفى الف وخمسة ليرة
- لجمبة « ايكس » الخيرية المهتمة بالامومة مئتان وخمسون ليرة
- لجمبة « دراغوبنيان » الخيرية المهتمة بالامومة مئتان وخمسون ليرة
- للاطباء خمسة ليرة
- للتلاميذ خمسة ليرة
- المجموع ثلاثة آلاف فرنك

نلك كانت ميزانية الاسقف ميرويل .

اما دخل الاسقفية من إجازات الزواج ، والاعفاء من بعض أحكام الدين ،
والتعهد الخصوصي ، والعظات ، ومنح البركة للكنائس والمعابد ، وإجراء مراسيم
الزواج الخ . فكان الاسقف يجمعه من الاغنياء بمثل الضبط والدقة اللذين كانت
يوزعهما على الفقراء .

وما هي الا برهة حتى تدفقت التقدّمات والهبات . وشرع الاغنياء والفقراء
يقرعون باب الاسقف ؛ كان بعضهم يُقبل ليقدّم الصدقات ، وكان بعضهم الآخر
يُقبل ليفوز بها . وفي اقل من سنة غدا الاسقف خازناً لفاعلي الخير جميعاً ،
وما نحتاجاً للحتاجين جميعاً . لقد مرت بين يديه مبالغ من المال ضخمة . ومع
ذلك ، فلم يغير قط طريقته في الحياة ، ولم يُضِف اقل الترف الى الكفاف الذي
يحيا عليه .

على العكس . فما دام في الطبقات الدنيا دائماً فقراً يزيد على ما عند الطبقات
العليا من إنسانية ، فقد كان كل ما يُقدّم يوزّع ، اذا جاز التعبير ، قبل ان

‘بِسْتَلَمَ ، لكأنه الماء فوق ارض عطشى . وكان من الخير ان يتدفق المال عليه ، لانه ما كان يحتفظ بشيء منه . والى هذا ، فقد كان يجرم نفسه ويسلبها .
واذ كان العرف يقضي بأن يتوج جميع الاساقفة اوامرهم ورسائلهم الرعائية باسماء معموديتهم فقد اختار اهل المنطقة الفقراء من بين اسماء الاسقف – بدافع من ضرب من الغريزة الودود – ذلك الاسم الذي كان اقوى عندهم دلالةً ، فهم ينادونه دائماً ، مونسينيور بينفينو . * ولسوف نقف في اثرهم ونسبته هكذا منذ اليوم . والى هذا ، فقد كان ذلك الصنيع يوقع الجبور في قلبه ، فهو يقول : « إني احب هذا الاسم . إن « بينفينو » تصحح « مونسينيور » وتوازنها . »
ونحن لا نزع ان الصورة التي نرسمها هنا صورة حقيقة . إن في ميسورنا ان نقول إنها تشبهه ، ليس غير .

٣

اسقف صالح - اسقفية جافية

ولم ينقطع الاسقف ، بعد ان حوّل عربته الى صدقات ، عن القيام بجولاته الرعائية النظامية ولم يطفئها ؛ ولقد كان ذلك الصنيع ، في أبرشية د... ، عملاً مرفقاً . كانت الاراضي السهلية قليلة جداً ، وكانت المرتفعات الجبلية كثيرة جداً ، ولم يكن ثمة طرق ، تقريباً ، من غير شك . كان في الابرشية اثنان وثلاثون مركزاً كهنوتياً ، واحد واربعون نيابة اسقفية ، ومثتان وخمسة وثمانون مركزاً كهنوتياً فرعياً . وكان في زيارة هذه المواطن كلها نصيب بالغ ، ولكن الاسقف نهض بهذا العبء الثقيل . كان يمشي على قدميه حين يكون المكان الذي يقصد اليه مجاوراً ، ويصطنع عربة صغيرة حقيرة ذات عجلتين ومظلة ، في السهل ، على حين يصطنع في الجبال سلة مزدوجة ملقاة على متن احد

* Bienvenu وتفيد معنى « الفائز بمن القبول . »

البغال . وكانت المرأتان المعجوزان ترافقانه عادة . فاذا اتفق ان كانت الرحلة شاقة اكثر مما ينبغي فعندئذ كان يمضي منفرداً .

وذات يوم بلغ سينيز ، وكانت من قبل مركز اسقفية ، بمنطياً حماراً . كان كيس دراهمه فارغاً جداً في ذلك الحين ، فهو لا يمكنه من اصطناع وسيلة افضل ، من وسائل النقل . وخرج عمدة المدينة لاستقباله عند باب المقر الاسقي ، فلم يكدر يري اليه يترجل عن حماره حتى اخذه الدهش المنطوي على الحية . وضعك بعض البورجوازيين من حوله . فقال الاسقف : « سيدي العمدة ، سادتي البورجوازيين . انا ادري ما الذي يحملكم على الدهش . انكم تعتقدون ان من الغرور البالغ ان يركب كاهن مسكين المطية عينها التي ركبها يسوع المسيح . فانا اؤكد لكم اني اتخذتها بحكم الضرورة ، لا زهواً وعجباً . »

وكان في جولاته تلك سمحاً سهل الخليفة ، وكان يعظ أقل مما يتحدث . ولم يكن يضع أيما فضيلة في طبق لا سبيل الى بلوغه ؛ او يورد أسباباً وأمثلة "متكلفة" غير مألوفة . كان يجعل من منطقة ما مثلاً يضربه لأبناء منطقة اخرى مجاورة . ففي الاقضية التي يُعامل فيها المعوزون بقسوة كان يقول : « انظروا الى أبناء بريانسون . لقد منحوا الفقراء والارامل واليتامى الحق في ان يحصلوا مروجهم قبل ثلاثة ايام من سائر القوم . واذا ما خربت بيوت اولئك البائسين جدّدوا بناءها لهم من غير ان يتقاضوا منهم فلساً . وهكذا فهي ارض باركها الرب . وطوال قرن كامل من الزمان لم تعرف تلك الديار قاتلاً واحداً . »

وفي القرى التي تعصف شهوة الربيع بسكانها في ايام الحصاد ، كان يقول : « انظروا الى إيمبرون . اذا ادرك موسم الحصاد رب أسرة فيها بعد ان التحق اولاده بالجيش واستغلت بناته في المدينة ، وكان هو مريضاً ، اوصى به الكاهن في مواعظه ، فما إن تطلع شمس الاحد ، وينتهي القداس ، حتى يندفع سكات القرية كلهم ، رجالاً ونساء واطفالاً ، نحو حقول الرجل البائس ، ويحصلونه ، ويحملوا التبن والحنطة الى مخزن حبوبه . » وللأسر المتنازعة على مسائل الملك والأرث كان يقول : « انظروا الى جبلي ديفولني ، وهو اقليم موحد

الى درجة تجعل العندليب لا يُسمع في ارجائه مرة كل خمسين عاماً . حين يموت ربّ الاسرة في تلك الديار ينطلق اولاده الذكور ساعين في طلب الرزق ، ويتروكون ممتلكاته للبنات لكي يكون في ميسورهن أن يَفْزَنَ بأزواج . « وفي تلك الاقضية المولع اهلها بالدعوى القضائية ، حيث يشتري المزارعون الحراب والافلاس بالاوراق المثقلة بالطوابع كان يقول : « انظروا الى فلاحى وادي كيراس . إن عددهم لا يتجاوز الثلاثة الآلاف . يا الهي ، لكنهم يعيشون في جمهرية صغيرة ! إنهم لا يعرفون لا القاضي ولا حاجب المحكمة . والعمدة هناك ينهض بجميع الأعباء . إنه يقيط الحراج ، ويفرض الضريبة على كلِّ وفقاً لما يحكم به الضير ، ويقضي في المنازعات بالجمان ، ويقسم التركات بينهم من غير أجر ، ويصدر الاحكام من غير ان يتقاضى رسوماً ، وهم يطيعونه لانه رجل عادل بين رجال بسطاء . « وفي القرى التي يعوزها المدرسون كانت يضرب مثل وادي كيراس ايضاً ، فيقول : « اتدرون ماذا يفعلون ؟ لما كانت المنطقة الصغيرة المؤلفة من اثني عشر بيتاً أو خمسة عشر بيتاً لا تقوى دائماً على النهوض بنفقة مدرّس فان اهل الوادي جميعاً يتعاونون على دفع رواتب المعلمين ، فينتقل هؤلاء من قرية الى قرية ، مُنْفقين اسبوعاً هنا ، وعشرة ايام هناك ، حيث يدرّسون الناشئة . وكان هؤلاء المعلمون يشهدون الاسراق العامة ، حيث رأيتهم بعيني . وهم يُعرفون بربش الكتابة الذي يعلّقونه بعصائب قبعاتهم . فأما الذين يعلّمون القراءة وحسب فيحملون ريشة واحدة ، وأما الذين يعلّمون القراءة والحساب فيحملون ريشتين اثنتين . وأما الذين يعلّمون القراءة والحساب واللاتينية فيحملون ثلاث أرياش . وكان ذوو الارياش الثلاث هؤلاء علماء كباراً . ولكن ما أشنع العار الذي يلحقه الجهل بالمرء ! اعملوا مثل ابناء كيراس ! »

هكذا كان يتكلم ، في وقار وجرس أبويّ . واذا ما عديم الامثلة اخترع القصص الرمزية ، مقتحماً موضوعه افتحاماً مباشراً ، في عبارات قليلة ، وصور كثيرة . وهل كانت بلاغة يسوع المسيح المقنعة المفعمّة شيئاً غير ذلك ؟

الاعمال تتكافأ مع الاقوال

كان حديثه أنيساً عذباً . لقد كيف نفسه وفقاً لمدارك العجوزين اللتين تعيشان معه . وإذا ما ضحك كان ضحكه أشبه بضحك تلميذ من التلاميذ .

وكانت السيدة ماغلوار تخاطبه ، عادة ، بقولها « يا صاحب العظيمة ! » وذات يوم نهض عن كرسيه ذي الذراعين ومضى الى مكتبته التماساً لكتاب ما . وكان ذلك الكتاب على احد الرفوف العالية . وإذا كان الاسقف أميل الى القصر فقد عجز عن ان يبلغه . فقال : « أيتها السيدة ماغلوار . ايتيني بكروسي . ان عظمتي لا تقف الى هذا الرف ! »

وكانت الكونتس دولو ، وهي سيدة يربطها به نسب غير قريب ، نادراً ما تدع الفرصة تمر من غير ان تعدد في حضرته ما دعت « آمال » ابناتها الثلاثة . ذلك بأنه كان لها عدة أنساب بلغوا من السن مبلغاً عالياً وغدوا على شفا الموت : انساب كان اولادها هم وارثهم الشرعيين . فاما اصغر الثلاثة فكان مقدراً له ان يفوز من عمه ابيه بدخل سنوي مقداره مئة الف ليرة . واما ثانيهم فكان مقدراً له ان يرث لقب « دوق » من عمه . واما اكبرهم سناً فسوف يرث رتبة الامارة الاقطاعية من جده . وكان من دأب الاسقف ان يسمع في صمت لهذا التباهي الأمومي البريء الجدير به ان يُغتفر . بيد انه بدا ، ذات يوم ، اشد استرسالاً في التفكير الخالم منه في اياما وقت سلف ، وكانت السيدة دولو تميد تفصيل هذه الموارث جميعاً ، وهذه « الآمال » جميعاً . فما كان منها الا ان كفت عن الكلام ، فجأة ، وصاحت في شيء من البرم ونفاد الصبر : « يا الهي ! ولكن ما الذي تفكر فيه ، يا ابن العم ؟ » فأجابها الاسقف : « اني افكر في شيء غريب ورد في ما اعتقد عند القديس اوغسطين : « ضعوا آمالكم في ذلك الذي لن يورث ابداً ! »

وفي مناسبة اخرى تلقى نعي شريف من اشراف البلاد أدرجت فيه لائحة

طويلة لم تنتظم رتب الفقيد فحسب بل القاب أنسابه، جميع أنسابه، الاقطاعية. فصاح : « ما اقوى ظهر الموت ! ايّ حمل رائع من الالقاب سوف يحمله في ابتهاج ! وما اعظم الظرف الذي ينبغي ان يتحلى به الانسان حتى يتخذ من شاهد القبر وسيلة لاشباع غروره ! »

وكان يرسل بين الفينة والفينة بعض السخرات العذبة المنطوية دائماً ، تقريباً ، على فكرة جدية . وذات يوم ، في اثناء الصوم الكبير ، وفد نائب اسقف شاب على د... وألقى عظة في الكاتدرائية . كان على جانب من الفصاحة غير يسير . وكان موضوع عظته الاحسان . لقد دعا الاغنياء الى ان يجودوا بالصدقات على الفقراء اذا ما رغبوا في اجتناب عذاب السعير ، الذي صورّه تصويراً مروّعاً الى ابعد الحدود ، وبالفوز بالجنة التي صورّها بهجة فاتنة . وكان بين المصلين تاجر غني متقاعد ، انصرف الى الاشتغال بالربا بعض الشيء ، يدعى السيد جيبوران ، وكان قد جمع نصف مليون ليرة من صنع الجوخ ، والنسيج الصوفي الغليظ ، والاقمشة الصوفية الضيقة الخفيفة ، والطرايش الفرنسية . ولم يتصدق السيد جيبوران ، طوال حياته ، بشيء ما ، على فقير بانس . ولكن الناس لاحظوا ، بعد هذه العظة ، انه شرع يعطي كل يوم احد ، على نحو مطّرد ، جزءاً من عشرين من الفرنك للشحاذات المعجّزات عند باب الكاتدرائية . وكانت عددهن ستاً يُفترض فيهن ان يتوزعن هذه الفلوس القليلة في ما بينهن . واتفق ان رآه الاسقف ، ذات يوم ، يجود بصدقته هذه ، فابتسم وقال لاخته : « ها هو السيد جيبوران يشتري من الجنة ما قيمته جزء من عشرين من الفرنك ! »

وكان اذا التمس العون لعمل خيريّ ما لا يثنيه الرفض ولا يشبط همته . وما كانت الكلمات التي تحمل السامعين على التفكير لتعوزه بحال . كان يجمع الصدقات للفقراء ، ذات يوم ، في أحد أحياء المدينة . وكان في ذلك البهو المركزي دو سانتيرسييه ، وهو ثريّ عجوز شديد الشح ، اكتشف البيل الى ان يكون ملكياً متطرفاً وفولتيرياً متطرفاً في آن معاً . ولم يكن هو المثل الاوحد لهذه

الفئة من الرجال ، في ذلك العهد . فما ان انتهى الاسقف اليه ، حتى مسّ ذراعه وقال : « يا حضرة الماركيز ، ينبغي ان تعطيني شيئاً . » فالتفت اليه الماركيز وقال في جفاف : « مونسينيور ، إن عندي فقراي . » فقال الاسقف : « أعطني إياهم . »

وذات يوم ألقى هذه العظة في الكاتدرائية :

« اخوتي الاثريين عليّ ، واصدقائي الطيبين ! إن في فرنسة مليوناً وثلاثمائة وعشرين ألفاً من أكواخ الفلاحين ليس لها غير ثلاث فتحات ، ومليوناً وثمانمائة وسبعة عشر ألف كوخ لها فتحتان : الباب ونافذة واحدة ، واخيراً ثلاثمائة وستة واربعين ألف كوخ ليس لها غير فتحة واحدة : الباب . وما ذاك إلا نتيجة لما يدعونه الضريبة على الابواب والنوافذ . وفي هذه الاسر الفقيرة ، بين النسوة العجائز والاطفال الصغار الساكنين في هذه الأكواخ ، ليس أكثر من الحيات والامراض ! وأأسفاه ! إن الله يعطي النور للناس ثم يأتي القانون فيبيعه . أنا لا ألوم القانون ، ولكنني أبارك الله . فقي إيزير ، وفي قار ، وفي اقليسي الألب الاعلى والادنى ليس عند الفلاحين حتى العجلات الصغيرة ذات الدولاب الواحد فهم ينقلون الزبل على ظهورهم ، وليس عندهم شموع فهم يشعلون اكواز الصنوبر وقطعاً من الجبال مغموسة بصمغ البطم . والشيء نفسه يصحّ في الجزء الاعلى من دوفينييه برومته . إنهم يعجنون الدقيق مرة كل سنة اشهر ، ويخبزونه على زبل البقر الجاف . وفي الشتاء يتصلب هذا الخبز الى درجة نحلهم على ان يكسّروه بالفأس ، وينقعوه بالماء ، اربعاً وعشرين ساعة لكي يصبح في ميسورهم ان يأكلوه . ايها الاخوة ، كونوا رحماء ! انظروا كم يقاسي الناس من حولكم ! »

واذ كان من مواليد بروفانس فقد ألف في يسر جميع لهجات الجنوب ، من مثل لهجة لانغدوك السفلى ، ولهجة منطقة الالب الدنيا ، ودوفينييه العليا . وكان هذا يبهج الناس كثيراً ، ويمهد له السبيل الى اقتداتهم . كان يشعر في الكوخ والجليل وكأنه في بيته . وكان يعرف كيف يقول أرفع الاشياء في تعابير عامية

الى ابعد الحدود . واذ كان يتكلم اللهجات كلها ، فقد نَفَذَ الى النفوس كلها .
والى هذا فقد كان مسلكه مع الاغنياء هو عين مسلكه مع الفقراء .
لانه لم يشجب شيئاً من غير روية ، ومن غير ان يأخذ بعين الاعتبار مختلف
الظروف والملابسات . وكان من دأبه ان يقول : « لننظر اى طريق سلكه »
الذنب او الخطأ .

واذ كان - كما وصف نفسه وهو يتسم - آثماً سابقاً فلم يكن على شيء من
وعورة المتزمتين . وكان يعلن في كثير من الجراة - حتى تحت ابصار المتعصين
الشرسين المغضبة - مذهباً يمكن ان يُصاغ في الكلمات التالية تقريباً : -
« إن للانسان جسداً هو عبء عليه وأداة إغواء له في آنٍ معاً . إنه يجره
حيثما ذهب ، ويدعنه له .

» يجب على الانسان ان يراقب ذلك الجسد ، ويكبح جماحه ، ويكبته ،
ولا يطيعه إلا في اقصى حالات الضك والشدة . وقد يكون من الآثم ان يطيع
المرء جسده حتى في تلك الحال ، ولكنه يكون عندئذٍ ثمناً عَرَضياً وخطيئة غير
مبينة . إنه سقوط ، ولكنه سقوط على الركبتين قد ينتهي بصاحبه الى الصلاة .
« إن كون المرء قديساً هو الشذوذ . وإن كونه مستقيماً هو القاعدة . هم
على وجهك ، وتردّد ، والآثم ، ولكن كن مستقيماً .

» إن اعتراف اقل قدر ممكن من الآثام هو القانون البشري . اما الحياة
من غير إثم فحلّم ملاك من الملائكة . وكل ما هو أرضي عرضة للآثم . ان الآثم
ضرب من الجاذبية .

وكان اذا ما سمع الناس جميعاً يصيحون ويعبثون عن اعظم الخط يتسم
قائلاً : « اوه ! اوه ! يبدو ان هذه جريمة ضخمة اقترفها الناس جميعاً . عجباً للرياء
المروّع كيف يسارع الى الدفاع عن نفسه ، والاختفاء تحت أيما حجاب ! »
كان سمحاً مع النساء ، ومع الفقراء الذين تقع على عاتقهم اكثر من غيرهم ،
أثقال المجتمع البشري . وكان يقول : « إن خطيئات النساء ، والاطفال ،
والخدم ، والضعفاء ، والفقراء ، والجهلة هي خطيئات ازواجهن ، وآبائهم ،

وأسيادهم ، وخطيئات الاقوياء ، والاغنياء ، والعلماء . »

ويقول : « علّم الجاهل ما وسعك التعليم . إن المجتمع ليُجرّم حين لا يزود كل امرئ بالعلم المجاني . انه لمؤول عن الظلام الذي يحدّثه . وحين تُترك النفس في الظلام ، فعندئذ تُفتَرَفُ الآثام . والمجرم ليس ذلك الذي يقترف الآثم ، ولكنه ذلك الذي يُحدث الظلام . »

وهكذا نرى أنه كانت له طريقة غريبة وخصوصية في النظر الى الاشياء . وأحسب انه اكتسب طريقته تلك من الانجيل .

سمع ذات مرة ، في احد الصالونات ، حديثاً عن قضية جنائية كانت المحكمة على وشك النظر فيها . وتتلخص هذه القضية في ان رجلاً بائساً اغراه حبه لاحدى النساء وللولد الذي انجبته له ، بأن يعيد الى تَريف النقد بعد ان نضبت موارده وسُدّت في وجهه اسباب العيش . وكان الموت لا يزال هو عقابَ المزيّف في ذلك العهد . والقي القبض على المرأة وهي تروّج اول قطعة نقدية زبّتها الرجل . وزُجّ بها في غياهب السجن ، ولكن لم يكن ثمة أيما دليل ضد عشيقها . كانت هي وحدها القادرة على ان تشهد عليه ، وان تدينه باعترافها . وأنكرت ان يكون هو المجرم . وأصرّوا . ولكنها كانت عنيدة في إنكارها . وعندئذ خُطرت للنائب العام الملكيّ فكرة . لقد صوّرها ان صاحبها غير مخلص لها ؛ ومن طريق بضعة اجزاء من رسائل ضمّ بعضها الى بعض في براعة وفُتق الى ان يُقنع المرأة المسكينة بأن لها منافسةً ، وأن هذا الرجل قد خدعها . حتى اذا عصفت بها الفيرة ، وشت بعشيقها ، واعترفت بكل شيء ، مقيمةً الدليل على إجرامه . وكان متوقعاً ان يحاكم في إنكس ، بعد بضعة أيام ، مع شريكته في الجريمة ، وكانت إدانته مؤكدة . ولم يكد القوم يستمعون الى القصة حتى أخذهم الذهول لبراعة النائب العام . إن أعماله الفيرة مكّنه من ان يكشف عن الحقيقة من طريق الغضب ، وبذلك انبجست العدالة من الانتقام . وأصاخ الاسقف الى ذلك كله في صمت حتى إذا سكت القوم تساءل :

— « ابن سيخاكم هذا الرجل وهذه المرأة ؟ »

— « في محكمة الجنايات . »

— « والنائب العام الملكي ، ابن سيعا كم ؟ »

ووقعت في د حادثة فاجعة . لقد صدر الحكم على رجلٍ بالموت لاقترافه جريمة القتل . وكان ذلك المسكين على ثقافة هزيلة ، ولكنه لم يكن جاهلاً بالكلية . كان يسلي الناس ببعض ألعاب القوة والرشاقة في الاسواق الموسمية ، ويعمل كاتباً عموماً . واستأثرت المحاكمة باهتمام اهل المدينة . وقبل اربع وعشرين ساعة من الموعد المضروب لأنفاذ حكم الموت في الرجل مريضاً واعظ السجن . فنشأت الحاجة الى رجل دين يرافق السجين في لحظاته الاخيرة . واستدعي الكاهن ، ولكنه رفض ان يذهب قائلاً : « هذا أمر لا علاقة لي به . وما صلي بهذه السُّخرة ، أو بذاك المشعوذ ؟ والى هذا ، فانا مريض ايضاً . وفوق ذلك كله ، فليس ذاك المكان مكاني . » وحين تُنقل هذا الجواب الى الاسقف قال : « إن الكاهن على صواب . ذلك المكان ليس مكانه . إنه مكاني ! »

ومضى ، لتوّه ، الى السجن ، وهبط الى محبس « المشعوذ » المظلم وناداه باسمه ، وأمسك بيده ، وانشأ محادثته . لقد قضى الى جانبه النهار كله ، والليل كله ، ناسياً الطعام والرقاد ، مصلياً الى الله من اجل روح الرجل المحكوم عليه بالموت ، حاضاً هذا الرجل على ان يشاركه في الصلاة . لقد حدثه حديث الحقائق الفضلى ، التي هي اكثر الحقائق بساطة . كان أباً ، وائخاً ، وصديقاً ، ولم يكن أسقفاً إلا لكي يباركه وحسب . لقد علمته كل شيء ، بأن شجعه وأوقع العزاء في قلبه . ذلك بأن هذا الرجل كان على وشك ان يموت يائساً . فقد كان الموت ، في نظره ، أشبه بهاوية . واذا وقف مرتعد الاوصال أمام هذه العتبة المروعة ، ارتدّ الى الوراء وقد عصف به عاصف من الذعر . انه لم يكن جاهلاً الى درجة تسلمه بلامبالاة مطلقة . وكانت الصدمة الفظيعة التي اصيب بها إثر صدور الحكم عليه بالموت قد مزّقت بمعنى من المعاني ، ههنا وههناك ، ذلك الحاجز الذي يفصلنا عن سر الاشياء ، والذي ندعوه الحياة . ومن خلال تلك الثغرات المشؤومة

راح ينظر الى ما وراء هذا العالم نظراً موصولاً فلم يوفق الى رؤية شيء غير
الظلام . لقد أراه الاسقف النور .

وفي اليوم التالي ، حين وفدوا ليستاقوا الرجل البائس الى الموت ، كانت
الاسقف هناك . ومضى في اثره . وبرز امام أعين الحشد بردائه البنفسجي القصير
الذي يغطي الصدر ، والصليب الاسقفي بطوق جيده ، ووقف جنباً الى جنب
مع ذلك المخلوق البائس الموثق بالحبال .

وامتطى العربة معه ، وصعد الى المشنقة معه . فاذا برجه الرجل الذي كان
مكفهرأ مذعوراً في المساء يندو الآن مشرقاً بالامل . لقد أحسّ بأن نفسه قد
أرضيت ، وهو عظيم الرجاء بالله . وعانقه الاسقف ؛ وفي اللحظة التي اوشت
فيها السكين ان تحترق عنقه قال له : « ان النفس التي يزعمها الانسان يعيدها الله
الى الحياة . ومن يطرده إخوته يمجده الله أمامه . صلّ ، آمن ، أدخل الى الحياة !
ان الربّ هناك ! » وحين غادر المشنقة كان في سيا وجهه ما جعل الناس يرتدون
الى الوراء . ومن العسير ان نقول أيها كان اروع : شعوبه ام طمأنينته . حتى
اذا دخل المنزل المتواضع الذي كان يسميه ، وهو يتسم ، قصره قال لأخته :
« كنت احتفل بقداس حبري ! »

واذ كانت الاشياء الاكثر سموأ هي في الوقت نفسه الاشياء التي تخطى من
الناس بأقل الفهم ، فقد وُجد في المدينة من يقول تعليقاً على ملك الاسقف
هذا : « ذلك تصنع . » ولكن مثل هذه الافكار كانت مقصورة على الطبقات
العليا . اما أبناء الشعب الذين لا يبحثون عن الدوافع الخبيثة في الاعمال الدينية
فقد قابلوا ذلك باعجاب وإشفاق .

وأما الاسقف فقد أوقع مشهد المقصلة صدمة في نفسه لم ينجُ من آثارها إلا
بعد فترة طويلة .

والحق ان للمشنقة حين تُعدّ وتُنصب أثرأ في النفس كأثر الهلوسة أو الوهم .
فقد لا نبالي بعقوبة الموت كثيراً او قليلاً ، وقد لا نعلن عن رأينا قائلين نعم أو
لا ، ما دمنا لا نشهد مقصلة ما بأعيننا . ولكن ما إن نرى الى واحدة حتى

تعصف بنا صدمة هي من العنف بحيث نحملنا على ان نقرر وننخذ موقفاً إما مع تلك العقوبة وإما ضدها . ان بعض الناس ، مثل دوميترو* ، ليستدحونها ، وان بعضهم ، مثل بيكاريا** ، ليشجبونها . إن المقصلة هي تختل القانون ، وهي تدعى المنتفعة . انها غير حيادية ، ولا تسمح لك بأن تظل حيادياً . وكل امريء يراها يُزَلْزَلُ بارتجافات ليس اعجب منها ولا اسدً غوضاً . ان جميع القضايا الاجتماعية لتطرح علامات استفهامها حول هذه الفأس . المشقة خيال . المشقة ليست مجرد هيكل منجور ؛ المشقة ليست ما كينة ؛ المشقة ليست آلة ميكانيكية جامدة لا حياة فيها ، مصنوعة من خشب ، ومن حديد ، ومن حبال . انها تبدو كائناتاً من نوع ما ، ذا اصل مظلم لا نعرف عنه شيئاً ؛ وفي ميسور المرء ان يقول ان هذا الهيكل المنجور يرى ، ان هذه الماكينة تسمع ، ان هذه الآلة الميكانيكية تفهم ، ان لهذا الخشب ، ولهذا الحديد ، ولهذا الجبال ، ارادة . وفي الهواجس المروعة التي يقذف مشهدها بالنفس الانسانية الى خضتها ، تبدو المشقة فظيعة ، وتمرّجة بضيقها الرهيب . المشقة شريكة الجلاد في الاثم . انها تقترب ؛ انها تأكل اللحم ؛ انها تشرب الدم . المشقة غول من ضرب ما ، يصنعه القاضي والنجار . انها شبح يبدو وكأنه يحيا بضرب من الحياة راعب ، متمدد من كل الموت الذي سببته .

وكانت الانطباعة خفيفة وعميقة ايضاً . ففي صبيحة الاعداد ، وطوال عدة ايام بعدها ، بدا الاسقف مفتتاً واهناً . كانت الطمأنينة المرسكة ان تكون عنيفة ، والتي طفت على حياه في اللحظة المشؤومة ، قد زابلته ، ليستبد به منذ ذلك الحين طيف العدالة الاجتماعية . لقد أمسى - وهو الذي كان يلتفت في العادة الى جميع أعماله في رضا بالغ الاشراق - امسى الآن موضوع توبيخ ذاتي .

* de Maistre مفكر فرنسي (١٧٥٣ - ١٨٢١) وضع عدة مؤلفات في القضايا الدينية والسياسية ، مدافعا عن مبادئ الحكم المطلق ، مناهضا الثورة الفرنسية .

** César de Beccaria فيلسوف ايطالي (١٧٣٨ - ١٧٩٤) ، وضع مؤلفاً شهيراً في الجرائم والعقوبات شجب فيه الحاكم السرية ، وتمذيب المتهمين ، وعدم تساوي العقوبات بين شخص وشخص ، ووحشية العقوبات .

وانشأ بمخاطب نفسه بين الفينة والفينة ، ويتم في هـس بمناجاة ذاتية فاجعة .
وذات مساء سمعته اخته ، اتفاقاً ، وهو بمخاطب نفسه فالتقطت قوله : « انا لم
أعتقد انها ستكون فظيعة الى هذا الحد . من الخط ان يستغرق المرء في القانون
الديني الى دوجة فجعله يعنى عن القانون الانساني . ان الموت ملك الله وحده .
فبأي حق يمس الناس هذا الشيء المجهول ؟ »

ومع الايام ، تخبّت هذه الانطباعات ، ولعلها ان تكون انمعت . ومع
ذلك ، فقد لوحظ ان الاسقف اجتنب ، منذ ذلك الحين ، المرور بساحة
الاعدام .

كان في ميسور القوم ان يدعوا مونسنيور ميوبيل ، في اياما ساعة من
الساعات ، الى سرور المرضى والمختضرين . كان يعرف جيداً ان واجبه الاسمي
وعمله الاعظم هما ، في الحق ، هناك . ولم تكن الأسر المرملة او الميئسة في
حاجة الى أن تدعوه لزيارتها . كان هو يعطي اليها بنفسه . كان يعرف كيف يجلس
صامتاً ، طوال ساعات وساعات ، الى جانب الرجل الذي فقد الزوجة التي
يحب ، او الى جانب الأم التي احتسبت ولدها . وكما عرف متى ينبغي له ان
يصمت ، كذلك عرف متى ينبغي له ان يتكلم . ليه ، ايها المعزّي الرائع ! لانه ما
كان يعنى الى محو الالم بالنسيان ، بل الى تعظيمه وتثريته بالأمل . فهو
يقول : « احترس من الطريقة التي تفكر فيها بالأموال . لا تفكر بالذي بيلي
وفسد . أنظر ملياً ، تجد الاشراق الحي الذي كان لفقيدك الاثير على قلبك في
اعماق السماء . » كان يعرف ان الأيمان صحي . وكان يسعى الى ان ينصح الرجل
القائظ ويوقع الهدوء في نفسه بان يوبه الرجل الراضي بمشيئة الله ، ويعمل على
ان ينجي المساكين من الالم الذي يحدق الى القبر ، بان يوجه الالم الذي يحدق
الى النجم .

كيف جعل مونسنيور بينفينو ثوبه الكهنوتي يعمر طويلاً

كانت حياة مسيو ميريل الخاصة حافلة بمثل الافكار المألوفة حياته العامة .
والواقع ان الفقر الاختياري الذي عاش في غمرته اسقف .. خليق به
ان يكون مشهداً خطيراً بقدر ما هو فاتن ، في نظر من استطاع ان يرى
اليه عن كثب .

ومثل جميع الشيوخ ، ومثل معظم المفكرين ، لم يكن ينام الا عراً .
ولكن نومه القصير ذاك كان عميقاً . كان يقضي ساعة من ساعات الصباح في
التأمل ، ليتلو بعد ذلك قداسه ، سواء في الكاتدرائية او في منزله هو . حتى اذا
تم له ذلك أفطر على خبز الجاودار مغموساً في حليب بقراته ؛ وانصرف الى
العمل .

والاساقفة رجال مشغولون جداً . إن على الواحد منهم ان يستقبل كل
يوم أمين الابرشية ، وهو عادة كاهن قانوني ، وان يستقبل وكلاء الكبار
كل يوم تقريباً . ان ثمة أخويات يتعين عليه ان يديرها ، وإجازات يجب ان
يمنحها ، وكتباً اكليركية كثيرة ينبغي له ان ينظر فيها قبل ان تباع - بعضها
كتب صلوات ، وبعضها كتب في التعليم المسيحي لآباء الابرشية ، وبعضها
كتب في أقسام الفرض الكنائسي - ورسائل رعائية يجب ان يكتبها ،
وعظات ينبغي ان تُجاز ، وكهناً ومُهداً يتعين عليه أن يصلح ما بينهم ،
ومراسلات اكليركية ، ومراسلات ادارية - مع الحكومة من ناحية ، ومع
السدة الرسولية من ناحية اخرى - وآلافاً من المائل .

فاذا ما تركت له هذه المائل كلها وقداماته الاحتفالية وكتاب فرض
الكهنة فراغاً ما ، قدّمه قبل كل شيء الى المعوزين ، والمرضى ، والمكرويين .

فاذا ترك له المكروبون والمرضى والمعوزون بقية من ذلك الفراغ أنفقه في العمل . كان يعزق الارض في حديقته احياناً ، وكان يقرأ ويكتب احياناً . ولم تكن عنده غير كلمة واحدة لهذين الضريين من العمل . كان يدعوهما « بستنة » . وكان يقول : « الروح بستان » .

وبعيد الظهيرة ، من ايام الصحو ، كان ينطلق من منزله فيتمشى في الحقول ، او في المدينة ، طارفاً في كثير من الاحيان ابواب الاكواخ والمساكن الحقيرة . كان الناس كثيراً ما يرونه يمشي وحده متناقلاً ، مستغرقاً في افكاره ، مطرق الرأس ، متوكئاً على عصاه الطويلة ، مرتدياً بُردَ الشتوي البنفسجي ، المبطن الكثير الدفء ، وجوربه البنفسجي ، وحذاءه الثقيل ، وقبعته المسطحة التي تدلت من زواياها الثلاث ثلاثة ازرار ذهبية على شكل بزور نبات الاسباخ .

كانت الفرحة تحلّ حيناً بزز . وفي ميسور المرء ان يقول انه كان يوزع الدفء والضياء في طريقه . فقد كان الشيوخ والاطفال يخرجون الى عتبات بيوتهم التماساً للاسقف كما يخرجون اليها التماساً للشمس . كانت يبارك الناس ، فيباركه الناس بدورهم . وكان اصحاب الحاجات كلهم يُرشدون الى بيته .

وبين الفينة والفينة ، كان يقف ويتحدث الى الصبية والصبايا ، ويتسم لاهتمامهم . كان يزور الفقراء حين تكون جيوبه مملأى بالمال . اما حين تفرغ فكان يزور الاغنياء .

واذ قد اُطال في عمر ثوبه الكهنوتي دهرآ لبس بالقصير ، وما كان ليروغب في ان يراه الناس على جسده ، فانه لم يقصد الى المدينة قط الا ببرد البنفسجي المبطن . وكان ذلك يضايقه بعض الشيء ، في الصيف .

حتى اذا عاد ، تناول طعام الغداء . وكان غداؤه مثل فطوره ، سواء بسواء . وفي الساعة الثامنة والنصف مساء كان يتعشى مع اخته ، وقد وقفت السيدة ماغلوار خلفهما ، في انتظار القيام بأيما خدمة يسألانها اياها . وليس في ميسور شيء ان يكون اكثر نقشاً من هذا العشاء وأمعن في الزهد . اما حين يكون احد كهنته مدعوآ الى تناول العشاء على مائدته فعندئذ كان من دأب السيدة ماغلوار

ان تغتنم هذه الفرصة لكي تعدّ للمونسينيور بعض سمكات البحيرة الممتازة ، او بعض طرائد الجبل اللطاف . كان كل كاهن ذريعة تُتخذ لاعداد مائدة جيدة ، وما كان الاسقف ليعترض على هذا . وفي ما عدا ذلك ، لم تكن مائدته العادية لتتألف من غير الحضر المسلوقة ، او الحساء المُعدّ بالزيت . وهكذا سار بين ابناء المدينة هذا القول : « حين لا يكرم الاسقف وفادة كاهن ، يكرم وفادة راهب من الرهبان الترابيستين . » *

وبعد العشاء ، كان من دأبه ان يتحدث نصف ساعة مع الآنسة بابتيستين والسيدة ماغلوار ، ليمضي إثر ذلك الى غرفته ويكتب ، على قصاصات من الورق مستقلة أحياناً ، وعلى هوامش بعض كتبه الكبيرة أحياناً . كان حسن الثقافة ، بل كان عالماً الى حدٍّ ما . لقد خُلف خمس مخطوطات او ست مخطوطات غربية . وكان بينها بحث حول هذه الآية من سفر التكوين : « في البدء كانت روح الله يرفّ على وجه المياه . » وهو يقابلها بنصوص ثلاثة : النص العربي الذي يقول : « كانت رياح الله تهبّ » ، ونصّ فلافوس جوزيف ** الذي يقول : « إن ريحاً من الاعالي هبطت على الارض » ، وترجمة اونكيلوس الكلدانية التي تقول : « ان ريحاً من لدن الله هبت على وجه المياه . » وفي بحث آخر يدرس آثار هوغو ، اسقف بتولياميس ، اللاهوتية - وهو احد انساب مؤلف هذا الكتاب الابعدين - ويثبت ان مختلف المصنفات الموجزة التي نشرت في القرن الماضي تحت اسم « بارليكور » المستعار ينبغي ان تعزى الى هذا الاسقف .

وفي بعض الاحيان كان يستغرق فُجأةً - وهو في غمرة من مطالعته ، أباً ما كان الكتاب الذي بين يديه - في تأمل عميق لا يكاد يخرج منه حتى يدوّن بضعة اسطر على صفحات الكتاب نفسها . وكثيراً ما لا تكون لهذه الاسطر

* Trappist وهي رتبة أسسها في القرن السابع عشر الراهب دو رانسيه في سوليسني لا تراب Soligny - La - Trappe في فرنه . واشتهر رجالها بالصمت والقتف .
** مؤرخ يهودي ، ولد في القدس نحو سنة ٣٧ وتوفي نحو سنة ١٠٠ وعمل في خدمة الرومان .

علاقة ما بالكتاب الذي دوت على حواشيه . وتحت عينينا الآن ملاحظة كتبها على احد هوامش كتاب من قطع الربع عنوانه « مواسلات اللورد جيرمين مع الجنرالين كلينتون وكورنواليس واميرالات المستعمرة الاميركية . يباع في فرواي بمكتبة بوانسو ، وفي باريس بمكتبة بيتو ، وصيف الاوغوسطينيين . »

وهذه هي الملاحظة :

« اياه ، أهذا الذي في السموات ! »

« إن سفر الجامعة يدعوك الكلي القدرة ؛ واسفار المكابين تدعوك الخالق ؛ ورسالة بولس الرسول الى اهل افسس تدعوك الحرية ؛ وباروخ * يدعوك السعة التي لا حد لها ؛ والمزامير تدعوك الحكمة والحق ؛ وسفر يوحنا يدعوك النور ؛ وسفر الملوك يدعوك السيد ؛ وسفر الخروج يدعوك العناية ؛ وسفر اللاويين يدعوك القداسة ؛ وسفر عزرا يدعوك العدالة ؛ وسفر التكوين يدعوك الرب الاله ؛ وابن البشر ** يدعوك الاب ؛ ولكن سليمان يسميك المرحمة ؛ وهذا هو اجمل اسمائك جميعاً . »

وكان من عادة الامراتين ان تأويا، حوالى الساعة التاسعة مساءً، الى غرفتيهما في الدور الثاني ، تاركتين اياه وحده ، حتى الصباح ، في الدور الاول . وهنا من الضروري ان نعطي فكرة دقيقة عن منزل اسقف د ...

٦

كيف كان يحمي بيته

كان المنزل الذي احتله يتألف ، كما سلف منا القول ، من طابق ارضي ودور ثانٍ : ثلاث غرف في الطابق الارضي ، وثلاث في الدور الثاني ، وعلية فوقها .

* هو باروخ بن نيريا الذي دون نبوءات ارميا (سنة ٦٠٠ ق . م .)

** اي السيد المسيح .

ووراء المنزل انبسطت حديقة مساحتها نحو من ربع أكر . وكانت الامراتان تحتلان الدور الاعلى ، على حين كان الاسقف يحيا في الطابق الارضي . وكانت الغرفة الاولى ، المنفتحة على الشارع ، هي غرفة طعامه ، والثانية هي مبهجته ، والثالثة هي مصلاته . ولم يكن في ميسورك ان تغادر هذا المصلى من غير ان تجتاز بالمهجع ، وان تغادر المهجع من غير ان تجتاز بغرفة الطعام . وكان في اقصى المصلى 'مخدع' * موصل ينطوي على سرير للضيف ، فيرقد فيه الكهان الريفيون كلما دعيتهم شؤون ابرشيتهم وحاجاتها الى ان يفدوا على د ...

وكانت صيدلية المستشفى ، وهي بناء صغير مجاذي المنزل ويمتد الى الحديقة ، قد تحولت الى مطبخ وبيت للوؤنة .

وكان في الحديقة ايضاً اصطبل ، كان في ما سلف مطبخ المستشفى ، أنزل فيه الاسقف بقرتين . وكان من عادة الاسقف ان يرسل ، كل صباح ، نصف ما تجودان به من لبن ، بالغاً ما بلغ ، الى مرضى المستشفى . وكان يقول : «اني ادفع عشوري» .

كانت غرفته رجة جداً ، وكانت تدفئتها عسيرة جداً في ايام الشتاء . واذا كان الحطب غالياً جداً في د ... فقد خطر له ان يقطع من مأوى البقرتين غرفة موصدة ذات حاجز خشبي ، فهو يُمضي فيها ليلاته حين يكون الجو قارساً جداً . وكان يدعو تلك الغرفة «صالونه الشتوي» .

ولم يكن في الصالون الشتوي هذا ، شأن غرفة الطعام ، غير طاولة خشبية بيضاء مربعة ، واربعة كراسي من القش . بيد ان غرفة الطعام كانت تحتوي ، فوق ذلك ، على خزانة قديمة للآنية وادوات الطعام مصبوعة باللون الازهر . ومن خزانة مماثلة مجللة على نحو ملائم بغطاء كتاني ابيض ووشى زائف ، اتخذ الاسقف المذبح الذي زان مصلاته .

وكان نائبوه الاغنياء ونسوة د ... الورعات كثيراً ما يتبرعون بالمال لاقامة

* المخدع ، في المعاجم ، بيت داخل البيت الكبير . وقد اسطنها هنا لتؤدي من التجويف الذي يجمل في جدار الغرفة ويوضع فيه سرير ، او ما يقابل كلمة alcove الفرنجية .

مذبح جديد جميل لمصلى صاحب السيادة . ولكنه كان يأخذ المال ، كل مرة ،
ويوزعه على الفقراء . وكان يقول : « خير مذبح على وجه الارض روح رجل
بأش نعمت بالعزيزاء وتوجهت الى الله بالشكر . »

وفي مصلاه كان كرسيان قشيان من كرامى التبعّد ، على حين كانت في
مهبجه كرسى ذو ذراعين مصنوع من القش ايضاً . فاذا اتفق ان ضمّ منزله
سبعة زوّار او ثمانية زوّار في آنٍ معاً : المحافظ ، او الجنرال ، او قائد الحامية ،
او بعض التلاميذ من المعهد الاكبري الصغير ، اضطرّ الاسقف الى ان يمضي الى
الاصطبل التماساً لكرامى الصالون الثنوي ، والى المصلى التماساً لكرامى
التبعّد ، والى المهجع التماساً للكرامى ذي الذراعين . وهكذا كان في مديوره ان
يجمع احد عشر مقعداً لزائريه . وعند كل زيارة جديدة ، كانت احدى الغرف
تُجرّد من أثاثها .

وقد يتفق في بعض الاحيان ان يبلغ عدد الزائرين اثني عشر شخصاً .
وعندئذ كان الاسقف يخفي تحرج الموقف بان يلتزم الوقوف امام نار الموقد
اذا كان الفصل شتاء ، وبان يقترح القيام بجولة في الحديقة اذا كانت
الفصل صيفاً .

وكان في مُخدع الضيوف الموصد كرامى اضافي ، ولكنه فاقد نصف قشّه .
ليس هذا فحسب ، بل لم تكن لهذا الكرامى غير قوائم ثلاث ، فليس في
المستطاع استعماله الا مُسنداً الى الجدار . وكان في غرفة الآنسة بابيتستين ايضاً
كرامى موشد ضخّم جداً ، مصنوع من الخشب ، كان من قبل مذهباً ومغطى
بجرير مزدان برسوم الزهور . ولكن لما كانوا قد اضطروا الى ان يدخلوا هذا
الكرامى ، اول مرة ، من خلال النافذة ، بسبب ضيق السلم اكثر مما ينبغي ، فلم
يكن في وسعهم ان يعدّوه في جملة الأثاث المنقول .

وكانت الآنسة بابيتستين ترجو دائماً ان تسكن ذات يوم من شراء
اثاث صالون موشد بمخمل او ترخت الاصفر المزدان بالزهور ، على ان يكون
خشب الماهوغاني على شكل أعناق البجع ، مع أريكة . ولكن ذلك كان

خليقاً به ان يكلفها خمسة فرنك على الاقل . حتى اذا وجدت انها لم نوفق الى ان تقتصد لهذا الغرض غير اثنين واربعين فرنكاً ونصف فرنك طوال خمس سنوات ، اضطرت الى ان تتخلي عن مطبخها ذاك . ولكن من ذا الذي يوفق دائماً الى تحقيق مثله الأعلى ؟

وليس في إمكان شيء ان يكون أيسر على التصور من مهجع الاسقف : نافذة ، هي في الوقت نفسه باب ، تطل على الحديقة . وتجاه هذه النافذة كان السرير ، وهو حديدي من سرر المستشفيات تحيط به سُجفٌ خضر من نسيج صوفي غليظ . وفي ظل السرير ، خلف احدى السائر ، كانت ادوات الزينة لا تزال تتم عن العادات الانيقة التي ألفها الرجل المتوف . وكان للفرقة بابان احدهما قرب المستوقد ، ويؤدي الى المصلى ، والآخر قرب المكتبة ، ويفتح على غرفة الطعام . وكانت المكتبة ، وهي خزانة ضخمة مزججة ، مملأ بالكتب . اما المستوقد المغطى بـخشب دهن بلون الرخام فكان خلواً من النار ، في العادة . وفي المستوقد كان منصبان حديديان مزدانان بزهرتين نقش عليها اكاليل وخطوط طليت ذات يوم بالفضة على نحو كان في ذلك العهد ضرباً من الترف الاسقي . وفوق المستوقد في الناحية التي توضع فيها المرأة عادة نهض تمثال المصلوب نحاسي زايله الطلاء الفضي ، مركّز على قطعة من الحمل الاسود البالي يحيط بها إطار من خشب نصل طلاؤه الذهبي . وقرب النافذة كانت طاولة عريضة عليها دواة ، وقد أثقلت بالاوراق المبعثرة والمجلدات الضخام . وتجاه الطاولة كان الكرسي القشبي ذو الذراعين . وتجاه السرير كان كرسيٌ تعبدي مستعار من المصلى .

وكانت لوحتان في اطارين بيضيين الشكل تتدليان على الجدار عند جانبي السرير . وكانت بعض الخطوط الصغيرة المذهبة المرقومة على خلفية القماش الحرة الى جانب الصورتين تشير الى ان احدى اللوحتين تمثل الراهب دو ساليو ، اسقف سان كلود ، على حين تمثل الاخرى الراهب تورتو ، نائب « آجد » الاسقي العام ، ورئيس دير « غران شان » ، للرهبانة السينووية ، في ارمشية

شارتر . وإنما وجد الاسقف هاتين الصورتين حين تخلف مرضى المستشفى في هذه الغرفة ، فتركهما حيث هما . كانا كاهنين ، ولعلهما ان يكونا ممن جادوا على المستشفى بالمهبات - وهما سيبيان يحملانه على احترامهما . وكل ما عرفه عن هاتين الشخصيتين ان الملك عيّنهما - الاول في اسقفية ، والثاني في منصبه الديني ذي العائدات - في يوم واحد ، هو اليوم السابع والعشرون من نيسان سنة ١٧٨٥ . ذلك ان السيدة ماغلوار نزعَت الصورتين ، ذات يوم ، لكي تنفض الغبار ، فاذا بالاسقف يجد هذه الواقعة مدونة بجبر ناضل اللوث على قصاصة من الورق صغيرة مربعة أحالت الايام لونها الى الصفرة ، وقد ألصقت بأربع برشامات خلف الصورة التي تمثل رئيس دير و غران شان .

وكانت على نافذته ستارة عتيقة من قماش صوفي غليظ انتهت الى ان تصبغ بالية الى درجة اضطرت السيدة ماغلوار ، لكي تجتنب شراء ستارة جديدة ، الى ان ترقعها رقعة ضخمة في وسطها تماماً . وكانت هذه الرقعة على شكل صليب ، وكان الاسقف كثيراً ما يلفت النظر اليها ويقول : « ما احسن الاثر الذي يتركه هذا في النفس ! »

وكانت جميع غرف المنزل ، في الطابق الارضي والدور الثاني ، من غير ما استثناء ، مبيّخة بجاء الكلس ، وفقاً للعرف الشائع في الشكنات والمستشفيات . بيد ان السيدة ماغلوار وجدت في السنوات الاخيرة ، تحت ورق الجدار ، كما سنرى بعد ، رسوماً زينت غرفة الآنسة بايتيسين . ذلك بان هذا المنزل كان قبل ان يتخذ مستشفى ، ديواناً يجتمع فيه المواطنون البورجوازيون ، ومن هنا هذه الرسوم . وكانت ارض الغرف مرصوفة بأجر أحمر يُنظف كل اسبوع ، وقد نُشرت جدائل القش امام القُرُش . والحق ان هذا المنزل ، وقد تولت امره سيدتان ، كان ينعم بنظافة بمنازرة من اعلاه الى اسفله . وكان ذلك هو الترف الوحيد الذي صمّح به الاسقف ، قائلاً : « ان هذا لا يسلب الفقراء شيئاً . »

ومع ذلك فينبغي ان نعتrof بأنه ظل يحتفظ بما كان يملكه من قبل بستة

اطباق فضية وملعقة حساء فضية ضخمة كانت السيدة ماغلوار تتأملها كل يوم في ابتهاج جديد ، وقد تألفت فوق غطاء المائدة الكتاني الابيض الحشن . واذا كنا نصور هنا اسقف د... كما كان ، فيتعين علينا ان نضيف انه قال غير مرة : « من العير علي ان أقلع عن تناول الطعام بآنية الفضة . »

وينبغي أن يُضاف الى هذه الآنية الفضية شمعدانان فضيان ضخمان ورثهما من اخت جدته . وكان هذان الشمعدانان يحملان شمعتين ، وكانا ينهضان عادة فوق مستوقد الاسقف . فاذا اتفق أن تناول طعام الغداء مع الاسقف ضيف ما فعندئذ كانت السيدة ماغلوار تشعل الشمعتين ، وتضع الشمعدانين على المائدة . وكانت في غرفة الاسقف ، عند رأس سريره ، خزانة جدارية صغيرة تعودت السيدة ماغلوار ان تضع فيها كل مساء الاطباق الفضية الستة والملعقة الكبيرة . ولكن يتعين علينا ان نقول ان المفتاح لم يُنزع من تلك الخزانة قط .

أما الحديقة التي أفسدها بعض الشيء تلك المنشآت القبيحة التي تحدثنا عنها من قبل ، فكانت تتألف من اربعة مماشير متصالبة عند بالوعة تتوسط الحديقة . وكان ثمة بمشي آخر يمتدّ حول الحديقة في محاذاة الجدار الابيض الذي يطوقها . وكانت هذه الماشي تترك في ما بينها اربعة مربعات يهدبها شجر البقس . * وفي ثلاثة من هذه المربعات زرعت السيدة ماغلوار شيئاً من الحضر . وفي رابعها زرع الاسقف بعض الازهار . وكانت تقوم هنا وهناك بضع أشجار مثمرة .

وذات يوم قالت له السيدة ماغلوار في ضرب من اللوم الرفيق : « مونسينيور ، أنت تحرص دائماً على ان تفيد من كل شيء ، ومع ذلك فهنا رقعة من الارض قد أهملت فليس فيها غناء . ولقد كان من الخير لنا لو جعلنا فيها سلطنة بدل باقات الزهور . » فأجابها الاسقف : « أيتها السيدة ماغلوار : انت مخطئة . ليس الجبل اقل غناءً من المقيد . » وسكت لحظة ثم أضاف : « بل لعله اكثر منه غناءً . »

وكان هذا المربع ، المؤلف من ثلاث مساكب او أربع ، يشغل الاسقف

* البقس : شجر كالآس ورقاً وجباً .

بقدر ما نشغله كتبه تقريباً . كان من دأبه ان يقضي ثمة ساعة او ساعتين ، مقلماً الاغصان ، مستأصلاً الاعشاب ، حافراً ههنا وههناك ثقباً يفرس فيها البذور . إنه لم يكن معادياً للحشرات عداء البستاني لها . وما كان ليدهي شيئاً من المعرفة في علم النبات ، جاهلاً الفصائل واسباب الامراض . كان لا يبالي اقل ما تكون المبالاة بأن يفاضل بين تورنفور * والطريقة الطبيعية . ولم يكن يتعصب للحويصلات على الفلقات ، ولا لـ « جوسيو » ** على « لينى » *** . إنه لم يدرس النباتات ؛ ولكنه احب الازهار . كان عظيم الاحترام للعلماء ، ولكن احترامه للجهلة كان اعظم . ومن غير ان يعوزه هذان الاحترامان كان يقي ما كبه كل ليلة من ليالي الصيف بمِرْثَة صفيحية دهنّت بلون أخضر .

ولم يكن لا يما باب من ابواب المنزل قفل . والواقع ان باب غرفة الطعام المنفتح ، كما أسلفنا ، على اراضي الكاتدرائية كان من قبل مُنْقَلًا بالمعالتى والمزالج مثل ابواب السجون . فأصدوا الاسقف أمره بنزع هذا الحديد كله ، فاذا بالباب لا يُقفل ، في الليل وفي النهار سواء بسواء ، الا بسقطة . وكان في ميسور عابر السبيل ، في ايما ساعة من ساعات اليوم ، ان يفتحه بمجرد دفعه دفعا رفيقا . وفي بادئ الامر عصف القلق بالامرأتين بسبب من هذا الباب الذي لا يُقفل ابداً . ولكن اسقف ... قال لهما : « ضعا القضبان الحديدية على ابواب غرفكما ، اذا راق لكما ذلك » . ولكنها انتهتا الى ان تشاركاه ثقته ، آخر الامر ، او الى ان تسلكا و كأنهما تشاركاه هذه الثقة ، على الاقل . بيد ان السيّدة ماغلوار وحدها كانت تصاب بنوبات ذعر طارئة . اما فيما يتصل بالاسقف ، ففي ميسورنا

* Tournefort نباتي ورحالة فرنسي (١٦٥٦ - ١٧٠٨) كان له فضل كبير في تصنيف المملكة النباتية .

** انطوان لوران جوسيو Jussieu نباتي فرنسي شهير ولد في ليون ومات في باريس (١٧٤٨ - ١٨٣٦) وكان صاحب نظام طبيعي في تصنيف النباتات ادى الى إنشاء طريقة العالم لينى .

*** شارل دو لينى Linné نباتي سويدي شهير (١٧٠٧ - ١٧٧٨) صنف النباتات اربعة وعشرين صنفاً على اساس الصفات المنتزعة من عدد الانسجة وانتظامها .

ان نجد فكرته مشروحة ، او مشاراً اليها على الأقل ، في هذه الاسطر الثلاثة التي خطها بقلمه على هامش نسخة من الكتاب المقدس : « هذا هو ظلُّ المعنى : إن باب الطبيب يجب ان لا يُغلق ابداً . وإن باب الاسقف يجب ان يظل مفتوحاً ابداً . »

وفي كتاب آخر موسوم بـ « فلسفة العلم الطبي » دونَ هذه الملاحظة أيضاً : « ألتُ طبيباً مثلهم ؟ إن عندي ، انا ايضاً ، مرضاي . عندي أولاً رضام الذين يدعونهم معتلي الاجسام ، وعندي بعد ذلك مرضاي الذين أدعوم المساكين . »

وكتب أيضاً في موضع آخر : « لا تَسَلْ ذلك الذي يلتبس منك فراشاً يأوي اليه عن اسمه ما هو . لان الرجل الذي يُثقله اسمه وبضايقه هو أشد الناس حاجة الى المأوى . »

ولقد خطر لكاهن جليل لتُ أدري بعدُ أكان كاهن كولوبرو أم كاهن بومبييري ان يسأله ذات يوم ، ولعله فعل هذا بتعريض من السيدة ماغلوار ، ألا يظن سيادته ان ثمة شيئاً من الحطل في ترك بابه ، ليلاً ونهاراً ، تحت رحمة ايما راغب في الدخول ؟ ألا يخاف آخر الامر ان تحمل مصيبة ما يمثل هذا البيت الذي لا يتمتع بأقل الحراسة ؟ فوضع الاسقف يده على كتفه ، في رفق وقال :

• Nisi Dominus custodierit domum . in vanum vigilant qui custodiunt eam . . *

ثم انتقل الى الكلام في موضوع آخر .

وكثيراً ما كان يقول : « للكاهن شجاعته ، كما أن لقائد سلاح الفرسان شجاعته . » ثم يضيف : « ولكن شجاعتنا ينبغي أن تكون هادئة . »

٧

كرافات

هذا هو المكان الملائم لذكر حادثة ينبغي ان لا تُغفلها ، لأنها احدى تلك

• قول لاتيني مناه : « اذا لم يصنِ الاله بيتاً من البيوت صناً يحرسه حراسه » .

الحوادث التي تورينا باكثر ما يكون من الوضوح أي: رجل كان اسقف د...
بعد ان قضي على عصاة غاسبار بيس التي عاثت فساداً في مخارم اوليول ، فزع
احد قادتها ، واسمه كراقات ، الى الجبال . لقد توارى عن العيان فترة من
الزمن ، مع قطاع طرقة وهم فلول قوات غاسبار بيس ، في ولاية نيس ، ثم
اتخذ سبيله الى بيديمونت ليعاود الظهور في فرنسة ، قرب اقليم بارسولونيت .
لقد رُئي اول الامر في جوزيه ، ثم في توريل . لقد اختبأ في كهوف جونغ
دوليفل ، ومن هناك كان يهبط الى الدساكر والقرى عبر وادي « اوباي »
و « اوباييت » . بل لقد تجرأ على ان يندفع حتى ايمبرون ؛ واقتحم ذات ليلة
الكاتدرائية وسلب مخزن الامتعة المقدسة . وخربت غاراته تلك الديار ودعت
سكانها الى هجرها . وجردت عليه سرايا الدرك ، ولكن عبثاً . كان يفرّ دائماً ،
وفي بعض الاحيان إثر مقاومة عنيفة . كان بائساً جريء الفؤاد . وفي غمرة من
هذا المول كله وصل الاسقف . كان يقوم بجولته الرعائية . وفي سانتيلار اقبل
العمدة للقاءه وحضه على العودة . فقد كان كراقات يسيطر سلطانه على الجبال
حتى آرش وما وراها . وثمة خطر على الاسقف حتى ولو كان يحوطاً بحرس .
وقد يعرض ذلك حياة ثلاثة او اربعة من رجال الدرك الماكين للهلاك ، على
غير طائل .

قال الاسقف : « وهكذا فانا اعتزم ان امضي من غير حرس . »
فصاح العمدة : « اتفكر بشيء مثل هذا ، يا صاحب اليادة ؟ »
— « اني افكر في ذلك الى حد يجعلني على ان ارفض حراسة الدرك رفضاً
باتاً ، وعلى ان انطلق بعد ساعة . »

— « تنطلق ؟ »

— « اجل ، أنطلق . »

— « وحدك ؟ »

— « وحدي . »

« مونسيور ، انك لن تقدم على ذلك . »

فأجاب الاسقف : « إن هناك في الجبل جماعة صغيرة حقيرة لم أرها منذ ثلاث سنوات . إن أفرادها من اصدقائي الخُلص ، وهم فلاحون أمناء ذوو وداعة . إنهم يملكون شاة واحدة من ثلاثين يرعونها . وهم يصنعون خيوطاً صوفية جميلة ذات ألوان متعددة ، ويعزفون الحانهم الجبلية على زمامير صغيرة في كل زمار منها ستة ثقوب . وهم في حاجة الى من يمدّتهم ، بين الفينة والفينة ، عن رحمة الله . وما الذي سوف يقولونه في اسقف يُسلم به الخوف ؟ ما الذي سوف يقولونه اذا لم أفدّ عليهم ؟ »

— « وقطاع الطرق ، يا صاحب السيادة ؟ واذا التقيت بقطاع الطرق ؟ »
فقال الاسقف : « صحيح . أنا لم أفكر في هذا . انت على صواب . قد التقي بهم . لا ريب أنهم هم ايضاً في حاجة الى من يمدّتهم عن رحمة الله . »

— « مونسينيور ، ولكنها عصابة ! إنها قطع من الذئاب ! »
— « لعل يسوع قد جعلني راعي ذلك القطيع بالذات ، يا سيدي العمدة . من ذا الذي يعرف اساليب العناية الالهية ؟ »
— « ولكنهم سوف يسرقونك ، يا صاحب السيادة . »

— « ليس معي شيء . »
— « اذن ، فسوف يقتلونك . »
— « يقتلون كاهناً عجوزاً بسيطاً يمضي لسبيله متمماً بصلواته ؟ لا ، لا ، اي نفع يكسبونه من ذلك ؟ »

— « آه ، يا الهي ! افرض انك التقيت بهم ! »
— « عندئذ اسألهم صدقة لفقرائي . »

— « مونسينيور ، لا تذهب ، بحق السماء ! إنك تعرض حياتك للخطر . »
فقال الاسقف : « وهو كذلك ، يا سيدي العمدة . أنا لم أوجد في هذا العالم لكي اصون حياتي ، ولكن لكي اصون نفوس الناس . »

ولم يكن في ميسور العمدة ان يذنبه عما اعتزم . فانطلق وليس يصحبه غير غلام تطوّع ان يكون له دليلاً . كان عناده حديث المقاطعة ، ولقد خشي القوم

كلهم عواقبه .

ولم يشأ ان يصطحب لاهوته ولا السيدة ماعلوار . واجتاز الجبل على متن بغل ، ولم يلتق انساناً ما ، وانتهى آمناً سالماً الى « اصدقائه الخالص » الرعاة . واقام هناك خمسة عشر يوماً ، واعظاً ، مانحاً الاسرار الدينية ، معلماً ، منذراً . حتى اذا أوشك على مفارقتهم اعتزم ان ينشد « تسبحة الشكر » على نحو احتفالي . وتحدث الى الكاهن في ذلك . ولكن كيف السبيل الى إنفاذه ؟ لم يكن ثمة حلال أسقفية . ولم يكن في مستطاعهم ان يقدموا اليه غير مخزن حقير من مخازن الامة المقدسة القروية ، وبضع حلل كهنوتية عتيقة من دمقس مهتري . مزدانة بأشرطة حريرية زائفة .

وقال الاسقف : « لا بأس . ايها الكاهن المحترم ، اعلن في الموعظة اننا سوف نؤدي تسبحة الشكر . ولا بد ان يسوي الامر نفسه بنفسه . »
وبجئوا في الكنائس المجاورة ، ولكن كل الامتعة المترفة التي جمعت من هذه الابشيات المتواضعة على اختلافها لم تكن كافية لالباس منشد كاندراي واحد على نحو ملائم .

وفيما هم في غمرة من هذا الحرج حل فارمان مجهولان صندوقاً ضخماً الى دار الكاهن وتركاه هناك من اجل الاسقف ، ثم غادرا الدار في الحال . وفتح الصندوق ؛ فاذا فيه غفارة * من جوخ مذهب ، وتاج اسقفي مزدان بالمالس ، و صليب من الصلبان التي يحملها رؤساء الاساقفة ، وعصا اسقفية فخمة ، وجميع الملابس الاحتفالية التي سُرقَت منذ شهر من كاندرايية ايمبرون . وكانت في الصندوق ورقة كُتبت عليها هذه الكلمات : « من كوافات الى مونسنيور بيينفينو » .

وقال الاسقف : « لقد قلت ان الامر سوف يسوي نفسه بنفسه . » ثم اضاف في ابتهامة : « ان من يقنع بقميص الكاهن الخارجي يرسل الله اليه غفارة رئيس اساقفة . »

* الغفارة رداء يلبسه ابحار الكنيسة في الكنيسة .

وغنم الكاهن وهو يز رأسه ويبتسم : « مونيبيور ، الله أو الشيطان . »

ونظر الاسقف الى الكاهن نظراً موصولاً ، وقال في قوة : « الله ! »
حتى اذا انقلب الى شاستيل احتشد الناس على طول الطريق مجدوم الفضول
الى رؤيته . وفي دار الكاهن هناك ، وجد الآنة بابتيستين والسيدة ماغلوار
تنظرانه ، فقال لأخته :

« واخيراً ، ألم اكن على صواب ؟ لقد قصد الكاهن الفقير صفر اليدين الى هؤلاء
الجبليين الفقراء ، ثم رجع مليء اليدين . لقد مضيت متكلاً على الله وحده ،
وها قد عدت حاملاً كنوز كاندراثة بكاملها . »

وفي المساء اضاف ، قبل ان يزوي الى فراشه : « لا يأخذكم الخوف من
الصوص والفئاك ابدأ . مثل هذه المخاطر خارجية ، وهي اصغر المخاطر واطفأ
شأناً . يجب ان نخشى انفسنا . إن الضغائن هي هي اللصوص ، وإن الرذائل هي
هي الفئاك . ان الاخطار العظمى كامنة في داخلنا . واي بأس في ان تتعرض
رؤوسنا او اكياس نفودنا للخطر ؟ ينبغي ان لا نفكر الا بما يتهدد
نفوسنا . »

ثم التفت الى اخته وقال : « ابنتها الاخت ، يتعين على الكاهن ان لا يتخذ
أبما وقاية ضد جاره . إن ما يفعله جاره يسمح به الله . فلنتصر على الصلاة لله حين
نرى الى الخطر يتهددنا . فلنتضرع اليه ، لا من اجل ذواتنا ، بل لكي لا
يتورط أخ لنا في الاثم ، بسبب منا . »

ومهما يكن من شيء ، فقد كانت الاحداث نادرة في حياته ، وانما نقص هنا
ما نعرفه منها . ولكنه كان ينفق حياته ، عادة ، بأن يفعل الاشياء في اللحظات
نفسها . كان الشهر من سنه يشبه الساعة من يومه .

أما ما حل به و كنوز ، كاندراثة ايمرون فذلك ما يُربكنا أن نسأل عنه
الآن . كانت بينها اشياء كثيرة فاتنة جداً ، مغربة جداً ، صالحة جداً لأن
تُشرق لمصلحة الساكنين . لقد سبق لآخرين ان سرقوها من قبل . ولقد تم

نصف المغامرة ؛ فلم يبقَ الا أن تُغيّر وجهة السركة ، وأن نحوّل الى ناحية
 الفقراء . وليس في ميسورنا ان نقول شيئاً اكثر في هذا الموضوع . كل ما
 نستطيع ان ننصّ عليه أنه وجدت بين اوراق الاسقف مذكرة شديدة الغبوض
 لعلها تتصل بهذه المسألة ، وهي تقول : « إن السؤال هو هذا : أيفني ان
 نعاد هذه الى الكاتدرائية أم الى المستشفى ؟ »

٨

فلسفة ما بعد الغداء

كان عضو مجلس الشيوخ الذي اشرنا اليه من قبل رجلاً ذكياً شقّ طريقه في
 الحياة في استواء هدف لم يبالِ البتة بجميع تلك العقبات التي تعترض سبيل
 الناس ، والتي ندعوها الضمير ، والوفاء المعزّز بقسم ، والعدل ، والواجب .
 لقد اندفع نحو هدفه اندفاعاً مستقيماً من غير ان يحيد ذات مرة عن جادة
 تقدّمه ومصالحته . كان في ما مضى وكيلًا قضائياً ، لأنه النجاح ، ولم يكن
 رجلاً رديئاً بحال . وكان يقدم جميع الخدمات الصغيرة التي تقدّر عليها الى
 ابنائه ، وأصهاره ، وانسابه على وجه العموم ، وحتى الى اصدقائه ، متخيّراً في
 حكمة جانب الحياة البهيج ، مفيداً من جميع فرصها المتاحة الطيبة . أما ما عدا
 ذلك فكان يبدو في عينه عملاً ممتعاً في الحق . كان مرحاً طروباً ، وكان على
 قدر من العلم كافٍ لان يجعله يحسب نفسه تلميذاً من تلاميذ أبيقور ، في حين
 أنه لم يكن - في ما يبدو - اكثر من ثمرة من ثمرات بينفسولويران * . كان
 يضحك في غنوة واستمتاع من أشياء خطيرة وأزلية ، ومن « الكلام الباطل الذي
 ينطق به الاسقف الطيّب » . وكان يضحك منها أحياناً ، وعلى وجهه سجا الرجل

* Pigault - Lebrun كاتب فرنسي (١٧٥٣ - ١٨٣٥) وضع عدّة روايات داعرة خلية

المتنازل ، في حضرة الاسقف نفسه الذي كان يُصفي .
ولست أدري في ايّ من الحفلات نصف الرسمية تناول الكونت ... (وهو
عضو مجلس الشيوخ هذا) وصاحب السيادة ميربيل طعام الغداء في منزل المحافظ .
وحين قدّمت الفاكهة صاح الشيخ وقد استخفّه الثمل بعض الشيء ، وإنّ لم
تفارقه سيم الوقار :

— « برّيك يا سيدي الاسقف ، دعنا نتحدث . إنّ من العسير ان يلتقي
اسقف وعضو في مجلس الشيوخ من غير ان يتغامزا . نحن عرّافان . وان عندي
اعترافاً أريد أن أدلي به اليك ؛ إنّ لي فلسفتي الخاصة . »
فأجابه الاسقف : « أنت على صواب . كما يضع المرء فلسفته ، كذلك
يرقد . انت ترقد على فراش ارجواني ، يا سيدي الشيخ . »
ووجد الشيخ في ذلك ما شجعه ، فأضاف :

— « لكن ولدّين صالحين . »
فقال الاسقف : « بل عفريتين صالحين ايضاً . »
فتابع عضو مجلس الشيوخ : « اؤكد لك ان المركيز دارجيان * ،
وبيرتون ، ** وهوبس ، *** والسيد نيجون **** لبسوا اوغاداً . إنّ
جميع فلاسفتي مذهبوا الحوافي في خزانة كتي . »
فقاطعه الاسقف : « مثلك انت ، يا سيدي الكونت . »
وتابع عضو مجلس الشيوخ قائلاً :

— « انا اكره ديدرو . إنه ايديولوجي ، غوغائي ، ثوري ، مؤمن في قرارة

* Marquis d'Argens اديب فرنسي (١٧٠٤ - ١٧٧١) وضع آثاراً عديدة يرشح بعضها
بالثك في الله .

** Pyrrhon اول الشكوكيين الاغريق الكبار في القرن الرابع قبل الميلاد ، وكان ينكر
ان يكون بلوغ الحقيقة في ميور الانسان .

*** Hobbes فيلسوف انكليزي (١٥٨٨ - ١٦٧٩) ، وكان ينادي - في حلّ الفلسفة -
بالمادية ، وفي حلّ الاخلاق بملّة المصلحة الانانية ، وفي حلّ السياسة بالظلمانيان .

**** Naigeon اديب فرنسي (١٧٣٨ - ١٨١٠) 'عرف بتفكيره المادي' الاحادي .

نفسه بالله ، وأشدّ تعصباً من فولتير . لقد سخر فولتير من نيدهام * ولم يكن في هذا مصيباً . ذلك بأن أنقليسات ** نيدهام ثبت أن الله غير ذي غناء . إن نقطة من الحل في ملعقة من العجين قد سدت مسدّد *Fiat lux* *** . ولنفرض أن النقطة كانت أكبر وأن الملعقة كانت أضخم ، وعندئذ يتمّ لنا هذا الكون . إن الإنسان هو الانقليس . واذن فأنيّ فائدة للأب الأزليّ ، بعد ذلك ؟ إن فرضية *يهوه***** تعني ، بإسيدي الاسقف . أنها لا تصلح لشيء غير إنتاج أناس مهزولي الأجسام فارغي الرؤوس . فليست هذا « الكلي » ، الكبير الذي يرعجني ويقضّ مضجعي ! وليحي « الصفر » الذي يورثني الراحة والطأينة ! وبيني وبينك ، ولكي أفضي بسريرة نفسي ، وأعترف لكاهني ، كما ينبغي لي ، فسوف أقرّ بأن عندي حصافة . أنا لست مجنوناً يسوعك الذي يبشّر عند كل حقل بالتنسك والتضحية . تلك نصيحة البخيل للشحاذين . التنسك ! لماذا ؟ التضحية ! من أجل ماذا ؟ أنا لا أرى غير ذنب يضحي بنفسه من أجل سعادة ذنب آخر . فلنلزم الطبيعة اذن . نحن في القمة ، ولنكن لنا فلسفة اسمي . وماذا يفيدنا تربّنا في القمة إذا لم نستطع أن نرى الى ابعد من أنوف الآخرين ؟ لنعش في مرح وابتهاج ، فالحياة هي كل ما غلك . أما القول بأن للإنسان حياة ثانية ، في مكان آخر ، فوق ، تحت ، في أيما مكان - فزعم لا اصدق كلمة واحدة منه . آه ، أنهم يوصونني بالتضحية ، والتنسك ، وبأن ألزم الحذر في كل ما اعمله ، وبأن احطّم رأسي في التفكير بالخير والشر ، والعدل والظلم ، وبالخلال والحرام . لماذا ؟ لأن عليّ أن اقدم حساباً عن أعمالي . متى ؟ بعد الموت . أيّ حلم جميل ! انسي

• Needham طبيب انكليزي ولد في لندن وتوفي في بروكل (١٧١٣ - ١٧٨١)
وفد دارت بينه وبين فولتير مساجلات عنيفة .

• الانقليس او الحنكليس : ضرب من السمك معروف .

*** في اللاتينية ، ومنها « ليكن نور ! » . وفي ذلك اشارة الى ما جاء في سفر التكوين :
« وقال الله ليكن نور فكان نور . » وقد انتهى هذا الاصطلاح الى ان يفيد معنى الخلق او الابداع من عدم .

**** اسم الله في العهد القديم (التوراة) .

بعد ان اموت لفي حاجة الى اصابع ناعمة لكي تلتقطني . وكما اني لو اري يداً من الظل تلتقط حفنة من الرماد . لنقل الحقيقة ، فمن الذين اطلعنا على الامرار ورفعنا تنورة ايزيس : ليس ثمة خير ولا شر . ليس ثمة غير وجود جسدي فحسب ، فلنلتبس الحقيقة . فلننبش كل شيء . فلنذهب الى الاعماق . ينبغي ان نستروح الحقيقة ، ان نحفر الارض التماساً لها ، ونضع يداً عليها . وعندئذ نمنحنا الحقيقة مباحج عذاباً ، وعندئذ نفقدوا اقوياء . انا مقتنع ، أوطد الاقتناع ، يا سيدي الاسقف ، بأن خلود الانسان مراب . أوه ، يا للوعد الفاتن ! توكل عليه اذا شئت ! تلك رسالة التوصية التي كانت لآدم ! إن لنا ارواحاً ، واننا سوف نصبح ملائكة ، وان اجنحة زرقاء سوف تنمو عند اكتافنا . قل لي ، الآن ، أليس تروليان * هو الذي يقول ان السعداء الطوباويين سوف يذهبون من كوكب الى آخر ؟ حسناً ، واذن ف سوف نصبح جراد السماوات . وعندئذ سنرى الله . هي ، هي ، هي ! سخيقة هذه الجنات كلها . وليس الله غير اسطورة هائلة . انا لن اقول ذلك في صحيفة الـ « مونيتر » طبعاً ، ولكني اهمس به بين اصدقائي . *Inter pocula* ** ولأن بضحي المراء بالارض من اجل الجنة اشبه شيء بالتخلي عن الفريسة للتعلق بالظل . انا لست مغفلاً بحيث تخدعني اللامهابة . انا لا شيء . انا ادعو نفسي الكونت لا شيء ، عضو مجلس الشيوخ هل وجدت قبل ولادتي ؟ لا . هل سأوجد بعد موتي ؟ لا . اي شيء انا ؟ قليل من الغبار ركنه جسم عصري . ما الذي ينبغي لي ان افعله على سطح هذه الارض ؟ انا مختير بين واحد من اثنين : ان أكابد أو ان استمتع . الى اين تقودني المكابدة ؟ الى لا شيء . ولكني اكون قد كابدت . الى اين يقودني الاستمتاع ؟ الى لا شيء . ولكني اكون قد استمتعت . لقد اخترت سبيلي . يجب ان آكل أو أن أؤكل . وأنا اختار ان آكل . انا اوثر ان اكون السن لا العشب . تلك هي فلسفتي . وبعدها ، كما اقول لك ، يجيء حفار القبور . البانتيون ***

* Tertullien لاهوتي نصراني من ابناء شمال افريقية . (١٥٠ ؟ - ٢٤٠ م)

** اصطلاح لاتيني معناه : بين الاتداح أو في مجلس الخمر .

*** Pantheon الاثر الباريسي الشهير حيث يرقد نفر من عظماء الرجال الفرنسيين .

بالنسبة اليانا نحن . ولكننا كلنا نلفظ في الهوة العظيمة النهائية ، النصفية الكاملة . هذه هي نقطة الثلاثي . إن الموت ميت . صدقني . انا اسخر من الفكرة القائلة بأن ثمة كائناً ما عنده شيء يقوله لي . ذلك من اختراع المرضعات : الفزاعة * للاطفال ، ويتهووه الرجال . لا ؛ إن عدنا ظلام . وليس وراء القبر غير أعدام ** متساوية . لقد كنت ساردانابال *** او كنت فنان دو بول **** - لا فرق . تلك هي الحقيقة . فلنعش ، إذن ، فوق كل شيء . إستعمل شخصيتك ما دمت مالكاً لها . في الحق ، اقول لك ياسيدي الاسقف ، إن لي فلسفتي وإن لي فلاسفتي . انا لا اسمح لنفسي بأن اقع في شرك الهذر والمراء . ولكن من الضروري ان يكون ثمة شيء لمن هم دوننا من الناس ، للعفاة ، لشاحذي السكاكين ، للبؤساء . نحن نقدم اليهم الحرافات ، والالوهام ، والروح ، والخلود ، والجنة ، والنجوم لكي يتعلموها . إنهم يعضفون ذلك . انهم ينشرونه على خبزهم الجاف . فمن عدم كل شيء ، لم يعدم الله الحير ذلك اقل ما يستطيع ان يفوز به من خير . انا لا اعترض على ذلك ، ولكني احتفظ بالسيد نيجون لنفسي . إن الله الحير لا يصلح إلا للشعب . »

وصحق الاسقف ، وصاح : « ذلك هو الرأي . هذه المادية شيء ممتاز ، شيء رائع حقاً ، فليرفضها من اراد . آه ! حين تم هذه المادية لامري ، فعندئذ لا

« ما يخوف به ، وما ينصب في المزرعة تخويفاً للوحش .

« جمع عدم .

*** ساردانابال : شخصية خرافية تزعم الاساطير القديمة انها ملك اشوري حكم من سنة ٨٣٦ الى سنة ٨١٧ ق . م . وكان آخر من تحدر من الملكة الاسطورية سميراميس . ولا يزال ساردانابال الى اليوم رمزاً للامبر الفاجر المخذ .

**** St. Vincent de Paul مصلح فرنسي كاثوليكي (١٥٧٦ - ١٦٦٠) رفع الى مقام القديسين .

يبقى غرّاً مخدوعاً ، ولا يسمع لنفسه ، في بلاهة بأن يُنفى مثل كاتو * او يُرجم بالحجارة مثل اسطفان ** ، او يُحرق حياً مثل جان دارك . إن أولئك الذين فازوا بهذه المادية الرائعة يسعدون بالشعور بأنهم غير مسؤولين ، وبالتفكير في ان باستطاعتهم ان يلتهموا كل شيء في طائفة : الاماكن ، والمناصب التي تُجري على اصحابها الرواتب من غير ان تقتضيهم عملاً ما ، والرتب ، والسلطان سواء اُكْتُسِب بالاساليب الحيرة او الاساليب الشريرة ، وضروب الانكار المُرتبة ، والحيانات المفيدة ، وتخير الضير على نحو عذب لذيد ، وانهم سوف يدخلون قبورهم وقد اتموا واجبهم المضي . ما اجل هذا وما احبه الى النفس ! انا لا اقول ذلك من اجلك ، يا سيدي الشيخ . ومع هذا ، فليس في ميسوري الا ان اهنتك . إن لكم ايها السادة الكبار ، كما تقول ، فلسفة خاصة بكم ، جعلت لمنفعتكم الذاتية - فلسفة بمنازة ، رفيعة ، ليست في متناول احد غير الاغنياء ؛ فلسفة تصلح في جميع الاحوال ، وتضيف التوابل إضافة رائعة ، الى ملذات الحياة . هذه فلسفة يُغاص عليها في الاعماق البعيدة ، ولا يفوز بها إلا باحثون مخصوصون . ولكنكم امراء طيبون ، ولستم تجدون ضرراً ما في ان يكون الايمان بالله الحَيُّ هو فلسفة الشعب ، كما ان الاول بالكَسْتاء هو ديك الفقراء الرومي المطبوع مع الكُماة ، على وجه التقريب .

٩

الاخ كما تصوره الاخت

ولو اردنا ان نقدم صورة عن حياة اسقف د... المنزلية ، وكيف أخضعت

* Cato زعيم وخطيب روماني (٢٣٢ - ١٤٧ ق.م) اشتهر بقرنه وبعادته الشديد لفرطاجه ، وهو صاحب الكلمة المشهورة « يجب ان تدهر فرطاجه » .
** القديس اسطفان : اول شهداء النصرانية ، وقد رُجم بالحجارة في بيت المقدس .

هاتان المراتان الطيبتان اهما ، وافكارهما ، بل وغرائزهما الذوية التي يسهل
تروعيها ، لعادات الاسقف ومقاصده من غير ان يحشم نفسه مجرد الكلام
للتمييز عنها ، فلن نجد خيراً من ان ننسخ رسالة كتبناها الآنسة بانيسين الى
رفيقة صباها السيدة الفيكونتيس دو بواشيفرون . ان هذه الرسالة بين ايدينا .

د ١٦ كانون الاول سنة - ١٨

« سيدتي الطيبة . لا ينقضي يوم إلا ونتحدث عنك . لقد غدا ذلك عادة من
عادتنا ، ولكن لدينا الآن سبباً اضافياً . هل تصدقين ان السيدة ماغلوار
اكتشفت بعض الاكتشافات وهي تغسل القوف والجدران وتغض عنها
الغبار ؟ ان غرفتنا المغطاة جدرانها بالورق العتيق المبيض بماء الكلس ما عادتا
تشوّهان قصراً مشيداً على طراز قصر ك . لقد نزعَت السيدة ماغلوار ذلك
الورق كله ، فاذا بها تجد أشياء خلفه . ان صالوني العاطل عن الاثاث والذي
نصطنعه لنشر الملابس المفضولة حتى تجف ، يبلغ ارتفاعه خمسة عشر قدماً ، ويبلغ
كل من طوله وعرضه ثمانية عشر قدماً ، وله سقف ازدان في ما مضى بالتصاوير
المذهبة ، سقف ذو عوارض خشبية كالتي في منزلك . وكان ذلك مغطى بنسيج
الكتب منذ ان كان منزلنا مستشفى . واخيراً ، هناك البطانة الخشبية التي ترقى
الى عهد جدانا . ولكن غرفتي الخاصة هي التي ينبغي لك ان تروّيها . لقد
اكتشفت السيدة ماغلوار ، تحت عشر طبقات من الورق على الاقل ، بعض
الصور التي قد لا تكون جيدة ، ولكنها مقبولة . فصورة تمثل تيلباك* على صهوة
جواده ، ومينيرفا تقبله . واخرى تمثله في الحدائق - لقد نسبت اسمها .
وثالثة تصوّر المكان الذي آوت اليه السيدات الرومانيات ليلة ليس غير . اي
شيء اقوله لك بعد ؟ ان عندي رومانيات ورومانين (هنا كلمة غير مقروءة)
وحاشيتهم كلها . لقد نظفت السيدة ماغلوار ذلك كله ، ولسوف تصلح خلال

* Télémaque ابن اوليس وبينلوب . كان طفلاً حين قصد ابوه الى طروادة ، ولقد انطلق
هو في ما بعد للبحث عنه تقوده مينيرفا ، الآهة الحكمة والفنون .

هذا الصيف بعض العيوب الصغيرة ، وتعيد صقل الرسوم كلها ، وعندئذ تصح
غرفتي متحفاً حقيقياً . كذلك وجدت في إحدى زوايا العليسة منضدتي بهو
منضيتي القوائم من الضرب الذي يُسند الى الحائط . ولقد اقتضانا أهل الصناعة
دينارين فضيين من ذوات الستّ ليرات لاعادة تذهيبها ، ولكن من الجيران
تقدّم ذلك الى الفقراء . والى هذا ، فهما قبيحتان جداً ، وانا أوثر عليهما منضدة
مستديرة من خشب الماهوغاني .

« انا سعيدة » دائماً . إن اخي طيب جداً . إنه يقدم كل ما يملك الى الفقراء
والمرضى . نحن جدّ متضايقين . فالجورّ فارس جدّ في الشتاء ، ويتعيّن على المرء
أن يُسدي خدمةً ما الى المعوزين . نحن على الاقلّ نتمتّع بالدفء والنور ،
وانت تعرفين أن الدفء والنور مُمتعتان كبيرتان .

« إن لأخي عاداته الغريبة . وهو حين يتحدث يقول ان الاسقف ينبغي ان
يكون هكذا . تصوّري أن باب المنزل ليس يُغلق أبداً . ان ايا امرئ
يستطيع ان يدخله ، فاذا هو في الحال ضيف اخي . إنه لا يخشى شيئاً ، حتى في
الليل . وهو يقول ان هذه هي شجاعته الخاصة .

« إنه يودّ أن لا يأخذني الحرف عليه ، وأن لا يستبدّ الجزع بالسيدة ماغلوار
ايضاً . وهو يعرض نفسه لضروب المخاطر جميعاً ، ويؤثر ان لا يبدو وكأننا
نعني ذلك بمجرد وعي . ان على المرء ان يعرف كيف يفهمه .
« إنه ينطلق تحت المطر ، ويجوّض في الماء ، ويطوف في البلاد إبان الشتاء .
إنه لا يخشى الليل ، او الطرق الخطرة ، او أولئك الذين قد يلتقيهم .

« في العام الماضي قصد وحده الى منطقة بيعث فيها اللصوص فساداً . انه لم يشأن
يصطحبنا . لقد ظل خمسة عشر يوماً غائباً عن البيت . حتى اذا آب من رحلته ، وكنا
نظنه قد مات ، كان في حال جيدة لم يُصبه شيء ما . وقال : « أنظرا ، كيف
سرقوني ! » وفتح صندوقاً مليئاً بجواهر كاتدرائية ابيرون التي قدّمها اللصوص اليه .
« وفي تلك المناسبة ، لدنّ عودته ، وكنت قد ذهبتُ لاستقباله على مبعدة فرسخين
اثنين مع طائفة من اصدقائه ، لم اتمكن ان اناك عن ان ألومه بعض الشيء ، محاذرة ان أتكلّم إلا

حين كانت العربية 'تحدث ضجة'، لكي لا يكون في ميسور أيما شخص آخر ان يسمع .
 « في البدء كنت اقول لنفسي : انه لا يبالي بايما خطر . ذلك شيء فظيع .
 أما الآن فقد ألفت ذلك . إني اوميء الى السيدة ماغلوار لكي لا تعارضه ،
 فهو يركب متن المغامرة كما يجلو له . وعندئذ أستدعي السيدة ماغلوار ، وآوي
 الى غرفتي ، فأصلي من أجله ، وأنام أنا مطمئنة ، لاني اعلم جيداً انه اذا ما ألم
 به اذى فعندئذ تحين منيتي . عندئذ يتعين علي ان أمضي الى الرب الرحيم مع
 اخي واسقفي . ولقد وجدت السيدة ماغلوار عسراً اكثر في ان تروض نفسها على
 ان تألف هذا الذي تدعوه 'نهو' . وعدم تبصره . اما الان فقد تعودنا ذلك .
 نحن نصلي معاً ، ونحن 'نروّع' معاً . ثم نأوي الى الرقاد . ولو قد أراد الشيطان
 نفسه ان يقد على المنزل ، اذن لما اعترض احد سبيله . وايأ ما كان ، فأني شيء
 يدعو الى الخوف في ذلك المنزل ؟ ان معنا دائماً من هو أشد بأساً من كل أحد .
 ان الشيطان قد 'يُلم' بدارنا ، ولكن الرب يسكنها .

« حسي هذا المقدار . لم يعد اخي في حاجة الى ان يتنطق بكلمة واحدة .
 أنا أفهمه من غير ان يتكلم ، ونحن نسلم نفسي الى العناية الالهية .
 » وكذلك ينبغي ان يكون الامر مع رجل نبيل الروح الى هذا الحد .
 » لقد سألت اخي ان 'يُبدلي اليّ' بالمعلومات التي طلبتها عن اسرة دو فو .
 انت تعرفين مدى اطلاعه البعيد في هذا الميدان وغزارة ذكرياته ، اذ كان
 دائماً ملكياً صميماً ، وهذه اسرة نورماندية عريقة من مقاطعة «كان» . إن ثمة
 خمسة عام من سلالة راوول دو فو ، وجان دو فو ، وتوماس دو فو ، الذين
 كانوا من الاشراف ، وكان احدهم سيد روشفور . اما آخرهم فكان غي ايتين
 الكسندر الذي كان قائداً عسكرياً ، وكان يحتل رتبة ما في سلاح الفرسان في
 بروناني . ولقد تزوجت ابنته ماري لويز من أندريان شارل دو غرامون نجل
 الدوق لويس دو غرامون ، احد نبلاء فرنسا الكبار ، وقائد الحرس الفرنسي ،
 وأحد ضباط الجيش المقدّمين . واسم هذه الاسرة يرسم على وجوه مختلفات :

، Fauq و Fauq و Fauc

« عسى ان تسألني نسبيك القدسي ، السيد الكاردينال ، أن يصلي من أجلنا
باسيدي العزيزة . اما غالبتك سيلفاني فقد احسنت صنعاً إذ لم تضع اللحظات
القصار التي تقضيها الى جانبك في الكتابة اليّ . انها في خير ، كما تقولين ، وهي
تعمل وفقاً لمشيتك ، وما تزال تحبني . ذلك كل ما أطمع فيه . لقد تلقيتُ
التذكار الذي بعثت به اليّ ، من طريقك ، واني لسعيدة بذلك . انت صحي
ليست سيئة جداً ، ومع ذلك فانا ازداد هزلاً يوماً بعد يوم .
« وداعاً . لقد طفحت ورقتي ، فيتعين عليّ ان اكفّ عن الكتابة . وتقبلي
الفاً من التمنيات الطيبة .

« باتيستين

« حاشية — ان السيدة زوجة أخيك هي هنا دائماً مع أسرنا الفتية . وان
حفيد أخيك لفاتن حقاً . هل تعرفين انه سوف يبلغ الخامسة من عمره وشيكاً؟
لقد مر به ، امس ، جواد ووضعت له رُكبيات * فصاح : « ما هذا الذي علي
رُكبي ؟ انه غلام لطيف جداً ، وان اخاه الصغير ليسحب مكنسة عتيقة في
الغرفة وكأنها عربية ، ويقول : هي ! »

وهكذا نرى ، من هذه الرسالة ، ان هاتين المرأتين عرفتا كيف تتكيفان
وفق اسلوب الاسقف في الحياة ، بتلك العبقريّة النسوية التي تفهم الرجل خيراً مما
يستطيع الرجل ان يفهم نفسه . والواقع ان اسقف د... كان يقوم في بعض
الاحيان ، تحت هذه الانطباعة العذبة البيضاء القلب التي لم تتغير قط ، بأعمالٍ
عظيمة ، جريئة ، رائمة ، من غير ان يبدو وكأنه يعي ما يفعل . كانتا ترتعدان
ولكنهما لم تتدخلتا . وكانت السيدة ماغلوار تحاول في بعض الاحيان ان
تحذره قبل ان يُقدم على عمل ما ، ولكنها ما كانت لتفعل ذلك وهو يقوم به ،
او بعد ان يقوم به على الاطلاق . ان احداً لم يحاول ، في يوم ، ان يزعجه بكلمة
او بإشارة حول عمل استهله . وفي بعض الاحوال ، حين لا يكون في حاجة الى

« الرُكبية كلمة وضعتها لتقابل كلمة genouillère الفرنسية وكلمة knee-cap الانكليزية
ونمى غطاء الركبة .

ان يقول ذلك ، او لعله حين يكون على غير وعي له ، كانت بساطته كاملة الى درجة تجعلها تحسب احساساً غامضاً انه يعمل كأسقف ؛ وعندئذ ما كانتا لتزيدا على كونها مجرد ظلين في البيت . كانتا تخدمانه من غير اعتراض ، حتى اذا قضت الطاعة بالاخفاء ، اختفتا . لقد ادركنا ، بركة غريزية رائعة ، أن بعض ضروب العناية المحبة المثقفة خليقة بان ترعجه . فهما - حتى حين يبدو لهما انه في خطر - تفهمان طبيعته ، ولا اقول فكرة ، الى درجة تحملهما على الكف عن رعايته والسهر عليه . كانتا تسلمان أمره الى الله .
والى هذا ، فقد قالت باتيستين ، كما رأينا ، أنت موت أخيها يعني موتها .
اما السيدة ماغوار فلم تقل ذلك ، ولكنها عرفت .

١٠

الاسقف في حضرة ضياء مجهول

وقيل تاريخ الرسالة التي أثبتناها في الصفحات السابقة قام الاسقف بعمل اعتقدت البلدة كلها انه اشد نهوراً وأفضل بالخطر من رحلته عبر الجبال التي يهيم عليها قطاع الطرق .

ففي الريف المجاور لبلدة د ... كان رجل "يحيا في عزلة . وكان هذا الرجل - وانتقل الكلمة الضخمة المذهلة من غير ما مقدمة - عضواً في « المؤتمر الوطني » . *
كان يدعى ج ...

وفي عالم د ... الصغير كان الناس يتحدثون عن عضو « المؤتمر الوطني » هذا في ضرب من الرعب . عضو في « المؤتمر الوطني » ، هل تتصور ذلك ؟ إن هذا

* Convention Nationale البرلمان الثوري الذي خلف « الجمعية التشريعية » في ٢٠ ايلول ١٧٩٢ وحكم فرنسا حتى ٢٦ تشرين الاول ١٧٩٥ . ومن أعماله أنه أعلن الجمهورية ، وأدان لويس السادس عشر . وكان يتألف باديء الامر من احزاب ثلاثة : الجيرونديين ، وحزب الجبل Montagnards وحزب السهل la Plaine .

يرقى الى ذلك العهد الذي كان الناس يتخاطبون فيه بضمير المفرد (tu) ويقولون : « أيها المواطن ! » لقد كاد ذلك الرجل ، أن يغدو 'هولة' * أو غولاً . إنه لم يصوت مع إعدام الملك ، ولكنه اوسك ان يفعل . كان نصف قاتلٍ من قسلة الملوك ؛ وكان فظيماً . وإلا فكيف جاز ان لا يُدعى هذا الرجل ، لدنّ عودة الامراء الشرعيين ، الى المثول أمام محكمة عسكرية ؟ ومن يدري ، فلعلّ تلك المحكمة ما كانت خليقةً بأن تصدر حكمها بقطع رأسه ، ولكن حتى لو أخذ القضاة بأسباب الشفقة إذن لكانوا خليقين بأن يحكموا عليه بالنفي مدى الحياة . والواقع انها كانت جديرةً بأن تجعل منه آخر الامر امثلة لغيره ، الخ . الخ . والى هذا فقد كان زنديقاً ، شأن أولئك القوم جميعاً - ثرثرة إوز ضدّ النسر . ولكن هل كان ج ... هذا نسرأ ؟ نعم ، اذا كان المرء ان يجيب على اساس من وحشية عزائه . ذلك بأنه وقد أحجم عن التصويت لقتل الملك لم تشمله أحكام النفي ، فهو قادرٌ على البقاء في فرنسا .

كان يجيا على مسيرة ثلاثة ارباع الساعة من البلدة ، بعيداً عن اية دسكرة أو طريق ، في أخدود منعزل من أخاديد واديٍ موحش جداً . لقد قيل إنه كان له هناك ضربٌ من القبر ، أو قل كان له هناك 'جحر' أو كهف . فلا جيران ، بل لا عابري سبيل . فمنذ ان أقام في هذا الوادي الضيق غمر العشب الطريق المؤدية الى مأواه ذاك ، وطفق الناس يتحدثون عن ذلك الموضع وكأنه بيت 'جلاد' . ومع ذلك ، وبين الفينة والفينة ، كان الاسقف يلتفت مفكراً نحو الافق حيث كانت احدى الفياض تنتصب شاهداً على وادي البرلمان العجوز ، ويقول : « هناك تعيش نفسٌ متوحدة . »

وفي اعماق تفكيره كان يضيف : « انا مدين له بزيارة . » بيد انه يتعين علينا ان نعتف بان تلك الفكرة ، برغم انها بدت طبيعية أول الامر ، ما لبثت ان تراءت له بعد لحظة من التأمل غريبةً ، متعذرة ، بل وكريهة تنقرز منها النفس أو نكاد . ذلك بأنه كان في أعماق ذاته يشارك القوم

* الهولة : العجب . يقال : وجهه 'هولة' من الهول .

انطباعهم عن عضو « المؤتمر الوطني » هذا ، وكان الرجل المعجوز يوقع في نفسه ، من غير ان يدري كيف ، تلك العاطفة التي هي تحنم الكراهية ، والتي تعتبر عنها لفظة الاشتمزاز احسن تعبير .

ولكن الراعي ينبغي أن لا يحفّو الحروف المريض . آه ، ولكن ايّ حروف !

واستبدّ الارتباك بالاسقف الصالح : لقد مشى أحياناً في ذلك الانجاء ؛ ثم انقلب على عقبيه .

وأخيراً سرى ذات يوم ، في البلدة ، نبأ يقول بأن فتىً من الرعاة كان يخدم عضو « المؤتمر الوطني » ج . . . في مأواه البري قد وفد على المدينة التماساً لطبيب . وان الأثيم المعجوز يحتضر ، وان الشلل قد ألمّ به ، فليس في استطاعته ان يعيش حتى مطلع الفجر . واذاف بعض القوم : « شكر الله ! »

واخذ الأسقف صولجانه ، وارتدى معطفه ، لان ثوبه الكهنوتي كان بالياً جداً ، كما سبق منا القول ، ولأن ريح المساء كانت على وسك ان تهب ، وانطلق .

كانت الشمس تبحج للغييب ، وكانت قد مسّت الافق أو كادت عندما انتهى الاسقف الى البقعة اللينة المحرّمة . واستشعر بعض السرعة في النبض فيما هو يقترب من الجحضر . ووثب فوق حفرة ، وازال بعض الأشواك المعترضة . وشق طريقه عبر سياج من الاغصان الملتفة ، فاذا به يجد نفسه في وسط جنيّة خربة . ثم انه تقدّم في جراءة خلال الارض الموات فاكتشف فجأة ، خلف دغل عال ، مغارة الرجل المعجوز .

كانت كوخاً خفيضاً حقيراً ، كوخاً صغيراً نظيفاً قام عند واجهته عريش مُسمّر .

وامام الباب ، وفي كرسي عتيق ذي دواليب ، جلس رجل أشيب ، وأنشأ يحدّق الى الشمس المحتضرة في نظرة باسمة .

والى جانب المعجوز الجالس في كرسيه وقف غلام غضّ العود ، هو الراعي

الصغير . لقد قدّم الى العجوز وعاء من اللبن .

وفيما الاسقف ينظر ، رفع العجوز صوته :

« شكرآ . انا لن احتاج بعد الى شيء . »

وفارقت ابتسامته الشمس لكي تستقرّ على الغلام .

وتقدّم الاسقف الى امام . وحدثت خطواته بعض الضجة ، فقتل الرجل

العجوز رأسه ، وعبر بحياه عن اعظم مقدار من الدهش يمكن لامرئ ان يعرفه بعد حياة طويلة .

وقال : « هذه اول مرة يزورني فيها زائر منذ ان أقمت هنا . من انت ،

يا سيدي ؟ »

فأجاب الاسقف : « انا أدعى بينفينو ميريل . »

« بينفينو ميريل ؟ لقد سمعت هذا الاسم من قبل . أأنت ذلك الذي

يدعوه الناس مونسينيور بينفينو ؟ »

« انا هو . »

واضاف الرجل العجوز بنصف ابتسامة : « إذن ، فانت أسقي ؟ »

« جاز . »

« أدخل ، يا سيدي . »

وبسط عضو « المؤتمر الوطني » يده الى الاسقف ، ولكنه لم يمسه . لقد

اكتفى بالقول :

« انا سعيد بأن أجد أنهم قد خدعوني . إنك لا تبدو في عيني مريضاً

حقاً . »

فأجاب الرجل العجوز : « سوف أشفى عما قريب . »

ونَهَل لحظة ثم قال : « سوف أموت في مدة لا تتجاوز ثلاث ساعات . »

وبعد ذلك اضاف :

« انا طيب الى حد ما . انا اعرف الخطوات التي يقترب الموت بها . أمس

كانت رجلاي وحدهما باردتين . أما اليوم فقد زحف البرد الى رُكبتَيّ . وها انا

أحسنّ به الآن يتقدّم حتى الحضر . وحين يمسّ القلب ، فعندئذ أنتهي . إن الشمس جميلة ، أليس كذلك ؟ لقد كرّرتُ كرسّي هذا بنفسّي لكي ألقى نظرةً أخيرةً على الطبيعة . في استطاعتك ان تتحدث اليّ . إن ذلك لن يُتعبني . لقد احسنتُ صنعاً ببعيئك لتري رجلاً في النزاع الأخير . فمن الجميل ان يشهد هذه اللحظات بعضُ الشهود . ان لكل منا اطواره الغريبة ؛ فأنا أودّ لو اعيش حتى يوقع الضحى ، ولكنني أعلم أن الاجل لن يمتدّ بي اكثر من ثلاث ساعات على وجه الكثير . وعندئذ سوف يهبط الظلام . ولكن ايّ بأس في ذلك ! إن الانتهاء مسألة هيّنة . والمروء لا يحتاج في هذا الى صباح . ليكن الامر كذلك . سوف أموت في ضوء النجوم .

والتفت الرجل المعجوز الى الراعي الحدث :

— « اذهب الى الفراش ايها الغلام الصغير . لقد سهرت الليلة البارحة . انت

متعب . »

ودخل الغلام الكوخ .

وأنتبهَ الرجل المعجوز نظره واضاف وكأنه يخاطب نفسه : « فيها هو نائم ، سوف أسلم الروح . وهكذا يكون في ميسور الرقادين ان يتجاوزا بحـبـورة حنة . »

ولم يغلب التأثر على الاسقف بقدر ما كان مُنتظراً . فهو ما كان يعتقد بأن في ميسور المروء ان يتروح عقب الله بالموت على هذه الشاكلة . والحق ان علينا ان نقول كل شيء ، فالتناقضات الصغيرة التي تتردى فيها القلوب الكبيرة يجب ان يُنصّ عليها . ومن هنا يتعيّن علينا ان نذكر انه هو الذي طالما ضحك ضحكاً قلبياً من لقب « صاحب العظمة » أصيب بعض الشيء بصدمة حين لم يُدعَ مونسينيور او صاحب السيادة ، وكان على وشك ان يُغرى بالردّ فيخاطب ذلك الرجل المعجوز بقوله : « ايها المواطن ! » لقد استشعر رغبة في اصطناع تلك الدالة الفظة الشكوة المألوفة عند الاطباء والكهنة ، والتي لم يتعوّدها هو . فقد سبق لهذا الرجل ، على اية حال — هذا العضو القديم في « المؤتمر الوطني » ، هذا

النائب عن الشعب - أن كان قوة على هذه الأرض . ولعلها أول مرة استشعر الاسقف فيها نزعة الى ان يكون قاسياً .

ومع ذلك فقد عامله عضو « المؤتمر الوطني » في احترام ومودة محتشمة ربما كان في ميسور المرء ان يلجح فيها تلك الوداعة التي تليق بمن كان على مثل هذا القرب من توسد التراب .

اما الاسقف فلم يستطع - برغم احترامه على العموم من سلطات الفضول الذي كان في اعتقاده محاذياً للعدوان - ان يجتنب مراقبة عضو « المؤتمر الوطني » في انتباه كان ضميره خليقاً بأن يؤنبه عليه - بوصفه غير منبثق عن العطف والمشاركة الوجدانية - لو تكشف عن مثله نحو اينا رجل آخر . بيد انه كان ينظر الى عضو في « المؤتمر الوطني » نظراته الى خارج على القانون ، حتى على قانون المحبة .

كان ج ... برباطة جأشه ، وجلسه التي توسك ان تكون منتصبه ، وصوته المتهدج ، واحداً من اولئك المعمرين ذوي الوجوه النسيطة ، البالغين سن الثمانين ، والمثيرين دهش علماء الفيزيولوجيا . والواقع ان الثورة قد أنجبت كثيراً من هؤلاء الرجال المتكافئين وتلك الحقة . إن المرء ليحسّ ههنا انه امام رجل غوس بالتجاوب . لقد احتفظ بمظاهر الصحة كلها ، رغم انه أمسى من الموت قاب قوسين أو ادنى . ولقد بدت نظراته المشرقة ، ولمحته الحازمة ، وحركات كتفيه القوية وكأنها تكاد تبليبل الموت وتحيره . والحق ان عزرائيل ، ملاك الموت عند المسلمين ، كان خليقاً بأن ينكص على عقبيه ظاناً انه قد أخطأ الباب . لقد بدا ج ... وكأنما يموت لانه اراد ان يموت . كان ثمة حرية في نزعه الاخير . كانت ساقاه وحدهما مشلولتين . لقد تشبثت به الظلمات من هناك . كانت قدماه ميتتين باردتين ، ولكن رأسه عاش بقوة الحياة بكاملها ، وبدأ مشرقاً يحف به النور . لقد بدا ج ... في تلك اللحظة المهيبة اشبه شيء بذلك الملك الذي زحمت الحكاية الشرقية ان نصفه الاعلى كان من لحم ، ونصفه الادنى كان من رخام . وكان ثمة حجر ، فجلس عليه الاسقف . وكان استهلال الخطاب فجائياً ومن

غير ما مقدمة .

قال الاسقف في جرس مؤنب : «إني اهنتك . انت على الاقل لم توافق على إعدام الملك .»

ولم يبدُ ان عضو « المؤتمر الوطني » قد لاحظ التوكيد المبرر الكامن في كلمتي « على الاقل » . فأجاب ، وقد فارق الابتسام كله وجهه :
- « لا نهني اكثر مما ينبغي ، ياسيدي . لقد أعطيت صوتي لتعطيم الطاغية . »

كانت هي لهجة الصرامة تواجه لهجة القسوة .
وسأله الاسقف : « ماذا تعني ؟ »

- « اريد ان اقول ان للانسان طاغية ، هو الجهل . لقد اعطيت صوتي لاقضاء على هذا الطاغية . لقد واد هذا الطاغية الملكية ، وهي السلطة المنبثقة من الزيف في حين ان العلم هو السلطة المنبثقة من الحقيقة . ينبغي ان لا يحكم إلا بسلطان العلم . »

- « والضمير . » كذلك اضاف الاسقف .

- « لا فرق . إن الضمير هو العلم الفطري الذي في ذات نفوسنا . »
وأخفى مونسيور بينفينو ، دهشاً بعض الشيء ، لهذه اللغة التي لم يسمع مثلها من قبل .

وتابع عضو « المؤتمر الوطني » كلامه :

- « في ما يتعلق بلويس السادس عشر : لقد قلت ' لا ' . انا لا اعتقد ان لي الحق في ان اقتل إنساناً ؛ ولكنني اشعر ان من الواجب عليّ ان استأصل الشر .
لقد أعطيت صوتي لأسقاط الطاغية . يعني لانقاذ المرأة من البغاء ، والرجل من العبودية ، والطفل من الجهل . لقد اعطيت صوتي لهذا ، حين اعطيته للجمهورية .
لقد صوتتُ للساواة ، للوفاق ، للنور . لقد ساعدت على إسقاط الاحقاد والاختفاء . إن انهيار الاختفاء والاحقاد يبعث النور . لقد قرّضنا دعائم العالم القديم ؛ حتى اذا انقلب ذلك العالم ، وهو إثم من الشقاء ، على الجنس البشري ،

غدا قارورة من الابتهاج . »

فقال الاسقف : « إنه ابتهاج مشوب ، غير صاف . »

- « في استطاعتك ان تقول : ابتهاج كدر . والان ، بعد عودة الماضي المشؤومة التي ندعوها ١٨١٤ * ولى الابتهاج . وأسفاه ! انا اقر بان العمل كان منقوصاً . لقد هدمنا النظام القديم في الاعمال ، ولكننا لم نستطع ان نقضي عليه قضاء كاملاً في الافكار . إن تحطيم الفساد وحده لا يكفي ؛ يتعين علينا ان نغير العادات . لقد ذهبت الطاحونة الهوائية ، ولكن الريح ما تزال هناك . »

- « لقد هدمتم . إن الهدم قد يكون مفيداً ، ولكني لا أثق بهدم بمازجه الغضب . »

- « إن للعدالة غضبها ، ياسيدي الاسقف . وغضب العدالة عامل من عوامل التقدم . وعلى الرغم من جميع المزاعم فإن الثورة الفرنسية هي اعظم خطوة خطاها الجنس البشري ، في ميدان التقدم ، منذ مجيء المسيح . قد تكون غير كاملة ، ولكنها سامية رفيعة الذرى . لقد حلت جميع روابط المجتمع السرية . لقد رقت جميع القلوب . لقد سكنت ، وهدأت ، وأناوت . لقد جعلت امواج المدنية تجري على وجه الارض . لقد كانت طيبة . الثورة الفرنسية ... إنها تكريس الانسانية . »

ولم يستطع الاسقف إلا ان يتعم : « أجل ، ٩٣ ! » **

فرفع عضو « المؤتمر الوطني » نفسه ، في كرسيه ، بجلال يكاد يكون فاجعاً ، وصاح على قدر ما يستطيع محتضر : ان يصيح :

- « آه ، لقد وصلت ! عام ٩٣ ! لقد كنت اتوقع ذلك . سحابة تشكلت طوال الف وخمسة سنة ، وعند نهاية تلك القرون الخمسة عشر انفجرت . وإنك

* هو العام الذي شهد سقوط نابوليون ونفيه الى جزيرة ألبا (٢٠ نيسان ١٨١٤)

** يقصد عام ١٧٩٣ الذي زرعت فيه فرنسا الجمهورية تحت وطأة « الهول » Terreur ابتداء من سقوط الجيرونديين (٣١ نوار ١٧٩٣) الى سقوط روبسبير (٢٧ غوز ١٧٩٤) وقد غير بالنفوذ المطلق الذي تمّ للجنة السلامة العمومية في باريس ، ونشر « قانون المشبوهين » ، وإعدام المواطنين بأعداد كبيرة .

تدنين الصاعقة . »

واستشعر الأسقف ، وربما من غير ان يعترف بذلك ، أن شيئاً في ذات نفسه قد أودى . ولكنه تقبل الامر في صبر وأجاب :

« ان القاضي يتكلم بلسان العدالة ؛ أما الكاهن فيتكلم بلسان الرحمة ، التي لا تعدو ان تكون عدالة أسمى وأرفع . إن الصاعقة ينبغي أن لا تخطيء . »
قال هذا ثم اضاف محققاً الى عضو « المؤتمر الوطني » :

« ولويس السابع عشر ؟ »

فبسط عضو « المؤتمر الوطني » يده وأمسك بذراع الاسقف .

« لويس السابع عشر . دعنا نرى ! على من تبكي ؟ على الطفل البريء ؟
ليكن ذلك اذن . انا ابكي معك . على الطفل الملكي ؟ انا اطلب مهلة للتفكير .
ذلك بأنني اعتقد ان اخا كارنوش * ، وهو طفل بريء ، علق بمجمل وُضع تحت
ذراعيه في ساحة « غريف » حتى مات ، وكلّ جريمته انه اخو كارنوش ، ليس اقل
اثارة للشجن من حفيد لويس الخامس عشر ، وهو طفل بريء قُتل في برج
« تامل » وكلّ جريمته انه حفيد لويس الخامس عشر . »

فقال الاسقف : « انا اكره هذا الربط بين الاسماء ، يا سيدي . »

« كارنوش أم لويس الخامس عشر ؟ على ايها تعترض ؟ »

وران الصمت لحظة . وكاد الاسقف أن يندم على مجيئه . ومع ذلك ، فقد
استشعر ان عاطفة الشفقة قد اثرت فيه على نحو غامض لا سبيل الى تفسيره .
واردف عضو « المؤتمر الوطني » :

« اوه ، يا سيدي الكاهن ! أنت لانتخب قسوة الحق ، ولكن المسيح أحبها .
لقد تناول سوطاً وطهر الهيكل . ولقد كان سوطه البارق ناطقاً خنثاً
بالحقائق ؛ وهو حين قال « دعوا الاولاد يأتون الي » لم يميز بين الاطفال . انه لم

* Cartouche زعيم عصابة من اللصوص ، ولد في باريس ، وأميت على دولاب التذويب في

ساحة غريف . (١٦٩٣ - ١٧٢١)

يتألم للجمع ما بين ابن باراباس * البكر وبين ابن هيرودس * * البكر . ان
البراءة هي تاجها عينه ، يا سيدي ، وليس للبراءة الا ان تعمل حتى تغدو نبيلة !
انها فضيحة في الاسمال البالية بقدر ما هي فضيحة في الغلائل الموساة بازهار
السوسن ! »

فقال الاسقف في جرس خفيض : « هذا صحيح . »
فتابع الرجل المعجوز : « اكرر . لقد ذكرت لويس السابع عشر . دعنا
نبكي معاً جميع الابرياء ، جميع الشهداء ، جميع الاطفال ، سواء منهم من كان
وضيعاً أو من كان رفيحاً . أنا واحد منهم . ولكن عندئذ ، كما سبق ان قلت
لك ، يتعين علينا ان نوجع الى ما قبل عام ٩٣ ، ويتعين على دموعنا ان تبدأ قبل
لويس السابع عشر . أنا مستعد لأن أبكي أولاد الملوك معك ، اذا بكيت معي
أبناء الشعب الصغار ! »

فقال الاسقف : « انا أبكيهم جميعاً . »
فصاح ج ... : « على قدم المساواة ! واذا رجعت كفة الميزان فليكن
بكاؤك في جانب الشعب . لأن أبناء الشعب قاموا الآلام . منذ عهد أبعد
بكثير . »

وران الصمت ، كرة اخرى ، ليقطعه آخر الامر عضو « المؤتمر الوطني » . لقد
رفع نفسه على احد رفقيه ، وحصر جزءاً من خدّه بين ابهامه وسبابته المثنية كما
يفعل المرء على نحو ميكانيكي حين يستجوب أو يحاكم ، ووجهه الخطاب الى الاسقف
في نظرة حافلة بطاقات الغزع الاخير كلها . وكاد كلامه ذاك ان يكون انفجاراً .
— « اجل يا سيدي ، لقد قاسى الشعب الآلام منذ عهد أبعد بكثير .
وليس هذا ، بعد ، هو كل شيء . لماذا جئت تستطقي وتحديثني عن لويس

* باراباس يهودي كان قد القي به في السجن ، حين سيق يسوع الى والي « اليهودية »
بلاطس البنطي ، بتهمة القتل . حتى اذا خير بلاطس اليهود ، لمناسبة الفصح ، بين اطلاق سراح
باراباس واطلاق سراح المسيح آثروا المجرم ، على البريء . ولا يزال الاوروبيون يقولون في
امثالهم الى اليوم : « فلان يفضل باراباس على يسوع . »
* * ملك « اليهودية » من عام ٣٩ الى عام ٤٠ ق . م .

السابع عشر ؟ انا لا أعرفك . منذ ان وفدت على هذا الاقليم وأنا أعيش وحيداً ضمن هذه الجدران ، غير منطلق الى ما وراءها البتة ، غير مشاهدٍ احداً غير هذا الطفل الذي يساعدني . صحيح أن اسمك قد انتهى اليّ على نحوٍ مختلطٍ غامض ، وان يكن ، كما ينبغي ان أقول ، محدوداً بعض الشيء ، ولكن هذا لا يغير من الامر شيئاً . ان للمهرة من الناس اساليب كثيرة لمحادثة هذا الشعب البسيط الطيب . فأننا ، مثلاً ، لم نسمع جلبةً مر كبتك . ولا ريب في انك قد غادرتها خلف الغابة ، هناك عند مفترق الطريق . لقد قلت لي انك كنت اسقي ، ولكن هذا لا يعطيني اياً فكرة عن شخصيتك الخلقية . وعلى اية حال ، فأننا اكرر سؤالي : من أنت ؟ أنت اسقف ، أمير من امراء الكنيسة ، واحد من اولئك الرجال المثقلين بالذهب ، وأشعرة الشرف ، * والثروة ، الفاترين بدخل ضخم — دار أسقفية د ، خمسة عشر الف فرنك ثابتة ، وعشرة آلاف فرنك عارضة ، تبلغ في مجموعها خمسة وعشرين الف فرنك — واحد من اولئك الرجال الذين ينعمون بمطابخ ، وبخدم وأتباع ، والذين يولون الولاثم الجيدة ، ويأكلون دجاج الماء يوم الجمعة ، والذين يتبخفون في مركباتهم المزخرفة ، كالطواويس ، بتقديم الخدم من أمام ، وبينهم الخدم من وراء ، والذين يسكنون القصور ، وينطلقون في العربات بامم يسوع المسيح الذي كان يمشي حافياً ! أنت كبر من الاحبار . عائدات سنوية ، وقصور ، وجياد ، وخدم ، وموائد شهية ، وجميع ملذات الحياة الحسية — كل ذلك غلكه كما يملكه غيرك من الناس ، وكل ذلك تستمتع به كما يستمتع به غيرك من الناس . حسن جداً ، ولكن هذا ينطق باكثر مما ينبغي ، أو بما هو دون الكفاية . انه لا يلقي ضوءاً على قيمتك الذاتية والجوهرية ، انت الذي لا يُستبعد ان تكون قد جئت الى هنا بدعوى تزويدي بالحكمة . مع مَنْ أتحدث ؟ من انت ؟

* جمع شمار .

وحنى الاسقف رأسه وأجاب : * *Vermis sum* .

فغمغم عضو المؤتمر الوطني : « دودة ارض في عربة ! »
لقد جاء دور الرجل العجوز في الصلّاف ، ودور الاسقف في التواضع .
واجاب الاسقف في دمائه :

« .. ليكن ذلك يا سيدي . ولكن اشرح لي كيف نستطيع عربتي الواقعة
على بضع خطوات وراء الاشجار ، ومائدتي الحافلة ، ودجاج الماء الذي
أطعمه يوم الجمعة ، ودخلي البالغ خمسة وعشرين ألف ليرة ، وقصري ،
وخدمي - كيف يستطيع هذا كله أن يقيم الدليل على أن الشفقة ليست فضيلة ،
وأن الحلم ليس واجباً ، وإن عام ٩٣ لم يكن خلواً من الرحمة ؟ »
وأمر عضو المؤتمر الوطني يده عبر جبينه ، وكأنه يطرد سحابة .

وقال : « قبل ان اجيبك ، ألتمس منك العفو . لقد ارتكبت خطأ ، يا
سيدي . أنت في منزلي ؛ أنت ضيفي . ان لك عليّ حق اللطف والبشاشة . إنك
تناقش آرائي ، فمن الخير ان أقصر نفسي على دحض حججك . إن ثروتك
ومتوافك هي أشياء تقوّي مركزي في مناظرتك ، ولكن حسن الذوق يقضي
بأن لا أفيد منها . انا اعدك بأن لا اصطنعها كرة اخرى . »
فقال الاسقف : « أشكرك . »

وتابع ج : « لنعد الى الشرح الذي سألتني إياه . اين كنا ؟ ما الذي
كنت تقوله لي ؟ ان عام ٩٣ كان خلواً من الرحمة ؟ »

فقال الاسقف : « اجل ، خلواً من الرحمة . ما قولك في مارا ** يصفق لدى

المقصلة ؟ »

« وما قولك في بوسوويه *** ينشد تسبحة الشكر فوق مجازر

* تعبير لاتيني معناه : أنا دودة .

** *Marat* احد زعماء الثورة الفرنسية . كان عضواً في « المؤتمر الوطني » شديد الوطأة على
الجيرونديين ، وعلى الملك لويس السادس عشر يوم محاكمته . مات قتلاً بطمعة سددتها اليه شارلوت
كورداي . (١٧٤٣ - ١٧٩٣)

*** *Bossuet* اسقف فرنسي اشتهر بمواعظه التي تعتبر آية في البلاغة . (١٦٢٧ - ١٧٠٤)

كان الجواب قاسياً ولكنه اصاب هدفه بثل مضاء الخنجر . وارتعد الاسقف ، ولم يجر جواباً . ولكن صدّمة الحديث عن بوسوييه على هذه الشاكلة . والواقع ان لأكرم الناس او ثائهم التي يعبدونها ، وانهم يشعرون في بعض الاحيان ان قلة الاحترام التي يبديها المنطق نحو تلك الاصنام تكاد تحقّقهم حقاً .

وشرع عضو المؤتمر الوطني ، يلهث . كان 'بهر' النزاع الذي يمتزج بالنفس الاخير قد جعل صوته متقطعاً خافتاً . ومع ذلك فقد كانت عيناه ما تزالان تؤذنان بصحو كامل . وتابع :

— « لنقل بضع كلمات اخرى في هذا الموضوع او ذاك — انا ارغب في ذلك . ففي خارج الثورة التي كانت ، اذا نظر اليها ككل ، تو كيداً انسانياً ضخماً ، 'يعتبر عام ٩٣ ، وأسفاه ، هو الجواب الاخير . انت تعتبره خلواً من الرحمة ، ولكن ما قولك في الملكية كلها ، يا سيدي ؟ لقد كان كارييه * قاطع طريق ، ولكن اي اسم تطلقه على مونتروفيل ؟ وكان فوكييه تينفيل *** صعلوكاً ، ولكن ما رأيك في لاموانيون بافيل ؟ **** وكانت ماتيار ***** مروعة ،

* لفظ يطلق على حركة الاضطهاد التي انزلت ببيروستانت فرنة الجنوبية قبل براءة « ثانت » وبمدها ، والتي نظّمها فرسان الملك المروفون بال « دراغون » dragons ، ومناها في الاصل التبن . (١٦٨١ - ١٦٨٥)

** Carrier احد اعضاء « المؤتمر الوطني » . ارتكب فظائع مروعة في ثانت . وقد اعدم عام ١٧٩٤ .

*** Fouquier - Tinville هو النائب العام في المحكمة الثورية . وكان يزود المفصلة ، في عهد الارهاب ، بيل من الضحايا لا ينضب . اعدم سنة ١٧٩٥ .

**** Lamoignon Baviile محافظ مونبيليه ، اشتهر بقسوته في اضطهاد البروتستانت (١٦٤٨ - ١٧٢٤)

***** Stanislas - Marie Maillard ثروة فرنسية شهيرة شاركت في الاستيلاء على الباستيل وفي مجازر ايلول . (١٧٦٣ - ١٧٩٤)

ولكن اي شيء تقوله في سولكس تافان * من فضلك ؟ وكان « الاب
دوشين » ** ضارباً ، ولكن اي صفة يمكن ان نعلمها على « الاب لوتيليه » ؟ ***
وكان جوردان قاطع الرؤوس **** غولاً ، ولكنه كان دون المراكز
دو لوقوا ***** وحشية . ياسيدي ، ياسيدي ، أنا أرتي لما ري أنطوانيت ،
بوصفها كبيرة الدوقات وملكة ، ولكني أرتي ايضاً لتلك المرأة
الهوغونوتية ***** البائسة التي جردت من ثيابها حتى الحصر ، ياسيدي ، سنة
١٦٨٥ ، وفي عهد لويس الكبير ***** ، وُسدت الى وتد وقد هُجِل
رضيعها على مسافة منها ، وتفجر ثديها لبناً ، وتفتقر قلبها أمي . حتى اذا
وقعت عينا الرضيع ، الجائع الشاحب ، على الثدي ، بكى بكاء مريراً . فقال
الجلاد للمرأة ، للأم المرضعة : « ارتدي عن دينك ! » تخيراً اياها بين موت طفلها
وموت ضيعها . ما قولك في هذا التعذيب التاتالي ***** يُنزل بأم ؟
ياسيدي ، لا تنسَ هذا : إن للثورة الفرنسية اسبابها . إن المستقبل سوف يغفر لها
غضبها . أما نتيجتها ، فهي العالم الافضل . ومن ضرباتها الأشد فطاعة تنبثق

* Saulx Tavannes مارشال فرنسة (١٥٠٩ - ١٥٧٣) وكان من منظمي
مذبحة القديس برنيلوس الشهيرة والموحين بها .

** Le Père Duchesne هو الاسم المستعار لـ « هير » احد زعماء الثورة الفرنسية
وكان يصدر بهذا الاسم صحيفة امتازت بمنهجها الثوري فيه . (١٧٥٧ - ١٧٩٤)
*** Le Tellier كاهن يسوعي كان آخر مرشد للويس الرابع عشر (١٦٤٨ -
١٧١٩) .

**** Jourdan Coupe - Tête احد اربابي « البروفانس » البارزين . وقد أُعدم
سنة ١٧٩٤ .

***** de Louvois سياسي فرنسي نظم جيش لويس الرابع عشر وانزل بالبروتستانت
القطع الاضطهاد . (١٦٤١ - ١٦٩١)
***** يقصد بالهوغونوت Huguenote بروتستانت فرنسة .

***** لويس الرابع عشر ، وقد حكم فرنسة من سنة ١٦٤٣ الى سنة ١٧١٥
***** نبة الى « تانتال » أو تانتالوس Tantalus ، وهو في الميثولوجيا الاغريقية
ملك فني ، ابن زيوس وابو « يلويس » و « نوب » . وعقاباً له على اقشائه اسرار زيوس
مُخْطس حتى ذقه في الماء وقد تدلت فوق رأسه الثمار اليانعة ولكن كلما من الماء والفاكهة كان يفر
منه كلما حاول ان يشوقه .

ملاطفة للجنس البشري . يجب ان اوجز . يجب ان اصمت . لقد صنعت لي
فرصة ملائمة لذلك . اني اموت .
واذ كف الرجل المعجوز عن النظر الى الاسقف ، أتم فكرته بهذه الكلمات
القليلة الهادئة :

— و أجل ، إن فطائع التقدم تدعى ثورات . حتى اذا انتهت ادركنا هذا :
أنّ الجنس البشري قد عومل في قوة ، ولكنه تقدم شوطاً
الى أمام .

ولم يشكّ عضو « المؤتمر الوطني » في أنه ذلك حصون الاسقف الداخلية كلها ،
واحداً اثر واحد . بيد انه بقي ثمة حصن مفرد ؛ ومن هذا الحصن الذي كان
مصدر المقاومة الرئيسي عند مونسينيور بينفينو ، انطلقت هذه الكلمات التي
برزت فيها من جديد قوة الاستهلال كلها تقريباً :

— و يتعين على التقدم ان يؤمن بالله . والخير لا يمكن ان ينهض به رجل
ملحد . إن الكافر قائد رديء للجنس البشري .

ولم يجب يمثل الشعب المعجوز . كان يرتعد . كان يرنو الى السماء . وشيثاً
بعد شيء تجمعت في عينه دمة . حتى اذا امتلأ الجفن تدحرجت الدمعة على
خده الازرق الضارب الى السواد ، وقال في ما بينه وبين نفسه بصوت خفيض
يكاد يكون متلعججاً ، وقد تاهت عينه في الأعماق :

— « ايه أنت ! أيها المثل الأعلى ! أنت وحدك الموجود ! »
واستشعر الاسقف ضرباً من الانفعال الذي لا يُعتبر عنه .

وبعد صمت قصير رفع الرجل المعجوز احدى اصابعه الى السماء وقال :
— « اللانهاية موجودة . إنها هناك . واذا لم يكن للانهاية « انا » ، فعندئذ
تكون الـ « انا » تخفّفها ؛ وعندئذ لا تكون لانهاية . وبكلمة اخرى ، إنها لا
تكون موجودة . ولكنها موجودة . وإذن فإن لها « انا » . و « انا » اللانهاية
هذه هي الله . »

لقد نطق الرجل المختصر بهذه الكلمات الاخيرة في صوت عالٍ ، وفي رعدة

الغيبوبة وكأنما كان يرى أحداً . حتى إذا فرغ من قولها اغتمضت عيناه . كانت الجهد قد أنهكه . وكان واضحاً أنه عاش في دقيقة واحدة تلك الساعات القليلة التي بقيت له . كان الكلام الذي نطق به قد قرّبه الى عالم الموت . لقد حانت اللحظة الأخيرة .

وادرّك الأسقف ذلك ؛ وزحمته اللحظة . لقد أقبل الى هنا بوصفه كاهناً . وكان قد انتقل شيئاً بعد شيء من أقصى البرود الى أقصى الانفعال . ورنّا الى تلك العينين المغمضتين ، وأمالك بتلك اليد المتعصّنة الثلجية وانحنى نحو الرجل المحتضر .

« هذه الساعة هي ساعة الله . ألا تظن أن من دواعي الأسف أن يُقدّر للقائنا ان يكون عبثاً لا طائل تحته ؟ »

وفتح عضو « المؤتمر الوطني » عينيه كرةً أخرى . كانت الرصانة قد انطبعت على بحياه حيث خيمت سحابة من قبل .

وقال في تهمل لعله نشأ عن كبرياه نفسه أكثر مما نشأ عن خوار في القوى :
« يا سيدي الأسقف ، لقد قضيت حياتي في التفكير ، والدرس ، والتأمل .

ولقد كنت في السنين من عمري حين دعيتي بلادي وأمرتني بأن اسأرك في شؤونها . ولقد امتثلت الأمر . كان ثمة مساوىء ، فعارببتها . وكان ثمة ضروب من الطغيان ، فعطمتها . وكان ثمة حقوق ومبادئ ، فأعلنيتها وصرتُ باعقادي بها . لقد غزيت الأرض الفرنسية ، فدافعتُ عنها . لقد هدّدت فرنسا بالخطر ، فقدمتُ لها صدري . أنا لم اكن غنياً ؛ أنا فقير . لقد كنتُ واحداً من المهيمنين على مقاليد الدولة ، وكانت أقيّة المصرف مثقلةً بالاموال بحيث تعين علينا ان ندعم الجدران وإلا سقطت تحت وطأة الذهب والفضة . كنت اتناول طعام الغداء في شارع دو لاربر سيك باثنين وعشرين « سو » * للوجبة الواحدة . لقد أغثتُ المظلومين ، وواسيتُ المعذّبين . لقد مزّقتُ غطاء المذبح ، هذا صحيح ، ولكنني فعلتُ ذلك لكي أضمد جراحات الوطن . لقد أيدتُ ابداً

* « سو » sou جزء من عشرين من الفرنك .

سير الجنس البشري نحو النور، وقاومت، في بعض الاحيان، تقدماً لا ينطوي على رحمة . لقد أسبغت حمايتي ، في بعض المناسبات ، على اعدائي انفسهم ، يعني على اصدقائك . وفي بيتيفهام من اعمال الفلاندر ، في ذلك المكان عينه الذي نهض فيه قصر الملوك الميرفتجين * الصيفي ، يقوم دير الاوربانيين - دير القديس كلير في بوليو - الذي أنقذته عام ١٧٩٣ . لقد قمتُ بواجبي على قدر طاقتي وقدّر الخير الذي وُفِّقَ اليه . وبعد ذلك طوردتُ ، ولوحفتُ ، واضطهدتُ ، وطمعنَ عليّ ، وهزريء بي ، وأهينتَ عليّ نحو عليّ ، ولعنت ، ونبتذت . ومنذ سنوات عديدة ، وبعد ان اشتعل رأسي شيباً ، وانا احسّ بأن كثيراً من الناس يؤمنون بأن لهم الحق في احتقاري ، وان الجماهير الفقيرة الجاهلة ترى في وجهي وجهاً اميناً ، ومع ذلك فقد ارتضيتُ - غير مبغض انساناً ما - عزلة البغض . وها انا ذا الآن في السادسة والثمانين . إني على وشك ان أموت . فما الذي جئتَ تسألني اياه ؟

فقال الاسقف : « جئتُ اسألك بركنك ! »

وركع على ركبتيه .

وحين رفع الاسقف رأسه ، كان وجه الرجل العجوز قد غدا جليلاً . لقد قضى نجه .

وانقلب الاسقف الى داره مستغرقاً في التفكير ، ف قضى الليل كله وهو يصلي . وفي اليوم التالي حاول بعض الفضوليين الجسورين ان يجدّوه حديث عضو « المؤتمر الوطني » ج فاكتفى بأن أشار الى السماء .

ومنذ تلك اللحظة ضاعف حنانه وحبه الاخوي للمستضعفين والمعذبين .

كانت كل اشارة الى « ج ذلك الوغد العجوز » تاقبه في خضمّ من القلق العجيب . وما كان في ميسور احد ان يقول ان صعود تلك الروح الى بارئها قبل روحه هو ، وانعكاس ذلك الضمير العظيم على ضميره هو ، لم يكن لهما اثرٌ في

* السلالة الميرفتجية Mérovingien هي اول سلالة مالكة حكمت في فرنسا ، وقد عرفت بهذا الاسم نسبة الى ملك الفرنجة ميروفيه Mérovée (وقد حكم من عام ٤٨٨ : الى عام ٤٨٨) وكان آخر ملوكها تشيلديريك الثالث الذي خلع عن العرش سنة ٧٥٢ للميلاد .

اقترا به من الكمال .

وكانت « الزيارة الرعائية » ، طبعاً ، مناسبة متلائمة مكنت الدسائس
الصغار من النقد والتعريض .

-- « أيلق بأسقف ان يجلس الى جانب فراش رجلٍ مثل هذا ؟ انه ما كان
ليتوقع أن يردّ ذلك الرجل الى الايمان ، طبعاً . ان جميع هؤلاء الثوريين
ساقطون وقعوا في المرطقة مرة ثانية . واذن ، فأيّ فائدة في الذهاب الى هناك ؟
ايّ شيء كان ينبغي ان يراه هناك ؟ لا شك في انه كان شديد الفضول الى ان
يرى كيف يتخطف الشيطان روحاً من الارواح ! »

وذاث يوم وجهت اليه ارملةٌ موسرة من ذلك النوع الذي يظنّ في نفسه
الظرفَ وخفة الروح ، هذه الدعابة : « إن الناس ليتساءلون ، متى ستعتمر
سيادتكم قلنسوة حمراء ؟ » * فأجاب الاسقف : « أوه ! أوه ! هذا لون رفيع .
ومن حسن الطالع ان اولئك الذين يزدرونه في قلنسوة ، 'يجلّونه في قبة ! »

١١

تحفظ

'نخدع كثيراً اذا استنتجنا من هذا ان مونسينيور بينفينو كان « فيلسوفاً
أسقفاً » أو « وطنياً كاهناً » . إن اجتماعه بعضو « المؤتمر الوطني » - الذي كان
ضرباً من الشركة الروحية تقريباً - تركه في حال من الذهول زادته رقة وجباً
للخير . هذا كل ما هنالك .

وعلى الرغم من ان مونسينيور بينفينو كان أيما شيء إلا رجلاً من رجال
السياسة ، فلعل من الخير هنا ان نحدد ، في ايجاز كثير ، موقفه من أحداث

* كانت القلنسوة الحمراء هي غطاء الرأس الذي اعتمر به أنصار الثورة الفرنسية
المقدّمون ، وكانت تعتبر رمز الحرية .

العصر، اذا كان لنا ان نفترض ان مونسينور بينفينو فكر في ايام يوم من الايام بأن يكون له موقف من تلك الاحداث .

من اجل ذلك يتعين علينا ان نرجع بضع سنوات الى الوراء .

لم تنتقض فترة قصيرة على رفع مسيو ميريل الى مقام الاسقفية حتى جعله الامبراطور باروناً من بارونات الامبراطورية، كما جعل عدداً آخر من الاساقفة في الوقت نفسه . وتم اللقاء القبض على البابا ، كما هو معروف ، ليلة السادس من تموز سنة ١٨٠٩ . ولهذه المناسبة دعا نابليون مسيو ميريل الى مجمع اساقفة فرنسة وايطالية في باريس ، وعقد المجمع في كاتدرائية نوتردام ، وافتتحت اعماله في الخامس عشر من حزيران سنة ١٨١١ برئاسة الكاردينال فيش . كانت مسيو ميريل واحداً من الاساقفة الحمة والتسعين الذين شهدوا المجمع . ولكنه لم يشارك إلا في جلسة واحدة ، وفي ثلاثة او اربعة من الاجتماعات الخاصة . كان اسقف ابرشية جبلية ، وكان يحيا على مقربة من الطبيعة في غمرة الحشوة والأملق . من اجل ذلك بدا وكأنه يحمل بين هاتين الشخصيات الساطعة افكاراً غيبت حرارة المجمع . فما كان منه الا ان انقلب وشيكاً الى د ... وحين سئل عن هذه العودة المفاجئة اجاب :

« لقد ازعجتهم . ان الهواء الطلق دخل الى جمعهم حين دخلت . لقد تركت فيهم الاثر نفسه الذي يتركه الباب المفتوح . »
وفي مرة اخرى قال :

« ماذا تريدون ؟ هؤلاء الاساقفة امراء . أما انا فلست غير اسقف ويغي

فقر . »

والحق انهم كانوا يبغضونه . وكان من بين الاسباب القريبة التي حملتهم على ذلك أنه لم يتالك عن ان يقول ذات ليلة دُعي فيها الى منزل احد زملائه من أولي المكانة العليا :

— يا لها من ساعات جدارية رائعة ! يا له من سجاد رائع ! يا لها من ثياب تخدم رائعة ! ينبغي ان يكون هذا كله أنقى للرفه والمعادة ! اوه ! ما أشد نفوري

من ان املك هذه الكماليات كلها ، التي تصرخ ابدآ في اذنيّ : إن هناك انساناً
يجوعون ! إن هناك انساناً يرتجفون من البرد ! إن هناك فقراء ! إن هناك
فقراء ! ،

وينبغي ان نقول ، بالمناسبة ، ان 'بعض' الترف ليس بغضاً حقيقياً . إنه ينطوي
على كراهية للفنون . ومع ذلك فالترف جريمة عند رجال الدين ، خارج طقوسهم
واحتفالاتهم . إنه يبدو وكأننا يكشف عن عادات ليست خيرية حقاً . إن
الكاهن الموسر هو في ذاته تناقض . ان عليه ان يظل قريباً من الفقير ؛ ومن ذا
الذي يستطيع ان يحثك آثاء الليل واطراف النهار بضروب الشقاء كلها ، وضروب
البؤس كلها ، وضروب الحرمان كلها من غير ان يعلق به قليل من ذلك الفقر
المقدس ، وكأنه غبار العمل ؟ هل تستطيع ان تتخيل رجلاً يجلس الى النار ثم لا
يُحسّ بالدفء ؟ هل تستطيع ان تتخيل عاملاً يشتغل على نحو موصول امام فرن
من الافران ولم تحترق شعرة من شعره ، او يسودّ ظفر من اظفاره ، او تتدحرج
على خده قطرة من عرق ، أو تعلل وجهه ذرة من رماد ؟ ان اول البراهين على
تمتع كاهن ما ، او اسقف ما على ربه الخصوص ، بالحبّة ، هو الفقر .
وليس من شك في ان اسقف د... . كان ينظر الى الاشياء على
هذا الضوء .

بيد أنه يتعين علينا ان لا نحسب ان الاسقف شارك في المسائل الدقيقة التي
يمكن ان تدعى «فكرات العصر» . إنه ما كان ليتدخل الا قليلاً بمنازعات
الساعة اللاهوتية ؛ وكان يلتزم الصمت في كل مسألة تنتهي فيها الدولة والكنيسة
الى تسوية . أما اذا ألححت عليه الحاجةً شديداً فعندئذ كنت تجده ايطالياً *
اكثر منه غليكانياً **

وإذ كنا نرسم هنا صورةً فنية لشخص ، وليس في نيتنا أن نخفي شيئاً ما ،
فنحن مضطرون الى ان نضيف أنه كان بارداً نحو نابليون يوم جنح نجمه الى

* المراد بالايطالي هنا الذي يدين بالولاء للبابوية .

** Gallican وهو من ينادي بالولاء لكنيسة فرنسا .

الافول . وابتداء من عام ١٨١٣ أخذ يشايع جميع المظاهرات العدائية او يصفق لها . لقد رفض ان يراه في طريق عودته من جزيرة ألبا * ، واحجم عن أن يصدر الأمر في ابرشيته بإقامة الصلوات العامة من اجل الامبراطور خلال «الايام المنة» **

وكان له الى جانب أخته الآنسة باتيستين أخوان اثنان ، احدهما جنرال ، والآخر محافظ . وكان يكتب الى كل منهما بين الفينة والفينة . لقد استشعر شيئاً من الفتور نحو الاول ، لأنه كان يتولى قيادة قوة من الجيش في بروفانس ، يوم اقتحم نابوليون البر الفرنسي عند «كان» ، فما كان من الجنرال إلا ان وضع نفسه على رأس الف ومئتي مقاتل وتعقب الامبراطور وكأنه راغب في ان يفسح له في مجال الحرب . أما رسائله الى اخيه الآخر ، المحافظ السابق ، وكان رجلاً شجاعاً فاضلاً يحيا بمزل عن الناس في شارع كاسيت بباريس ، فكانت أحفل بالموودة والعاطفة .

وحتى مونسينيور بينفينو غلبت عليه آنذاك النزعة الحزبية ، وكانت له أحزانه وغيومه . لقد طاف ظلُّ اهواء الساعة وشبهاتها بهذا القلب الكبير الرقيق المنصرف الى الاشياء الازلية . وليس من ريب في ان رجلاً مثل هذا خليق به ان يتجرّد عن الآراء السياسية . ولا يُسيئ احدٌ فكرتنا . فنحن لا نخلط ما بين هذا الذي يدعى «آراء سياسية» وبين الطموح العارم الى التقدم ، والايمان الوطني الديموقراطي الانساني الرفيع الذي ينبغي ان يكون في ايامنا هذه أس كل ذكاء سخي . ومن غير ان نتعمق مسائل لا تنس موضوع هذا الكتاب إلا مآداً مدوراً نقول بكل بساطة : كان خيراً لمونسينيور بينفينو لو

* هي جزيرة ايطالية صغيرة في البحر الابيض المتوسط ، وتقع شرقي كورسيكا . وكان نابوليون قد نفي اليها عام ١٨١٤

** Les Cent - jours هي الفترة الممتدة ما بين ٢٠ آذار سنة ١٨١٥ ، يوم رجع نابوليون الى باريس ، و ٢٢ حزيران من العام نفسه يوم تنازل عن العرش للمرة الثانية . وقد تميزت هذه الفترة بالدستور الجديد ذي النزعات المتحررة الذي اعلنه نابوليون في مستهلها ، وبحملة بلجيكا ، وهزيمة واترلو .

انه لم يكن ملكي الهوى ، ولو ان عينيه لم تنصرفا قط لحظة واحدة عن ذلك التأمل الساجي حيث نرى في وضوح ، فوق او هام هذا العالم واحقاده ، فوق مدّة الثؤن البشرية وجزرها ، هذه الكواكب الثلاثة الصافية ، المرسيّة إشعاعاتها على نحو موصول : الحق ، والعدل ، والمحبة .

ومع أننا نفكر بأن الله لم يخلق مونسنيور بينفينو لمهمة سياسية فقد كانت خليقاً بنا ان نفهم ونكبر احتجاجاً يُطلقه باسم الحق والحرية ، ومعارضة ضاربة ومقاومة عادلة وخطرة يوجهها الى نابوليون يوم كان كلي القدرة . ولكن ما يرضينا إزاء اولئك الراقيين سلّم المجد يكون أقلّ إرضاءً لنا إزاء اولئك الساقطين عن تلك السلّم . إننا لا نعجب بالقتال حين لا يكون ثمة خطر ، وفي مختلف الاحوال فإن مقاتلي الساعة الاولى لهم وحدهم الحق في ان يكونوا هم المهلكين في الساعة الاخيرة . ومن لم يكن متبهاً ضارباً اثناء الرخاء يجب ان يصمت عند الانهيار . إن ذلك الذي يشجب النصر في إبانته له وحده الحق في ان يعلن عدالة السقوط . أما نحن فحين تدخلت العناية الالهية وضربت ضربتها فقد احجمنا عن القيام بأي عمل . إن سنة ١٨١٢ بدأت في تجريدنا من السلاح . وفي سنة ١٨١٣ لم يكن قطع حبل السكوت الجبان من قبل تلك الهيئة التشريعية الصموت التي شددت الكوارث من عزائنها - لم يكن ذلك الصنيع جديراً بشيء غير السخط ، وكان من الائم التحقيق له . وفي سنة ١٨١٤ ، أمام هؤلاء المارشالات الحونة ، وامام مجلس الشيوخ ذاك المتنقل من خسارة الى خسارة ، لاعناً بعد أن قدس وأته ، وامام عابدي الاصنام هؤلاء ، المرتدين على اعقابهم ، الباصقين على آلهتهم ، كان واجباً على المرء أن يشيح بوجهه في استئزاز . وفي سنة ١٨١٥ حين كان الجوّ عابقاً بالنكبات النهائية ، وحين كانت فرصة تستشعر قسرية اقترابها المشؤوم ، وحين كان في امكان المرء ان يرى على نحو ضبابي ساحة واترلو تبسط امام نابوليون ، وأن ما وجهه الجيش والشعب من دعاء موجه الى من اصدر القدر حكمه عليه لم يكن ينطوي على شيء مضحك . ومع إبداء مختلف ضروب التحفظات في ما يتصل بالطاغية ، فلعل قلباً مثل قلب استيف د...

ما كان ينبغي له أن يُنكر كل ما هو جليل ومؤثر - عند شفير الهاوية - في
العناق الأخير بين أمة عظيمة ورجل عظيم .

وعلى الجملة ، فقد كان ابدآ وفي كل شيء منصفاً ، صادقاً ، عادلاً ، ذكياً ،
متواضعاً ، فاضلاً ، جواداً ، عطوفاً ، وما العطف غير ضرب من الجود . كانت
كاهناً ، وحكياً ، ورجلاً . وهنا يتعين علينا أن نقول إنه حتى في تلك الآراء
السياسية ، التي انتقدناها آنفاً والتي نجد أنفسنا عرضةً لأن ندينها في عنف
تقريباً ، كان متسامحاً سهل الخليفة ، ولعل حظه من هاتين الحصلتين أن يكون
أوفر من حظنا نحن ، الذين نتحدث الآن . كان بواب « القاعة البلدية » قد أقيم
هناك بأمر من الامبراطور . كان ملازماً قديماً في « الحرس القديم » ، وحاملاً
وسام جوقة الشرف لابلان في موقعة اوسترليتز * بلاءاً حسناً ، وبوناوبرتياً صيحياً
كائنسر . وكانت تتدّ من هذا الرجل المسكين في بعض الاحيان ، من غير ما
تفكير ، أقوال كان القانون يعتبرها في ذلك الحين تحريضاً على الفتنة والعصيان .
ومنذ ان غاب وجه الامبراطور الجانبي عن وسام جوقة الشرف كفّ عن تزيين
صدره بذلك الوسام لكي لا يُضطر ، كما قال ، ان يحمل صليبه . وبدافع من
ولائه ازال هو نفسه الرسم الامبراطوري عن الصليب الذي منحه نابوليون لإله .
ولقد احدث ذلك فجوةً في الوسام ، ولكنه أبى ان يضع شيئاً مكانه . كان
يقول : « انا أوثر ان أموت على ان أحمل الضفادع الثلاث فوق قلبي » . وكان
يسخر دائماً ، وعلى نحو علني ، من لويس الثامن عشر . فهو يقول : « ذلك
العجوز المبتل يبداء المفاصل وساقيتيه الانكليزيتين ! دعه يذهب الى بروسية
بلحيته المشبهة بنبات لحية التيس ! » - بعيداً بأن يجمع في السخرية الواحدة بين
الشين الذين كانوا أبغض الاشياء إلى نفسه : بروسية وانكلترا . ولقد أكثر من
مثل هذا الكلام حتى خسر وظيفته . فاذا هو جائع الى الجبز ، طريح الشارع

* Austerlitz الموقعة الشهيرة التي دارت رحاها في هذه المدينة من مدن مورافيا (٢ كانون
الاول سنة ١٨٠٥) والتي هزم فيها نابوليون جيوش النمويين والروس . وقد دعت معركة
اوسترليتز « معركة الإبطرة الثلاثة » لان الإبطرة فرنسة ، والنمسا ، والروسيا اشتركوا فيها
جميعاً .

مع زوجته وأولاده . فما كان من الاسقف إلا ان دعاه ، فوجه بعض الشيء ، وجعله بواباً للكاتدرائية .

لقد كان مسيو ميريل في الابرشية هو الراعي الحق . كان صديقاً للجميع . وفي مدى تسع سنوات ، وبفضل سلسلة موصولة من العمل الصالح والخلق الرفيع ، وفق مونسنيور بينفينو الى ان يملأ مدينة د . . . بضرب من التوفير البنوي الرقيق . حتى موقفه من نابوليون لقي قبولاً ومعذرة لدى الناس ، وهم قطع طيب مستضعف يعبد امبراطوره ، ولكنه يحب أسقفه .

١٢

عزلة مونسنيور بينفينو

يكاد يجتمع حول أيما اسقف جمهرة من الرهبان الشباب كما تجتمع حول أيما جنرال كوكبة من الضباط الشباب . انهم اولئك الذين دعاهم القديس فرانسوا دو سال * الفاتح ، في مكان ما ، والكهان الأغرار . ذلك بأن ثمة في كل مهنة أو سلك فئة من الطامحين تحوم حول اولئك الذين انتهوا الى القمة . فليس من سلطة إلا ولها بطانتها ، وليس من ثروة إلا ولها بلاطها . والباحثون عن المستقبل يسبحون في فلك الحاضر الزاهي . ولكل عاصمة ، شأن كل فئاته عسكري كبير ، أركان حربها . كذلك لكل اسقف ذي سلطان عسكري من طلاب المعاهد الكهنوتية : كرويتون ** يطوفون هنا وهناك وبقربوت النظام في القصر الاسقفي ، ويجرسون ابتسامة صاحب السيادة . إن الفـوز برضا الاسقف قـدـم في الركاب الموصل الى مرتبة نائب شماس . وان على

* de Sales اسقف جنيف (١٥٦٧ - ١٦٢٢) ومؤلف « مقدمة الى حياة التقوى » و « رسالة في الحب الالهي » . وقد اسس مع القديس جان دو شانتال « رهبانية زيارة العذراء » .

** الكرويون سادة الملائكة او انقربون منهم . واحدم كروب .

المراء ان يشق طريقه بنفسه . إن الدعوة الرسولية لا تستخف أبداً بنصب الكاهن القانوني .

وكما ان في بعض المواطن الاخرى أعياناً أولي سلطان ، كذلك نجد في الكنيسة مطارين ذوي تيجان . إنهم الاساقفة المتأنقون المقبولون على الدنيا ، الاغنياء ذوو الموارد ، اللقبون ، الفاترون برضا المجتمع الراقي ، الذين يعرفون كيف يصلون - من غير شك - ولكنهم يعرفون ايضاً كيف يسألون الناس ان يُسدوا اليهم يداً ، الجاعلون من أنفسهم بلا تردد قنطرة التقديم في أبرشية بكاملها ، وصلة الوصل بين الموهف * والديبلوماسية . إنهم رؤساء أديار اكثر منهم كهناً ، وأخبار اكثر منهم اساقفة . وسعيد هو الشخص الذي يوفق الى الاقتراب نحوهم . وبوصفهم رجالاً ذوي سلطان ، فانهم يطرون أهلهم وذوي الخطوة عندهم وجميع اولئك الشبان الذين يوقعون الرضا في نفوسهم أبرشيات بدينة ، ورواتب ، ورئاسات شمامسة ، ومهام كاتدرائية ، وكلها خطوات نحو المراتب الاسقفية . وهم اذ يتقدمون في معارج الرقي بقدموت الكواكب الدائرة في فللكهم ؛ ذلك نظام شمسي كامل بمعن في الدوران . إن اشعة مجدهم تصبغ حاشيتهم بلون الارجوان . وإن رخاءهم يوزع قناته على القائمين خلف الكواليس ، على شكل ترفيات صغيرة مستلحة . وكلما كانت أبرشية الولي اعظم كانت وظيفة القس المسندة الى واحد من المقرئين اعظم وأخطر . واخيراً فهناك رومة . ذلك بأن الاسقف الذي يعرف كيف يصبح رئيس اساقفة ، ورئيس الاساقفة الذي يعرف كيف يصبح كاردينالاً يستطيعان ان يقوداك الى مجمع الكرادلة . ** إنك تدخل الى الرونة ، *** وترتدي الباليوم ، **** وإذا بك في عداد النظارة ، واذا بك حاجباً من حجاب البابا ،

* الموهف (السكرستيا) الغرفة الخاصة بالاوناني والاثواب الكنسية .

** الذي ينبغي لانتخاب البابا .

*** Rota أو ال Sacra Romana Rota (الرونة الرومانية المقدسة) وهي محكمة

كبرى في رومة .

**** الباليوم طبلان الاساقفة .

واذا بك مونسنيور ؛ وليس بين « الياقة » و « النياقة » * غير خطوة واحدة ،
وليس بين « النياقة » و « القداسة » ** غير دخان اقتراع . إن كل فلسفة
تستطيع ان تحلم بتاج البابوية . والكاهن هو الرجل الوحيد ، في ايامنا هذه ،
القادر على ان يصبح بصورة نظامية ملكاً . واي ملك ! الملك الاعظم ! وإذا
فأعظم بالمعاهد الاكليريكية مفارس للطعام . فما اكثر غلمان الكورس الجبلين ،
وما اكثر الكهان الشباب الحاملين على رؤوسهم اناة ييريت *** الحافل باللبن !
ومن يدري ؟ فما أيسر ما يحتاجه الطموح خلف الحياة الرهبانية ، وقد يكون
ذلك عن حسن نية ، ويجدع نفسه معها تظاهر بالتقى والورع !

والحق ان مونسنيور بينفينيو ، المتواضع ، الفقير ، ذا المسالك الغريبة ، ما
كان ليُعدّ من المطارين المتوجين . وإنما كان ذلك واضحاً من عدم تخلق الكهان
الشباب حوله . ولقد رأينا من قبل ان بضاعته لم تَرُج في باريس . ان ايامنا
مستقبل زاهر لم يفكر ذات يوم في ان يلحق نفسه بالاتصال بهذا المعجوز المتوحد .
ولم يكن ثمة طموح غض العود هو من الحماقة بحيث يلتبس النضج في ظله . كان

* « صاحب النياقة » هو لقب الكاردينال . والمراد انه ليس بين الاسقف
والكاردينال غير خطوة واحدة .

** « صاحب القداسة » هو لقب البابا .

*** Perrette هو الاسم الذي اطلقه لافوتتين على بطلته مثل fable : « الحلافة
واناء اللبن . » التي قصت الى المدينة ، حاملة إناءها على رأسها وأنشأت تفكر
بشمن اللبن ، وتحلم بالثروة . وبأنها سوف تشتري مئة بيضة ، وغزيراً تريسه ،
ثم تبيعه من جديد ، وتشتري بقرة ... وضاعة زلت بها القدم ، وُسِّفح اللبن على
الارض ، وتبددت الاحلام . ولا يزال اسم « بيريت » الى اليوم علماً على الحالين
و « بناء القصور في اسبانية » الذين يرون الى مشاريعهم تنهار لاقط حادث . وهي
تذكر في ادبنا العربي بحكاية الناصك الذي كان يجرى عليه من رجل تاجر ، في كل يوم ،
رزق من السن والمل ، فكان يأكل منه قوته وحاجته ويرفع الباقي ويحمله في جرة ،
فيملأها في ورد ، في فاحية البيت ، حتى امتلأت ... الخ الخ ... وقد رواها ابن
القفق في « كلية ودمنة » وقد تكون هي الاصل لثل لافوتتين هذا .

كهانه القانونيون ونوابه الاسقفون كلهم رجالاً صالحين عالي السن ، أجلاًفاً بعض الشيء مثله ، مطوّقين مثله مجدران تلك الابرشية التي كانت خلواً من طريق تؤدي الى مقام الكاردينالية . وكانوا يشبهون اسقفهم ، مع هذا الفارق ، وهو انهم انتهوا ، على حين انه اكتمل . وكانت استراحة التوقي في ظل مونسينيور بينفينو واضحة الى حد جعل الشبان الذين رسمهم هولاً يكادون يغادرون المعهد الاكليريكي حتى يلتصقوا توصية الى رئيس اساقفة ايكس ، او رئيس اساقفة اوش ، وينطلقوا على جناح السرعة ليقدموها اليها . ذلك بأن الرجال - ونكرر ذلك - يحبون الارتقاء في سلم الوظيفة . والقديس المعن في انكار الذات لا يعدو ان يكون جاراً خطراً . انه قد ينقل اليك من طريق العدوى ، فقراً لا براء منه ، وتحسباً في الفاصل الضرورية للتقدم . وعلى الجملة فقد ينقل اليك مقداراً من الزهد اكثر مما ترغب فيه . فقير عجيب ان يفر الرجال بأنفسهم من هذه الفضيلة المعدية . ومن هنا هذه العزلة التي سميت حياة مونسينيور بينفينو . اننا نعيش في مجتمع كثيب . و 'إنجح' ، تلك هي النصيحة التي تسقط قطرة إثر قطرة من الفساد التحميم علينا .

وفي ميسرونا ان نقول ، بالمناسبة ، ان النجاح شيء بشع مخوف . ان ما بينه وبين الكفاءة من شبه زائف خليق به ان يمدح الناس عن أنفسهم . وعند الجمهور يتخذ النجاح صورة التفوق نفسها تقريباً . وللنجاح - ذلك التوأم الشديد الشبه بالموهبة - احقه 'المخدوع' : التاريخ . ان جوفيتال * وناسيت ** وحدهما يرفضانه ويتذمران منه . وفي ايامنا انضوت تحت لوائه فلسفة تكاد تكون رسمية ، فهي ترتدي ثوب الخادم الملحق به ، وهي تنتظر اوامره في الغرفة الملاصقة لديوانه . النجاح ، تلك هي النظرية . ان الازدهار يفترض القدرة . اربع ورقة

* Juvénal شاعر لاتيني جاء (٤٢ - ١٢٥ ؟) تتجلى لنا في اهاجيه الاربع عشرة نغمته على الحياة في رومة وضيقه بماؤها .

** Tacite مؤرخ لاتيني شهير (٥٥ ؟ - ١٢٠ ؟) امتازت مؤلفاته بالرمزية والقوة والايجاز ، كما امتاز هو بالحيال والقدرة على تجريد شخصياته من أردبتها الخارجية . وكان ينال في التشاؤم اجاباً ، وينزع الى ان يلتمس للاحداث اسباباً عميقة .

في اليانصيب تصبح رجلاً حاذقاً . ومن ينصرف فذلك هو الذي يحظى بالاجلال والتعظيم . ايكن نجمك ، يوم الولادة ، ذابن وسعد تجدد الدنيا كلها بين يديك . كن حسن الطالع ليس غير تقفز بسائر الاشياء . كن سعيداً بحبك الناس عظيماً . ففيما عدا المستشفيات العظيمة التي لا يزيد عددها على خمسة او الستة ، والتي هي اعجوبة عصرها ، لا يعدو الاعجاب المعاصر ان يكون ضرباً من قصر البصر . ان الطلاء الذهبي هو في نظر الناس ذهب خالص . وليس يفيد المرء عندهم ان يكون ابن الحظ شريطة ان يوفق الى تحيين حظوظه . ان العامة ترسيس عجز * يعبد نفسه ، ويصفق لكل ما هو شعبي . والواقع ان العبقرية الجبارة التي تجعل من المرء موسى ، او اسيل ** او دانتي او ميكال آنجلو ، او نابوليون انما تخلعها الجمهور ، في الحال وفي تحليل ، على كل من يوفق الى بلوغ غايته ، مهما تكن تلك الغاية . دع كاتباً عدلاً يلعب حتى يصبح نائباً في البرلمان ؛ دع كورني *** زائفاً يضع مسرحية « تيريدات » **** ؛ دع خصياً يملك « حريماً » ؛ دع « برودوم » ***** عكسياً يكسب بالمصادفة

* في الميثولوجيا اليونانية ان ترسيس كان على جبال باهر أسر به القلوب جميعاً ولكنه ازدرى حب الحسان له . كان يمشق نفسه ، وبينما هو يديم النظر الى وجه الجميل في امرأة ينسج صاف زك به القدم ، فاستحال الى الزهرة التي تحمل اسمه « ترسيس » أو الترجمس . وتطلق لفظة « الترجمية » اليوم على الظاهرة البكولوجية التي تجعل من المرء عاشق ذاته .

** ابو التراجيديا اليونانية (٥٢٥ - ٥٦٠ ق . م) ويمتبر من أعظم شعراء العالم في مختلف الصور .

*** Gorneille ابو التراجيديا الفرنسية . واشهر مسرحياته « هوراس » ، « البند » ، « مينتا » و « بوليوكت » . وهو يعتبر عند الفرنسيين خالق الفن التمثيلي القائم على اساس التحليل البكولوجي . (١٦٠٦ - ١٦٨٤) .

**** Tiridate تيريدات الاول ، ملك ارمينية وأخو فسولوجيس الاول ملك البارثيين وقد قهره القائد الروماني كوريليون . وتوفي تيريدات عام ٧٣ للميلاد .

***** Prudhomme نموذج عصري للسخر وعدم الكفاة وللابتذال الكامل التي ابرزها هنري مونييه في كتابه « مشاهد شعبية » (١٨٣٠) و « مذكرات جوزيف برودوم » (١٨٥٧) .

المركة الحاسمة في حقبة برمتها ؛ دع صيدلياً يخترع نهالاً من الورق المقوى
 لاحذية الجيش ، ويجني من وراء ذلك الكروتون المبيع بدلاً من الجلد لقوات
 « السامبر والميز » * دخلاً مقداره اربعمئة الف ليرة ؛ دع بانعاً متجولاً يتزوج
 الربا ويقود عروسه الى فراش من سبعة ملايين او ثمانية ملايين ، فراش هو أبوه
 وهي أمه ؛ دع واعظاً يصبح اسقفاً بالتكلم من أنفه ، دع مدبراً احسد المنازل
 الطبية يسي لدى تركه الخدمة غنياً الى درجة تجعل منه بعد ذلك وزيراً للمالية
 فرنسة - تجمد الناس يدعون ذلك عبقرية ، تماماً كما يدعون وجه موسكوتون
 جمالاً ، وتغطرس كلود عظيمة وجلالاً . إنهم لا يميزون كواكب السماء من
 النجوم التي تحدثها اقدام البط في الوحل !

١٣

معتقداته

لسنا في حاجة الى ان نبر أسقف د... من وجهة النظر الارثوذكسية *
 ففي حضرة نفس كهذه لا نستشعر شيئاً غير الاحترام . إن ضمير الرجل المستقيم
 ينبغي ان يُعتبر شيئاً مفروغاً منه . والى هذا ففي استطاعتنا ، وقد مُنحنا طبائع
 معينة أن نلتم بامكانية نشوء جمالات الفضائل الانسانية كلها في معتقدٍ مختلف
 عن معتقدنا .

أي شيء كان رأيه في هذه العقيدة الاساسية ، او تلك الغامضة من غوامض
 الدين ؟ هذا امر من امرار الايمان الباطني التي لا تُعرَفُ إلا في القبر حيث
 تدخل الأرواح عارية . ولكننا واثقون من ان مصاعب الايمان لم تنته به قط
 الى الزندقة . إن فساداً ما لا يمكن ان يتطرق الى الماس . لقد آمنَ ما وسعهُ

* Sambre . et - Meuse مديرية فرنسية من مديريات الامبراطورية الاولى .

** المصود بالارثوذكسية هنا صحة المعتقد والواقعة للدين الحقيقي ، او المستقيم ، كما نفهمه

النصوص ، او كما فهمه اصحابه الاولون .

الايان . كان ينف دائماً *Credo in Patrem* * والى هذا فقد كان يستمد من اعماله الصالحة ذلك المقدار من الارتياح الذي يرضي الضمير ، والذي يمس في أذن المرء : « انت مع الله » .

ونعتقد ان من واجبا ان ننص هنا على ان فؤاد الاسقف كان عامراً خارج نطاق ايمانه ، اذا جاز التعبير ، ووراء ذلك الايمان - بفِرْطٍ من الحب . وبسبب من هذا ، *quia multum amavit* ** ، اعتبر قابلاً للتقد والتجريح عند « الرجال الجديين » ، و « الاشخاص الوفورين » ، واصحاب العقول الرشيدة » ، وهي تعابير أثيرة في عالمنا الحزين حيث تتلقى الانانية كلمة السر من التظاهر بالعلم والمعرفة . ولكن اي شيء كان فرط الحب هذا ؟ كان لطفاً راقياً يغمر الرجال كما سبق منا القول ، ويمتد في بعض الاحيان الى الاشياء . لقد عاش من غير ازدراء واستخفاف . كان متيقناً على خلق الله . وخلق ان لدى كل امرئ ، مهما يكن فاضلاً ، خشونة طائشة يحتفظ بها ، من باب الاحتياط ، للحيوانات . ولكن اسقف د ... كان خلواً من هذه الخشونة التي تميز معظم الكهان . انه لم يذهب الى حد البراهمة *** ولكن يبدو انه تفكر كثيراً في هذه الكلمات من « سفر الجامعة » : « من ذا الذي يعرف الى اين تمضي روح البهيمة ؟ » إن بشاعة المظهر ، وقباحة الغريزة لم تقلقاه ولم تسخطاه قط . كانتا تحركان فيه عاطفة الشفقة وتوقعان في ذات نفسه مزيداً من اللين والرفقة . لقد بدا وكأنه يبحث ، وراء الحياة الظاهرية ، في روية وتفكير ، عن السبب ، والتفسير ، أو العذر . بل لقد بدا وكأنه يلتمس من الله ، في بعض الاحيان ، تلطيفاً لعقاب الآثمين . كان يدرس من غير انفعال ، وبعين اللغوي الذي يفك رموز رقة قديم أزيات الكتابة الأصلية عنه ليكتب عليه من جديد ، مقدار الاختلاط والتشوش اللذين لا يزالان في الطبيعة . وكان هذا الاستغراق في التفكير ينتزع منه في بعض الاحيان كلمات عجيبة . فذات صباح كان يتمشى في حديقته ؛ لقد حسب

* في اللاتينية ، ومعناها : أو من بالآب .

** في اللاتينية ايضاً ، ومعناها : لانه أحب كثيراً .

*** جمع برهمي ، وهو احد افراد الطبقة الكهنوتية اعلى الطبقات الوراثة الأربع في المجتمع الهندوسي .

نفسه منفرداً . ولكن اخته كانت تمشي خلفه من غير ان يراها . وفجأة كف
عن السير ، ونظر الى شيء ما فوق وجه الارض . كانت وتلاء سوداء ، شعراء ،
رابعة . وسمعت اخته يقول :

« يا من هيمة مسكينة ! الذنب ليس ذنبها ! »

ولم لا نتحدث عن طفلية الطيبة هذه التي تكاد تكون الهمية ؟ انها قد
تكون شيئاً صيانياً ، ولكن هذه الاشياء الصيانية الرفيعة هي التي عُرف بها
القديس فرانسوا الأسيسي * ، وماركوس اوريليوس ** وذات يوم آثر
ان يلتوي مفصله على ان يسحق غلة .

كذلك عاش هذا الرجل المستقيم . كان يقصد الى جنينته ، بعض الاحيان ،
لننام فيها ؛ وعندئذ لم يكن ثمة شيء ادعى الى التوقير والاحترام .

كان مونسيدور بينفينسو من قبل ، وفقاً للروايات المتصلة بصباء بل وبصدر
شبابه ، رجلاً شديد الانفعال ؛ وقد لا نخطيء اذا قلنا انه كان رجلاً عنيفاً .
ومن هنا لم يكن حمله الشامل غريزة طبيعية بقدر ما كان ثمرة يقين راسخ قطر ،
من خلال الحياة ، الى فؤاده ، متاقطاً في مهل ، فكرة إثر فكرة . ذلك
بأن قطرات الماء قادرة على ان تحدث في الشخصية حقراً كالتى تحدثها في وجه
الصخر سواء بدواء . ومثل هذه التجاويف غير قابلة للمحو . إنها تمتنع على الزوال .

لقد بلغ عام ١٨١٥ ، كما نحسب أننا أسلفنا القول ، سنه السادسة والسبعين ،
ولكنه كان يبدو وكأنه لما يتجاوز الستين . إنه لم يكن طويل القامة ؛ وكان
بدينياً بعض الشيء ، فهو كثيراً ما يأخذ بأسباب المشي الطويل ابتغاء التغلب على
هذه البدانة . كان ثابت الخطو ، ولم يكن ظهره محدودباً الا قليلاً ؛ وهي ظاهرة

* Francois D'assise مؤسس رهبانية الفرنسيسكان . وقد اشتهر بعطفه على الفقراء ورفقه
بالمستضعف من الحيوان . (١١٨٢ - ١٢٢٦)

** Marcus Aurelius اكثر الاباطرة الرومان صلاحاً ، تول الحكم من عام ١٦١ الى عام
١٨٠ . وخاض حمار حرب طويلة ظافرة ضد البرابرة المهددين للامبراطورية ، واشتهر بحكمته
الرواقية ، واعتداله ، وحبه للفلسفة والادب .

لا نعتزم ان نخلص منها الى استنتاج ما . فقد كان غريغوار السادس عشر * ، في سنّ الثمانين ، منتصب القامة باسمًا ، ولم يمنعه ذلك من ان يكون اسقفًا رديئًا . وكان لمونسينيور بينفينيو ما يدعوه الناس « عقلًا راجعًا » ولكنه كان أنيسًا الى حدّ يُنسبك أنه ذو عقل راجح .

فاذا ما تحدّث بذلك الابتهاج الطفليّ الذي كان مظهرًا من مظاهر اللطف عنده ، والذي سبق منا الكلام عليه ، استشعر كل امرئ الارتياح في حضرته ، وبدا الحبور وكأنه يشعّ من شخصه كله . كانت بشرته النضرة المتوردة ، وأسنانه البيضاء المحتفظة بسلامتها والتي كانت شفتاه تتكشف عنها حين يضحك ، تخلع عليه تلك السّما الصريحة الدمثة التي تجعلنا نقول عن الرجل : إنه ولد طيب ؛ وعن الرجل العجوز : إنه رجل طيب . كان ذلك ، كما نذكر ، هو الاثر الذي تركه في نفس نابوليون . فللهولمة الاولى ، وبالنسبة الى من يراه اول مرة ، لم يكن مونسينيور بينفينيو اكثر من رجل طيب . ولكن ما إن يُنفق المرء بضع ساعات معه ويرى اليه مستغرقًا في التفكير حتى تتحول تلك الصورة شيئًا بعد شيء ، فتغدو ناضجة بالمهابة . كان جبينه العريض الجديّ الذي جعله شعره الاشيب أثيلًا يبدو أثيلًا كذلك لحظة التأمل والتفكير . وكان الجلال ينبثق من هذه الطيبة ، من غير ان تكفّ الطيبة عن الاشراق ؛ فيستشعر المرء شيئًا من تلك الهزة التي تعروه اذا ما رأى ملاكًا باسمًا ينشر جناحيه في بطاء من غير ان يكفّ عن الابتسام . كان الاحترام — الاحترام الذي يعجز البيان عن وصفه — خليقًا به ان يداخلك تدريجيًا ، وان يتخذ سبيله الى قوادك ، فتحسّ انك امام نفس من تلك النفوس القوية ، المجرّبة ، المتساحمة ، حيث الفكر هو من العظمة بحيث لا يستطيع إلا ان يكون رفيقًا لطيفًا .

وكما رأينا من قبل ، فقد كانت الصلاة ، والنهوض بأعباء الخدمات الدينية ، والتصدّق على الفقراء ، ومواساة المحزونين ، وزراعة زاوية من الارض ، والاخاء ، والزهد ، وقري الضيف ، وقهر النفس ، والثقة ، والدّرس ، والعمل

تُفعم كل يوم من أيام حياته . اجل ، « تفعم » هي الكلمة الملائمة تماماً . وفي الحق ، إن يوم الاسقف كان مفعماً حتى الشفة بالافكار الطيبة ، والكلمات الطيبة ، والاعمال الطيبة . ومع ذلك فإنه ما كان ليكتمل اذا حال البرد او المطر بينه وبين قضاء ساعة او اثنتين من ساعات الليل - بعد ان تؤوي المرأتان الى فراشهما - في حديثه قبل أن يستلم للرقاد . لقد بدا وكأن الاستعداد للنوم من طريق التأمل أمام مشهد السماء الداجية الناضح بالعظمة كان ضرباً من الطقس الدينيّ عنده . وفي بعض الاحيان ، وفي ساعة متأخرة من الليل ، كانت العائنان تسمانه ، إذا ما أطالتا السهر ، يتمشى وتبدأ في ممرات الحديقة . كان يخلو هناك الى نفسه ، هادئاً ، رابط الجأش ، عابداً ، مقارناً ما بين صفاء قلبه وصفاء الاثير - وقد حرك عواطفه في الدجّة بهاء الكواكب المنظور وبهاء الله غير المنظور - بأسطاً روحه للفكرات التي تهبط من المجهول . وفي مثل هذه اللحظات ، حين كان يقرب قلبه قرباناً لله في تلك الساعة التي تنفث فيها ازاهير الليل عبيرها ، وحين كان يبدو مضاًة مثل مصباح في جوف الليل ذي النجوم ، ساطعاً في جـذل وسط اشماع الكون الكليّ ، لم يكن في ميوره هو نفسه ان يقول اي شيء كان يدور في خـلده . لقد أحسّ بشيء يزايله ، وبشيء يهبط عليه . مبادلات عجيبة بين أعماق النفس وأعماق الكون .

كان يتفكر في عظمة الله ، وفي وجود الله ؛ في أبدية المستقبل ، وهي لغز عجيب ؛ في أزلية الماضي ، وهي لغز اعجب ، وفي جميع اللانهايات المحتجبة من حوله في كل اتجاه ؛ ومن غير ان يحاول فهم ما لا سبيل الى فهمه كان يراها . إنه لم يدرس الله ؛ كان يبهره التفكير في ذلك . لقد تأمل في الاتحادات البهية التي تجمع ما بين الذرات ، والتي تخلع على الطبيعة اشكالاً منظورة ، كاشفة عن القوَى من طريق إنشائها ، خالقة الفرديات في الوحدة ، والنسب في الامتداد ، واللامعدود في اللانهاية ؛ مولدة الجمال من خلال النور . ولما تنعقد هذه الاتحادات وتنحل في غير انقطاع . ومن هنا الحياة والموت .

كان يجلس على مقعد خشبيّ مسند الى عريشة مكسورة ، وينظر الى النجوم

من خلال أشباح شجراته المثمرة ، المهزولة الكسيفة . فقد كانت هذه الفلذة من الارض ، البالغة مساحتها ربع أكر ، والمزروعة اسوأ زراعة ، والمثقلة بالحِرب والانقاض ، أثيرةً لديه ؛ وكانت تكفيه .

واي شيء أكثر من هذا كان يحتاج اليه ذلك الرجل العجوز الذي وزّع ساعات فراغه ، وما كان اندرها واقلتها ، بين البستنة في النهار ، والتأمل في الليل ؟ ألم تكن هذه الحظيرة الضيقة ، التي تؤلف السموات سمكها ، كافيةً لأن تمكّنه من عبادة الله ، بالتناوب ، في مبتدعاته الاكثر جمالاً ، وفي مخلوقاته الاكثر سمواً ؟ اليس هذا كل شيء ، في الواقع ؟ واي شيء ينبغي وراء ذلك ؟ 'جنيّة' يتمشى خلالها ، وفضاء يتأمل فيه . فعند قدميه شيء يمكن ان يُزرع ويُجنى ، وفوق رأسه شيء يمكن ان يُدرّسَ ويُطلّقَ سَرَحُ التأمل فيه ؛ بضع زهرات على الارض ، وجميع الكواكب في السماء .

١٤

افكاره

بقيت كلمة اخيرة .

لما كانت هذه التفاصيل - وبخاصة في العصر الذي نعيش فيه ، ولكي نضطلع تعبيراً هو اليوم زيّ شائع - خليقةً بأن تخلع على اسقف د... سيّاه « بانتيبيستية »* ما ، وتوقع في النفس - سواء أأدّى ذلك الى لومه او الى تعجده - انه كان يدين بأحدى هذه الفلسفات الشخصية التي يميز بها عصرنا ، والتي تنجم أحياناً في العقول المتوحدة وتنمو وتستحصده حتى تحلّ محلّ الدين - لما كانت هذه التفاصيل

* الـ Panthéisme وحدة الوجود ، او الوهية الكون ، وهو مذهب فلسفي يقول بان الله والكون واحد ، اي ان الله حالّ في كل شيء ، ومن هنا جاز ان يطلق الله على كل شيء .

خليلة بأن توهمنا بهذا كله فالتنا نصر على القول إن أأءاً ممن عرفوا مونسينور بينفينو ما كان ليجيز لنفسه أن يزعم هذا الزعم . لقد كان القلب هو الذي أنار بصيرة هذا الرجل . كانت حكمتة مكونة من النور المنبعث من هناك .

لم تكن له طرائق ونظم ، ولكن كانت له أعمال كثيرة . إن البحوث النظرية المعويصة تورث الصءاع ، ولم يكن ثمة ما يؤذن بأنه سوف يعرض عقله للمخاطر من طريق الرؤى الصوفية التي تمت للقديس يوحنا الانجيلي واحدة منها . إن في إمكان الرسول أن يكون مقءاماً ، اما الاسقف فينبغي أن يكون هيأبأ . ولعله كان يتروء في أن يسبر غور بعض المسائل التي يقصر الخوض فيها بطريقة ما ، على العقول الكبيرة الخفيفة . أن ثمة رعباً مقدساً يكتنف الطريق الى الالغاز الصوفية . إن بعض الفجوات القائمة لتغرفاها هناك ، ولكن شيئاً يقول لك فيما أنت تقرب من شفير الموت : لا تدخل ! الويل لمن يدخل !

إن هناك عباقرة يرفعون فكراتهم الى الله ، وهم في غمرة من التجريد الذي لا تسبر أغواره ومن التأمل المحض ، فكأنهم ، اذا جاز التعبير ، فوق العقائد الدينية جميعاً . أن صلاتهم لتعرض ، في جراءة ، نقاشاً ما . وإن عبادتهم لتستجوب . ذلك هو الدين المباشر المقعم بالقلق والمسؤولية عند من يتسلق جدرانها .

ليس للفكر البشري حدود . انه محلل ويشرح ، على مسؤوليته ، انهارة هو . وفي ميسورنا أن نذهب الى القول إنه ، بطريقة من الرجوع الرائع ، يهبر الطبيعة ؛ فالعالم الحفي الغامض الذي يحيط بنا بعيد ما يتلقى ؛ ومن الجائر أن يكون المتأملون هم أنفسهم موضوع تأمل . وأياً ما كان ، فعلى ظهر الارض رجال - هل هم رجال وحسب ؟ - يستطيعون أن يلهجوا بوضوح ، في أفق تأملاتهم ، قم المطلق الشائعة ، ويملكون الرؤيا المروعة للجبل اللانهاي . إن مونسينور بينفينو لم يكن واحداً من هؤلاء الرجال ؛ إنه لم يكن عبقرياً . كان خليقاً به أن يرهب هذه الذرى التي انزلت منها رجال ، بعضهم عظيم جداً ،

مثل سويدنبورغ* وباسكال**، نحو الجنون الكامل. وليس من شك في ان لهذا الاستغراق في التفكير الحالم فائدته الاخلاقية ؛ ومن هذه الطرق الوعرة يستطيع المرء ان يدنو من الكمال المثالي . أما هو فسلك السبيل المستقيمة ، التي هي قصيرة : الانجيل .

انه لم يحاول ان يجعل حُلة القداس التي يرتديها تتخذ ثنيات وداء ايليا . *** وما كان ليلقي أيما شعاع من أشعة المستقبل على تقلب الاحداث المظلم . انه لم يسع قط الى ان يركز وميض الاشياء حتى يغدو مشعة . لم يكن فيه شيء من النبي أو شيء من الساحر . كانت نفسه المتواضعة تحب ؛ هذا كل ما هنالك .
أما أنه بسط صلاته حتى تبلغ مطيحاً فوق بشري ، فهذا مرجح . ولكن الغلو في الصلاة كالغلو في الحب ، غير محمود . وإذا كان من الزندقة ان يصلي المرء خارج النصوص فعندئذ تكون القديسة تيريزا **** والقديس جيروم ***** زنديقين .

* Swedenborg فيلسوف متصوف سويدي ، ولد في ستوكهولم وتوفي في لندن (١٦٨٨ - ١٧٧٢) وكان يزعم انه على اتصال بالعالم الروحي وانه يوحى اليه منه . وكان له مريدون كثير .

** Pascal هو الرياضي ، الفيزيائي ، والفيلسوف الفرنسي (١٦٢٣ - ١٦٦٢) وقد اتجه اثر حادثة وقت له ، اتجاهاً دينياً ، ومات في ريمان شبابه قبل ان يتم دفاعاً عن النصرانية كان قد شرع في وضعه ثم نشرت اجزاء منه بعنوان « خواطر » *Pensées* . وانما يشير فيكتور هيجو هنا الى ما رواه الكاهن بوالو - وهو ما لم يؤيده شاهد آخر - من ان باسكال اصيب في آخر أيامه بهلوسة جعلته يرى في كثير من الاحيان وكأن هاوية تقفر فاها غير بعيد عنه لكي تبلمه .

*** هو نبي يهودي تذكر التوراة انه دعا شعبه الى نبذ عبادة بعل وعشثروت وقام بمعجزات كثيرة . وفي التوراة ايضاً انه رفع الى السماء على عربة من نار ، وانه عهد الى أحد تلاميذه في كتابة رسالته تأكيداً له رداً له . لكي يتمكن من أن يأتي بتل الاعاجيب التي اتى بها هو . ويرمز الفرنسيون بـ « رداء ايليا » الى ان شخصاً ما قد ورث موهبة ما عن استاذه أو سيده .
**** مصلحة اصبانية اشتهرت برواها وتصوفها . (١٥١٥ - ١٥٨٢)

***** احد آباء الكنيسة اللاتينية ، وهو الذي قام بترجمة الكتاب المقدس الى اللغة اللاتينية (٣٤٠ - ٤٢٠ م)

كان يجذب على المحزونين والتائبين . لقد بدا الكون في نظره وكأنه داء ضخم عريض . كان يستروح الحمى في كل مكان ، وبصيح الى الآلام في كل مكان ؛ ومن غير ان يحاول حل اللغز سعى الى ان يضمد الجرح . لقد أوقع مشهد المخلوقات الرهيب رقة في نفسه ولطفاً . وكان منهكاً دائماً في ان يبحث لنفسه - ويوحى الى الآخرين - عن افضل الطرق الى العطف والمواساة . فقد كان العالم كله ، عند هذا الكاهن الصالح النادر المثال ، موضوع حزن سرمدى ، فهو يلتمس المواساة أبداً .

ان ثمة رجالاً يجهدون بسبيل استخراج الذهب ؛ أما هو فكان يجهد بسبيل استدرار المرحة . وكان الشقاء الشامل هو منجبه ، ولم يكن الالم المتفشي في كل مكان غير مناسبة للعمل الصالح مسترة . أحبوا بعضهم بعضاً ؛ لقد اعتبر ذلك عنوان الكمال . إنه ما كان يتمنى شيئاً اضافياً ، فقد كانت هذه الكلمات تؤلف عقيدته كلها . وذات يوم قال ذلك الرجل الذي عدّ نفسه « فيلسوفاً » - عضو الشيوخ الذي أشرنا اليه سابقاً - قال للاستقف :

- « ولكن انظر الى مشهد العالم . ان كل امرئ من الناس ليقاثل الناس جميعاً ، وإن أقوى الناس هو افضل الناس . وليست آيتك القائلة « أحبوا بعضهم بعضاً » اكثر من حماقة . »

فأجابه مونسينيور بينفينو من غير ما مناقشة :

- « حسن . اذا كانت حماقة فيتعين على النفس أن تحتجب فيها كما تحتجب المؤلوة في المحارة . »

واحتجب هو فيها ، وعاش فيها ، واكتفى بها اكتفاء مطلقاً ، مطّرحاً المسائل الخفية العجيبة التي تجذب وتزعج ، وأغوار التجريد التي لا تُبر ، ومبادئ الميتافيزيقا أو ما وراء الطبيعة - مهملاً كل هذه الغوامض التي تنصب عند الرسول ، على الله ، وعند الملحد ، على العدم : - القدر ، والخير ، والشر ، وتناحر المخلوقات ، وضمير الرجل ، واحلام الحيوان التي تجاوز التفكير ، والتحول الذي يتم بالموت ، ومراجعة الحيوانات الناقية في القبر ، وتلقح الأنا

المستمرة بالاهواء المتعاقبة تلقعاً لا سبيل الى فهمه ، والجوهر ، والمادة ،
واللاشئية ، والشيئية ، والنفس ، والطبيعة ، والحرية ، والضرورة ؛ مسائل
عويصة ، وأعماق كالحلح يُجذب نحوها « رؤساء ملائكة » الجنس البشري الضخام ؛
وهُوىّ * رابعة يتفكر فيها لو كريتيوس ** ومُمانو *** والقديس بولس ،
ودانتي ، بتلك العين الساطعة التي تبدو ، اذ تحدّق الى اللانهاية تحديقاً موحولاً ،
وكأنها تضرع النار في النجوم نفسها .

كان مونسينيور بينفينو مجرد راجل تقبّل هذه المسائل الغامضة من غير ان
يتعمّقها ، ومن غير ان يثيرها ، ومن غير ان يُقلق عقله بها ؛ رجل يُكنّ في
ذات نفسه احتراماً عميقاً للسِرّ الذي يكتنفها .

* جمع هَوّة .

** Lucretius شاعر روماني (حوالى ٩٥ - حوالى ٥٣ ق . م) نادى بادية ابيقور في
قضية له مشهورة غنية بالفكر الربّ . ومات منتحراً .
*** Manou أو Mānuva - bharna - Cāstra احد الكتب الهندية المقدسة التي تبسط العقيدة
البرهية . وتطلق هذه اللفظة ، في ما تطلق ، على أنصاف الآلهة الاربعة عشر التي تحكم العالم
- حسب المعتقد البرهمي - على التماكب .

الكتاب الثاني

السقوط

١

بعد مسيرة يوم بكامله

قبل المغيب بساعة تقريباً ، من احد الايام الاولى من شهر تشرين الاول ، سنة ١٨١٥ ، دخل رجل متوحد على قدميه مدينة د ... الصغيرة . فما كان من النفر القلائل من ابناء البلدة الذين كانوا واقفين في تلك اللحظة الى نوافذ بيوتهم أو على عتبات ابوابها إلا ان نظروا الى هذا المسافر في ضرب من الفلق . فقد كانت من العسير ان تقع العين على عابر سبيل ذي مظهر اشدّ بؤساً . كان ربعة في الطول ، بدينياً ، جلدأ على الصعاب ، وفي عنقوان العمر ؛ ولعله ان يكون قد بلغ السادسة والاربعين او السابعة والاربعين . كانت قلنسوة جلدية ممالأة الى

جانب تخفي ، نصف إخفاء ، وجهه الذي برزته * الشمس والرياح ، وسال منه العرق . كان صدره الاضئث بادياً من خلال القميص الاصفر الحشن المشدود حول الرقبة بمبئث فضي صغير . وكان يرتدي ربطة عنق مفتولة كالجبل ، وينطلوناً كثنائياً ازرق خشنأ ، متهرئاً بالياً ، ابيضت احدى ركبتيه وتناثرت الثقوب في ركبتيه الاخرى ؛ وصدره رمادية عتيقة رثة رُفعت عند احد جوانبها بقطعة من القماش الاخضر بواسطة خيط من قنّب . وعلى ظهره كان كيس من أكياس العساكر ، مُحكم الربط ، جديد بالكلية ، وفي يده كان يحمل عصا هائلة ذات عُقد : كانت قدماءه غير المجوربتين تنتعلان حذاء رُصف بالمسامير ، وكان شعره مجزوراً ، وكانت لحيته طويلة .

وأضاف العرق ، والحرارة ، والسير الطويل ، والغبار قذارة تمتنع عن الوصف الى هذا المظهر الحرب .

كان شعره حليفاً حتى الجلد ، ولكنه مع ذلك قاسٍ خشن . ذلك بأنه كان قد شرع ينمو بعض الشيء ، وبدا وكأنه لم يُخلق منذ مدة قصيرة .

إن احدآ لم يعرفه . كان واضحاً أنه عابر سبيل ليس غير . من اين أقبل ؟ من الجنوب ، وربما من شاطيء البحر . ذلك بأنه دخل بلدة د ... من الطريق نفسها التي سلكها الامبراطور نابوليون ، قبل سبعة اشهر ، من « كان » الى باريس . ولا بد أن يكون هذا الرجل قد سلخ سحابة يومه وهو يسعى على قدميه ، فقد بدا شديد الالقاء . لقد بضرت به بعض نوة البلدة العتيقة القائمة في الجزء الادنى من المدينة وقد وقف تحت شجرات جادة غاساندي وانشأ يشرب من الينبوع المتدفق عند اقصى المنتزه . ولا بد انه كان شديد الظمأ ، ذلك بأن بعض الصبية الذين تعقبوه رأوه يقف كرة اخرى ، ولما يتقدم متني خطوة اضافية ، ليعاود الشرب من الفتارة التي في السوق العامة .

وحين بلغ زاوية شارع بواسوفير انعطف يسرة ، ومضى الى مكتب العمدة . ودخل المكتب ؛ ثم غادره بعد ربع ساعة . كان احد رجال الدرك جالاً قرب

الباب على المقعد الحجري الذي ارتقاء الجنرال درووه * ، في ٤ آذار ، ليتلو على أبناء د... المروءين إعلان غولف جوان ** فرفع الرجل فلسوته وحيًا الدركي في ذلة .

ومن غير ان يردّ النعية ، نظر الدركي اليه في انتباه ، وأتبعه عنبه فترة ما ثم دخل دار البلدية .

وكان في د... فندق حسن يدعى « لا كروا دو كولبا » ، وكانت يتولى ادارته فندقيّ اسمه جا كان لابار* ، وهو رجل كان له بعض الاعتبار في المدينة بسبب من صلة النسب التي تربطه بـ « لابار* » آخر يدرفندقاً في غرينوبل يدعى « تروا دوفين » ، وقد سبق له ان خدم في كتائب الحرس . ومنذ أن وطىء الامبراطور *** الارض الفرنسية ثار في البلاد لفظ كثير حول فندق الـ « تروا دوفين » هذا . لقد قيل إن الجنرال بروتان رحل الى هناك عدة مرات ، خلال كانون الثاني ، متنكرًا بزيّ سائق عربية ، ووزع اوسمة « صليب الشرف » على الجنود ، وحفّات من الليرات المعروفة بـ « نابوليون » على جماعة من البورجوازيين . والحقيقة ان الامبراطور رفض ، يوم دخل غرينوبل ، أن ينزل في دار المحافظ قائلًا له بعد ان شكره : « سوف امضي الى بيت رجل شعاع لي به معرفة . » ثم شخص الى فندق الـ « تروا دوفين » . وانعكس هذا المجد الذي حظي به « لابار » صاحب فندق الـ « تروا دوفين » - انعكس عبر خمسة وعشرين فرسخاً على « لابار » صاحب فندق « لا كروا دو كولبا » . وتحدث الناس عنه ، في البلدة ، فقالوا : « إنه ابن عم الرجل الغرينوبلي ! »

وولى ابن السبيل وجهه قبلَ هذا الفندق ، الذي كان احسن فنادق الاقليم كلها ، ودخل اتوّه الى المطبخ المنفتح على الشارع . كانت جميع وجاقاته موقدة ،

* Drouot قائد فرنسي (١٧٧٤ - ١٨٤٧) ، ابلّ بلاه حسناً في موقعة واغرام ، وموقعة لوتزن ، وموقعة واترلو .

** Golfe . Juan من اعمال « اقليم الالب البحري » حيث هبط نابوليون الارض الفرنسية عند عودته من منفاه في جزيرة ألبا .

*** نابوليون ، إثر عودته من ألبا .

وكانت نار عظيمة تضطرم رشيقة في الموقد . وكان صاحب النزل ، الذي كان في الوقت نفسه كبير الطهارة ، ينتقل من الموقد الى القدور المعدنية ذوات المقابض ، منهمكاً في إعداد عشاء ممتاز لبعض سائقي العربات الذين كانوا يضحكون ضحكاً مدوياً ويتحدثون احاديث صاخبة في الغرفة المجاورة . وكل من قدر له ان يسافر يعرف ان احداً لا يحيا أحسن مما يحيا سائقو العربات . كان مرموط مسمين * يحيط به حبلان * * * بيض واوز ، يدور على سفود طويل حول النار . وعلى الوجاقات نضج شبوطان * * * ضخمان من بحيرة لوزيه ، وتروته * * * من بحيرة آلوز .

وقال صاحب النزل ، وقد سمع الباب يُفتح ، ويدخل قادم جديد ، ولكن من غير ان يرفع عينيه عن الوجاقات :

— « ما الذي يريدك السيد ؟ »

— « اريد أن آكل وانام . »

فقال صاحب النزل : « ليس ثمة شيء اسهل من ذلك . »

حتى اذا ادار وجهه ، والقى نظرة على المسافرين أضاف : « لقاء أجرة . »

وسحب الرجل من جيبه كيس نقود جليداً كبيراً وأجاب :

— « عندي مال . »

فقال صاحب النزل : « اذن ، أنا في خدمتك . »

واعاد الرجل كيس نقوده الى جيبه . وفي جهد أنزل الكيس العسكري عن ظهره ، قرب الباب ، وجلس على كرسي منخفض ، الى جانب النار ، ممسكاً

عصاه بيده . ذلك بان بلدة ... جبلية ، وليالي ثشرين الاول قارسة فيها .

وايماً ما كان فقد أبقي صاحب النزل في غدوته ورواحه عيناً حذرة على المسافر .

وقال الرجل : « هل العشاء جاهز ؟ »

* حيوان من ذوات الاربع في حجم الارنب تقريباً وفي مثل هيئة إلا أن ذنبه أقصر .
* * * جمع حجل .

* * * الشبوط ضرب من سمك الماء الحلو .

* * * من سمك الماء الحلو ايضاً .

فأجاب صاحب الفندق : « سيكون جاهزاً في الحال . »
وفيا الوافد الجديد يتدفأ ، مديراً ظهره ، اخرج صاحب النزل الفاضل ،
جا كان لا يبار ، قلماً من جيبه ثم مزق زاوية صحيفة عتيقة سحبها من طاولة صغيرة
كانت قائمة قرب النافذة . وعلى هامش القصاصة الابيض خطّ سطرأ أو سطرين ،
وطواها من غير ان يضعها في ظرف ، ودفعها الى غلام بدا وكأنه يعمل في خدمته
مساعد طاهٍ وخادماً في آن معاً . وهمس صاحب الفندق بكلمة في أذن الغلام ،
فانطلق نحو مكتب العمدة .

ولم ير المسافر شيئاً من ذلك .

وتساءل كره أخرى :

— « هل الطعام جاهز ؟ »

فأجاب صاحب المنزل :

— « سيكون جاهزاً في الحال . »

ورجع الغلام ، حاملاً قصاصة الورق . ونشرها صاحب المنزل على عجل ،
فعلّ من يتوقع جواباً . وبدا وكأنه يقرأ في انقباه ، ثم فكّر لحظة طارحاً
رأسه الى جانب . واخيراً تقدّم خطوة نحو المسافر الذي بدا مستغرقاً في تفكير
مشوّش كدير .

وقال : « انا لا استطيع ان استقبلك ، يا سيدي ! »

ونفض المسافر عن مقعده نصف نهضة .

— « لماذا؟ أتخاف ان لا ادفع اليك الثمن ، أم انك تريدني ان أدفعه مقدّماً؟ »

إن عندي مالاً ، أقول لك . »

— « ليس هذا هو السبب . »

— « ما السبب إذن ؟ »

— « إن عندك مالاً ... »

فقال الرجل : « نعم . »

فاردف صاحب النزل : « ولكن ليس عندي غرفة . »

- فأجابه الرجل في هدوء :
- « ضعي في الاسطبل . »
- « لا أستطيع . »
- « لماذا ؟ »
- « لأن الحيل تحتل المكان كله . »
- فسارع الرجل الى القول :
- « حسن . زاوية في العلبة . حزمة من القش . سوف ننظر في هذه المسألة بعد العشاء . »
- « انا لا أستطيع ان اقدم اليك عشاء . »
- وبدا هذا الاعلان ، المفرغ في جرس موقّع ولكنه جازم ، خطيراً في نظر الرجل الغريب . فنهض .
- « آه ياه ! ولكنني أموت من الجوع . لقد مشيت منذ مطلع الشمس ؛ لقد قطعت اثني عشر فرسخاً * . سوف ادفع . أريد ان آكل ! »
- فقال صاحب المنزل : « ليس عندي شيء . »
- وانفجر الرجل ضاحكاً ، واستدار نحو الموقد والوجاقات .
- « لا شيء ! وهذا كله ؟ »
- « إنه طعام محبوز . »
- « ومن الذي يحبزه ؟ »
- « هؤلاء السادة سائقو العربات . »
- « وما عددهم ؟ »
- « اثنا عشر . »
- « إن ثمة طعاماً يكفي عشرين . »
- « لقد حبزو الطعام ودفعوا ثمنه كله مقدماً . »
- وعاود الرجل الجلوس وقال من غير ان يرفع صوته :
- * الفرسخ : اربعة كيلومترات .

— « انا في الفندق . إنني جائع ، ولسوف ابقى . »
فانحنى صاحب النزول فوق أذنه وقال في صوت جعله يرتجف :
— « أخرج من هنا ! »

ولم يكد المسافر يسمع هذه الكلمات ، وكان منحنيًا يجرّك بعض الجرات في النار بطرف عصاه المغلف بالحديد ، حتى استدار فجأة ، وفتح فاه ليجيب . فما كان من صاحب النزول ، الناظر اليه نظراً موصولاً ، إلا ان اضاف في الصوت الحفيظ نفسه :

— « كفى . حذار ان تقول كلاماً كهذا بعد الآن ! أتريد أن أقول لك ما اسمك ؟ انت تدعى جان فالجان . والآن ، تريد ان اقول لك من أنت ؟ فنذا ان رأيتك تدخل ، ساورني الشك . فانصلت بمكتب العمدة ، فكان هذا هو الجواب الذي جاءني . هل تعرف القراءة ؟ »

واذ قال ذلك ، قدّم الى الرجل الغريب تلك الورقة المنشورة التي انطلقت من النزول الى مكتب العمدة ، ثم رجعت من مكتب العمدة الى النزول . والقى الرجل نظرة عليها . وبعد صمت ، استأنف صاحب الفندق كلامه :

— « من عادتي ان اكون لطيفاً مع الناس جميعاً . إذْهَبْ ! »
وطأ الرجل رأسه ، ورفع كيسه عن الارض ، ومضى لسبيله .
واتخذ الطريق الرئيسية ، هائماً على وجهه ، محاذياً البيوت مثل رجل محزون كتهين : إنه لم يلتفت مرة واحدة الى وراء . ولو قد فعل ، اذن لرأى صاحب فندق « لاكروا دو كولبا » واقفاً بباب نزله ، وقد احاط به زبائنه جميعاً ، واجتمع حوله عابرو السبيل كلهم ، متحدين في احتياج ، مشيراً اليه بأصبعه ، وإذن لأدرك من خلال نظرات الحذر والجزع التي تبادلها القوم ، ان قدومه سوف يصعب مما قليل حديث البلدة برمتها .

إنه لم ير شيئاً من ذلك كله . فالتاس الذين كبّهم الموم لا يلتفتون الى وراء . إنهم يعرفون معرفة يقينية ان النحس يلاحقهم .
وواصل سيره على هذه الشاكلة فترة ما ، هابطاً من غير ما قصد شوارع

مجهلها ، ناسياً التعب ، كالذي يقع في غمرة الحزن دائماً . وفجأة استشعر عضّة الجوع . كان الليل على وشك ان يهبط فاجال طرفه في ما حوله باحثاً عن مأوى . لقد أوصدت ابواب الفندق الطيب في وجهه . فلبتس الآن حانة متواضعة ، أو قبواً حثيراً .

وفي تلك اللحظة التمع ضوء عند اقصى الشارع . لقد رأى غصن صنوبر معلقاً بسنادٍ حديديّ ناتيء ، تحت مماء الفسق البيضاء . فمضى الى هناك .

وفي الحق ، أنها كانت حانة . الحانة القائمة في شارع دو شوفتو . ووقف المسافر لحظة ، ونظر من خلال النافذة الصغيرة الى قاعة الحانة الخفيضة ، المضاءة بمصباح رُفع على احدى الطاولات ، وبناور عظيمة تضطرم في الموقد . كان بعض الرجال يعاقرون الخمر ؛ وكان صاحب الحانة يتدفاً . وكانت قدر حديدية تتدلى من معلق المِرْجل ، فتحملها النار على الغليان .

وكان لهذه الحانة - وهي ضربٌ من المطاعم أيضاً - مدخلان اثنان ، احدهما منفتح على الشارع ، والآخر منفتح على فناء صغير مليء بالقاذورات . ولم يجرؤ ابن السبيل على الدخول من الباب الاول . لقد انسل الى الفناء ، ووقف ككرةٍ اخرى ، ورفع المزلاج في خشية ، ودفع الباب .

وقال ربّ الحانة : « مَنْ هناك ؟ »

- « رجل يلتبس عشاء ومبيتاً . »

- « هذا حسن . في استطاعتك هنا ان تتعشى وتنام . »

ودخل الحانة ؛ فلم يَبْتَئَ احدٌ من الشُّرب * إلا التفت نحووه . وأضاء المصباح جانباً من وجهه ، وأضاءت النار الجانب الآخر . وتأمله القوم فترةً فيما كان يحطّ كيسه عن ظهره .

وقال له صاحب الحانة : « هذه هي النار . إن العشاء يُنضج في القِدْر . تعال وتدفاً يارفيقي . »

وجلس قرب المستوقد ، ونشر رجله نحو النار ، وقد كاد الأعياء يُميته .

* جماعه الشاربين .

وانطلقت من القدر رائحة زكية . وكان كل ما بسدا من بحياه نحت قلنسوته
المائلة ينم عن مظهر غبطة غامض يمتزج بتلك السبا المحزونة التي يخلعها على المرء
تطاول العذاب الموصول .

كانت هيئته الجانبية قوية ، نشيطة ، حزينة . وكانت سباه تلك غريبة حقاً ؛
لقد بدت اول الأمر حقيرة ، ثم انتهت الى ان تبدو قاسية . والتمعت عينه تحت
حاجبيه وكأنها النار تحت عوسجة .

بيد أن رجلاً ممن انتظمتمهم المائدة كان صياداً وضع جواده في الاسطبل
المملع بقندق لبار قبل ان يقد على الحانة القائمة في شارع دو شوفو . ولقد اتفق
أن لقى ، صباح ذلك اليوم نفسه ، هذا الرجل الغريب المشبه وهو يقطع
الطريق ما بين برا داس و ... (لقد نسي الاسم ، وأظن أنه ايسكوبلون .)
فسأله الرجل الغريب ، الذي هذه الأعياء ، ان يُردفه على جواده ، فما كانت من
الصيد إلا ان أطلق العنان لجواده مضاعفاً من سرعته . وقبل نصف ساعة ، كان
الصيد بين الحشد الذي تحلق حول جا كان لبار ، وكان قد روى خبر اجتماعه
البغيض به على مسامع القوم في « لاكروا دو كولبا » . وأوماً الى صاحب
الحانة ، خلصة ، أن يدنو منه ، ففعل . وتبادلا بضع كلمات في صوت خفيض .
كان المسافر قد استغرق في التفكير كرة اخرى .

وانقلب صاحب الحانة الى النار ، ووضع يده في خشونة على كتف الرجل
الغريب ، وقال في فظاظة :

« ينبغي ان ترحل من هنا ! »

فاستدار الغريب وقال في رقة :

« آه ! هل تعرف ؟ ... »

« نعم . »

« لقد طردوني من ذلك الفندق . »

« ونحن نطردك من هذا . »

« والى اين تريد ان اذهب ؟ »

— « الى مكان آخر . »

وتناول الرجل عصاه وكيده ، ومضى لسبيله .

فلما وطئت رجلاه الطريق شرع نفر من الصبية يرشقونه بالحجارة — وكانوا قد تعقبوا أثره من « لاكروا دو كولبا » ، وبدّوا وكأنهم ينتظرونه . فالتفت اليهم مغضباً ، وتهددهم بعصاه ، فانفضوا من حوله مثل سرب من الطير .
وانتهى الى السجن . كانت سلسلة حديدية تتدلى من الباب مشدودة الى جرس . فأمسك بها وقرع .

و«فتحت نافذة الباب .

وقال الرجل وهو يرفع قلنسوته احتراماً :

— « سيدي السجن ، هل لك ان تفتح الباب وتسمح لي بالمبيت هنا هذه الليلة ؟ »

فأجابه صوت :

— « السجن ليس فندقاً . إفعل ما يحمل الشرطة على اعتقالك ، وعندئذ نفتح لك ! »

وأوصدت نافذة الباب .

ومضى الى شارع صغير حافل بالجنائن ؛ كان بعضها مسوّراً بأسياجة ليس غير فهي 'تبهج الشارع . وبين تلك الحدائق بَصُرَ بيت صغير جميل ذي دور واحد ينبعث من نافذته نور . وحدّق من خلال الزجاج فعلمه حين بلغ الحانة من قبل ، فرأى غرفة رحبة بُيِّضت بماء الكلس ، تحتوي على سرير مجلّل بألشت المطبوع ، ومهد قائم في الزاوية ، وبضعة كراسي خشبية ، وبندقية ذات اسطوانتين معلقة على الجدار . وكانت في وسط تلك الغرفة طاولة ، وكان مصباح نحاسي يضيء غطاء الطاولة الابيض الحشن . والتسع ابريق صفيحي مترع بالخمر وكأنه الفضة ، وتساعد البخار من صحن الشورباء الأسمر . والى هذه المائدة كان يجلس رجل في نحو الاربعين ، بهيج الفؤاد منطلق الاساور ، يلعب على ركبته طفلاً صغيراً . وغير بعيد منه كانت امرأة شابة ترضع طفلاً آخر . كان الوالد يضحك ، وكانت

الولد يضحك ، وكانت الأم تبسم .

وظل ابن السبيل لحظة يتأمل هذا المشهد العذب المهدى . للاعصاب . ما الذي دار في خلده ؟ كان هو وحده القادر على ان يجيب عن ذلك . ولعله قد فكّر بأن هذا البيت السعيد لا بد ان يكون مضافاً ، وبأنه قد يجد قليلاً من الشفقة حيث وقع بصره على هذه السعادة كلها .

ونقر على الزجاج النافذة نقرةً واهنة .

ولم يسمعه احد .

ونقر كرةً اخرى .

وسمع المرأة تقول لزوجها :

« بخيل اليّ ان تمة شخصاً يقرع النافذة . »

فأجاب الرجل : « لا »

ونقر على الزجاج مرةً ثالثة . فنهض الزوج ، وحمل المصباح ، وفتح الباب . كان رجلاً فارغ الطول ، نصفه فلاح ، ونصفه من اصحاب الصنائع . وكان يرتدي مثزراً جلدياً رجباً ارتقى حتى كنفه اليسرى وشكّل جيباً يحتوي على مطرقة ، ومنديل احمر ، وقرن بارود ، ومختلف ضروب الاشياء التي ينتظمها الحزام . وادار رأسه الى وراء . فكشف قميصه الواسع المفتوح عن رقبته البيضاء العارية الشبيهة برقبة الثور . كان ذا حاجبين غليظين ، وشاربين ضخمين سوداوين ، وعينين جاحظتين . وكان الجزء الادنى من وجهه محجوباً ، والى ذلك كله فقد كانت تغلب عليه سيما الرجل الآمن في بيته ، الآخذ اكبر قسط من الحرية والراحة ، وهي سيما لا سبيل الى وصفها البتة .

وقال المسافر : « سيدي ، ألتمس عفوك : هل تستطيع ان تقدّم اليّ ، لقاء مبلغ من المال ، صحناً من الحساء ، وزاوية في السقيفة التي في حديقتك أنام فيها ؟ قل لي هل تستطيع ان تقدّم اليّ ذلك ؟ لقاء مبلغ من المال أدفعه ؟ »

فأله صاحب الدار : « من أنت ؟ »

فأجابه الرجل : « لقد اقبلت من بوي مواسون ؟ لقد مشيت طوال النهار .

لقد قطعت اثني عشر فرسخاً . هل تستطيع ؟ اذا دفعت اليك مالا ؟
فقال الفلاح : « انا لا أرفض أن أؤوي أيّ رجل ملائم يدفع أجر ذلك .
ولكن لماذا لا تذهب الى الفندق ؟ »

- « ليس ثمة متسع . »
- « بآه ! هذا مستحيل . ليس اليوم موعد معرض ولا سوق عامة . هل
قصدت الى تزلّ لا بار ؟ »

- « نعم . »

- « ثم ماذا ؟ »

فأجاب المسافر في تردد :

- « لست ادري . لقد رفض ان يؤويني . »

- « هل قصدت الى ذلك المكان الذي في شارع دو شوفر ؟ »

فتعاطف ارتباك الرجل الغريب ، وتمتم :

- « لقد رفضوا إيوائي هناك ايضاً . »

ورانت على وجه الفلاح انطباعة ارتياح . ونظر الى الوافد الجديد مسنّ
قمة رأسه الى اخص قدميه ، ثم صاح فجأةً وقد استبدّ به ضرب من الارتعاد:
- « أأنت ذلك الرجل ؟ »

وعاود النظر الى الغريب ، وارتدّ الى الوراء ، فوضع المصباح على الطاولة ،
ونزع بندقيته عن الجدار .

ولم تكذ زوجته تسمع قوله : « أأنت ذلك الرجل ؟ » حتى أجفلت ،
وضمت ولديها بين ذراعيها ، وسارعت الى الاحتماء خلف زوجها . ونظرت الى
الرجل الغريب في ذعر ، عارية العنق ، مشدوّهة العينين ، ونغمت في صوت
خفيض :

☆ « Treo - maraude ! » -

« من كلام سكان مناطق الالب الفرنسية ، ومعناها : هرة تهرب غلات الارض قبل ان تمضد ،
أو كما يسرق الجنود زمن الحرب . »

جرى ذلك كله في وقت اقصر من ذلك الذي يحتاج اليه المرء لكي يقرأ نبأه . وبعد ان تأمل الرجل كما يتأمل الانسان أفعى ، تقدم رب الدار الى الباب وقال :

« أخرج من هذا ! »

فقال الرجل : « باسم الشفقة ، أعطني جرعة ماء ! »
فأجابه الفلاح : « سوف اعطيك طلقاً نارياً ! »

ثم إنه اوصد الباب في عنف . وسمع الرجل مغلفين ثقيلين يُسحبان . وما هي الا لحظة حتى أغلقت النافذة الخشبية وقُضبت * بالحديد على نحو صاحب . وواصل الليل هبوطه . وهبت رياح الألب القارسة . وعلى ضوء النهار المحتضر لمح الرجل الغريب - في احدى الجناح المواجهة للشارع - شبه كوخ مبني من اللبن . وفي عزم ، اجتاز بسياج خشبي ، فألقى نفسه في الحديقة . ودنا من الكوخ . كان بابه كناية عن فتحة ضيقة شديدة الانخفاض ، وكان هو اشبه شيء بتلك الاكواخ التي يقيمها معبدو الطرق لأغراضهم المؤقتة . ولقد ظن الرجل الغريب ، من غير شك ، انه كان في الواقع مأوى معبد طرق . وكانت يقاسي ألم البرد والجوع جميعاً . ولقد أذعن للجوع واحتله ، ولكن هنا وقاية من البرد على الاقل . وقد جرت العادة بأن يكون هذا الضرب من الاكواخ غير آهل في اثناء الليل . فانطرح على الارض وزحف الى الكوخ . كان الجو دافئاً هناك ، ولقد وجد ثمة فراشاً جيداً من قش . واستراح على هذا الفراش لحظة ، عجز خلالها عن ان يأتي بحركة لشدة ما ألم به من الاعباء . واذ أزعجه كيبه المشدود الى ظهره ، وإذ كان في ميسوره ان يتخذ من ذلك الكيس وسادة ، فقد شرع يفك احد سيوره . وفي تلك اللحظة طرق سمعه نباح ضارٍ ؛ فرفع عينيه فاذا به يرى عند وصيد الكوخ كلباً ضخماً الرأس والعنق .

كان ذلك المكان وجارٍ كلب !

* قُضِبَ بالحديد : وضع أحدتاه ليفيد معنى : أحكم إغلاق الباب او غيره بالقضبان الحديدية .

وكان هو نفسه شديد البأس راعباً . فشهر عصاه ، واتخذ من كيسه
مجنأً ، وغادر الجوار على خير ما كان في وسعه ان يفعل ، وقد اتست خروقه
ثيابه وتعاطمت .

وغادر الحديقة أيضاً ، ولكن مرتدأ الى الوراء ؛ وقد اضطر ، تيمناً
للكلب ، الى ان يصطنع بعضاء تلك المناورة التي يدعوها المتبرسون بلعبة السيف
والترس « الوردة المحجوبة » .

حتى اذا عاود الرنوب ، في مشقة ، من فوق السياج ، ألقى نفسه وحيداً ،
كرة اخرى ، على فارعة الطريق ، من غير مرقد ، ومن غير سقف ، ومن
غير مأوى ؛ بل ألقى نفسه طريداً حتى من الفراش القشبي الذي وقع عليه في ذلك
الجوار الحفيري . ثم انه طرح نفسه - ولا نقول جلس - على حجر ، وبدا وكأن
عابراً مرّ به سمعه يصيح :

- « أنا لستُ حتى كلباً ! »

ثم نهض ، وأنشأ يتسكع من جديد ، متجهاً نحو ظاهر البلدة ، رجاء ان
يجد شجرة او ركائماً ما في بعض الحقول حيث يستطيع ان يبيت ليلته تلك .

وواصل السير على هذا النحو ، فترةً ما ، مطرق الرأس ابدأ . حتى اذا
خيّل اليه انه أمسى بعيداً عن المنطقة الآهلة بالبشر رفع عينيه ، واجالهما في ما
حوله مستطلعاً . كان في حقل من الحقول ؛ وكانت امامه احدى تلك التلال
المنخفضة المغطاة بقش الزرع المجزوز من أعقابيه ، والتي تبدو بعد الحصاد اشبه
شيء برؤوس حليقة .

كان الافق قائماً مظلماً جداً ؛ ولم يكن ذلك بسبب من ظلمة الليل فحسب ،
ولكن بسبب من السحب الشديدة الانخفاض التي تراءت وكأنها تتكبيء على
الكثيب نفسه ، والتي ارتقت مغطية السماء برمتها . بيد ان بعض الغسق تباطأ في
سمت الرأس ؛ وإذا كان القمر على وشك ان يطلع فقد شكلت تلك السحب في
كبد السماء قوساً ضارباً الى البياض انبعث منه فوق الارض بعض الضياء .

كانت الارض إذن أحفل بالنور من السماء ، وهي حال توقع في النفس أثراً

مشووماً الى حد بعيد . وارثسم الكتيب ، الفقير الحقيير ، باهناً شاحباً على
الافق القاتم . وكان ذلك كله قبيحاً ، وضعياً ، فاجعاً ، محدوداً . ولم يكن في
الحقل او على الكتيب غير شجرة شائخة - على بضع خطوات من المسافر - شجرة
واحدة بدت وكأنها تلوي نفسها وتنتشى .

وواضح ان هذا الرجل كان بعيداً جداً عن ان يملك تلك السجايا العقلية
والعاطفية الرقيقة التي تهب المرء حساسة لمشاهد الطبيعة الممتنعة على الفهم . ومع
ذلك فقد كان في تلك السماء ، وذلك الكتيب ، وهذا السهل ، وهذه الشجرة
شيء موحش الى درجة جعلت الرجل ينقلب على عقبيه ، بعد لحظة من الكون
والتأمل ، ويسارع الى الطريق العام . إن تلك لحظات تبدو الطبيعة خلالها مخاصمة
معادية .

لقد ارتدت على آثاره . كانت ابواب د ... موصدة . ذلك بأن د ... التي
قاست ضروب الحصار اثناء الحروب الدينية كانت لا تزال محاطة ، سنة ١٨١٥ ،
بأسوار عتيقة تقوم على جنباتها ابراج مربعة خربت منذ ذلك العهد . فما كانت
منه إلا ان عبر من خلال احدى الثغرات ، ودخل البلدة .

كانت الساعة قد بلغت الثامنة مساء ، تقريباً . واذا لم يكن يعرف الشوارع ،
فقد عاود السير على غير هدى . وهكذا انتهى الى دار المحافظ ، ثم الى معهد
الكيركي . حتى اذا مرّ بساحة الكاندرائية هنّ جمع كفيه في وجه الكنيّة .
وكانت في زاوية هذه الساحة مطبعة . هناك كانت تُطبع ، اول مرة ،
بيانات الامبراطور والحرس الامبراطوري للجيش ، بعد أن يُملئها نابوايون
نفسه ، وتُحمّل من جزيرة ألبا .

وإذا كان الاعياء قد أنهكه ، وإذا كان لا يطمع في شيء أفضل ، فقد استلقى
على مقعد حجري تجاه تلك المطبعة .

وفي تلك اللحظة بالذات خرجت من الكنيّة امرأة عجوز . فرأت هذا
الرجل مستلقياً في الظلام فقالت :

- ماذا تفعل هناك ، أيها الصديق ؟ -

فأجابها في فظاظه والغضب بمازج صوته :
- « انت ترين ، ايها المرأة الصالحة ، أنني أزمع أن ائام . »
وكانت المرأة الصالحة ، الجديرة بهذا الوصف حقاً ، هي مدام المركيز دو
و ...

وقالت : « على هذا المتعذر ؟ »
فقال الرجل : « لقد سلعت 'تسع عشرة سنة وأنا أئام على فراش خشبي .
أما الليلة فسأئام على فراش حجري . »
- « أكنت جندياً ؟ »
- « نعم ، يا سيدتي الصالحة ، جندياً . »
- « لم لا تذهب الى الفندق ؟ »
- « لأنه لا مالَ عندي . »
فقالت السيدة دو و ... : « والافساف ، ليس في محفظتي غير اربعة فلوس . »
- « امنحيني إياها . »

وأخذ الرجل الفلوس الاربعة . وتابعت مدام دو و ... كلامها :
- « هذه الفلوس المعدودات لن تكفك من المبيت في فندق . ولكن هل
حاولت ؟ إن من المتعذر عليك ان تقضي الليل هكذا . ولا بد أنك تشكو
البرد والجوع . ينبغي ان يقدموا اليك مأوى تبين فيه من غير ما مقابل .
يجب ان يفعلوا ذلك صدقةً وإحساناً . »

- « لقد طرقت كل باب . »
- « حسن ، ثم ماذا ؟ »
- « ولقد طردني كل إنسان ! »
ومست العجوز ذراع الرجل ودلته الى بيت صغير منخفض قائم في الناحية
الاخرى من الساحة ، غير بعيد عن قصر الاسقف .
وقالت : « تقول انك طرقت كل باب ؟ »
- « نعم . »

— « هل طرقت الباب الذي هناك ؟ »

— « لا . »

— « أطرقه إذن ! »

٢

الفطنة تستسلم للحكمة

تلك الليلة ، مكث اسقف د... في غرفته - بعد أن قام بنزهته في البلدة - حتى ساعة متأخرة . كان منصرفاً الى العمل في مؤلفه الضخم عن « الواجبات » ، هذا المؤلف الذي لم يتم مع الاسف . لقد شرّح ، في عناية ، كل ما قاله آباء الكنيسة والثقات من رجال الدين في هذا الموضوع الخطير . وكان كتابه ينقسم قسمين : الاول ، في واجبات المجموع ؛ والثاني ، في واجبات كل واحد ، وفق الطبقة التي ينتمي اليها . وواجبات المجموع هي الواجبات الكبرى . وثمة أربعة من هذه الواجبات اشار اليها القديس متى ، وهي : واجبات نحو الله (متى ٦) ، وواجبات نحو انفسنا (متى ٥ آية ٢٩ ، ٣٠) وواجبات نحو جيراننا (متى ٧ آية ١٢) وواجبات نحو المخلوقات (متى ٦ آية ٢٠ ، ٢٥) . اما الواجبات الاخرى فقد ألفاها الاسقف محدّدة وموصوفة في مكان آخر . فواجبات الملوك والرعايا في « رسالة بولس الرسول الى اهل رومة » * وواجبات الولاة ، والزوجات ، والامهات ، والشبان في « رسالتي بطرس الرسول الاولى والثانية » ** ، وواجبات الازواج ، والآباء ، والاولاد ، والخدم في « رسالة بولس الرسول الى اهل أفسس » *** وواجبات المؤمنين في « الرسالة الى العبرانيين » **** وواجبات العذارى في « رسالتي بولس الرسول الاولى والثانية الى اهل كورنثوس » *****

« إلى هذه كلها من اسفار الانجيل او « العهد الجديد » . »

وفي جهد شاق أفرغ هذه النصائح جميعها في كلِّ متناغم كان يودُّ ان يقدمه الى النفوس .

وكان لا يزال منصرفاً الى عمله ، في الساعة الثامنة ، يكتب في شيء من الانزعاج على قصاصات صغيرة من الورق ، واضعاً على ركبتيه كتاباً ضخماً مفتوحاً ، عندما اقبلت السيدة ماغلوار ، جرياً على عاداتها ، لتأخذ آنية الفضة من الخزانة الجدارية الصغيرة المجاورة للسريـر . وبعد لحظة اغلق الاسقف كتابه - وقد ادرك ان المائدة قد مُدَّت ، وأن أخته قد تكون في انتظاره - ومضى الى حجرة الطعام .

وكانت هذه الحجرة غرفةً مستطيلة ، ذات موقد ، وذات باب يفتح على الشارع كما سبق منا القول ، ونافذة تطلُّ على الحديقة . وكانت السيدة ماغلوار قد اتمت في الواقع وضع الاطباق . وفيما هي 'تعدّ' المائدة كانت تتحدث الى الآنة باتيستين . وكان على المائدة مصباح . وكانت المائدة قرب الموقد ، حيث اضطربت نارٌ قوية .

وفي ميسور المرء ان يتخيّل ، في سهولة ، هاتين المرأتين اللتين تجاوزت كل منهما الستين من العمر : السيدة ماغلوار ، قصيرةً ، بدينةً ، نشيطة ؛ والآنة باتيستين ، عذبة الروح مهزولة ، واهنة ، أطول بعض الشيء من اخيها ، وترندي ثوباً حريراً اسمر محمراً (وهو لون كان شائعاً عام ١٨٠٦) اشترته آنذاك في باريس ولا يزال يخدمها . ولكي نستعير زباً في التعبير يمتاز بقدرته على ان يقول بكلمة واحدة ما لا تعبّر عنه صفحة كاملة الا بشق النفس نصّ على ان السيدة ماغلوار كانت تبدو عليها سيما الفلاحة ، في حين ان الآنة باتيستين كانت تبدو عليها سيما السيدة . وكانت السيدة ماغلوار تعتمر قلنسوة بيضاء ، قمعيّة الشكل ؛ ويطوّق عنقها صليبٌ ذهبي صغير كالذي يحمله اهل الارياض - وهي الحلية النسوية الوحيدة في ذلك البيت - وترندي منديل عنقٍ ناصع البياض ينبثق من ثوبها الصوفي الحشن الاسود ذي الردين الواسعين القصيرين ، ومثراً

من قماش قطني تزينه مربعات حمراء وخضراء معقوداً عند الحصر بعصابة خضراء ، و « كشكش » صدر من النوع نفسه 'مثبتاً بدبوسين عند زاويتيهِ العلويتين ؛ وتنتعل حذاء غليظاً ، وجوربين صفراوين مثل نساء مرسيليا . اما ثوب الآنسة باتيستين فكان مفصلاً وفقاً لزيّ عام ١٨٠٦ - خصر قصير ، وهذب ضيق ، وردنان عالي الكتفين ، وعريّ وازرار . وكانت تخفي شعرها الاشيب تحت لمة مستعارة جمدة تدعى *à l'enfant* * وكانت تبدو على عيا السيدة ماغلوار أمارات الذكاء والنشاط والطية . وكانت زاويتا فمها المرتفعتان على غير تساوي ، وشفتها العليا التي تفوق شفتها السفلى ضخامةً ، تخلع عليها مـهـمة « نكدية » متغطرة . كانت تتحدث الى الاسقف - ما اعتم هو بالصمت - في عزم وفي مزيج من الاحترام والحربة ، ولكنه ما إن يفتح فمه ، كما قد رأينا ، حتى نذعن له من غير تردد ، مثل الآنسة باتيستين . اما الآنسة باتيستين فما كانت لتتكلم . لقد قصّرت نفسها على الطاعة والرغبة في الأرواء . وحتى حين كانت صبيةً ، لم تكن جميلة . كان لها عينا زرقاوان كبيرتان جاحظتان الى حد بعيد ، وأنف طويل أعقف ، ولكن وجهها كله ، وشخصها كله ، كانا كما رأينا يتضوّعان بطيبة تمتنع على الوصف . لقد كانت مصطفاة ابدأ للوداعة ؛ ولكن الايمان ، والمحبة ، والامل - هذه الفضائل الثلاث التي تدفيء القلب في رفق - كانت قد سمّت بهذه الوداعة شيئاً بعد شيء حتى بلغت بها مستوى القداسة . لقد جعلتها الطبيعة سمحلاً ، ثم جاء الدين فجعلها ملاكاً . مسكينة تلك المرأة القدسية ! إنها ذكرى عذبة ، ولكنها ضائعة !

وكانت الآنسة باتيستين قد أكتوت منذ ذلك الحين من رواية ما حدث في منزل الاسقف آنذاك الى درجة جعلت كثيراً من الناس الذين ما يزالون على قيد الحياة قادرين على ان يتذكروا أدق تفاصيله .

فلحظة دخل الاسقف ، كانت السيدة ماغلوار تتحدث في شيء من الحرارة . كانت تتحدث مع الانسة باتيستين في موضوع مألوف ، ثم ودّ الاسقف السماع . أي : « على غرار الاطفال » .

اليه . كان حديثاً يدور حول وسائل إبعاد الباب الخارجي .
لقد بدا وكأن السيدة ماغلوار ، حين غادرت المنزل لتشتري الاغذية
الضرورية للعشاء ، سمعت انباء تروى في مواطن شتى . كان القوم يتحدثون عن متسكع
خبيث المنبت ، عن منتشر مشبوه ، وقد على البلدة ، وكانوا يقولون انه انتهى
الآن من غير شك الى مكان ما منها . وإن بعض الاحداث الكريهة قد تصيب
اولئك الذين يرجعون الى بيوتهم في ساعة متأخرة من تلك الليلة . والى هذا ،
فقد كانت أداة الأمن رديئة ، لأن كلاً من المحافظ والعمدة يكره الآخر ويرجو
ان يسيء اليه بأحداث مشؤومة ذات خطر . وان من واجب الحكماء من الناس
ان يكونوا هم شرطة أنفسهم ، فيعملوا على حماية انفسهم بأنفسهم . وانه يتعين
على كل امرئ ان يسطع الحذر فيقلل بيته وبوصده بالمنزلاج ويقضيه بالحديد ،
ويحكم اغلاق ابوابه .

وأطالت السيدة ماغلوار الوقوف عند هذه الكلمات الاخيرة ، ولكن
الاسقف أقبل من غرفته حيث وجد لذع البرد ، وجلس امام النار ، وانشأ
يتدفأ ، لينصرف بعد ذلك الى التفكير في شيء آخر . إنه لم يسمع كلمة من
الحديث الذي تساقط من على لسان السيدة ماغلوار . فأعادته كرة اخرى .
وعندئذ غامرت الأنسة بانيسيتين ، وكانت تود أن تشفي غليل السيدة ماغلوار من
غير أن تعيظ اخاها ، فقالت على استحياء :

— « اخي ، هل سمعت ما قالته السيدة ماغلوار ؟ »
فأجاب الاسقف : « لقد سمعت بعضه ، على نحو غامض . »
ثم انه ادار كرسيه نصف دورة ، ووضع يديه على ركبتيه ، وقال رافعاً نحو
الخادم العجوز وجهه الودود البشوش الذي اضاءه وهج النار :

— « حسن ، حسن ! ما المسألة ؟ هل نحن اذن في خطر عظيم ؟ »
عندئذ اعادت السيدة ماغلوار رواية الخبر من أوله ، مبالغة في ذلك بعض
الشيء على غير وعي منها . لقد بدا ان عجرياً حافي القدمين ، أو قل شحاذاً
خطراً ، قد ألم بالمدينة . لقد التمس المأوى في فندق لبار ، ولكنه ابى ان

يستقبله . ثم رُئي يدخل المدينة من جادة غاساندي ويهيم على وجهه في الشوارع عند الغسق . إنه رجل ذو كيس وحيل ، وإن له لوجهاً فظيماً .
فقال الاسقف : « حقاً ؟ »

ووجدت السيدة ماغلوار في سؤاله هذا ما شجعها . لقد بدا لها وكأنه يؤذن بأن الاسقف لم يكن في نجوة من الجزع . فتابعت كلامها في لهجة المنتصر .
— « أجل ، مونسينيور . ما أقوله صحيح . وسوف يقع شيء ما ، هذه الليلة في المدينة . إن الناس جميعاً يقولون ذلك . إن إدارة الشرطة فاسدة جداً (تكرار مفيد) . تصور أننا نعيش في هذا الاقليم الجبلي ، وليس عندنا حتى مصابيح تضاء في الشوارع ليلاً ! فإذا ما غادر المرء بيته وجد نفسه في ظلمة كظلمة الجيب . وأنا أقول يا صاحب السيادة ، والآنة تقول معي أيضاً ... »
فقاطعتها الاخت : « أنا ؟ أنا لا أقول شيئاً . كل ما يعملُه أخي هو عندي حسن . »

وتابعت السيدة ماغلوار كلامها وكأنها لم تسع هذا الاحتجاج :
— « نحن نقول ان هذا البيت ليس آمناً على الإطلاق . وإذا سمح لي صاحب السيادة فعندئذ أمضي الى بولين موزبوا ، القفال ، وأدعوه لكي يعيد تسليح الباب بالمزاج القديمة . إنها هناك ، ولن يستغرق ذلك كله غير دقيقة واحدة . أقول إن علينا ان نركب المزاج ، يا صاحب السيادة ، ولو من أجل هذه الليلة فمحسب . لأنني اعتقد ان الباب الذي يستطيع اول عابر سبيل ان يفتحه من خارج بواسطة سقاطة ، هو غاية في الفظاعة . وفوق هذا ، فإن من دأب صاحب السيادة ان يقول دائماً : « أدخل ! » حتى في منتصف الليل . ولكن ، يا السهي ! ليس ثمة حاجة الى التماس الأذن ... »

وفي تلك اللحظة قرع الباب في عنف ، فقال الاسقف :
— « أدخل ! »

بطولة الطاعة العمياء

وُفتح الباب .

'فتح في خفة' ، وعلى نحو واسع جداً ، وكاننا دفعه امرؤ ما في قوة وعزم .
ودخل رجل .

إنه رجل عرفناه من قبل . انه ابن السبيل الذي رأيناه منذ حين هائماً على وجهه يلتبس مكاناً يبيت فيه .

لقد دخل ، وخطا خطوة ، ثم تمهل ، تاركاً الباب وراءه مفتوحاً . كان يحمل كيسه على كتفه ، ويمسك عصاه في يده ، وكانت ترين على عينيه سياً خشنة ، قاسية ، متعبة ، ضارية ، كشفت عنها نار الموقد . كان راعباً . وكان طيفاً يُنذر بالشؤم .

ولم تجد السيدة ماغلوار حتى القوة على الصباح . لقد وقفت مرتعدة الاوصال ، فاعرة الفم .

واستدارت الانسة باتيسين ، فرأت الرجل يدخل ، فنهضت نصف مذعورة . ثم إنها ارتدت ، في بطل ، نحو نار الموقد ، ونظرت الى اخيها ، فقدا وجهها ساكناً جداً ، رائقاً جداً .

ونظر الاسقف الى الرجل بعينٍ مطمئنة .

وفيما هو يفتح فمه لكي يسأل الوافد الجديد - من غير شك - اي شيء يريد اتكأ الرجل بيديه الاثنتين على عصاه ، ونقل طرفه من الرجل العجوز الى كل من المرأتين . ومن غير ان ينتظر كلمة ما من الاسقف ، قال في صوت عال :
- « اسمع ! أنا أدعى جان قاجان . انا رجلٌ 'حكم عليه بالاشغال الشاقة . لقد سلختُ تسعة عشر عاماً في سجن المحكومين بتلك الاشغال . ومنذ اربعة ايام أطلقي سراحي ، فمضيت لسبيلي في اتجاه بونتارليه ، التي أقصد اليها . وها

قد انقضى على مسيري من طولون اربعة ايام ، اجتزت خلالها اثني عشر فرسخاً .
وحين وصلت الليلة الى هذا البلد ، قصدت الى احد الفنادق ، فطردوني بسبب
من جوازي الاصفر الذي أبرزته في مكتب العمدة . لقد كان إبرازي الجواز
فرضاً واجباً . وشخصت الى فندق آخر فقالوا لي : « أخرج من هنا ! » لقد
وقفوا كلهم مني موقفاً واحداً . إن احداً لم يرحب بي . لقد قصدت الى السجن ،
فأبى البواب ان يفتح لي . وزحفت الى وِجار كلب ، فعضني الكلب ، وطردني
وكانه رجل ؛ لكننا كان هو ايضاً يعرف من أنا . ثم مضيت الى الحقول كي
انام تحت النجوم . فلم يكن ثمة نجوم . وحسبت ان المطر سوف يطل ، ولم
يكن ثمة رب رحيم يحول دون انهاره ، وهكذا رجعت الى البلدة بحثاً عن سقف
يوؤيني . وهناك في الساحة العامة انطرحت على حجر ، فدلتني امرأة سالحة على
بيتك وقالت : « اطرق ذلك الباب ! » وها قد طرقت . ما هذا المكان ؟ أهو
فندق ؟ إن لديّ مالاً ؛ إنه مجموع ما ادخرته . مئة وتسعة فرنكات وخمسة عشر
« سو » كسبتها في السجن لقاء عملي طوال تسعة عشر عاماً . سوف ادفع . ماذا
يهمني ؟ ان لديّ مالاً . انا متعب جداً - اثنا عشر فرسخاً قطعتها على قدمي ،
وانا جائع جداً . هل يستطيع ان أبقى ؟

فقال الاسقف : « أيتها السيدة ماغلوار ، ضعي طبقاً آخر . »

وخطا الرجل ثلاث خطى ، واقترب من المصباح القائم على المائدة ، ثم صاح
وكانه لم يفهم جيداً :

-- « قف . ليس الامر كذلك . هل فهمتني ؟ انا رجل حَكِم عليه بالاشغال
الشاقة . مجرم خرج من السجن منذ فترة قصيرة . (وسحب من جيبه ورقة
كبيرة صفراء ونشرها .) هذا هو جوازي . إنه اصفر كما ترى . وهذا وحده
كاف لأن يطردني الناس من اي مكان أقصد اليه . أتحب ان تقرأ ؟ أنا أعرف
القراءة ؛ أجل أعرف . لقد تعلمتها في سجن المحكومين بالاشغال الشاقة . إن هناك
مدرسة يتعلم فيها من يرغب من السجناء . أنظر ، هذا ما كتبوه على الجواز :
« جان فالجان ، محكوم بالاشغال الشاقة أطلق سراحه . من مواليد ... » (انت

لا تبالي بهذا) سلخ في السجن تسع عشرة سنة . خمس سنوات لارتكابه جريمة السرقة مع الكسر ، واربع عشرة سنة لمحاولة الفرار من السجن اربع مرات . إنه رجل خطرٌ جداً . « رأيت ! لقد طردني الناس جميعاً ، فهل تريد ، انت ، ان تستقبلني ؟ هل هذا فندق ؟ هل تستطيع ان تقدم اليّ شيئاً آكله ، ومكاناً انام فيه ! هل عندك إسطلج ؟ »

فقال الاسقف : و ايها السيدة ماغلوار ، ضعي بعض الاغطية البيضاء على سرير المُنخدع .

لقد سبق لنا أن وصفنا نوع الطاعة التي غلبت على هاتين المرأتين . والتفت الاسقف الى الرجل :

- « ايها السيد ، اجلس وتدفأ . سوف تتناول طعام العشاء بعد لحظة . ولسوف 'يهيأ' فراشك فيما انت تتعشى . »

واخيراً فهمَ الرجلُ جيداً . وطفت على وجهه الذي كانت انطباعته حتى الآن قائمة صارمة - طفت على وجهه هذا انطباعة من الدهول ، والشك ، والابتهاج ، وغداً غريباً حقاً . لقد أنشأ يتمم مثل رجل معتوه .

- « صحيح ؟ ماذا ؟ سوف تبقيني عندك ؟ انت لن تطردني ؟ محكوم عليه بالاشغال الشاقة ؟ انت تصاديني « ايها السيد » ! انت لا تخاطبني بضير المفرد ، ولا تقول لي « اخرج ، ايها الكلب ! » كما قال لي الناس دائماً . لقد حببت انك ستطردني ، ولذلك قلت لك في الحال من أنا . أوه ! شكراً لتلك السيدة الطيبة التي هدتني الى هنا ! سوف اتناول عشاء ! وسوف انام في سرير ! سرير ذي فراش واغطية ! مثل سائر الناس ! لقد انقضت تسع عشرة سنة لم اتم خلاها في سرير ! اتروغب حقاً في ان ابقى هنا ؟ أنتم أناس طيبون ! والى هذا ، فأنت عندي مالاً . سوف ادفع لكم بمغاء . ألتمس عفوك ، يا سيدي الفندق ، ما اسمك ؟ سوف ادفع كل ما تطلبه مني . انت رجل طيب . انت صاحب فندق ، اليس كذلك ؟ »

فقال الاسقف : « أنا كاهن يسكن هنا . »

فقال الرجل : « كاهن ! أوه ، كاهن نبيل ! واذن فأنت لن تتقاضاني شيئاً من المال ! انت القس ، اليس كذلك ؟ انت قس هذه الكنيسة الكبيرة ؟ أجل ، هذا صحيح . ما اشدّ بلاهتي ! أنا لم انتبه الى قلنسوتك ! »

وكان قد طرح ، فيما هو يتكلم ، كلاً من كبسه وعصاه في احدى الزوايا ، ثم أعاد جوازه الى جيبه ، وجلس . ورنّت اليه الآنسة باثيستين في ابتهاج . وتابع كلامه :

— « انت شقوق ، يا سيدي القس . انت لا تحقرني . إن الكاهن الطيب شيء عظيم . واذن فأنت لا تريد مني ان ادفع اليك اجراً . »
فقال الاسقف : « لا . إحتفظ بمالك . كم معك ؟ لقد قلت مئة وتسعة فرنكات ، اليس كذلك ؟ »

فأضاف الرجل : « وخمسة عشر سو . »

— « مئة وتسعة فرنكات وخمسة عشر سو . وما المدة التي احتجت اليها حتى تكسب هذا المبلغ ؟ »

— « تسع عشرة سنة . »

— « تسع عشرة سنة ! »

وتنهّد الاسقف تنهداً عميقاً .

وتابع الرجل حديثه :

— « انا لا ازال احتفظ بمالي كله . فنذ اربعة ايام لم أنفق غير خمسة وعشرين

«سو» كسبتها من تقريغ العربات في غراس . ولما كنت كاهناً ، فيتعين عليّ أن اخبرك أنه كان عندنا مرشد في سجن المحكومين بالاشغال الشاقة . وذات يوم رأيت أسقفًا . كانوا يتنادونه مونسينيور . وكان اسقف ماجور ، في مرسيليا . إنه الكاهن الذي يرئس جميع الكهنة . انت ترى — وألتمس منك العفو — كيف أتلعثم في رواية ذلك ، ولكن هذا امسى الآن قديم العهد جداً بالنسبة اليّ . لقد

أقام قداساً في وسط السجن ، على مذبح . وكان يضع على رأسه شيئاً ذهبياً
محددًا والتسع هذا الشيء في وجه الشمس ، فقد كان ذلك عند الظهيرة . وكنا
قد وقفنا صفًا ، في جهات ثلاث . والمدافع وذبالات المصابيح المشعلة أمامنا .
إننا لم نستطع ان نراه جيداً . لقد تحدث إلينا ، ولكنه كان بعيداً جداً عنا .
إننا لم نفهمه . هذا هو ما ندعوه الاسقف . »

وفيما هو يتكلم أغلق الاسقف الباب ، وكان مشرعاً على مداه .
وجاءت السيدة ماغلوار بطبق ، فوضعت على المائدة .
وقال الاسقف : « أيتها السيدة ماغلوار . ضعي هذا الطبق اقرب ما تستطيعين
الى النار . » ثم التفت الى ضيفه وأضاف :

- « إن رياح الليل قاسية في الألب . لا بد أنك تشكو البرد : يا سيدي . »
كانت اسارير الرجل تشرق كلما قال الاسقف بصوته الوقور الرفيق ، وبحسن
وفادته وصدقها ، هذه الكلمة : « سيدي » . إن لفظة « سيدي » تقال لرجل
خارج من سجن الاشغال الشاقة اشبه شيء بكوب ماء يقدم الى رجل يموت
ظمأ في عرض البحر . إن الحزي لينعطفش الى الاحترام .

وقال الاسقف : « هذا المصباح لا يُرسل غير ضوء واهن جداً . »
وفهمت السيدة ماغلوار . فوضت الى حجرة نومه ، ورفعت الشمعدانين
الفضيين عن الموقد ، ثم وضعتهما على المائدة بعد ان أضاءت الشمعتين .

وقال الرجل : « سيدي القس » ، أنت رجل صالح . انت لا تحتقري . أنت
ترحب بي في منزلك . انت قضيت شهوعك من اجلي . مع اني لم أخف عليك من
'بن أقلت' ، وأيّ بائس أنا . »

وفي رفق ، مس الكاهن يده - وكان يجلس قريباً منه - وقال : « كان في
إمكانك ان لا تخبرني من انت . هذا ليس بيتي . إنه بيت يسوع المسيح . إن
هذا الباب لا يسأل الداخل ما اذا كان له اسم ، ولكن يسأله ما اذا كان ذا ألم .
أنت تعذب . انت جائع عطشان . اهلاً بك . ولا تشكرني . لا تقل لي اني
استقبلك في بيتي . إن هذا البيت ليس بيت احد ، ما خلا ذلك الذي يلتمس

مفرعاً . اني أقول لك ، انت يا عابر السبيل ، إن هذا البيت هو بيتك اكثر منه بيتي . وكل شيء هنا ، هو لك . فما حاجتي الى ان أعرف اسمك ؟ والى هذا ، فقد عرفت اسمك قبل ان تعلمني به . »

وفتح الرجل عينيه في دهش .

- « حقاً ؟ أكنت تعرف اسمي من قبل ؟ »

فأجاب الاسقف : « أجل ، أنت تدعى أخي . »

فصاح الرجل : « قف ، قف ، يا سيدي القس . لقد كان الجوع يعضني حين دخلت هذا البيت ، ولكنك كريم الى درجة تجعلني لا ادري ، الان ، ما بي . لقد زاييلني ذلك كله . »

ونظر اليه الاسقف ، كرة اخرى ، وقال :

- « هل تعذبت كثيراً ؟ »

- « أوه ، القبيص الاحمر ، وكرة الحديد المشدودة الى القدم ، ولوح

الحشب الذي نمت عليه ، والحر ، والبرد ، والشغل ، وجماعة السجناء المحكومين بالاشغال الشاقة ، والضرب بالعصي ! السلسلة المزدوجة من أجل لا شيء . والحبس في حجريرة مظلمة عقاباً على كلمة . والسلسلة حتى في حالات المرض والانطراح في الفراش . ان الكلاب ، الكلاب ، هم اكثر سعادة ! تسع عشرة سنة ! وأنا في السادسة والاربعين . والان ، هذا الجواز الأصفر ! ذلك كل شيء . »

فقال الاسقف : « أجل ، لقد فارقت موطن بلاه وعذاب . ولكن اسمع .

ان السماء لتبتهج للدموع التي يسفحها آثم تائب ، اكثر مما تبتهج لمئة بُرد أبيض يرتديها مئة رجل صالح . فاذا غادرت ذلك المكان الأليم وكرهية الناس والحدق عليهم يفعمان قلبك فأنت تستحق الشفقة . واذا غادرته والمحبة واللطف والسلام تعمر فؤادك فعندئذ تكون خيراً من اي امرئ منا . » وكانت السيدة ماغلوار قد هيأت ، في غضون ذلك ، طعام العشاء . كان يتألف من حساء أعدّ بالماء ، وزيت ، وخبز ، وملح ، وقليل من شحم الخنزير ، وقطعة

من لحم الضأن ، وشمي من التبن ، وقطعة من الجبن الطازج ، ورغيف ضخم من خبز الجاودار . وكانت قد اضافت الى مائدة الاسقف العادية ، من غير ان يُطلب اليها ذلك ، زجاجة من خمر موف المعتقة .

وأشرق بحيا الاسقف بسيا الابتهاج تلك التي تميّز اصحاب النفوس المضيفة . وقال في نشاط :

— « الى المائدة ! »

وأجلس الرجل الى يمينه ، وفقاً لعادته كلما اتفق ان تناول طعام العشاء على مائدة ضيف ما . واتخذت الآنسة باتيستين مكانها ، هادئة جداً ، طبيعية جداً ، الى يساره .

وتلا الاسقف صلاة البدء بالطعام ، ثم سكب الحساء بنفسه ، وفقاً لمألوف عادته . وشرع الرجل يأكل في نهم .

وفجأة قال الاسقف : « يبدو لي ان شيئاً ما ، يُعوز هذه المائدة . »

وفي الحق ، ان السيدة ماغلوار لم تضع على المائدة غير الاطباق الثلاثة الضرورية جداً . وكان العرف يقضي في هذا البيت بأن تُعرض الاطباق الفضية الستة كلها عرضاً بريئاً فوق المائدة ، كلما شارك الاسقف عشاءه ضيف ما . وكان مظهر النرف اللطيف هذا ضرباً من الصبائية حافلاً بالفتنة في هذا البيت الوداع القاسي الذي رفع الفقر الى مقام الشرف .

وفهمت السيدة ماغلوار الملاحظة ؛ وغادرت الحجرة من غير أن تقول كلمة .

وبعد لحظة كانت الاطباق الثلاثة التي طالب بها الاسقف تومض على غطاء المائدة ، وقد رُتبت على نحو متناسق أمام كلٍّ من المشاركين في تناول العشاء .

تفاصيل حول مجانب * بونتارليه

ولسنا نرى ، لكي نعطي فكرة عما دار على هذه المائدة ، خيراً من أن ندرج هنا جزءاً من رسالة بعثت بها الآنسة باتيستين الى السيدة دو بواشيفرون راوية الحديث الذي جرى بين المحكوم عليه بالاشغال الشاقة وبين الاسقف في تدقيق ساذج .

(... ولم يلق هذا الرجل بالاً الى أحد . لقد أكل في شراهة رجل جائع . بيد أنه قال بعد العشاء :

— « سيدي أسقف الرب » ، ان هذا كله يكاد يكون اكثر مما أستحق . ولكن يتعين عليّ أن أقول ان سائقي العربات ، الذين لم يجيزوا لي ان آكل معهم ، يحيون حياةً اكثر ترفاً من حياتك . »
وفي ما بيننا ، أقول لك ان تلك الملاحظة صدمتني بعض الشيء . ولقد اجاب اخي قائلاً :

— « إنهم يتعبون اكثر مما أتعب . »
فقال هذا الرجل : « لا ، إن لديهم مالاً اكثر . أنت فقير . أنا ألاحظ ذلك . لعلك لست حتى كاهناً . هل أنت كاهن وحسب ؟ آه ، اذا كان الرب عادلاً فعندئذ تستحق أن تكون كاهناً من غير ريب . »
فقال اخي : « إن الرب اكثر من عادل . »
وبعد لحظة أضاف :

* جمع بحينة ، وهي مكان يبيع الجبن .

« مسيو جان فالجان ، انت ذاهب الى بونتارلييه ؟ »

« إنها رحلة إلزامية . »

أنا واثقة تماماً ان ذلك هو التعبير الذي استعمله الرجل . ثم إنه أضاف :

« ينبغي ان ابدأ المسير فجرّ غد . انها رحلة شاقة . اذا كان الليل بارداً ، فالنهار حاراً . »

فقال اخي : « انت ذاهب الى بلد طيب . ففي اثناء الثورة ، حين نكبت امرتي ، لجأتُ أولاً الى الـ « فرائش كوتنيه » وأقمتُ أودي هناك ببعض العمل اليدوي . كانت لديّ الشجاعة . لقد وجدتُ عملاً كثيراً ، ولم يكن عليّ إلا ان أختر . كانت مَصانِع ورق ، ومدايع ، ومعامل تقطير ، ومعامل زيت ، ومنشآت ضخمة لصنع الساعات ، ومصانع فولاذ ، ومسابك نحاس ، وعشرون مسبكاً للحديد على الاقل كانت اربعة منها - وهي كبيرة جداً - في لود ، وشاتيون ، وأودينكور ، وبور . »

أحسب اني غير مخطئة ، وان هذه هي الاسماء التي ذكرها اخي . ثم إنه قاطع نفسه ووجه الخطاب اليّ :

« ابنتا الاخت العزيزة ، أليس لنا أنباء في تلك الديار ؟ » فأجبت :

« كان لنا انباء . ومن هؤلاء مسيو لوسينه الذي كان « كابتن

الابواب » في بونتارلييه في العهد القديم . »

فأجاب أخني : « اجل ، ولكن في عام ٩٣ لم يعد لأحد انباء . كان كل امرئ يعتمد على يديه . لقد كدحتُ . إن عندهم في منطقة بونتارلييه - حيث تعتزم ان تذهب ، يا مسيو فالجان - صناعة مهمة جداً ، وساحرة جداً ، ابنتا الأخت . وانما اعني بجانبهم التي يدعونها . *Fruitières* *

* ومنها في الاصل : الثمرات .

وعندئذ شرع اخي ، فيما يخدم هذا الرجل - على المائدة ، يشرح له في تفصيل ماهية مجانب بونتارليه هذه ، قائلاً إنها على نوعين متميزين : الاهراء الكبيرة التي يملكها الاغنياء ، وهي تحتوي على اربعين او خمسين بقرة ، وتنتج سبعة آلاف او ثمانية آلاف قطعة جبن خلال الصيف . والمجانب المشاركة التي يملكها الفقراء ؛ وفيها يضع فلاحو الجبل الاوسط ابقارهم على نحوٍ مشترك ويقتسمون نتاجها . وانهم يستأجرون جبّاناً يدعونه *Le grurin* ، وهذا الجبّان يتسلم اللبن من المشاركين ثلاث مرات في اليوم الواحد ، ويدوّن المقادير في سجل ذي نسختين . وإثنا يبدأ عمل المجانب في اواخر نيسان ؛ وحوالي منتصف حزيران يسوق الجبّانوت ابقارهم الى الجبل .

واستعاد الرجل نشاطه فيما هو ياكل . وقدّم اليه اخي شيئاً من خمر موف الجيدة التي لا يشربها هو ، لانها غالية كما يقول . وبسط اخي له جميع هذه التفاصيل بذلك الابتهاج الدمث الذي تهيئته فيه مازجاً حديثه ببعض المجاملات الموجهة اليّ . ولقد اظنبت في الكلام على حالة الـ *Grurin* وكأنما كان يرغب في ان يفهم هذا الرجل ، من غير ان ينصحه بذلك مباشرة ومن غير ما تهيد ، أنه سوف يجد في ذلك مفرزاً يفيء اليه . إن شيئاً أثر فيّ . لقد كان هذا الرجل ما ذكرته لك ومع ذلك فإن اخي لم ينطق ، خلال العشاء ، وطوال السهرة ، في ما عدا بضع كلمات عن يسوع تلفظ بها حين دخل - أقول إن اخي لم ينطق بكلمة واحدة تستطيع ان تذكر هذا الرجل من هو ، او تذكره من هو اخي . لقد كانت ، في الظاهر ، فرصة ممتازة لالقاء عظة صغيرة ، ولرفع الاسقف فوق المجرم المحكوم عليه بالاشغال الشاقة لكي يتوك في ذهنه انطباعة . ولقد كان غيره خليقاً بأن يحسب ان من واجبه ، وقد وجد هذا الرجل النعس بين يديه ، أن يغذي روحه فيما

هو يغذي جسده ، وان يوجّه اليه لوماً موشعاً بعبارة ونصيحة ، او على الاقل شيئاً من الرأفة المصحوبة بتعريضه على ان يسلك في المستقبل مسلكاً أفضل . إن اخي لم يسأله لا عن بلده ولا عن تاريخه . ذلك بأنّ جريمته كامنّة في تاريخه ، ولقد بدا اخي وكأنه يجتنب كل ما يمكن ان يذكره بها . وذات لحظة ، فيما كان اخي يتحدث عن جبلي بونتارلييه الذين يقومون بعمل بهيج قوب السماء والذين اضاف قائلاً : انهم سعداء لانهم ابرياء ، كفّ فجأة عن الكلام خشية ان يكون في هذه اللفظة التي نددت منه شيء يمكن أن يجرح مشاعر هذا الرجل . وبعد التفكير ، أحسب اني فهمت أي شيء كان يدور في خلد اخي . لقد فكّر ، من غير شك ، ان هذا الرجل ، الذي يدعى جان فالجان ، كان يتشّثل ببؤس باكثر مما ينبغي ، وان من الخير أن يسلبه عن هذا البؤس ، وأن يوقع في نفسه ، ولو لحظة ليس غير ، أنه إنسان مثل سائر الناس ، بأن يسلك معه مسلكاً عادياً جداً . أليس هذا هو الفهم الصحيح للمحبة ؟ الاتجدين ، يا سيدتي العزيزة ، شيئاً إنجيلياً حقاً في هذه الرقة التي تزهّد في الوعظ ، والقاء الدروس الاخلاقية ، وتوشيح الكلام بضروب الرمز والكناية ؟ ألا تقنطينا الرحمة الفضلى ، حين يشكو الانسان ألماً ما ، ان لانسته في موضع الألم على الاطلاق ؟ يخيل اليّ ان هذا هو في الحقي ما دار في خلد اخي . واياً ما كان ، فكل ما استطيع ان اقله هو انه اذا صحّ ان تلك الافكار كلها قد راودته فقد احجم عن أن يبديها حتى لي انا . لقد كان طوال الوقت شأنه في الليالي الاخرى كلها . ولقد تناول طعام العشاء مع جان فالجان هذا بالسّما نفسها ، والطريقة نفسها ، اللتين كان خليقاً به ان يصطنعها لو انه تعشّى مع مسيو جدعون ، رئيس الكاتدرائية ، أو مع كاهن الابريشية .

وحين أوشكنا على الانتهاء من تناول الطعام ، وفيما نحن نأكل شيئاً من
التين ، طُرق الباب . وكان الطارق الأمّ جيريرو وقد حملت طفلاً
الصغير بين ذراعيها . وقبّل أخي الطفل ، واستعار مني خمسة عشر
« سو » كانت معي ليقدمها إلى الأمّ جيريرو . وفي غضون ذلك ، لم
يلتفت الرجل لما جرى غير التفات يسير . انه لم يتكلم ، ولقد بدا
وكأنه متعب جداً . وغادرتنا السيدة العجوز المكيّة ، وتلا أخي صلاة
الشكر التي تُرفع بعد الطعام ثم التفت إلى الرجل وقال له : « لا شك
في أنك بحاجة ماسة إلى النوم . » وسارعت السيدة ماغلوار إلى
نزع القطاء عن المائدة . وادركتُ أن علينا أن ننسحب لكي يكون
في ميسور هذا المسافر أن ينام ، فقصداً كلانا إلى غرفتنا . بيد أني ما
لبثت أن أرسلت السيدة ماغلوار ، بعد لحظة ، لكي تضع على فراش
هذا الرجل جلد بحمور * من « الغاية السوداء » كان في حجرتي . أن
الليالي قارسة جداً ، وهذا الجلد يبعث الدفء . ومن أسف أن
يكون هذا الجلد قديماً جداً ، وأن يكون وبره كاه قد زايله . لقد
استواه أخي يوم كان بألمانية ، في توتلنجن ، قرب منابع الدانوب ،
كما استوى الكمين الصغيرة ذات المقبض العاجي التي أستعملها على
المائدة .

ورجعت السيدة ماغلوار في الحال ، وتلونا صلواتنا في الصالة التي
نقيد منها لنشر الغسيل وتنشيفه ؛ ثم انقلبنا إلى حجرتنا من غير أن
نقول كلمة . (

* البحور ، أو الزوبك ، نوع من الطلاء .

سكون

توبعد ان قمتى مونسينيور بينفينو لاخته ليلة سعيدة ، رفع أحد
الشمعدانين الفضيّين عن المائدة ، وقدم الآخر الى ضيفه ، وقال له :
- « سوف اقودك الى غرفتك ، يا سيدي . »

وتبعه الرجل .

وكما أدرك القاريء مما قلناه آنفاً ، كان البيت منظماً على نحو يحتم
على من يريد بلوغ المصلى ، حيث المخدع ، او الخروج منه ، ان
يجتاز بحجرة نوم الاسقف .

وفي اللحظة التي اجتازا خلالها بهذه الحجرة ، كانت السيدة ماغلوار
تضع الآنية الفضية في الحزانة الجدارية القائمة عند رأس السرير . وكانت
ذلك آخر عمل تقوم به كل ليلة قبل ان تزوي الى فراشها .

وغادر الأسقف ضيفه في المخدع ، أمام فراش ابيض نظيف . ووضع
الرجل الشمعدان على طاولة صغيرة .

وقال الاسقف : « ارجو أن تنعم بليلة هانئة . وغداً صباحاً ،
سوف تشرب ، قبل ان تنطلق ، كوباً من لبن بقرتنا الحار . »
فقال الرجل : « شكراً ، يا سيدي الراهب . »

ولم يكذب ينطق بهذه الكلمات الناضجة بالمسألة حتى أتى فجأة ، ومن
غير ما تمهيد ، بحركة غريبة كانت جذيرة بأن تلقى الرعب في قلبي
العائسين الطاهرتين لو أنهما شهداها . وحتى في هذه الآونة ، من العسير

علينا ان نفهم لأيّ الحوافز خضع في تلك اللحظة . أياكون قد أراد ان يُرسل تحذيراً أو يلقي إنذاراً ؟ أم أنه كان يدعى بمجرد إذعان لحافز غريزيّ ليس يبجل هو نفسه كنهه ؟ فقد التفت فجأة نحو الرجل العجوز ، وصالب ذراعيه ، مسدداً الى مُضيفه نظرة ضارية ، وصاح في صوت أبجّ :

« آه ، حقاً ! انت 'تنزلني في بيتك على مقربة منك على هذا الشكل ! »

ثم كبح نفسه ، و اضاف في ضحكة كان فيها شيء راعب :

« هل فكرت في ذلك ؟ ما يُدريك أني لست سفاكاً ؟ »

فأجابه الاسقف :

« الرب سوف يتولى هذا . »

وفي خشوع ، حرك شفتيه كمن يصلي او كمن يخاطب نفسه ، ورفع اثنتين من أصابع يده اليمنى وبارك الرجل الذي لم يركع . ومن غير ان يدير رأسه وينظر الى الوراء مضى الى حجرته .

وحين احتلّ المخدع سُجبت ستارة صوفية ضخمة غليظة من جانب المصلّى الى جانبه الآخر ، حاجبة المذبح . وأمام هذه الستارة ركع الاسقف ، وصلى صلاة قصيرة .

وبعد لحظة كان يتسوّى في جنبتيه مُسلماً عقله ونفسه جميعاً الى تأمل حالمٍ في تلك الاشياء العظيمة المحوطة بالامرار ، التي يجلوها الله ، في اثناء الليل ، للأعين التي لا تغمض اجفانها .

أما الرجل فكان من الاعياء بحيث لم يُفد حتى من الاغطية النظيفة البيضاء . لقد أطفأ الشمعة بأحد منخريه ، على طريقة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، وانطرح على الفراش ، بثيابه التي يرتديها ، وغرق لتوّه في نوم عميق .

وأعلنت الساعة' منتصف الليل فيما كان الاسقف يغادر الحديقة عائداً
الى حجرة نومه .
وبعد لحظات ، كان كلّ من في البيت الصغير قد نام .

انتهى الجزء الاول
ويليه الجزء الثاني

البؤساء

لشاعر فرنسة العظيم
فيكتور هيغو

٢

نقله إلى العربية
مُنِير البعلبكي

دار العلم للملايين
بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

جان فالجان

وحوالى منتصف الليل ، استيقظ جان فالجان .
لقد وُلد جان فالجان من امرأة ريفية فقيرة في « بري » . وفي
طفولته لم يُعلِّم القراءة . وحين بلغ مبلغ الرجال عمل مشدّب اغصان
في فافيرول . كانت أمه تدعى جان ماتيو ؛ وكان أبوه يدعى جان
فالجان ، او فلاجان ، ولعله لقبٌ ضَغِط من لفظتي « فوالا جان » *
كان جان فالجان ذا مزاج نزّاع الى التفكير ، ولكنه غير حزين ،
وهو مزاج يميّز اصحاب الطبائع العاطفية . بيد انه كان ثمة على الجملة
شيء متوانٍ جداً وعديم الجدوى جداً في مظهره على الاقل . لقد
فَقَدَ والديه وهو بعدُ طفل . فأما أمه فقد توفيت إثر حمّى لبنٍ أُسيئت
معالجتها . وأما أبوه ، وكان مشدّب اغصان من قبله ، فقد صرّح إثر
سقوطه من احدى الاشجار . ولم يبق لجان فالجان بعد ذلك نسيب غير
اخت اكبر منه سنّاً ، وكانت ارملة لها سبعة اولاد ، بنين وبنات .
واحتضنت هذه الاخت جان فالجان وآوت أخاها الاصغر واطعمته ما
بقي زوجها على قيد الحياة . ثم قضى الزوج نحبّه ، وعمرُ ابنه الاكبر
ثماني سنوات ، وعمر ابنه الاصغر سنة واحدة . وكان جان فالجان قد
بلغ آنذاك سنّه الخامسة والعشرين ، فحلّ محلّ الأب ، وأعال بدوره
تلك الاخت التي ربّته . وإنما فعل ذلك في صدق واخلاص ، بوصفه
واجباً ، بل وفي ضرب من النكد والشكاسة . لقد أنفق شبابه على هذه

* Voilà Jean اي هوذا جان .

الشاكلة في عمل خشن شاقّ مطفئ الاجر . ولم يُعرف عنه قط انه كانت له في البلد حبيبة ؛ إنه لم يجد متسعاً من الوقت للحب .

وفي المساء كان يرجع الى البيت متعباً ، ويتناول حساءه من غير ان يقول كلمة . وفيها هو يأكل ، كانت اخته ، الأمّ جانّ ، كثيراً ما تأخذ من صحفته خير ما فيها : قطعة اللحم ، وشطيرة شحم الخنزير ، وقلب الملفوفة ، لكي تقدمها الى احد اولادها . وكان هو يواصل الأكل ، منعنياً فوق المائدة ، وقد اوشك رأسه ان يغرس في الحساء ، وتدلّ شعره الطويل حول صحنه حاجباً عينيه ، وكأنه لا يعي شيئاً بما يجري حوله . وكان في فافيرول ، غير بعيد عن بيت فالجان ، وعلى الجانب الآخر من الطريق ، زوجة مزارع تدعى ماري كلود . وكان الاطفال من أسرة فالجان ، الذين كانوا يتضورون دائماً من الجوع ، يذهبون في بعض الاحيان فيستعيرون بامم أمهم كيلّ لبن كانوا يحبسونه خلف سياجٍ ما ، او في زاوية من الزقاق ، متنازعين الاثاء في نهم شديد الى حدّ ينتهي بالبُنيّات الى ان يسفحن اللبن على مآزرهن واعناقهن . ولو قد عرفت الام بهذه السرقة اذن لأنزلت بالمذنبين عقاباً قاسياً . وكان جان فالجان ، على خشونته وتضجره ، يدفع الى ماري كلود ، على غير علم من الأم ، ثمن اللبن ، وهكذا كان الاطفال ينجون من القصاص .

كان يكسب في موسم التشذيب ثمانية عشر دسو ، كل يوم . ثم إنه اشتغل بعد ذلك حاصداً ، ومعاون بناء ، وخادماً في مزرعة من مزارع البقر ، وعاملاً كادحاً . كان يقوم بأعمال يوفق اليه . واشغلت اخته ايضاً ، ولكن اتى لها ان تعيل سبعة اطفال ؟ تلك كانت جماعة بائسة أحاط بها الشقاء وراح يطبق عليها شيئاً بعد شيء . وأقبل شتاء قاسٍ . ولم يقع جان على مهل . ولم يكن عند الاسرة خبز . اجل ، لم يكن ثمة خبز ، بالمعنى الحرفي ، وكان ثمة سبعة اولاد .

وفي مساء يوم من ايام الاحد ، كان موبير ايزابو ، وهو خباز في
ساحة الكنيسة في فايفرول ، على وشك ان يأوي الى الفراش عندما
سمع ضربة عنيفة على واجهة دكانه المزججة المشبكة بالحديد . وهرع في
الحال فاذا به يرى ذراعاً مخرقة الشفرة التي نشأت عن ضرب الشبكة
والزجاج يجتمع الكف . وقبضت الذراع على رغيغ ، واخرجته .
وانطلق ايزابو على جناح السرعة . واطلق السارق ساقيه للريح . ولحق
به ايزابو وقبض عليه . كان السارق قد اطرح الرغيغ ، ولكن ذراعه
كانت ما تزال تقطر دماً . ولم يكن ذلك الرجل غير جان فالجان .

وإنما حدث ذلك عام ١٧٩٥ . ومثلَ جان فالجان امام قضاة ذلك
العصر بتهمة « السطو ليلاً على بيت أهل ، والكسر تسهلاً للسرقة » .
وكانت لديه بندقية اصطفاها كأحسن ما يصطنع رجل بندقيته ، وكان
الى حد ما قانصاً يتصيد في املاك الآخرين ، وذلك ما آذاه ، اذ كان
ثمة ضغينة طبيعية على المتصيدين في املاك الآخرين . إن القانص المتصيد
في املاك الآخرين ، كالمهرب ، يجاور قاطع الطريق مجاورة شديدة .
ومع ذلك ، فيتمتع علينا ان نقول ، في طريقنا ، إن ثمة بروزاً عميقاً
بين هذا العِرْق من الرجال وبين سقّاح المدن الخفيف . إن المتصيد في
املاك الآخرين يحيا في الغابة ؛ والمهرب يحيا في الجبل او على متن البحر .
إن المدن تنتج رجالاً شرعيين ، لانها تنتج رجالاً قاصدين . أما الجبل ،
والبحر ، والغابة فتنتج رجالاً وحشين . إنها تقوي في ابناؤها الجانب
الضاري ، ولكن من غير ان تُفقد في كثير من الاحيان الجانب
الانساني .

واعتبر جان فالجان مجرمًا ؛ فقد كانت نصوص القانون صريحة حاسمة .
إن في حضارتنا ساعات مخيفة ؛ تلك هي الساعات التي يعلن فيها قانون
العقوبات حكمه على رجل ما بالفرق أو السقوط . أية لحظة فاجعة تلك
التي ينسحب فيها المجتمع ويتخلى الى الابد عن كائن مفكّر ! لقد حكم

على جان فالجان بالسجن خمس سنوات مع الاشغال الشاقة .
وفي ٢٢ نيسان ١٧٩٦ أعلن في باريس انتصار مونتنيوت * وقد
احرزها قائد جيش ايطالية العام الذي دعته رسالة حكومة الادارة ** الى
مجلس الخمسة في ٢ فلوربال من سنة الجمهورية الرابعة ، بونابرت *** .
وفي ذلك اليوم نفسه أوثقت سلسلة حديدية ضخمة في بيستر . وكانت
جان فالجان يشكل جزءاً من هذه السلسلة . وثمة سجان عجوز ، هو
اليوم في نحو التسعين من عمره ، لا يزال يذكر جيداً هذا الرجل البائس
الذي سُدّ بالحديد عند اقصى القاعدة الحجرية الرابعة في الزاوية الشمالية من
الفناء . كان جالساً على الارض مثل سائر السجناء . ولقد بدا وكأنه
لا يفقه من وضعه شيئاً إلا انه وضع راعب . ولعله ان يكون قد
امتزج ايضاً ، بفكار الرجل الجاهل الغامضة شعور بأن في العقوبة شيئاً
من الافراط .

وحين كانوا يلوون مسارقيده بضربات مطرقة ثقيلة أعمالها خلف
رأسه ، كان هو يبكي . لقد خنقته الدموع ، وحالت بينه وبين الكلام ،
فلم يوفق بين الفينة والفينة الى ان يقول غير هذه الجملة : « كنت
مشتدب أشجار في فارفيروول » . ثم إنه رفع يده اليمنى ، في غمرة
التنهّد ، وخفضها سبع مرات ، وكأنها كان يمسّ على التعاقب سبعة
رؤوس متفاوتة الارتفاع . ولقد كان في ميور المرء ان يحزر من هذه
الايامات انه إنما فعل ما فعله لكي يطعم ويكسو سبعة اطفال صغار .

* Montenotte قرية ايطالية في مقاطعة جنوا . وقد جرت فيها سنة ١٧٩٦ معركة
شهيرة بين نابوليون ، والقوات النموية بقيادة « بوليو » Beaulieu كان فيها النصر
حليف نابوليون .

** Directoire الاسم الذي يطلق على الحكومة التي تولت مقاليد الامر في فرنسا
ابتداء من ٢٧ تشرين الاول سنة ١٧٩٥ (٥ برومير ، من سنة الجمهورية الرابعة)
والتي اسقطها الجنرال بونابرت في ٩ تشرين الثاني سنة ١٧٩٩ (١٨ برومير ، من
سنة الجمهورية الثامنة .)

*** Buonaparte

واقفد الى طولون على متن عربة ، فبلغها إثر رحلة استغرقت سبعة وعشرين يوماً ، والقيد ما يزال بطوق عنقه . وفي طولون ألبس قميصاً أحمر . وهناك امحت حياته الماضية كلها ، حتى اسمه نفسه . إنه لم يعد جان فالجان . لقد غدا رقم ٢٤٦٠١ . ما الذي حلّ بالاخت ؟ ما الذي حلّ بالاطفال السبعة ؟ من الذي ازعج نفسه بذلك ؟ ما الذي يحلّ بحفنة الاوراق الخضراء حين تقطع الشجرة من جذعها ؟

إنها القصة نفسها دائماً . لقد مضت هذه الكائنات البشرية الحية ، هذه المخلوقات الالهية ، وقد تركت من غير سناد ، ومن غير هادٍ ، ومن غير مفرز - مضت الى حينما قادتها المصادفة . وهل من سبيل الى معرفة ذلك ؟ لعل كلاً منهم اتخذ طريقاً مختلفة ، وغرق شيئاً بعد شيء في ذلك الضباب القارس الذي يغمر المصائر المتوحدة ، تلك الظلمة الزكدة التي يختفي فيها كثير من الرؤوس الشقية خلال سير الجنس البشري المعتم . لقد نزعوا عن تلك الديار ، لقد نسيهم كنية القرية التي كانت قريتهم ، ونسيهم معلم الحقل الذي كان حقلهم . وبعد بضع سنوات من مقامه في سجن المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، نسيهم جان فالجان نفسه . لقد امسى وفي قلبه ندبة حيث كان من قبل 'جرّح' . هذا كل ما هنالك . وفي اثناء مقامه بطولون لم يسمع عن أخيه إلا مرة واحدة . وكان ذلك ، في ما أحسب ، في اواخر السنة الرابعة من سجنه . ولست ادري كيف بلغه النبأ . لقد رأي أخيه رجلٌ من كانوا يعرفونه في بلده . كانت في باريس . كانت تحيا في شارع فقير قرب سان سوليبس ، هو شوارع جيندر . ولم يكن معها غير طفل واحد ، صبيّ طريّ العود ، كان هو اصغر الاخوة سناً . اين كانت السته الآخرون ؟ لعلها هي نفسها لم تكن ندري . وكل صباح كانت تنضي الى مطبعة تقع في رقم ٣ شارع سابو حيث كانت تطوي ملازم الكتب وتجملها . وكان عليها ان تباشر عملها في العادة صباحاً ، اي قبل مدة

غير يسيرة من طلوع الشمس في أيام الشتاء . وكان في البناء الذي تشغله المطبعة مدرسة بعثت إليها بابنها الصغير ، البالغ عمره سبع سنوات . واذ كانت المدرسة لا تفتح أبوابها الا في الساعة السابعة ، واذ كانت مضطرة الى ان تلتحق بعملها في السادسة ، فقد تعيّن على الغلام ان ينتظر في الفناء ساعة كاملة حتى تفتح المدرسة - ساعة من البرد والظلة في أيام الشتاء . إنهم ما كانوا يسمحون للغلام بان ينتظر في المطبعة لأنه كان مزعجاً ، في ما زعموا . وكان العمال الوافدون الى المطبعة كل صباح يرون الى هذا الخلق الصغير البائس جالاً على البلاط ، وقد غلب عليه النعاس ، واستسلم للرقاد في الظلمة ، في كثير من الاحيان ، رابضاً منطوياً فوق سلته . فاذا ما هطل المطر كانت الشفقة تعطف عليه قلب البوابة العجوز ، فهي تجيز له ان يدخل الى مسكنها الضيق الحفيظ الذي اقتصر أثاثه على فراش من قش ، ودولاب للفضول ، وكريسيين خشبيين . وهناك في احدى الزوايا كان الغلام ينام ضامّاً امره الى صدره لكي ينفي عن جسده البرد . حتى اذا بلغت الساعة السابعة ، فتحت المدرسة أبوابها ، فضى إليها . ذلك ما قيل لجان فالجان . لكن نافذة قد فتحت فجأة على مصائر هؤلاء الذين أحبهم ، ثم أوصدت من جديد . ولم يسمع شيئاً آخر عنهم بعد . لم يسمع شيئاً عنهم الى الأبد . إن نبأ ما لم ينتهِ اليه عن حالهم . إنه لم يرم ، ولن يرام منذ اليوم ! ولن نلتقي بهم بعد في بقية هذه القصة الحزينة ، كرة اخرى .

وحوالى ختام هذه السنة الرابعة صنعت لجان فالجان فرصة الهرب . لقد ساعده رفاقه كما يقع دائماً في ذلك الموطن الكئيب ، فقرّ . لقد هام على وجهه حراً طلباً ، في الحقول ، يومين اثنين - اذا كان من الحرية ان تطارد ، وان تلتفت الى وراء ، كل لحظة ، وان ترتعد اوصالك لأي صوت ، وان يدبّ الرعب الى فؤادك من كل شيء : من السقف الذي يتصاعد منه الدخان ، من الرجل الذي يعبر السبيل ،

من الكلب الذي ينبج ، من الجواد الذي يجب ، من الساعة التي تدق ، من النهار لأنك تبصر فيه ، ومن الليل لأنك لا تبصر فيه ، من الطريق ، من الممر ، من الدغل ، ومن الرقاد . وفي مساء اليوم الثاني القي القبض عليه . إنه لم يذق طعاماً ولا مناماً طوال ست وثلاثين ساعة . ومدد القضاء البحري مدة حبسه ثلاث سنوات ، بسبب من هذه المحاولة فقدت ثمانية أعوام . وفي السنة السادسة جاء دوره في الحرب ككرة أخرى . ولم يضيع الفرصة ، ولكنه اخفق من جديد . لقد افتقدوه حين تودى على الاسماء . وأطلق مدفع الخطر . وفي موهن من الليل عثر عليه العسس الطواف مخبئاً خلف قاعدة مركب لما يتم بناؤه بعد . وقاوم معتقله من حرس السجن الخاص بالمحكومين بالاشغال الشاقة . هرب ومقاومة . وكانت أحكام القانون الخاص تعاقب على هذين باضافة خمس سنوات الى مدة الحبس الاساسية ، اثنتان منها يصفد خلالها السجين بالقيد الحديدي المزدوج . فاذا المجموع ثلاث عشرة سنة . وفي السنة العاشرة جاء دوره من جديد ، فقام بمحاولة أخرى لم يوفق فيها الى خير بما رفق اليه من قبل . وعوقب على ذلك بثلاث سنوات اضافة فقدا المجموع ست عشرة سنة . واخيراً جرب مرة ثالثة وكان ذلك خلال السنة الثالثة عشرة ، في ما اظن ، فأعيد الى محبسه بعد غياب اربع ساعات ليس غير . وحكم عليه بثلاث سنين اضافة من اجل هذه الساعات الاربعة . وهكذا أمسى المجموع تسع عشرة سنة . وفي تشرين الاول سنة ١٨١٥ ، أطلق سراحه : كان قد دخل ذلك السجن سنة ١٧٩٦ لأنه كسر زجاج نافذة ، واخذ رغيف خبز .

وهنا موضع ملاحظة قصيرة بين هلاين . هذه هي المرة الثانية التي يقع فيها مؤلف هذا الكتاب - في دراساته للسالة الجزائية ولاحكام القانون - على سرقة رغيف كانت نقطة انطلاق في تخريب مصير . لقد سرق كلود غوودو رغيفاً ، وسرق جان فالجان رغيفاً . ويشهد احصاء

انكليزي انت اربع سرقات من كل خمس تقع في لندن سببها المباشر هو الجوع .

لقد دخل جان فالجان سجن الاشغال الشاقة وهو ينتحب ويرتعد ؛ وغادره وقد قما فؤاده وامتنع على الألم . لقد دخله يائساً ؛ وغادره كالح الوجه .
ما الذي ألم بهذه النفس ؟

٧

أعماق القنوط

فلنحاول ان نجيب عن هذا السؤال .
وانما لضرورة ملحة ان ينظر المجتمع في هذه الاشياء ، لأنها من صنع يديه .

لقد كان ، كما سبق منا القول ، جاهلاً ؛ ولكنه لم يكن أبله .
كان النور الطبيعي 'مضاء' في ذات نفسه . وضاعف البؤس - والبؤس ايضاً ضياؤه - تلك الاشعة القليلة التي اثارت عقله . ففي الاصفاد ، وتحت السياط ، وفي حجيرة الحبس المظلمة ، وفي غمرة الاعياء ، وتحت شمس السبعن المحرقة ، وفوق الالواح الخشبية التي تشكل 'سرر المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة' ، كان يلتفت الى ضميره ويفكر .
لقد أقام من نفسه هو محكمة .

وشرع يحاكم نفسه بنفسه .
لقد ادرك انه لم يكن رجلاً بريئاً عوقب ظلماً . لقد اعترف بأنه ارتكب عملاً متطرفاً بوجيب اللوم ؛ وبأنه كان من الجائز ان لا يُضن عليه بالرغيف لو طلبه ؛ وبأنه كان من الخير له على اية حال لو اعتصم

بالصبر في انتظار الرحمة ، او في انتظار العمل ؛ وبأن قول المرء :
 « وهل استطيع ان أنتظر حين أكون جائعاً ، ليس حجة لا تردّ على
 الاطلاق ، وبأن من النادر جداً ، في المحل الاول ، ان يموت المرء
 جوعاً بالمعنى الحرفي ؛ وبأن الانسان قد خلّق - لحسن الحظ او لسوءه
 - على نحو يمكنه من ان يتألم طويلاً وكثيراً معنوياً وجسدياً - من
 غير أن يموت ، وبأنه كان يتعين عليه ، اذن ، ان يصبر ؛ وبأن ذلك
 كان خليقاً به ان يكون خيراً حتى لاولئك الاطفال الصغار المساكين
 انفسهم ؛ وبأنه كان من الخماقة ، بالنسبة اليه وهو الرجل البائس الحقيير ،
 أن يأخذ بمخناق المجتمع كله في عنف ، وان يتوهم ان في ميسوره ان
 ينجو من البؤس عن طريق السرقة ؛ وبأن الباب الذي يقودك الى العار
 ليس على اية حال باباً صالحاً لأخراجك من الشقاء . وبكلمة ، لقد
 اعترف بانه قد اخطأ .

ثم إنه سأل نفسه :

أكان هو الشخص الوحيد الذي أخطأ خلال تاريخه المشؤوم ؟
 أليس شيئاً فظيلاً في المحل الاول ان يلتبس ، هو العامل ، عملاً فلا
 يجده ، وأن يلتبس ، هو المجتهد ، رغباً فلا يقع عليه ؟ وفوق هذا ،
 أفليست العقوبة - وقد ارتكب الخطأ واعترف به - وحشية مغالى فيها ؟
 أليست الاساءة التي ارتكبها القانون ، في العقوبة ، أعظم من تلك التي
 ارتكبها المذنب ، في الجريمة ؟ أليس ثمة ثقل اضافي في احدى كفتي
 الميزان - تلك التي تمثل جانب التكفير عن الاثم ؟ أليس الاغراط في
 العقوبة محوّاً للجريمة ؟ أليس من نتيجة هذا الاغراط قلب الوضع رأساً
 على عقب ، وبذلك تحلّ خطيئة القهر محلّ خطيئة الآثم ، ويسمي المجرم
 ضحية ، والمدين دائماً ، وينتقل الحق نهائياً الى جانب ذلك الذي انتهك
 حرمة ؟ ألم ننته هذه العقوبة بما اضيف اليها من علاوات متعاقبة بسبب
 من محاولته الحرب غير مرة الى ان تصبح ضرباً من الاعتداء يشنه

القوي على الضعيف ، وجريمة من جرائم المجتمع ضد الفرد ، جريمة
تتكرر كل يوم ، جريمة استمرت نع عشرة سنة ؟

وسأل نفسه ما اذا كان المجتمع البشري يملك الحق في ان يسحق
عضاءه باهماله البالغ ، من ناحية ، وبإهماله الذي لا يرحم ، من
ناحية ثانية . وما اذا كان يملك الحق في ان يبقي الى الابد رجلاً فقيراً
بين نقص وإفراط : نقص في العمل ، وإفراط في العقوبة . وما اذا
كان فاضحاً ان يعامل المجتمع بمثل هذا التدقيق القاسي أعضاءه الذين
نالوا اقل نصيب من توزيع الثروة الذي تم بالمصادفة ، والذين هم بسبب
من ذلك احق الناس بالتساهل والتسامح .

حتى اذا طرح هذه الاسئلة وقررها دان المجتمع وأصدر حكمه
عليه .
لقد حكم عليه بالحد والكراهية .

لقد اعتبره مسؤولاً عن المصير الذي نَحَمَلَه ، ولعله ان يكون قال
في ذات نفسه انه لن يتودد ذات يوم عن محاسبته ، واعلن بينه وبين
نفسه ان ليس ثمة تكافؤ بين الاذى الذي أنزله هو ، وبين الاذى الذي أنزل
به . وخلص أخيراً الى ان عقوبته لم تكن ، في الواقع ، ظلماً ،
ولكنها كانت من غير ريب جوراً وإثماً .

قد يكون الغضب احق مخيفاً ، وقد يستثار غضب المرء وهو على
خطأ ، ولكن المرء لا يمكن ان يستشعر السخط الناشيء عن الاجحاف
البالغ إلا وهو في الاساس على حق ، في ناحية من النواحي . لقد
استشعر جان فالجان ذلك الضرب من السخط .

وفوق هذا ، فان المجتمع البشري لم يقدم اليه غير الاساءة . إنه لم
يرَ من ذلك المجتمع غير هذا الوجه الخائق الذي يدعو العدالة ،
والذي يبيد لاولئك الذين يصرعهم . إن احداً من الناس لم يسَّ جان

فالجان يوماً إلا ليخذه . ولقد كان اتصاله كله بالناس لطماً وطعناً .
إنهم لم يوجهوا اليه قط ، منذ طفولته ، منذ عهد امه ، منذ عهد اخته ،
كلمة عذبة ، او نظرة كريمة . وفي مراحل تنقله من عذاب الى عذاب
خلص شيئاً فشيئاً الى الاعتقاد بأن الحياة حرب ، وبأنه كان هو المهزوم
في تلك الحرب . لم يكن لديه سلاح غير حقه . ولقد وطن النفس على
ان يشحذ في سجن المحكوم عليهم بالاستغال الشاقة ، وان يتسلح به
حين يغادر ذلك الحبس .

وكان في طولون مدرسة للسجناء يديرها بعض الرهبان غير البارعين
جداً ، وكانت هذه المدرسة تعلم المعارف الرئيسية التي لا يستغنى عنها
للاغبين في ذلك من اولئك البائسين . وكان هو واحداً من هؤلاء .
وهكذا دخل المدرسة وهو في الاربعين ، وتعلم كيف يقرأ ، وكيف
يكتب ، وكيف يحسب . لقد أحس بأن تعزيز ذكائه يعني تعزيز حقه .
ففي بعض الاحوال ، يكون في ميسور التعليم والنور ان يكونا عوناً
على الشر .

ومن المحزن أن نقول إنه بعد ان حاكم المجتمع الذي صنع شقاءه
حاكم العناية الالهية التي صنعت المجتمع .
ودان العناية الالهية أيضاً .

وهكذا ارتفعت هذه الروح وانخفضت ، في آن معاً ، خلال هذه
السنوات التسع عشرة من التعذيب والعبودية . لقد تسرب الى نفسه
النور من جانب ، وتسرب اليها الظلام من جانب .

ولم يكن جان فالجان ، كما قد رأينا ، ذا طبيعة شريرة . كان لا
يزال حسن الطوية حين دخل السجن . وفي اثناء مقامه هناك دان
المجتمع البشري ، واستشعر انه امسى شريراً ؛ ودان العدالة واستشعر
انه امسى ملحدآ .

ومن العسير ان لا نتأمل هذا لحظة ونتأمل .

أستطيع الطبيعة البشرية ان تنقلب هكذا رأساً على عقب ؟ أيمكن
في مبدور الانسان ، الذي خلقه الله خيراً ، ان يحيله أخوه الانسان
شريراً ؟ هل تستطيع النفس ان تتغير دفعة واحدة لتجاري قدرها ،
وان تصبح شريرة حين يكون قدرها شريراً ؟ أيمكن في وسع القلب
ان ينشوة ويصاب بالقباحات والعاهات التي لا براء منها ، تحت وطأة
بلاء فادح ، شأن العمود الفقري تحت قوس شديد الانخفاض ؟ اليس ثمة
في كل نفس بشرية ، ألم يكن في نفس جان فالجان شرارة ابتدائية - او
عنصر السيئ - لا يتطرق اليها الفساد في هذا العالم ، ولا يلم بها الفناء
في العالم الآخر . شرارة يستطيع الخير ان يطورها ، ويؤججها ،
ويضرمها ، ويسمرها ، ويكثنها من ان تشع إشعاعاً يبهز الابصار ،
ويعجز الشر ابد الدهر عن اطفائها بالكلية ؟

اسئلة خطيرة معقدة لعل جميع علماء الفيسيولوجيا يجيبون عن آخرها
نفيًا ، ومن غير ما تردد ، لو قدر لهم ان يروا في طولون - خلال
ساعات الراحة التي كانت عند جان فالجان ساعات تفكير - ذلك السجين
المحكوم عليه بالاشغال الشاقة وقد قعد مكفهر الوجه ، مطوي الذراعين
فوق قضيب احدى الآلات الرافعة ، وأقمم طرف قيد الحديد في
جيبه لكي لا ينسحب على الارض - ذلك السجين المستغرق في التفكير
بجد وصمت ، المنبوذ من القانون الذي ينظر الى الانسان في حقد ،
المحكوم عليه من المدنية التي تنظر الى السماء في قوة .

وليس من ريب - ولا نود ان نحقق ذلك - في ان الفيسيولوجي
الملاحظ خليق به ان يرى في جان فالجان شقاء لا سبيل الى شفاؤه ؛
ولعله ان يرفي لهذا المريض الذي أورثه المجتمع علته ؛ ولكنه غير قمين
مع ذلك بأن يحاول معالجته . وأغلب الظن انه سوف يشجع بوجهه عن
هذه الكهوف الجدير به ان يراها في تلك النفس ؛ وانه سوف يمسح من
هذا الوجود - مثل داني عند باب الجحيم - تلك الكلمة التي خطتها ،

مع ذلك ، إصبع الله على جبين كل انسان : - الامل .
هل كانت حاله النفسية هذه التي حاولنا ان نحللها ، واضحة عند جان
فالجان وضوحها بعد محاولتنا هذه في اذهان القراء ؟ هل رأى جان
فالجان في وضوح جميع العناصر التي رُكِّبَ منها بؤسه المعنوي ؟ هل
رآها قبل ان تتكون ، وفيما هي تتكون ؟ هل تتبع ذلك الرجل
الامي الجاني تنبعاً دقيقاً تعاقب الفكرات التي رفعتة وخفضته - شيئاً
بعد شيء - حتى انتهى الى ذلك المستوى الفاجع الذي طبع منذ سنوات
عديدة افقَ روحه الداخلي ؟ هل كان يعي وعياً واضحاً كل ما يجري
في ذات نفسه ، وكل ما كان يحركه ويقلقه ؟ ذلك شيء لا نجروء على
إثباته ؛ إننا في الواقع لا نؤمن به . كان جان فالجان أجهلاً ، حتى
بعد ان اصيب بهذا البلاء كله ، من ان يتم له تمييز حسن في هذه
الشؤون . إنه ما كان يدري ، في بعض الاحيان ، ماهية مشاعره على
وجه الضبط . كان جان فالجان في الظلام ؛ لقد سُقي في الظلام ؛
لقد أبغض في الظلام ؛ وفي وسعنا ان نقول إنه أبغض ببصره هو .
لقد عاش في ذلك الظلام على نحو موصول ، ملتصقاً بطريقة مثل أعمى
من العميان ، ومثل حالم من الحالمين . وبين الفينة والفينة فعسب كان
يغمره فجأة ، من باطن او من خارج ، عاصف من غضب ، وقَيْضٌ
من عذاب ، ووميض خاطف شاحب يضيء نفسه كلها ، ويكشف من
حوله - من امام ومن وراء ، على وهج نور خفيف - عن تلك
المُؤَوَّى * الفظيعة والمشاهد الكالحة التي ينطوي عليها قَدَره .
وخبا الوميض ؛ وهبط الليل من جديد ؛ أين كان ؟ انه ما عاد
يدري .

إن ميزة هذا الضرب من العقوبة التي يهين فيها العنصر الذي لا

٠ جمع هوة .

يرحم ، يعني العنصر الذي يوحش * ، هي أنه مجول الانسان - شيئاً فشيئاً - تحويلاً أبه ، الى حيوان ، وفي بعض الاحيان الى حيوان مفترس . وإن محاولات جان فالجان العنيدة المتكررة الى الحرب من السجن لتنهض دليلاً على ان ذلك هو الاثر الذي يتركه القانون في النفس البشرية . لقد جدّد جان فالجان هذه المحاولات ، الحقاء الى ابعاد الحدود ، غير المجدية الى ابعاد الحدود ، كلما منحت له الفرصة ، من غير ان يفكر لحظة واحدة في النتيجة ، او في التجارب التي سبق له ان قام بها . لقد فرّ على نحو ضارٍ ، كالذئب الذي يجد باب قفصه مفتوحاً . قالت له الفريرة : « أنجُ بنفسك ! » وقال له العقل : « ابقَ ! » ولكنّ أمام إغراء قويّ الى هذا الحد ، اختفى العقل . الفريرة وحدها هي التي بقيت . كان الوحش وحده هو الناشط للعمل . حتى اذا عاودوا إلقاء القبض عليه لم تزد القضاة الجديدة التي أُزلت به غيرَ ضراوة الى ضراوة .

وثمة ناحية واحدة ينبغي لنا ان لا ننفلها ، وهي انه كان على قوة جديّة لم ينعم بمثلها ايّ من نزلاء السجن . ففي العمل الشاق ، وفي قتل الحبال المعدنية ، وفي ادارة الآلات الرافعة كانت قوة جان فالجان تعدلُ قوة اربعة رجال . كان في بعض الاحيان يرفع ويحمل على ظهره اثقالاً هائلة ، ويقوم في بعض الاحيان بدور تلك الاداة التي ندعوها رافعة أثقال ، او ما كان يدعى في الفرنسية القديمة *orgueil* وهي الكلمة التي نستطيع ان نقول ، بالناسبة ، ان شارع مونتورغويّ ، قرب اسواق باريس المسقوفة ، مدينٌ باسمه لها . ولقد لقّبهُ رفاقه بد جان ، رافعة الانتقال . وذات يوم ، فيما كانت شرقة دار بلدية طولون ترمم ، مالَ تمثال من تماثيل النساء الرائعة التي تحمل ثقل الشرقة ، وهو من عمل

* الذي يحمل الشيء وحشياً .

بوجه * - مال عن موضعه ، وكاد ان يسقط . فما كان من جان
فالجنان ، الذي اتفق ان كان هناك ، إلا ان أسنده بكتفه حتى اقبل
العمال .

وكانت لدانة جسده تفوق قوته ايضاً . والواقع ان بعض السجناء ،
الحالين ابدأ بالفرار ، انتهوا الى ان يجعلوا من القوة والبراعة مجتمعين علماً
حقيقياً . ذلك هو علم العضلات . وان نظاماً غامضاً من توازن القوى
ليمارس كل يوم من جانب السجناء ، هؤلاء الحاسدين السرمديين للذباب
والمصافير . كان تسور الجدران واكتشاف نقاط ارتكاز حيث لا يرى
المرء تنوءاً ما إلا بشق النفس - كان هذان ضرباً من اللهو عند جانب
فالجنان . أعطه زاوية في جدار تجده - وقد توترت ركبته وتوتر ظهره
واندبجت يده ومرفقاه بوجه الجدار الحشن - يرتقي بمنزل السحر حتى الدور
الثالث . وقد صعد ذات مرة على هذه الشاكلة ، الى سطح السجن الخاص
بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

لقد تكلم قليلاً ، ولم يضحك البتة . كان في حاجة الى انفعال
متطرف لكي ينتزع منه ، مرة او مرتين في العام ، ضحكة السجن
الفاجعة تلك ، التي هي اشبه بصدى ضحكة شيطان من الشياطين . كان
يبدو في عين من يراه وكأنه مستغرق في النظر ، على نحو موصول ، الى
شيء فظيع .
ولقد كان مستغرقاً حقاً .

فمن خلال الاحساس المريض الذي يميز الطبائع غير الكاملة ، ومن
خلال الذكاء المحمّد أحسن إحساساً غامضاً بأن عبثاً هائلاً يجثم فوقه . وفي
ذلك الظل الشاحب القائم حيث كان يزحف ، وكلما ادار وجهه وحاول
ان يرفع عينه ، كان يرى في ذعر يمازجه الفيظ ركاماً بتشكيل وبنجبع
وبصعد فوقه حتى يغيب عن نظره في منحدرات رابعة - ركاماً خيفاً

* Pierre Puget نحات فرنسي اشتهر بأصالة الفبة (١٦٢٢ - ١٦٩٤)

من الاشياء ، من القوانين ، من الاحقاد ، من الرجال ، ومن الاعمال التي كانت خطوطها الكبرى تفرّ منه ، والتي كانت ثقلها يرعبه ، والتي لم تكن غير ذلك الهرم العجيب الذي ندعوه الحضارة . وهناك ، في ذلك الركام البشع المتألب ، القريب منه حيناً ، البعيد عنه حيناً ، المغالي في الارتفاع الى أعالي لا تدرك ، مَيَزَ جان فالجان مجموعة ما ، بعضَ الجزئيات الشديدة الوضوح ، فهنا السجان حاملاً عصاه ، وهنا الدركي شاهراً سيفه ، وهناك كبير الاساقفة وعلى رأسه التاج ، وهناك فوقهم جميعاً ، وفي ضرب من وهج المجد ، الامبراطور متوجاً يعشي بهاؤه العيون . لقد بدا له أن هذه الأبهة النائية كلها ، التي بما كانت لتبدّد ليله ، إنما جعلت ذلك الليل اشدّ حلكةً وأدعى الى إثارة الشجن . كانت هذه جميعاً - القوانين ، الاحقاد ، والاعمال ، والرجال ، والاشياء ، تغدو فوقه وتروح ، وفقاً للحركة المعقدة الخفية التي يطبع الله بها الحضارة البشرية - فهي تدوسه وتسحقه بوحشية هائلة تمتنع على الوصف ، وبلامبالاة لا تعرف الرحمة . إن النفوس المستودية في قعر الشقاء الاقصى ، والرجال البائسين الضائعين في الاعماق السفلى حيث ينجبون عن العيان ، واولئك الذين صبّ عليهم القانون لغته - إن هؤلاء جميعاً ليحسّون فوق رؤوسهم بكامل ثقل ذلك المجتمع البشري الخفيف الى ابعد الحدود في عين المنبؤ خارجه ، الفظيع الى ابعد الحدود في عين القائم تحته .

في مثل هذا الوضع فكّر جان فالجان ، وأيّ طبيعة يمكن أن تغلب على تأملاته ؟

لو كان في ميسور حبة الذرة البيضاء ان تفكر ، إذن لفكرت بما فكر به جان فالجان من غير شك .

كانت كل هذه الاشياء - وهي حقائق مليئة بالاشباح ، واشباح مليئة بالحقائق - قد احدثت في ذات نفسه آخر الامر حالة يكاد التعبير

عنها ان يكون شيئاً متعذراً .

وفي بعض الاحيان ، كان يقف ، وهو في غمرة من عمله في سجن الاشغال الشاقة ، ويستوغل في التفكير . كان عقله ، وقد ازداد نضجه وتعاطف قلقه في آن معاً ، ينتفض ويثور . إن كل هذا الذي حدث له لبدو في عينه عبثاً ، وإن كل هذا الذي يحيط به لبدو له مستحيلاً . كان يقول في ذات نفسه : « انه حلم . » وكان ينظر الى السجان الواقف على بضع خطوات منه ، فاذا بالسجان يبدو في ناظره وكأنه طيف من الاطيف ؛ وفجأة كان هذا الطيف يجود عليه بضربة عصا .

كاد العالم الخارجي ان لا يكون له وجود عنده . ونكاد لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إنه ، بالنسبة الى جان فالجان ، لم تكن ثمة شمس ، ولم تكن ثمة ايام صيف جميلة ، ولا سماء مشعة ، ولا صبح نضر من اصباح نيسان . كان شيء من نور النافذة القاتم هو كل ما اضاء نفسه .

ولكي نوجز ، في الختام ، ما يمكن ان يُوجز وان يستوجم الى نتائج ايجابية من كل ما بسطناه حتى الآن ، -وف نقصر على التيقن من ان جان فالجان ، مشذب الاشجار الفايرولي المسالم ، والرقيق المستعبد في سجن طولون ، أمسى قادراً خلال تسع عشرة سنة ، وبفضل الماران الذي تم له في محبسه ، على ارتكاب نوعين من الجريمة ، أولها قباحة خاطفة طائشة ، مفعمة بالتهور ، مفعمة بالغريزة ، ضرب من الثأر للظلم الذي أنزل به . وثانيها قباحة خطيرة متروية فيها ، خضعت لمناقشة الضمير ، ونظر فيها على ضوء الأفكار الخاطئة التي يمكن لمثل هذا المصير البائس ان يقدمها . ومرّت تبصره في الرأي بالمراحل الثلاث المتعاقبة التي لا نستطيع غير بعض الطبائع المعينة ان تجتازها : التفكير ، الارادة ، العناد . كانت دوافعه هي السخط الموصول ، ومرارة النفس ، والوعي العميق للمظالم التي يعانيها ، وردّ الفعل حتى ضد الحيتيين والابرياء والمستقيمين من الناس ، اذا كان على وجه الارض من يستحق هذه

الصفات . كانت بداية افكاره كلها ونهايتها كلها هي الحق على القانون
البشري ، هذا الحق الجدير به ، اذا لم تكبح من غموة حادثة ذات نفعة
الشيء ، أن يسمى حقاً على المجتمع ، ثم حقاً على الجنس البشري ، ثم
حقاً على الحقيقة ، ويتجلى في شهوة غامضة موصولة ضاربة الى ان يؤدي
مخلوقاً حياً ، كائناً من كان . وهكذا نرى أن وصف الجواز لجان
فالجان بأنه « رجل خطر جداً » كانت له اسبابه المبررة .

ومن عام الى عام ذبلت هذه النفس اكثر فاكثروا - ذبلت في بطة
ولكن بقضاء محتوم . والى هذا القلب الذوي كانت له عين جامدة .
فحين غادر سجن المحكومين بالاشغال الشاقة ، كان قد سلخ تسعة عشر
عاماً لم يذرف خلالها دمعاً واحدة .

٨

الموج والظل

رجل في عرض البحر !
وأى بأس في ذلك ! إن السفينة لا تقف . وإن الريح لتهب ؛
ولهذه السفينة القاعة طريق مقدّر عليها ان تسير فيها . إنها تضي لسيولها .
ويختفي الرجل ، ثم يعاود الظهور ، ويفوص في الماء ، ثم يرتفع
ثانية الى السطح . إنه يستغيث ، وينشر يديه ، فلا يسمعه . ان
السفينة المترنحة تحت العاصفة ، لتجند طاقاتها كلها في سبيل الخلاص .
ويختفي الرجل الغريق عن اعين الملاحين والمسافرين ؛ إن رأسه الباس
لا يعدو أن يكون نقطة في خضمّ الامواج الواسع العريض .
إنه يطلق نداءات يائسة وسط الاعماق . أيّ شبح هو ذاك الشراع
المتواري ! إنه ينظر اليه - إنه ينظر اليه في سمر . ولكنه بنأى ،

ولكنه يغدو قائماً ، ولكنه يتقلص . لقد كان هناك منذ لحظة ، كان واحداً من الملاحين ؛ لقد ذرع ظهر المركب مع سائر القوم ، جيئةً وذهوباً . كان له حظه من الهواء واشعة الشمس ؛ كان كائناً حياً . والآت ، ما الذي اصابه ؟ لقد زلت به القدم ، لقد سقط ، ولقد انتهى كل شيء .

إنه في الامواق الرابعة . وليس تحت قدميه غير الفرار والانهار . إن الامواج ، وقد مزقتها الرياح وبددتها ، لتطبق عليه إطباقاً كريهاً ، وإن تقلبات اللجة لتحمله على منها . إن فلذ الماء لتجيش حول رأسه ، وإن سفلة الامواج لتبصق في وجهه ، وإن الفجوات المختلطة لتبتلع نصف ابتلاع . وكلما غاص في الماء يلمح هُوًى مفعمة بالظلام ، وتتثبت به نباتات مخيفة مجهولة ، فتوثق قدميه ، وتشده نحوها . إنه يحس بأنه قد أصبح لجة وبأنه غدا جزءاً من الزبد . إن الامواج لتتقاذفه ؛ وإنه ليدوق طعم المرارة ؛ وإن الاوقيانوس النهم لثائق الى التهامه . إن العِظَمَ ليعبث بنزعه الاخير ؛ ويبدو أن هذا كله لا يعدو ان يكون حقداً سائلاً .

إنه يحاول الدفاع عن نفسه ؛ إنه يحاول ان يتماك ؛ إنه يناضل ؛ إنه يسبح . إنه - وهو تلك القوة المسكينة الموشكة على النفاد - يصارع الطاقة التي لا تنفد .

ومع ذلك فهو يكافح .
إن السفينة الآن ؟ بعيداً هناك . إنها لا تكاد تُرى في ظلمات الافق الشاحبة .

وتهبّ الريح هبات شديدة ؛ وتغمره الامواج . إنه يرفع عينيه ، ولكنه لا يرى غير زرقة السحب الضاربة الى السواد . إنه ليشكل في نزعه الاخير جزءاً من جنون البحر الهائل . إن هذا الحبل لينكّل به حتى الموت . وإنه ليسمع اصواتاً غريبة على الاذن الانسانية ، اصواتاً

تبدو وكأنها لا تقبل من الأرض ، ولكن من عالم خيف قائم وراءها .
إن في السحب طيوراً ، كما أن ثمة ملائكة فوق الأحزان الإنسانية ،
ولكن أي شيء تستطيع أن تفعله من أجله ؟ إنها تطير ، وتغني ،
وتطفو ، فيما هو يحشرج .

إنه يستشعر أن هاتين اللانهايتين قد دفنتاه في آن معاً : الأوقيانوس ،
والسحاب . الأولى قبر ، والثانية كفن .

ويهبط الليل . لقد سلخ ساعات وهو يسبح ؛ ولقد أوشكت قوته
على النفاد . لقد انمحت تلك السفينة ، ذلك الشيء النائي حيث كان يوجد
ناس . إنه وحيد في ظلمة اللجة الفظيعة . إنه يغوص ؛ إنه يتصلب ؛
إنه يناضل ؛ إنه يحسّ تحته بغيلان اللامنطور الغامضة ؛ إنه يصبح .

لم يبق ثمة ناس . ولكن أين الله ؟

ويصبح . النجدة ! النجدة ! ويصبح على غير انقطاع .

ليس ثمة شيء في الأفق . ليس ثمة شيء في السماء .

إنه يتضرع الى المدي ، الى الموج ، الى الأشنة * ، الى الصخر .
ولكن هذه كلها صماء . ويبتهل الى العاصفة . ولكن العاصفة الرابطة
الجأش لا تدعن لغير اللانهاية .

إن من حوله الظلمة ، والضباب ، والوحدة ، والجلبة الضارية غير
الواعية ، وتفضن المياه الهاججة غير المتناهي . وإن في باطنه الذعر
والاعياء . أما تحته فكان السقوط . لم يكن ثمة نقطة ارتكاز . إنه
يفكر في مغامرات جسده الميت المظلم وسط الدجّة غير المحدودة . إن
البرد اللاذع ليلته . وإن يديه لتتشنجان وتتطبّقان ، ولكن على العدم .
رياح ، غيوم ، زواجع ، عَصَفَات ، ونجوم لا غناء فيها ! ما العمل ؟
إنه يستسلم للباس . إنه ، وقد هدّه الاعياء ، يلتمس الموت . إنه لا
يقاوم بعد الآن . لقد ألقى السلاح ؛ لقد اطرح القتال ، وما هو ذا

* Algue وهو نبات يحيا على سطح المياه العذبة والمالحة أو في أعماقها .

يغوص الى اعماق اللجة الفاجعة الى الابد .
إيه يا سير المجتمع الانساني الحاقدا ! إن تحطيم الرجال والنفوس
ليطبع سبيلك ! إيه أيها الاوقيانوس حيث يسقط كل ما يدعه القانون
يسقط ! أنت انعدام النجدة المشؤوم ! إيه أيها الموت الادبي !
البحر هو الليل الاجتماعي المتعبر الغواد الذي يلقي القانون ضحاياه في
عبابه . البحر هو الشقاء الذي لا حد له !
إن النفس التي تتلاعب بها امواج ذلك البحر قد تصبح جثة . فمن
ذا الذي يعيدها الى الحياة ؟

٩

مظالم جديدة

وحين أزف موعد خروجه من سجن المحكوم عليهم بالأشغال
الشاقة ، وحين ضجت في اذن جان فالجان هذه الكلمات الغريبة :
« أنت مطلق السراح ! » بدت تلك الامعظة ، في عيذه ، غير محتملة وغير
واقعية . وفجأة تسرب الى روحه شعاع من النور الحي ، شعاع من
نور الأحياء الحقيقي . وُسِّدِه جان فالجان بفكرة الحرية . كان قد
آمن بحياة جديدة . ولقد رأى في الحال أيّ ضرب من الحرية ذلك
الذي يُحْمَل جوازاً أصفر .

وكان ثمة الى جانب هذا كثير من التجارب المريرة . كان قد حسب
ما ادّخره من مال طوال مقامه في سجن الاشغال الشاقة فبلغ مئة
وواحد وسبعين فرنكاً . ومن العدل ان نضيف انه غفل عن ان يأخذ
بمعن الاعتبار الراحة الالزامية أيام الاحد والاعياد ، تلك الراحة الجدير
بها ان تنقص هذا المبلغ ، خلال تسعة عشر عاماً ، نحواً من اربعة

وعشرين فرنكاً . وعلى أية حال ، فقد أنقصت أمواله تلك بمختلف الرسوم المحلية حتى أمست مئة وتسعة فرنكات وخمسة عشر « سو » دفعت إليه عند رحيله .

ولم يفهم شيئاً من هذا . واعتقد أنه مُظلم ، بل اعتقد - ولنقلها بصراحة - أنه مُسرق .

وفي اليوم التالي لاطلاق سراحه رأى امام باب معمل من معامل تقطير زهر الليمون في غراس رجالاً يفرغون بعض الأكياس . فعرض عليهم خدماته . وكانوا في حاجة الى المساعدة فقبلوا عرضه . وانصرف الى العمل . كان ذكياً ، شديد البأس ، رشيقاً . ولقد بذل غاية جهده . وبدأ ربّ العمل وقد داخله الارتياح . وفيما هو يعمل سرّ بهم دركي ، فراه ، وسأله ان يُبرز اوراقه . واضطر الى إبراز الجواز الاصفر . حتى اذا تمّ ذلك ، استأنف جان فالجان عمله . وقبل ذلك بقليل ، كان قد سأل احد العمال عن الاجرة التي تُدفع اليه ، يومياً ، لقاء هذا العمل فكان جوابه : « ثلاثون سو » . وهبط الليل ، واذ كان مضطراً الى الرحيل صباح اليوم التالي قصد الى رب العمل والتمس ان يدفع اليه أجره . ولم يقل رب العمل كلمة ، ولكنه قدّم اليه خمسة عشر « سو » . واحتجّ . فأجابه الرجل : « هذا يكفيك . » وألحّ . فحذق رب العمل الى عينيه وقال : « حذار من السجن ! » وهنا أيضاً اعتبر أنه قد مُسرق .

لقد سرقه المجتمع وسرقته الدولة - حين أنقصا المال الذي ادّخره على نطاق واسع . وما قد جاء دور الفرد في ان يسرقه على نطاق مصغر .

إن اطلاق السراح ليس هو الخلاص . فقد يغادر المرء سجن الاشغال للشاقة ، ولكنه لا يستطيع ان يغادر الحكم الذي صدر بحقه . ذلك ما أصابه في غراس . ولقد سبق ان رأينا كيف استقبل في ...

الرجل يستيقظ

فما كانت ساعة الكاندوائية تدقّ الثانية بعد منتصف الليل ، استيقظ جان فالجان .

كان الذي أيقظه أن الفراش وثير اكثر مما ينبغي . فطوال عشرين عاماً تقريباً لم يرقد يوماً في فراش ؛ وعلى الرغم من انه لم يخلع ثيابه فقد كان ذلك الاحساس جديداً عنده الى درجة تجعل من المختوم عليه ان يعكّر صفو رقادده .

كان قد نام اربع ساعات ونيفاً . وكان الاعياء قد زايه . لقد تعود أن لا يستجيم غير ساعات معدودات .

وفتح عينيه ، وحدق لحظة في الظلام المحيط به ، ثم أغضضهما لبسلم للنوم كرةً اخرى .

وحين تكون احاسيس كثيرة متباينة قد اقلقت نهارنا ، وحين تكون عقولنا مستغرقة في التفكير ، نستسلم للرقاد مرةً ، ثم نعجز عن ان نعاود النوم من جديد . إن النوم يتقاد اليها في المرة الاولى بطواعية لا تتم له في المرة التالية . وذلك ما وقع لجان فالجان . إنه لم يستطع أن ينام كرةً ثانية ، وهكذا بدأ يفكر .

كان في احدى تلك اللحظات التي تكون افكارنا خلالها قلقة مشوشة . كان ثمة ضرب غامض من المدّ والجزر في دماغه . لقد طفت ذكرياته القديمة والحديثة حوله كما اتفق ، وتقاطعت على نحو مختلط ، فاقدة اشكالها الخاصة ، متضخمة الى ما لا حد له ، لتختفي كلها بعد دفعة واحدة وكأنها وسط سيل موحل هائج . وراودته افكار كثيرة ،

ولكن كانت ثمة فكرة برزت على نحو موصول وطردت كل ما عداها .
اما هذه الفكرة فوف بنسبتها في الحال . كان قد لاحظ الاطباق
للفضية الستة والملقعة الكبيرة التي وضعتها السيدة ماغلوار على المائدة .

لقد استحوذت هذه الاطباق الفضية الستة عليه . كانت هناك ، على
مدى بضع خطوات . ففي اللحظة التي اجتاز فيها الحجرة الوسطى ليبلغ
تلك التي هو فيها ، كانت الخادم المجوز تضعها في خزانة جدارية صغيرة قائمة
فوق رأس السرير . وكان قد لاحظ موضع هذه الخزانة الجدارية جيداً :
الى اليسار وانت مقبلٌ من حجرة الطعام . كانت آنية فضية قديمة ،
آنية كثيفة ثقيلة . وخلقٌ بها ، إذا ما أضيف اليها الملقعة الكبيرة ،
إن تباع بمئتي فرنك على الأقل ، وهو ضعف المبلغ الذي كسبه خلال
تسع عشرة سنة من العمل . صحيح انه كان في امكانه ان يكسب
اكثر لو ان « الحكومة » لم « تسرقه » .

وعلى دماغه ساعة كاملة ، ساعة طويلة حفلت بالارتجافات المتتجة
بشيء من الصراع . واعلنت الساعة الثالثة . وفتح عينيه من جديد ،
وانصب في سريره فجأة ، وبسط ذراعه ومسّ جرابه ، وكان قد طرحه
في زاوية المخدع ، وارخى رجله ، ووضع قدميه على الارض ، ووجد
نفسه - من غير ان يدري كيف - جالساً على سريره .

وظلّ فترة من الزمن مستغرقاً في التفكير على ذلك النحو ، وهو
وضعٌ كان خليقاً به أن يوقع الرعب في فؤاد الناظر اليه في تلك الظلمة ،
وقد أفاق وحده في البيت المستسلم للرقاد . وفجأةً انحنى الى امام ،
وخلع نعليه ، ووضعهما في رفق على الحصير المنثور قرب السرير ، ثم
استأنف وضعه المفكر ، وغدا ساكناً من جديد .

وفي غمرة من ذلك التفكير البشع أفلقت الأفكار التي اشرنا اليها
دماغه على غير انقطاع ، فهي تدخل ، وهي تخرج ، وهي تعود ، وهي تغدو
ضرباً من العبء الثقيل عليه . ثم إنه فكر ايضاً -- وليس يدري كيف ،

وبذلك العناد الميكانيكي الذي يميّز التفكير الحالم ، بمجرم يدعى يروفه كان قد عرفه في سجن الاشغال الشاقة ، وكان لا يرفع بنطلونه غير رباط مفرد من نسج قطني مزروود . وكان نمط ذلك الرباط الشطرنجيّ التوزيع لا يفارق خياله أبداً .

وظلّ على هذه الحال ، ولعله كان خليقاً به أن يظل على هذه الحال حتى مطلع الفجر لولا أن دقت الساعة دقة النصف او دقة الربع . لقد بدت الساعة وكأنها تقول له : « هيا ! »

وانتصب واقفاً ، وتردّد لحظة اخرى ، وأصاخ . كان كل شيء هادئاً في المنزل . فضى مباشرةً ، وفي حذر ، الى النافذة التي كانت قادراً على ان يلمحها . لم يكن الليل حالكأ جداً . فقد كان القمر بدرأ تجري عبره سحب ضغام تطاردها الريح . وكان هذا يحدث ، في الخارج ، تراوحاً بين الظل والنور ، فيظلم الكون حيناً ويضيء حيناً ، ويحدث في الداخل ضرباً من الشفق . وكان هذا الشفق - الكافي لتمكينه من ان يرى طريقه ، المتقطع بسبب من السحاب العابرة - يشبه ذلك الضرب من النور الازرق المودّ الذي يحترق نافذة سجن مظلم يروح الناس امامها ويغدون . حتى اذا انتهى جان قاجات الى النافذة تلمّسها . لم تكن مقضبة بالحديد ، وكانت مفتوحة على الجنيّة ، ولم تكن موصدةً ، وفقاً للعرف السائد في تلك الديار ، إلا بمسار مسطّح صغير . وقع النافذة ، حتى اذا اندفع الهواء القارس الى الغرفة أعاد إصاها في الحال . وحدّق الى الجنيّة بتلك النظرة المستغرقة التي تدرس اكثر مما ترى . كانت الجنيّة مطوّقة بجدار ابيض ، شديد الانخفاض ، سهل التسوّر . وهناك ، في المدى ، بصّر برؤوس اشجار متباعدة على مسافات متساوية ، فأدرك من هنا أن هذا الجدار يفصل الجنيّة عن جادة عريضة ، أو زقاق مشجّر .

وحين تمّت له هذه الملاحظة ، استدار مثل رجل وطنّ النفس على

أمر ، ومضى الى مخدعه ، وتناول جرابه ، وفتحه ، ونقّب فيه ، ثم
أخرج منه شيئاً وضعه على السرير ، ودسّ نعليه في احد جيوبه ، وشدّ
جرابه ، وطرحه على منكيه ، واعتصر قلنسوته ، وخفض حافتها فوق
عينيه ، وتلّس عصاه في الظلام ، ومضى فوضعها في زاوية النافذة ، ثم
ارتدّ الى السرير ، وفي عزم تناول الشيء الذي وضعه فوقه منذ برهة .
لقد بدا أشبه بقضيب حديدي صغير ، مستدقّ عند احد طرفيه
كالخربة .

كان من المسير على المرء ان يدرك وسط الظلام ، لأيّ غرض
جعلت هذه القطعة الحديدية ؟ أهى محل ؟ أهى دبوس *
ولو قد نظر المرء الى ذلك الشيء على ضوء النهار اذن لرأى انه
لم يكن غير مثقب معدّن . ففي ذلك العهد كان المحكوم عليهم بالاشغال
الشاقة يكلفون أحياناً اقتلاع الحجارة من الكثبان المرتفعة المحيطة بطولون
وكانوا كثيراً ما يزودون بأدوات المعدّنين . ومثاقب المعدّنين تصنع من
حديد صلب ، وينتهي طرفها الأدنى برأس مستدقّ تقحم بواسطته
في الصخر .

وأملك المثقب بيده اليمنى ، وحبس أنفّه ، وتقدم في خطى
متسلّية نحو باب الغرفة المجاورة ، التي كانت غرفة الاسقف ، كما نعلم .
وحين انتهى الى ذلك الباب ألقاه مفتوحاً بعض الشيء . إن الاسقف لم
يبرصده قط .

١١

ما الذي يفعله

واصاخ جان فالجان . لم يكن ثمة صوت ما .

* الدبوس ، هنا ، عمود من حديد يضرب به .

ودفع الباب .
دفعه في رفق بطرف إصبعه بمثل الحذر الخفي الجازع الذي يطبع
حركات هرة تريد ان تدخل .
واذعن الباب للضغط بحركة صامتة لا تكاد 'تدرك' ، جعلت الفرجة
أوسع بعض الشيء .
وانتظر لحظة . ثم دفع الباب كرة أخرى في عزم اسد .
وواصل الباب إذعانه في صمت . كانت الفتحة قد أمت عريضة
يتطبع ان يمضي من خلالها . ولكن كان ثمة قرب الباب طاولة صغيرة
شكلت معه زاوية 'مربكة' تعوق الدخول الى الحجرة .
ورأى جان فالجان هذه العقبة ، ولكن الفرجة ينبغي ان توسع اكثر
مهما كلف الامر .
وإذ أزمع على ذلك ، دفع الباب كرةً ثالثة بأعنف مما دفعه في
المرتين السابقتين . فما كان من مفصل الباب الصدى إلا ان ارسل في تلك
الظلمة ، صريراً أبجّ متطاولاً .
وارتعد جان فالجان . لقد ضجّ صوت هذا المفصل في أذنيه صارخاً
فظيحاً وكأنه 'تفخ' الصور يوم القيامة .
وفي فمرة المبالغة الوهمية التي تلازم الدقيقة الاولى ، كاد يتوهم ان
هذا المفصل قد دبت فيه الحياة فجأة وان حياته تلك فظيعة ، فهو ينبج
كالكلب ليحذر الناس جميعاً ، ويوقظ النائمين .
ووقف مرتعداً مرتبكاً ، وهبط من على رؤوس اصابعه الى عقيقه .
واحسّ 'بشرايينه' تنبض عند صدغيه مثل مطرقي حداد ، وبدا له وكأن
'نفسه' خرج من صدره بمثل هدير الريح المنطلقة من كهف . لقد تراءى
له ان من المستحيل ان لا يكون هذا الصباح المروع الذي اطلقه
المفصل المهتاج قد قلقل المنزل كله بمثل رجة الزلزال . لقد أطلق الباب
الذي دفعه هو ، صيحة الخطر ونادى مستغيثاً . ولن تنقضي لحظة حتى

يستيقظ الرجل العجوز . وتصرخ المراتان العجوزان ، وعندئذ تقبل
النجدة ؛ وبعد ربع ساعة ليس غير تضج البلدة كلها بالنبا ويطارده رجال
الدرك . واعتقد لحظة ، انه هالك لا محالة .

ووقف ساكناً ، مثل تمثال الملح ، وقد فقد الجرأة على ان يأتي
بحركة ما .

وتقضت بضع دقائق . كان الباب مفتوحاً على مدهاء . وغامر فألقى
نظرة على الغرفة . إن شيئاً لم يتحرك . وأصغى . لم يغير شيء ما مكانه
في البيت . ان جلبة مفصل الباب الصديء لم توقف احداً .

وانقضى هذا الخطر الاول ، ولكنه ما يزال يستشعر في ذات نفسه
هيجاناً مروّعاً . ومع ذلك ، فإنه لم يتقلب على عقبيه . بل إنه لم يتقلب على عقبيه
حتى في تلك اللحظة التي اعتقد فيها انه قد هلك . إنه لم يفكر إلا بالنجاز
ما اعتزم عليه في الحال . وخطا خطوة ، فاذا هو في الغرفة .

كانت هذه الغرفة غارقة في هدوء كامل . وكان في ميسوره ان يتبين
هنا وهناك بعض الاشكال المختلطة الفامضة التي كانت - على ضوء النهار
- اوراقاً مبعثرة على طاولة ، وكتباً مفتوحة من قطع النصف ،
وكتباً مركومة على كرسي منخفض ، وكرسيّاً ذا ذراعين مثقلاً بالثياب ،
ومرّكعاً ذا مسند لليدين ، ولكنها لم تكن الآن غير زوايا مظلمة ،
وبقع ضاربة الى البياض . وتصدّم جان فالجان ، بحاذراً ان يمس الاثاث .
وفي الطرف الاقصى من الغرفة كان في ميسوره ان يسمع انقاس الامقف
النائم ، المتكافئة الهادئة .

ووقف فجأة . كان قرب السرير . لقد انتهى اليه بأسرع مما كان
يحتسب .

ان الطبيعة لتشدّ ، في بعض الاحيان ، مفاعيلها ومظاهرها الى افعالنا
في ضرب من الملاممة الجدية الذكية ، وكأننا تريد ان تكررنا على
التفكير . فنذ نصف ساعة تقريباً واحدى السحب العظيمة تغطي وجه

السماء . حتى اذا وقف جان فالجان تجاه السرير تبددت تلك السحابة ،
وكأنما تفعل ذلك عامدة ، واخترق النافذة العالية شعاع قمرى ما لبث
ان اضاء وجه الاسقف الشاحب . كان نائماً في سكون . وكان متلفعاً
في سريره - بسبب من ايلي ديار الالب الدنيا القارسة - برداء صوفى
داكن يغطي ذراعيه حتى المرفقين ، فكأنه مرئى ثيابه كلها تقريباً .
وكان رأسه مستريحاً الى الوسادة في وضع الرقاد المثل . وفوق جانب
السرير تدلّت يده المزدانة بالحاتم الاسقي ، والتي انهمرت منها دفقات
من المبرّات والعمل الصالح . كان يحياه كله مشرقاً بانطباعة غامضة من
الرضا ، والامل ، والسعادة . كانت اكثر من ابتسامة . كانت إشعاعاً
أو تكاد . وعلى جبينه استقرّ انعكاس لا يوصف من نور غير منظور .
إن ارواح المستقيمين من الناس لترى في الرقاد سماء عجيبة .

كان انعكاس من هذه السماء يسطع على حياء الاسقف .
وكان في الوقت نفسه شفافية مضيئة ، لأن هذه السماء كانت في ذات
نفسه . هذه السماء كانت ضميره .

وفي اللحظة التي استقر فيها شعاع القمر على هذا الضياء الباطني بدا
الاسقف النائم وكأنما تحيط به هالة من النور . ولكنها كانت معتدلة ،
ومحبوبة بشفق لا سبيل الى وصفه . وزاد هذا القمر الذي في السماء ،
وهذه الطبيعة الوضى ، وهذه الحديقة التي لا نبضة فيها ، وهذا المنزل
المادي ، والساعة ، واللحظة ، والصمت ، - زاد هذا كله طمانينة
هذا الحكيم الجليلة ، وغلّف بضرب من الهالة الماجدة الرائقة هذا الشعر
الأبيض ، وهاتين العينين المغضتين : هذا الوجه حيث كل شيء امل ،
وحيث كل شيء ثقة - رأس الرجل العجوز ، ورقاد الطفل .

كان ثمة ألوهية تقريباً في هذا الرجل المعظم هكذا على غير
وعى منه .

ووقف جان فالجان في الظل ، رمتقه الحديدى في يده ، منتصب

القائمة ، جامداً ، سروع الفؤاد امام هذا الوجد المشع . إنه لم يرَ من قبل نظيراً لذلك البنة . وملأت هذه الطمانينة فؤاده رعباً . والحق أنه ليس للعالم الاخلاقي مجلى اعظم من هذا : ضمير قلق مضطرب على وئيل ارتكاب عمل شرير ، يتأمل رقاد رجل صالح .

كان هذا الرقاد في هذه العزلة ، وعلى مقربة من رجل مثله ، ينطوي على شيء رفيع أحسن به في غموض ، ولكن في قوة .

إن احداً ما كان قادراً على ان يعرف اي شيء كان يدور في خلده . حتى هو نفسه لم يكن يدري . ولكي يحاول المرء ان يلمّ بذلك يتعبن عليه ان يتخيل أقصى العنف في حضرة أقصى الاعتدال . ولم يكن ثمة على وجهه شيء يمكن ان يلمح في يقين . كان يربو عليه ضرب من الدهش الشكس . لقد رآه . هذا كل ما هنالك . ولكن اي الافكار طافت في ذهنه ؟ كان من المستحيل على المرء ان يحزر ذلك . كان واضحاً ان الاضطراب والارتباك استبدا به . ولكن ما طبيعة هذا الانفعال ؟

إنه لم يرفع عينه عن الرجل المعجوز . كان التردد العجيب هو الشيء الوحيد الواضح في مسلكه وبحياته . ولقد كان خليقاً بالناظر اليه ان يعتقد أنه إنما تردد بين عالمين : عالم الهالكين ، وعالم الناجين . لقد بدا على استعداد لحق هذه الجمجمة ، او لتقبيل هذه اليد !

وبعد لحظات رفع يده اليسرى ، في بطء ، نحو جبينه ؛ وزرع قلنسوته . ثم رفع يده بثل ذلك البطء ، واستغرق في تأملاته ، كرة اخرى ، وقد حمل قلنسوته في يسراه ، وعصاه في يمينه ، وقف شعره فوق رأسه الضاري .

وتحت هذه النظرة المروعة ، واصل الاسقف رقاده في طمانينة عميقة . كان تمثال المصلوب القائم على الموقد يبدو على نحو باهت في ضوء القمر ، وكأنما كان يبسط ذراعيه نحوهما كليهما ، مباركاً احدهما ،

غافراً للآخر :

وفجأةً اعتمر جان فالجان قلنسوته ، ثم انطلق مسرعاً من غير ان ينظر الى الاسقف ، محاذياً السرير ، متجهاً مباشرة نحو الخزنة الجدارية الصغيرة التي لمحا قرب رأس السرير . ورفع المثقب الحديدي لكي يحطم القفل ، فاذا به يجد المفتاح فيه . وفتحه ، فكان اول ما رآه سلة الآنية الفضية ، فتناولها ، واجتاز الغرفة في خطى واسعة ، غير مصطنع الحذر ولا مبالٍ بالضجة . وانتهى الى الباب ، ودخل المصلى ، وتناول عصاه ، واجتاز بالعتبة ، ووضع آنية الفضة في جرابه ، واطرح السلة ، وركض عبر الجنية ، ووثب فوق الجدار وكأنه النمر ، وولى فراواً .

١٢

الاسقف يعمل

وعند مطلع الشمس من اليوم التالي كان مونسينيور بينفينو يتمشى في حديقته . وهرعت السيدة ماغلوار نحوه وقد عصف بها الاضطراب . وصاحت :

« مونسينيور ، مونسينيور ! هل تعرف عَظَمَتِكَ ابن سلة الآنية الفضية ؟ »

فقال الاسقف : « نعم . »

فقالت : « ليتبارك اسم الرب ! انا لم أدري ما الذي حلّ بها . »
كان الاسقف قد وجد السلة ، منذ لحظة ، فوق إحدى مسابك الزهور . فقدمها الى السيدة ماغلوار .
« ها هي ذي . »

فقلت : « نعم . ولكن لا شيء فيها ؟ ابن الآنية الفضية ؟ »
فقال الاسقف : « آه . إن الآنية الفضية هي التي تشغل بالك اذن ؟
أنا لا ادري ابن هي . »

— « يا الهي ! لقد سُرقَت ! لقد سرقتها هذا الرجل الذي وفد
علينا امس . »

وفي طرفة عين ، وبكامل الرشاقة التي تقدر عليها امرأة في مثل
سنها ، اندفعت السيدة ماغلوار نحو المصلى ، ومضت الى التمدد ، ثم
انقلبت الى الاسقف .

وكان الاسقف ينحني في شيء من الحزن فوق نبتة من ذلك النوع
المعروف بحشيشة الملاعق كانت اللة قد هشمها عند سقوطها على الارض .
فانتصب لدن سمع صيحة السيدة ماغلوار :

— « مونسينيور ، لقد هرب الرجل ! لقد سُرقَت الآنية الفضية ! »
وفيا هي تنطق بهذه الكلمات وقعت عينها على زاوية من الحديقة
حيث وجدت آثار تسوُّر . كانت عارضة الجدار الحشيشية قد طُرحت
على الارض .

— « أنظر ! لقد فرَّ من هنا . لقد وثب الى زقاق كوشفيليه ! يا
له من رجلٍ مقيت ! لقد سرق آبنيتنا الفضية ! »
واعتصم الاسقف بالصمت لحظة ، ثم رفع عينيه الرصينتين وقال للسيدة
ماغلوار في رقة :

— « ولكن قبل كل شيء ، هل كانت هذه الآنية الفضية لنا ؟ »
ولم تجب السيدة ماغلوار . وبعد لحظة تابع الاسقف كلامه :
— « ايتها السيدة ماغلوار ، لقد احتفظتُ بهذه الآنية الفضية ، بغير
حق ، دهرآً طويلاً . إنها ملكٌ للفقراء . من كان هذا الرجل ؟ رجلاً
فقيراً من غير شك . »

فقلت السيدة ماغلوار : « وأسفاه ! وأسفاه ! أنا لستُ ناثرة من

اجلي شخصياً أو من اجل الآنسة . سيان عندنا بقاء الآنية الفضية وذهابها .
ولكنني تأثرة من اجلك يا صاحب السيادة . بأي شيء سوف يتناول
مونسينيور طعامه منذ اليوم ؟ »

فنظر الاسقف اليها دهشاً :

— « وكيف ذلك ؟ أليس عندنا أطباق من صفيح ؟ »

وهزت السيدة ماغلوار كتفها .

— « للصفيح رائحة . »

— « حسن . فلنستعمل اطباقاً حديدية اذن . »

وأومأت السيدة ماغلوار ايماءة ذات مغزى .

— « وللحديد رائحة . »

فقال الاسقف : « حسن ، اذن نستعمل اطباقاً خشبية . »

وبعد دقائق معدودات تناول فطوره على المائدة عينها التي جلس
اليها جان فالجان الليلة البارحة . وفيما هو يُفطر ، قال مونسينيور
بينفينو ، في جدل ، لأخته التي لم تنطق بكلمة ما ، وللسيدة ماغلوار التي
كانت تدمدم مخاطبة نفسها ، انه ليس ثمة حاجة ، حقاً ، حتى الى
ملعقة او شوكة خشبيتين لغمس قطعة من الخبز في كوب من اللبن .

وقالت السيدة ماغلوار لنفسها فيما هي تذرع الغرفة جيئة وذهاباً :

— « هل يخطر شيء كهذا ببال انسان ؟ أن تستقبل رجلاً مثل

هذا ، وتقدم اليه سريراً الى جانبك ، ثم يشاء حسن الحظ ان لا يفعل

شيئاً اكثر من السرقة ! آه ، يا الهي ! ان الرعدة لتسرى في اوصالي

حين أفكر بذلك ! »

وفيما الاخ والاخت ينهضان عن المائدة مُقرع الباب .

وقال الاسقف : « ادخل . »

وفتح الباب . وبرز على العتبة جمعٌ غريب ضارب . كان ثلاثة رجال

يسكون بخناق رجل رابع . أما الثلاثة فكانوا من رجال الدرك ، واما

الرابع فكان جان فالجان .

كان أحد ضباط الدرك قرب الباب ، وكان يقود الجمع في ما يبدو .
وتقدم الضابط نحو الاسقف ، وادى له التحية العسكرية .

وقال : « مونسينيور ... »

وهنا رفع جان فالجان رأسه - وكان مقطب الجبين مفتماً - وغغم
في جرس مشدود :

- « مونسينيور ! اذن فانت لست الكاهن ! »

فقال احد رجال الدرك : « اسكت ! إنه المونسينيور ، إنه
الاسقف . »

وفي غضون ذلك كان مونسينيور بينفينو يقترب بامرع ما تمكّنه
شيخوخته من الاقتراب .

وقال وهو ينظر الى جان فالجان : « آه ، هانت ذا ! انا
سعيد بأن اراك . ولكن ! لقد اعطيتك الشمعدانين ايضاً ، ومما
فضيان مثل غيرهما ، وفي إمكانك ان تبيعها بثتي فرنك . لماذا لم
تأخذهما مع أطباقك ؟ »

وفتح جان فالجان عينيه ونظر الى الاسقف وعلى وجهه انطباعة لا
يقدر أيما لسان بشريّ على وصفها .

وقال الضابط : « مونسينيور ، إذن فقد كان ما قاله هذا الرجل
صحيحاً ؟ لقد التقينا به . كان منطلقاً مثل رجل هارب ، فالتقينا القبض
عليه لكي نحقق . كان يحمل هذه الآنية الفضية . »

فقاطعه الاسقف في ابتسامة : « ولقد قال لكم إن كاهناً عجوزاً
طيباً بات الليلة البارحة عنده منحةُ إياها . لقد فهمت . وقد أرجعتموه
الى هنا ؟ هذه إهانة . »

فقال الضابط : « اذا كان الامر كذلك فهل نستطيع ان نحلي
سبيله ؟ »

فأجاب الاسقف : « من غير شك . »
واطلق رجال الدرك مراح جان فالجان . فتركص على عقبه .
ثم انه قال في صوت لا يكاد يُفهم ، وكأنما كان يتحدث في نومه :
« أصبح أنهم يطلقون مراحى ؟ »
فقال احد رجال الدرك : « اجل ! في استطاعتك ان تذهب .
ألا تفهم ؟ »

فقال الاسقف : « على رسلك ، يا صديقي . هذان هما الشمعدانان
اللذان قدمتهما اليك . خذهما قبل ان تذهب . »
ومضى الاسقف الى الموقد ، ورفع الشمعدانين الفضيّين ، وحملهما الى جان
فالجان . وراقبته المرأتان وهو يفعل ذلك من غير ان تنبسا بكلمة ، او
تومئا ايماءة ، او تلقيا نظرة يمكن ان تزعم الاسقف .
كانت اوصال جان فالجان ترتعد كلها . وتناول الشمعدانين على نحو
آليّ ، وقد غلب على عياه الذهول .

وقال الاسقف : « والآن ، اذهب في سلام . وبالمناسبة ، اذا
رجعت كرة ثانية يا صديقي فلا داعي الى ان تمرّ من خلال الجنيّة .
ان في استطاعتك دائماً ان تدخل وتخرج من الباب الامامي . إنه لا
يُغلق إلا بسقطة ، ليلاً ونهاراً . »
ثم التفت الى رجال الدرك وقال :

— « ايها السادة ، في استطاعتكم ان تذهبوا . »
ومضى رجال الدرك لسبيلهم .

كان جان فالجان أشبه برجل على وشك الانغماء .
وتقدّم الاسقف نحوه وقال في صوت خفيض :

— « لا تنسَ ، لا تنسَ ابداً انك وعدتني بان تعطنع هذه الآنية
الفضية في السبيل التي تجعل منك رجلاً صالحاً . »
ووقف جان فالجان ، الذي لم يذكر أنه وعد الاسقف بذلك قط ،

وقد غلب عليه الدهش والذهول . كان الاسقف قد وضع كثيراً من التوكيد على هذه الكلمات وهو ينطق بها . وتابع كلامه في احتفال :
- « جان فالجان ، يا اخي ! انت لم تعد ملكاً لشر ، ولكن ملكاً للخير . واني انما اشتري نفسك . انا أنتزعها من الافكار السوداء ، ومن روح الهلاك ، وأقدّمها الى الله ! »

١٣

جيرفيه الصغير

وغادر جان فالجان المدينة وكأنه يفرّ منها . لقد اندفع يسعى في اقصى السرعة ، عبر الحقول ، سالكاً أولى الازقة والطرق الفرعية التي تبدّت له ، غير مدرك انه كان يرنّد في كل لحظة على آثاره . وظل قائماً على هذا النحو طوال الصباح ، لم يذق طعاماً ، ولم يحسّ بجوع . كان فريسة مجموعة من الاحاسيس الجديدة . لقد استشعر ضرباً من الغضب ، ولكنه لم يدرك على من كان غاضباً . كانت لا بدري أثبتت كوامن العاطفة في فؤاده ام ازدرى وأهين ؟ وكانت تعرفه في بعض الاحيان رقة غريبة كان يكافحها ، ويقيم في وجهها قسوة سنواته العشرين الماضيات . وأتعبه هذا الوضع . لقد رأى في ابتئاس الى ذلك الضرب من الهدوء المروع الذي منحه اياه الظلم المتّزل به - رأى اليه يتقلقل في ذات نفسه . وساءل نفسه اي شيء ينبغي ان يحل محله . وفي بعض الاحيان كان يتمنى لو انه كان في السجن مع رجال الدرك ، ولو ان الاحداث لم تتخذ هذا المجرى ؛ فقد كان ذلك خليقاً به ان يورثه احتياجاً اقل . وعلى الرغم من انقضاء الشطر الاعظم من الموسم فقد كانت ما تزال ههنا وههناك ، في أسيجة العليق ، بعض الزهرات المتخلفة

التي فاح عبيروها من حوله ، فيما هو يجتاز بها مشياً على قدميه ، فأعاد الى مخيلته ذكريات طفولته . وكانت هذه الذكريات لا تُحتمل او تكاد بعد ان غابت عن ذاكرته دهنراً طويلاً .

وهكذا تجسدت في ذهنه ، طوال النهار ، افكار لا سبيل الى التعبير عنها .

وفيا الشمس تجنح نحو الافق ، 'مطيلة فوق الارض ظلّ أصفر الحصى ، كان جان فالجان جالساً خلف دغل في سهل واسع أصهب يكاد يكون صحراء حقيقية . لم يكن في الافق غير جبال الالب . حتى ولا برج كنيسة في قرية نائية . ولعل جان فالجان كان على مبعدة ثلاثة فراسخ من د ... كان مجاز ضيق محقق الهل ينسبط على بضعة خطوات من الدغل .

وفي غمرة هذا التأمل الجدير بأن يضاعف أثر اسماله الرابع في نفس ايما امريء بقدر له ان يراه ، طرق سمعه صوت مرح بهيج . وأدار رأسه فرأى غلاماً صغيراً يتقدم في ذلك المجاز - غلاماً من من غلمان سافوا لا يزيد عمره على عشر سنوات ، يتغنى وآلته الموسيقية الشبيهة بالكمان على جنبه ، وصندوقه الخاص بسك المرموط على ظهره .

كان واحداً من اولئك الصبية المرحين ذوي النفوس العذبة الذين ينتقلون من مكان الى مكان وقد بدت رُكبتهم من ثوب بنطلوناتهم . ومن غير ان يكفّ الغلام عن الغناء ، كان يقف بين القبة والقبة ويقذف في الهواء ببعض القطع النقدية التي كانت في يده ، وليس بمسبوع ان تكون هي كل ثروته . وكان بين تلك القطع واحدة من فئة الاربعين د سو .

ووقف الغلام الى جانب الدغل من غير ان يرى جان فالجان ، وقذف ما بيده من القطع النقدية الصغيرة في الهواء ، فتلقاها جميعاً ،

حتى تلك اللحظة ، على ظاهر كفه في كثير من البراعة .
ولكن قطعة الاربعين « سو » ولت منه ، هذه المرة ، وكرت
نحو الدغل حتى انتهت الى جان فالجان .
ووطئها جان فالجان بقدمه .
ولكن الغلام كان قد تابع سير القطعة النقدية بعينه ، وعرف الى
اين انتهت .

ولم يأخذه الخوف ، وتقدم نحو الرجل مباشرة .
كان المكان منعزلاً انعزالاً كاملاً . وعلى مدى البصر لم يكن أحد
في السهل أو في الجاز الضيق . ولم يكن ثمة ما يُسمع غير صيحات
جماعة من الطيور القواطع * كانت تنطلق عبر السماء على ارتفاع عظيم .
وإدار الغلام ظهره للشمس ، فجعلت شعره أشبه بإسلاك الذهب ،
وخضبت بوهج دام وجه جان فالجان الوحشي .
وقال الغلام الصغير في تلك الثقة الصبانية التي قوامها الجمال
والبراءة :

« قطعتي النقدية ، أيها السيد ؟ »

فقال جان فالجان : « ما اسمك ؟ »

« جيرفيه الصغير ، يا سيدي . »

فقال جان فالجان : « اذهب من هنا . »

فألح الغلام : « يا سيدي ، أعطني قطعتي النقدية . »

ونكس جان فالجان رأسه ، ولم يجب .

واردف الغلام :

« قطعتي النقدية ، يا سيدي ! »

وظلت عين جان فالجان مسيرة على الأرض .

وصاح الغلام : « قطعتي النقدية ! قطعتي النقدية البيضاء ! قطعتي

التي تنقل من بلد الى بلد . »

النقدية الفضية ! »

لقد بدا وكأن جان فالجان لم يفهم شيئاً . وأمسك الغلام به من طوق قميصه ، وهزته . وفي الوقت نفسه ، قام بمحاولة لزعزعة الحذاء الضخم ، المثقل نعلُهُ بالحديد ، الجاثم على كنزهِ .

- « اريد قطعتي النقدية ! قطعتي النقدية ذات الاربعين سو ! »
وبكى الغلام . ورفع جان فالجان رأسه . كان لا يزال قاعداً ، وكانت نظرتُه قلقة . لقد حدثت الى الغلام في ضرب من الدهش . ثم بسط يده نحو عصاه ، وصاح في صوت فظيع :
- « مَنْ هناك ؟ »

فأجابه الغلام : « انا ، يا سيدي . جيو فيه الصغير ! أنا ! أنا ! أعطني قطعتي النقدية ذات الاربعين سو ، من فضلك ! ارفع قدمك ، يا سيدي ، من فضلك ! »

ثم ان الغضب استبد به ، على الرغم من حداثة سنهِ ، فهو يتحدث في لهجة تكاد تكون تهديدية :
- « آه ، واخيراً ، ألا تريد ان ترفع قدمك ؟ هيا ، ارفع قدمك . »

فقال جان فالجان : « أهذا انت ايضاً ؟ »
وفجأة انتصب واقفاً ، وقدمه ما تزال فوق القطعة الفضية ، وأضاف :

- « من الخير لك ان تنجو بجلدك ! »
ونظر الغلام اليه في ذعر ، ثم شرع يرتعد من قمة رأسه الى اخص قدميه . وبعد بضع ثوان من الانشداد اطلق ساقيه للريح من غير ان يجرؤ على الالتفات ، او الصياح .
بيد أنه ما لبث ان وقف ، على مسافة ما ، لكي يستعيد أنفاسه . ومن خلال تفكيره الحالم سمعه جان فالجان يشق وينتحب .

وبعد بضع دقائق اختفى الغلام عن العيان .
كانت الشمس قد غربت .

وكانت الظلمة تتكاثر حول جان فاجان . إنه لم يذق طوال النهار طعاماً ما . ومن الجائز ان تكون الحتى قد اصابته .

وكان قد ظلّ واقفاً لم يغير وضعه منذ ان ولى الغلام فراراً . كان صدره يعلو ويهبط في فترات طوال غير متساوية . وكانت عيناه مسمرتين على بقعة قائمة على عشر خطى او اثنتي عشرة خطوة أمامه ، وكانتا تبدوان وكأنهما تدرسان في انتباه بالغ شكل كسرة من الخبز المطلي العتيق منطرحة على العشب .

وفجأة ارتعدت اوصاله . لقد بدأ يستشعر برد الماء .

وخفض قلنوته على جبينه ، وحاول على نحو ميكانيكي ان يضم جانبي قميصه حول صدره وان يزوره . ثم انه خطا خطوة ، وانحنى الى امام لكي يتناول عصاه عن الارض .

وفي تلك اللحظة بَصُرَ بقطعة الاربعين « سو » التي كانت قدمه قد دفنتها نصف دفن في التراب ، والتي التمتعت بين الحصى .

واصيب بمثل الصدمة الكهربائية . ومن خلال اسنانه قال : « ما هذه ؟ » ، وارتدت خطوة او خطوتين ، ثم وقف عاجزاً عن ان يرفع طرفه عن هذه النقطة التي غطتها قدمه اللحظة السابقة ، وكأن الشيء الملتصع هناك ، وسط الظلمة ، كان عيناً مفتوحةً مسمرة عليه .

وما هي الا بضع نوان حتى وثب في تشنج نحو القطعة المألوبة ، وأملك بها ؛ ثم استقام ، وسرّح طرفه بعيداً فوق السهل ، محدّقاً في وقت معاً الى نقاط الافق جميعاً ، واقفاً ، مرتعداً مثل ظبي مروّع يلتمس مفزعاً .

ولم ير شيئاً . كان الليل قد هبط ، وكان السهل بارداً خالياً ، وكان ضباب ارجواني كثيف يرتفع في الفسق الواهن النور .

وقال : « آه ! » وشرع يمشي مسرعاً في الاتجاه الذي اتخذته الغلام عند فراره . وبعد ان خطا نحواً من ثلاثين خطوة ، وقف ، وأجال البصر في ما حوله ، ولم يرَ شيئاً .

ثم نادى بأقصى ما يستطيع من قوة :
- « جيفيه الصغير ! جيفيه الصغير ! »

ثم أصاح .

ولم يكن ثمة جواب ما .

كان الريف موحشاً كالحا ، وكان الفضاء يحيط بالمنطقة كلها . ولم يكن حول جان فالجان غير ظلمة ضاعت فيها نظرتة ، وغير صمت ضاع فيه صوته .

وهبت ريح شمالية قارسة خلعت ضرباً من الحياة الحِدادية على كل ما حوله . وهزّت شجرات العليق اذرعها الصغيرة الهزيلة في ثورة لا تصدق . كانت خليقاً بالنظر اليها ان يقول انها تهدد شيئاً ما وتطارده .

وعاود السير من جديد ، ثم أغدّ الخطى حتى صار سيره معدوياً . وبين الفينة والفينة كان يقف ، وينادي في ذلك الحلاء بصوت ليس ارفع منه ولا احفل بالحزن :

- « جيفيه الصغير ! جيفيه الصغير ! »

ولو قد سمعه الغلام إذن لألقى في فؤاده الرعب ، واذن لاججم عن الظهور امامه . ولكن الغلام كان قد انتهى ، من غير ريب ، الى مكان بعيد جداً .

ولقي كاهناً على صهوة جواد . فتقدم نحوه وقال :

- « سيدي الكاهن ، هل رأيت غلاماً مرّ من هنا ؟ »

فأجابه الكاهن : « لا . »

- « غلاماً يدعى جيفيه الصغير ؟ »

— « انا لم ار احداً . »

واخرج من كبس نودده قطعتين نقديتين من ذوات الخمسة الفرنكات ،
وقدمهما الى الكاهن .

— « سيدي الكاهن ، خذ هذه الفرنكات لقرائتك . سيدي الكاهن ،
إنه غلام صغير ، في نحو العاشرة من العمر ، يحمل صندوقاً لسمك
المرموط في ما اعتقد ، وآلة موسيقية تشبه الكمان . لقد مضى في هذا
الاتجاه . انه واحد من صبية سافوا ، أفهمت ؟ »
— « انا لم أره . »

— « جيرفيه الصغير ؟ أليست قريته قريبة من هنا ؟ هل تستطيع
انت تعلمني ؟ »

— « اذا كان كما تقول ، يا صديقي ، فعندئذ يكون الغلام الصغير
غريباً عن هذه الديار . انهم يطوفون في هذه المنطقة وليس ثمة من
يعرفهم . »

وسارع جان فالجان الى اخراج قطعتين نقديتين أخريين من ذوات
الخمس الفرنكات ، وقدمهما الى الكاهن .

وقال : « من اجل قرائتك . »

ثم اضاف في هذيان :

— « سيدي الكاهن . ألقى القبض عليّ . انا سارق . »

ونخس الكاهن جواده بالمهزين في شدة ، وولى وقد عصف به خوف
عظيم .

واسأنف جان فالجان الركض في الاتجاه الذي اتخذهُ اول الامر .
وقطع على هذا النحو مسافة غير يسيرة ، بجيلاً الطرف في ما حوله
منادياً صائحاً ، ولكنه لم يلتق احداً آخر . ومرتين او ثلاث مرات
تسكّب الحجاز لكي ينظر الى ما بدا له شخصاً منطرحاً على الارض او
جائماً فوقها ، ولكن ذلك لم يكن غير شجرات علق او صخور منخفضة .

واخيراً ، وفي موطن التفت عنده ثلاث طرق ضيقة ، وقف . كانت القمر قد طلع ، فأمعن النظر في المدى البعيد وصاح كـرة اخرى : « جيرفيه الصغير ! جيرفيه الصغير ! جيرفيه الصغير ! » ولكن صيحاته تلاشت في الضباب ، من غير ان تثير حتى صدى من الاصداء . وتتم مرة ثانية : « جيرفيه الصغير ! » ولكن في صوت واهن لا يكاد يُبين . وكانت ذلك آخر جهوده . لقد التوت ركبته من تحته على نحو مفاجيء ، وكأنه ناء دفعة واحدة تحت ثقل ضميره الفاسد الذي القته عليه قوة غير منظورة . وسقط خائر القوى على حجر ضخم ، وبسدها متشبثتان بشعره ، ووجهه فوق ركبتيه ، وصاح :

— « انا رجل بائس ! »

وتقطر فؤاده ، وانفجر بالبكاء . كانت هي اول مرة يبكي فيها منذ تسع عشرة سنة .

حين غادر جان فالجان منزل الاسقف ، كما قد رأينا ، كان في حال نفسية لم يسبق له ان عرفها قط من قبل . كان عاجزاً عن ان يفهم ايما شيء ، كما كان يجري في ذات نفسه . لقد ثبت في وجه أعمال الشيخ وكلماته الانجيلية : « لقد وعدتني بأن تصبح رجلاً صالحاً . إني انما اشتري نفسك . أنا انتزعها من روح الفساد وأقدمها الى الله ! »

لقد عاودته هذه الكلمات على نحو موصول . وفي وجه هذا الحليم السماوي اقام الضرور ، الذي هو حصن الشر في الانسان . لقد احس احساساً غامضاً بأن مغفرة هذا الكاهن هي اعظم غارة وافظع هجوم مُشتا عليه عمرة كله ، وبأن قوة قلبه تكون كاملة اذا ما قاوم هذه الساحة ، وبأنه اذا ما استسلم فعندئذ يتعين عليه ان يتخلى عن ذلك الحقد الذي ملأت روحه به أفعال الآخرين طوال هذه السنوات كلها ، والذي وجد فيه الرضا والارتياح ، وبأنه يتعين عليه هذه المرة ان يغلب أو يغلب ، وبأن الصراع — الصراع الهائل الحاسم — قد بدأ

بين خبائثه هو ، وطيبة هذا الرجل .

وفي حضرة هذه البوارق كلها مشى جان فالجان مثل رجل ثمل .
وفما هو يمشي هكذا ، سارد العنين ، هل كان يدرك ادراكاً واضحاً
الى اي نتيجة يمكن ان تؤدي به مغامرته في د...؟ هل سمع تلك المهمات
الحفية التي تحذر النفس وتلحّ عليها في لحظات بعينها من الحياة ؟ هل
همس في اذنه صوت انباء انه يجتاز الساعة الحاسمة من مصيره ؛ وأنه لم
يبق امامه طريق وسط ؛ وانه اذا لم يصبح منذ اليوم احسن الرجال
فسوف يكون اسوأهم ؛ وان عليه الآن ، اذا جاز التعبير ، ان يسمو
الى اعلى مما سما اليه الاسقف ، او يهبط الى ادنى من درك العبد
الرقيق في سجن الاشغال الشاقة ؛ وانه اذا شاء ان يصبح خيراً فيتعين
عليه ان يصبح ملاكاً ، واذا شاء ان يبقى شريراً فيتعين عليه ان
يصبح غولاً ؟

وهنا ينبغي ان نسأل تلك الاسئلة التي طرحناها من قبل : هل
تشكل في ذهنه ظلٌ مختلط لهذا كله ؟ لا ريب في ان البؤس - كما
سبق منا القول - يرتبي الذكاء . بيد اننا لسنا واثقين من ان جان
فالجان كان في وضع من يقدر على ان يستجلي كل ما ألمعنا اليه هنا .
واذا كانت هذه الأفكار قد خطرت له ، فالراجع انه لمحها لمحا ، ولم
يرها رؤياً ، فلم توفق الى اكثر من إلقائه في اختلاط لا يُطاق -
اختلاط يكاد يكون أليماً . واذا كان قد فارق ، منذ قريب ، ذلك
الشيء المشوّء الاسود الذي يدعى سجن الاشغال الشاقة فقد آذى الاسقف
روحه ، كما كان خليقاً بالنور الساطع ان يؤذي عينه لدن خروجه
من الظلام . لقد ملأته الحياة المستقبلية ، الحياة الممكدة التي قدّمت نفسها
اليه ، منذ تلك اللحظة ، طاهرة كل الطهارة مشرقة كل الاشراف - لقد
ملأته هذه الحياة بالارتعاد والقلق . إنه ما عاد يدري ان كان حقاً .
فتل بومة ترى الشمس تشرق فجأة بهير ذلك الخارج من سجن

الاشغال الشاقة وكانت الفضيلة قد أعمت ناظره .

اما الشيء الراهن ، الذي لم يشكّ هو به ، فهو انه لم يعد الرجل نفسه ، وان كل شيء فيه قد تغير ، وانه لم يعد في ميسوره ان يمنع الاسقف من ان يقول له ما قاله ، او يثير في ذات نفسه من كوامن العاطفة ما أثار .

في هذا الجو النفسي التقى جيرفيه الصغير وسرق قطعه النقدية ذات الاربعين « سو » . لماذا ؟ انه ما كان قادراً على ان يضر هذه الواقعة ، من غير ريب ؛ هل كانت هي الاثر الاخير والجهد النهائي للافكار الرديئة التي حملها من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ؟ هل كانت بقية من حافظ باطني ، او ثمرة لما يدعى في علم توازن الاجسام « القوى المكتسبة » ؟ لقد كانت هذا ، ولعلها كانت ايضاً اقل من هذا . ولتقل ببساطة ان الذي سرق القطعة النقدية لم يكن هو ؛ لم يكن الرجل . إن البهيمية هي التي وضعت قدمها في بلاهة وبسائق العادة والغريزة ، على تلك القطعة ، فيما كان العقل يناضل وسط جمهرة من المؤثرات الجديدة ، المجهولة . حتى اذا استيقظ العقل ، ورأى الى ما فعلته البهيمية ، ارتد جان فالجان والالم يعتصر فؤاده ، واطلق صيحة دعر . كانت ظاهرة غريبة ؛ ولعلها ان لا تكون ممكنة إلا في الحالة التي كان فيها آنذاك . ولكن الحقيقة هي انه حين سرق هذا المال من الطفل إنما اقدم على عمل لم يعد قادراً على مثله .

واياً ما كان ، فإن هذا الاثم الحتامي كان له اثرٌ حاسم في نفس جان فالجان . لقد اندفع عبر فوضى عقله وبدّدها ، مقيماً السحب القاعة في جانب والثور في جانب ؛ وفعل فعله في روحه ، وهي على وضعها ذاك ، كما تفعل بعض الكواشف * الكيماوية فعلها في مزيج كدير بأن ترمب عنصراً وتحدث من الآخر محلولاً نقياً .

* الكواشف (ومفردها : كاشف) مراد 'تكشف بها صفات مراد اخرى .

في البدء ، حتى قبل ان يفرغ للتفكير والتأمل في ذات نفسه ، وفيما هو ذاهل مشنت الذهن ، مثل رجل يحاول ان يولي قراراً ، حاول ان يبحث عن الغلام ليعيد اليه ماله . حتى اذا وجد ان ذلك غير مجدٍ ومستحيل ، اقلع عنه يائساً . وفي اللحظة التي صاح فيها : « انا رجل بائس ! » رأى نفسه على حقيقتها ، وكان قد انتهى الى ان يصبح شديد الانفصال عن نفسه بحيث خيل اليه وكأنه لم يكن الا شعباً ، وان جان فالجان الفطيع ، المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، كان امامه بلعبه ودمه - وعصاه في يده ، وقيصره على ظهره ، وجرابه المليء بالامتعة المروقة فوق كتفيه - وبجيهاده الحازم الكالنج ، وبفكره الحافل بالمشروعات المقيمة .

إن فرط الشقاء ، كما لاحظنا ، قد جعله بمعنى من المعاني خيالياً كثير الاوهام . واذن فقد كان ذلك ضرباً من الوم . لقد بَصُرَ فعلاً بجان فالجان ، هذا الوجه المشؤوم ، امامه . وكان على وشك ان يسأل نفسه مَنْ ذلك الرجل ، وقد عصف به الرعب لمرآه .

كان دماغه في احدى تلك الحالات العنيفة ، المادئة مع ذلك على نحو خفيف ، حين يكون الوم من العنق بحيث يبتلع الحقيقة . فنحن لا نرى ، بعد ، تلك الاشياء المحيطة بنا ، بل نرى - وكأنها خارج انفسنا - تلك الاشكال التي في اذهاننا .

لقد رأى الى نفسه اذن ، اذا جاز التعبير ، وجهاً لوجه . وفي الوقت نفسه ، ومن خلال تلك الملوسة ، رأى على مسافة مبهمة ، ضرباً من النور حبه باديء الأمر مشعلاً . حتى اذا حدث في انتباه اشدّ الى ذلك النور الذي اشرق على ضميره ادرك ان له شكلاً بشرياً ، وان هذا المشعل كان الاسقف .

ووازن ضميره بين هذين الرجلين اللذين أقامهما امامه على هذا النحو : الاسقف وجان فالجان . كان ايما شيء دون الاول خليقاً به ان يتحقق

في اذابة الآخر . وبأحد تلك الآثار الفريدة المتميز بها هذا الضرب من
الاختلاف . وفيما تطاول وهمه ، رأى الاسقف يزداد عظمةً وثألاً
في عينيه . وانكمش جان فالجان وانحى . وفي لحظة من اللحظات لم
يبق منه غير طيف . وفجأة اختفى . إن الاسقف وحده قد بقي .

لقد ملأ روحَ هذا الرجل البائس باسراع جليل .

وبكى جان فالجان طويلاً . لقد سفح دموعاً حارة ؛ لقد بكى
في سرارة ؛ بكى في ضعف اسدّ من ضعف المرأة ، وفي ذعر اقوى
من ذعر الطفل .

وفيما هو يبكي ازداد النور اشراقاً في ذهنه ؛ كان نوراً غير عاديّ ،
نوراً فاتناً وفظيعاً في آن معاً . إن حياته الماضية ، وخطيئته الاولى ،
وتكفيره الطويل ، وظاهره الوحشيّ ، وباطنه الذي قسّته الايام ،
واطلاق سراحه المُبْهَج بمجموعة كبيرة من خطط الانتقام ، وما تمّ له
في منزل الاسقف ، وآخر عمل قام به ، وسرقته قطعة الطفل النقدية
ذات الاربعين دسوس ، وهي جريمة يزيد بها خسارة وفحشاً وقوعها
إثر مغفرة الاسقف . كل هذا عاد وتبدّى له ، في وضوح ، ولكن
على ضوء لم يره قط من قبل . لقد رأى حياته ، فبدت له فظيعة ، ورأى
روحه ، فبدت مروعة . بيد انه كان ثمة نور رقيق الحاشية فوق تلك
الحياة ، وتلك الروح . لقد تراءى له وكأنه كان يرى الى الشيطان
على ضوء الجنة .

كم ساعة ظلّ يبكي على هذه الشاكلة ؟ ايّ شيء فعله بعد البكاء ؟
الى اين ذهب ؟ إن احداً لم يعرف ذلك قط . كل ما عُرف من
امره ان الحودذي الذي كان منطلقاً بعربته ، آنذاك ، على طريق غرينوبل ،
والذي بلغ بلدة د... في نحو الساعة الثالثة صباحاً ، رأى فيما هو يجتاز
بشارع الاسقف رجلاً متخذاً وضع المصلي ، فهو راكم في الظلام ، على
حذاء الطريق ، أمام باب مونسينيور بينفينو .

الكتاب الثالث

في عام ١٨١٧

١

سنة ١٨١٧

كانت سنة ١٨١٧ هي السنة التي نعتها لويس الثامن عشر ، في ضرب من التوكيد الملكي الذي لا يعوزه التسامح ، بالسنة الثانية والعشرين من سني حكمه . كانت السنة التي لمع فيها نجم ميسو بروغويير دو سورسوم . كانت دكاكين صانعي الشعر المستعار كلها ، الآملة في عودة الذرور والطائر الملكي ، مزخرفة باللون اللازوردي وبزهرات الزنبق * كانت هي العهد الساذج الذي كان الكونت لينش يجلس فيه

* وهي شار ملوك فرقة .

كل يوم أحد ، بوصفه وكيل كنيسة ، على المقعد الرسمي في سانت جيرمين دو بريه ، مرتدياً ثوب بارون من بارونات فرنسة ، بشريطته الحمراء وأنفه الطويل ، وبجلال الصورة الجانبية الذي يميز من قد قام بآثورة من المآثر . اما المآثرة التي قام بها الكونت لينش ، فهي انه - بوصفه عمدة بوردو - سلم المدينة ، في ١٢ آذار سنة ١٨١٤ ، بأبكر قليلاً مما ينبغي ، الى دوق انغوليم * . ومن هنا استحق ان يكون باروناً من بارونات فرنسة . وفي سنة ١٨١٧ كان الزي يتلصص الصبيحة الصفار المتراوح عمرهم ما بين الرابعة والسادسة تحت قلانس جلدية حمراء واسعة ذات آذان ، فهي تشبه أغطية مداخن الاسكيو . كان الجيش الفرنسي يرتدي الملابس البيضاء ، على الطريقة النمسية . كانت المرايا تدعى كئائب ، وكانت تحمل بدلاً من الارقام اسماء المديريات . كانت نابوليون في سانت هيلانة ، واذا ضنت عليه انكاثرة بالجوخ الاخضر فقد اضطر الى ان يقلب ثيابه القديمة . في عام ١٨١٧ غنى بليغريفي ؛ ورفقت مدموازيل بيغوتيني ، وملك بوتييه ؛ ولم يكن أودري قد رأى النور بعد . وخلفت فوربوزو السييدة ساكي . كان لا يزال في فرنسة بروسيون . وكان مسيو دولالو شخصية مرموقة . وكانت الشرعية قد أكدت ذاتها ، منذ قريب ، بأن قطعت بايدي الامر قبضة كل من بلينييه ، وكاربونو ، وتوليرون ، ثم احتوت رؤوسهم . كان الامير دو تاليران ** الحاجب الاكبر ، والراهب لويس *** ، وزير المالية ، ينظر

* Duc D'Angoulême (١٧٧٥ - ١٨٤٤) هو الابن البكر لشارل العاشر . قاد حملة اسبانية (١٨٢٣) وعند وفاة لويس الثامن عشر امسى ولياً لعهد فرنسة . وقد استقال سنة ١٨٣٠ مع أبيه .

** Talleyrand سياسي فرنسي شهير . (١٧٥٤ - ١٨٣٨) كان في عهد ما قبل الثورة اسقف أوتون ، ثم اصبح رئيس الجمعية الوطنية (١٧٩٠) ووزيراً للخارجية في حكومة الادارة ، ثم في عهد الفصيلة ، ثم في عهد الامبراطورية . وقد لعب دوراً كبيراً في مؤتمر فينا ، ثم في لندن حيث عينه لويس فيليب سفيراً .

*** وزير المالية في عهدي لويس الثامن عشر وشارل العاشر ثم في عهد لويس فيليب . ولد سنة ١٧٥٥ وتوفي عام ١٨٧٢ .

كل منهما في وجه الآخر ، ضاحكين مثل عوَّافين . كان كل منهما قد احتفل ، في ١٤ تموز عام ١٧٩٠ بقداس الاتحاد * في شان دو مارس . لقد رئسه تاليران بوصفه اسقفًا ، في حين ساعده لويس بوصفه شماساً . وفي عام ١٨١٧ رُئيت في الطرق الموازية لشان دو مارس هذه اعمدة خشبية ضخمة مدهونة بلون ازرق وعليها بقايا من النور والنحل زایلها تذهيبها بعد ان هطلت عليها الامطار ونهأت في العشب . تلك كانت الاعمدة التي ارتفعت فوقها ، قبل عامين ، منصة الامبراطور في شان دو مي . وكانت قد اسودّت ههنا وههناك بنار مخيمات الجنود النموسيين المعسكرين قرب غرو كابو . وكان عمودان او ثلاثة من هذه الاعمدة قد اختفت وسط نيران هذه المخيمات ، ودفأت أيدي جنود الامبراطور الالماني الضخمة . وقد تميزت ساحة شان دو مي بأنها كانت قد احتلت في شهر تموز ، على ساحة شان دو مارس . وفي عام ١٨١٧ كان ثمة شيثان شعبيان : ال « فولتير - توكيه » ، ** وعلب السعوط الدستورية *** وكانت احدث الاخبار الباريسية المثيرة هي جريمة دوتين الذي القى رأس اخيه في بركة « مارشيه أو فلور » . وكان التحقيق قد بدأ ، في وزارة البحرية ، حول البارجة المشؤومة « لا ميدوز » التي كان خليقاً بها ان

* في ١٤ تموز سنة ١٧٩٠ احتفل الفرنسيون بعيد الاتحاد fête de la Fédération في باريس لمناسبة انقضاء عام واحد على سقوط الباستيل . وقد رئس اسقف اوتون ، تاليران ، القداس الكبير الذي اقيم لهذه المناسبة ، ولفظ لافاييت عظة الولاء للدستور الذي رضي به الملك ، بينما رفعت الملكة ابنا بين ذراعيها . وهذا البعد يرمز الى عاطفة الاخاء التي ولدت آنذاك في غرنة .

** ضرب من الكراسي منخفض المقعد مرتفع الظهر عن الرأس ، انتشر في ذلك العصر .

*** اشارة الى الدستور الذي وضع سنة ١٨١٤ عندما تولي لويس الثامن عشر العرش ، والذي عدل على نحو جملته أكثر تهروراً عام ١٨٣٠ بعد سقوط شارل الماسنر .

تغمر شوماريكس بالعار ، وجيريكو * بالمجد . ومضى الكولونيل سيلف الى مصر ، وهناك اصبح صليباً باسماً . وحُولَ قصر تيرم ، في شارع دو لا هارب ، الى دكان لصنع البواميل . وكان لا يزال في ميسور المرء ان يرى فوق سطح برج اوتيل دو كارني المثلث الزوايا تلك السقفة الخشبية الصغيرة التي كانت بمثابة مرصد لـ « ميسييه » ، فلكي الاسطول في عهد لويس السادس عشر . وقرأت دوقة دروا ** ، في جهرا المؤثث على طراز لويس العاشر بالاطلس الساهوي الزرقعة ، مخطوطة « أوريكا » على ثلاثة او اربعة من اصدقاتها . كانت حروف N قد نُحيت من اللوفر *** . وتنازل جسر اوستوليتز عن اسمه فاصبح جسر « حديقة الملك » وهي احجية قُتعت جسر اوستوليتز و « حديقة للنباتات » في وقت معاً . ولم يكن للويس الثامن عشر - المستغرق في التعليق بظفره على « هوراس » ، **** فيما هو يفكر في الابطال الذين أصبحوا أباطرة وصانمي الاحذية الذين صاروا ولاية عهد - غير همئين اثنين : نابوليون ، وماتورين برونو . واقامت الاكاديمية الفرنسية مسابقة في موضوع : « السعادة التي تتيحها الدراسة » . وكان ميسور بيلار ***** بليفاً من وجهة النظر الرسمية . وفي ظله كان في إمكان المرء ان يرى الى نشوء النائب العام المقبل ، دو برويه ،

* Géricault رسام فرنسي (١٧٩١ - ١٨٢٤) اعتاز بالتيوغرافيا والنحت ، ومن روايته تلك اللوحة التي صور فيها حادث البارجة الذي يشير اليه المؤلف وقد دحاها « أطواف البارجة لا ميدوز » .

** duchesse de Duras روائية فرنسية (١٧٧٨ - ١٨٢٨) كتبت روايتين : « اوريكا » Orlka التي يشير اليها المؤلف و « ادوار » Edouard .
*** رغبة في القضاء على آخر أثر من آثار نابوليون الذي يبدأ اسمه كما لا يخفى بحرف N .

**** مسرحية مشهورة لكورني .

***** Bellart (١٧٦١ - ١٨٢٦) النائب العام في عهدي لويس الثامن عشر وشاول العاشر وقد عرف بجهوته في قمع الحركات التحريرية وخنق حرية الرأي .

الذي كانت تنتظره سخریات بول لويس كورييه . * كان ثمة شاتوبريان * مزيف يدعى مارشانجي ، *** كما قدّر ان يكون ثمة في ما بعد مارشانجي مزيف يدعى دارلنكور . **** وكانت « كلير ألبا » Claire d'Albe و « الملك العادل » Malek Adal راعيتين من الروائع . وأعلنت مدام كوتين ***** كاتبة العصر الاولى . وحذفت « مؤسسة فرنسة » ***** اسم الاكاديمي ، نابوليون بوناپرت ، من جدولها . وأنشأ أمر ملكي مدرسة بحرية في آنغوليم ، لأنه كان واضحاً - وقد غدا دوق آنغوليم امير البحر الاكبر - ان لمدينة آنغوليم ، بلا جدال ، صفات المرفأ البحري كلها ، التي يتعرض المبدأ الملكي بدونها للخطر . وفي جلسات مجلس الوزراء أثير ما اذا كان ينبغي غض الطرف عن الصور التي تمثل بعض البهلوانين والتي كانت ترتب إعلانات فرانكوفي ، وتجمع حولها أولاد الشوارع الداعرين . وفاد ميسو پاير ، ***** مؤلف L'Agnesse ، وهو رجل فاضل ذو فكين مربعين وثؤلولة على الحد ، الحفلات الموسيقية الصغيرة المقصورة على نفر من المقربين في قصر المراكيز

* Paul - Louis Courier كاتب فرنسي (١٧٧٢ - ١٨٢٥) اشتهر برسائله الساخرة اللاذعة ضد رجال الحكم في عهدي لويس الثامن عشر وشارل العاشر .
 ** الكاتب الفرنسي المشهور (١٧٦٨ - ١٨٤٨)
 *** Marchangy كاتب فرنسي (١٧٨٢ - ١٨٢٦) 'عُرف بشراسته وحاشته المكينة .

**** d'Arlincourt روائي وشاعر فرنسي (١٧٨٩ - ١٨٥٦) اشتهر بأسلوبه المقضم على نحو غريب .
 ***** Cotin روائية فرنسية (١٧٧٠ - ١٨٠٧) انمت كتبها بطابع الكتابة الرومانتيكية . ومن اشهر رواياتها « كلير ألبا » Claire d'Albe التي يشير اليها المؤلف .
 ***** Institut de France وهي تتألف من اكاديميات خمس اهمها الاكاديمية الفرنسية والاكاديمية العلوم والاكاديمية الفنون الجميلة .

***** Ferdinando Paër مؤلف موسيقي ايطالي (١٧٧١ - ١٨٣٩) عاش معظم حياته في فرنسة : وكان مديراً للفرقة الموسيقية الخاصة بنابوليون الاول .

دو سانسوناي ، في شارع « لافيل ليفيك » . وغنت جميع الفتيات اغنية « ناسك سان آفيل » من نظم ادمون جيرو . و« حوّل » القزم الاصفر ، * الى « ميروار » . ووقف مقهى لامبلين الى جانب الامبراطور ** معارضاً مقهى قالوا الذي كان من انصار آل بوربون *** وكانت احدى اميرات حقلية قد تزوجت الى دوق دو برتي **** الذي كان لوفيل ، ***** في الواقع ، يترص به الدوائر منذ ذلك الحين . وكانت قد انقضت سنة على وفاة مدام دو ستال ***** وصفر حرس الملك ، ازدراءً واستهجاناً ، للآنة مارس . ***** وكانت الصحف الكبرى كلها صغيرة . كانت صحيفة « الدستوري » Le Constitutionnel دستورية . وكانت صحيفة « مينيرفا » تدعو شاتوبريان Chateaubriand شاتوبريانت Chateaubriant ***** وكان حرف (i) هذا يثير ضحكاً كثيراً بين المواطنين على حساب الكاتب الكبير . وفي الصحف المشتراة أهان العواهر من الصحفيين مُبْعَدِي عام ١٨١٥ .

• Le Nain jeune لعبة من ألعاب الورق ، وهي هنا تعلم على مقهى .

• نابوليون بوناپرت .

•• الاسرة الفرنسية الحاكمة التي اطاحت بها الثورة الفرنسية ثم استادت عرشها في شخص الملك لويس الثامن عشر .

••• de Berry الابن الثاني لشارل العاشر ، وقد قتله لوفيل في باريس عام ١٨٢٠ .

••••• Louvel عامل سروجي قتل دوق دو بري بطمعة خنجر وهو خارج من الاوبرا ، وقد أعدم شنقاً عام ١٨٢٠ .

••••• de Stael كاتبة فرنسية شهيرة (١٧٦٦ - ١٨١٧) ذات نزعات تحرورية ، وقد أسهمت إسهاماً بارزاً في الحركة الرومانتيكية .

••••• Mlle. Mars ممثلة فرنسية كوميدية (١٧٧٩ - ١٨٤٧) اسع نجمها في « المسرح الفرنسي » حيث حظيت بمجد عظيم ، وبرعت بتمثيل دور « سيلين » في رواية « الناظر من البئر » Misanthrope لمولير .

••••• ضرب من الطعام معروف يصنع من لحم ظفر الثور الشوي مع البطاطس عادة .

فلم يعد دافيد * ذا موهبة ، ولم يعد آرنو * ذا مقدرة ، ولم يعد كارنو *** رجلاً ذا فضل وصلاح . ولم يسبق له سولت * * * * ان كسب نصراً واحداً في حياته . ولا ريب في ان نابوليون لم يعد ذا عبقرية . وكل امرئ يعرف ان الرسائل التي توجه الى المبعث نادراً ما تصل الى عنوانها ، لان الشرطة تعتبر ان من واجبها الديني ان تصدّها عن سبيلها . وليست هذه الظاهرة جديدة . فقد شكّا ديكارت منها في منفاه . واذا أبدى دافيد في احدى الصحف الفرنسية تضايقه لعدم تلقيه الرسائل الموجهة اليه بدا ذلك مضحكاً للصحف الملكية التي اغتنمت الفرصة لتسخر من المنفي . وكان في قول « قتل الملوك » بدلاً من « الناخبين » و « الاعداء » بدلاً من « الحلفاء » ، و « نابوليون » بدلاً من « بوناپورت » ما يكفي لفصل الانسان عن الانسان باكثر مما تفصلهما هاوية ما . وأجمع اصحاب الحفاة كلهم على ان عهد الثورات قد اختتم بفضل الملك لويس الثامن عشر الملقب بـ « الواضع الخالد للدستور » . وعلى سطح جسر « بون نوف » نقشت كلمة *Redivivus* * * * * على القاعدة التي انتظرت قتال هنري الرابع . وكان مسيو بييه يضع مع متآمره ، في شارع تيوريز رقم ١ ، الحطة لتدعيم الملكية . وقال زعماء اليسار في المآزق الحرجة : « ينبغي ان نكتب الى باقو . » واستعمل ذلك السادة كاتوبويل ،

-
- Louis David رسام فرنسي شهير (١٧٤٨ - ١٨٢٥) نفي الى بروكسل حيث توفي . وكان في عهد الامبراطورية رسام نابوليون بوناپورت .
 - Arnault شاعر تراجيدي فرنسي (١٧٦٦ - ١٨٣٤)
 - Carnot ضابط من ضباط الجيش الفرنسي (١٧٥٣ - ١٨٢٣) رئيس « المؤتمر الوطني » عام ١٧٩٤ وانشأ جيوش الجمهورية الاربعة عشر وكان فوق ذلك منظم النصر ، وقد نعم عليه نابوليون لتزعائه الجمهورية ، ثم أبعد في عهد لويس الثامن عشر عن البلاد .
 - Soult مارشال فرنسا (١٧٦٩ - ١٨٥١) اطي بلاه حثاً في معركة زوريخ ، وفي الدفاع عن جنوا ، ولعب دوراً هاماً في موقعة اوسترليتز .
 - كلمة لاتينية تعني : عاد الى الحياة .

وأوماهوني ، ودو شاتديين ، ولم يكن علمهم هذا ليعوزه بعض الموافقة من اخي الملك الاصغر منه سناً ، وهذا ما عرف بعدد بـ « مؤامرة الشاطيء » . وتآمر « الدبوس الاسود » من ناحيته ايضاً . وتفاوض دولافيردري مع تروغوف . وساد مسيو دو كاز * ، وهو عقل متحرر بعض الشيء . وكان شاتوبريان ، يقف كل صباح امام نافذته في شارع سان دومينيك رقم ٢٧ ، وقد ارتدى بنطلوناً جورياً وانتعل مشاية ، وغطى شعره الاشيب بتديل من مناديل مدراس ، واقام امام عينيه مرآة وصندوقاً كاملاً من صناديق ادوات الاسنان ، فهو ينظف اسنانه التي كانت ممتازة ، فيما هو يملئ « الملكية وفقاً للدستور » على مسيو بيلورج ، امين سره . وآثر كبار النقاد لافون ** على تالما *** وكان مسيو دو فيلتز **** يوقع هكذا A وكان مسيو هوفمان ***** يوقع هكذا Z وكان شارل نوديه ***** يؤلف « تيريز اويير » *Thérèse Aubert* . وألغى الطلاق . ودعت المدارس الثانوية (*Lycées*) نفسها كليات (*Collèges*) وكان طلابها ، الذين ازدانت أطواق قمصاتهم بالزنابق الذهبية يتقاتلون بسبب من ملك رومة . وشكت شرطة القصر السرية لصاحبة السور ، بنت الملك ، من ان رسم دوق دورليان معروض في كل مكان ،

* Decazes سياسي فرنسي (١٧٨٠ - ١٨٦٠) تولى منصب الوزارة في عهد لويس الثامن عشر . وكان يسمى الى ان يجعل « الامة ملكية » ويجعل « الملكية قومية » .

** Lafon مسرحي تراجيدي فرنسي (١٧٧٣ - ١٨٤٦)

*** Talma مسرحي تراجيدي فرنسي ايضاً (١٧٦٣ - ١٨٢٦) . وكان مؤلف الكوميديا المفضل عند نابوليون بوناپرت .

**** De Feletz ناقد فرنسي (١٧٦٧ - ١٨٥٠) كان يدافع عن القواعد الكلاسيكية وينادي بالحركة الرومانتيكية .

***** Francois-Benoit Hoffmann كاتب مسرحي وناقد فرنسي (١٧٦٠ - ١٨٢٨)

***** Nodier كاتب فرنسي وضع عدة مؤلفات في النقد ونقد اللغة والقصة .

وكان له صالون ادبي شهير (١٧٨٠ - ١٨٤٤)

وانه يبدو في اللباس الرسمي لقائد سلاح الفرسان أجمل من دوق دورري في اللباس الرسمي لقائد سلاح التناين او الدراغون - وهي مسألة خطيرة . واعادت مدينة باريس تذهيب قبة الانفاليد * على نفقتها . وساءل الجديون من الناس بعضهم بعضاً ما الذي يجدر بميو دو ترانكولاغ ان يفعله في هذه الحالة او تلك . واختلف ميو كلوزيل دو مونتال في قضايا شتى ، مع ميو كلوزيل دو كوسيوغ . ولم يكن ميو دو سالابري راضياً . وكانت رواية *Les deux Philiberts* للكاتب المسرحي بيكار عضو الاكاديمية التي لم يوفق مولير الى الفوز بعضويتها ، تمثل على مسرح الاوديون حيث كان لا يزال في ميسور الناظر ان يقرأ في وضوح على مقدم البناء ، برغم ازالة الاحرف عنه ، هذه العبارة : « مسرح الامبراطورة » . وتعصب بعض الناس لـ « كوغنيه دو مونتالولو » وتعصب بعضهم عليه . كان فابيه * مثيلاً للشخصاء ، وكان باقو ثورياً . ونشر الكتيبي بيابيه طبعة من كتب فولتير تحت هذا العنوان : « مؤلفات فولتير ، عضو الاكاديمية الفرنسية . » وقال ذلك الناشر الساذج : « إن هذا خليف به أن يجذب المشتري » ! وكان الرأي العام منعقداً على ان الميو شارل لوامون سوف يكون عبقرية العصر . وبدأ الحسد يلسه ، وتلك آية المجد . ولقد نظم بعضهم فيه هذا البيت :

« حتى حين يرق لوامون

نحس ان له قوائم ! »

واذ رفض السكاردينال فيش ان يستقيل تولى ميو دو بين ، كبير اساقفة آماسي ، ادارة اسقفية ليون . وبدأ النزاع بين سويسرة وفرنسة *Invalides* الاثر الباريسي المشهور ، وقد نقل اليه رفات نابليون بونابرت عام ١٨٤٠ .

•• Fabvier جنرال فرنسي (١٧٨٢ - ١٨٥٥) أسهم إسهاماً كبيراً في الحركة التحريرية التي نشأت في عهد لويس الثامن عشر وشارل العاشر ، ولعب نعمة في حرب الاستقلال اليونانية .

على وادي دابّ بذكره وضعها الكاتب دوفور * الذي أصبح في ما بعد جنرالاً . وكان سان سيمون ** المغمور بيني حلمه الرفيع الذرى . وكان في اكاديمية العلوم فورييه *** شهير نسبه الذرية ، على حين كان في عليّة ما فورييه **** حامل الذكر سوف يذكره المستقبل . وكان نجم اللورد بايرون ***** قد بدأ يبرز . وكانت احدى الملاحظات على قصيدة لـ « ميلفوا » ***** قد عرفت الى الوسط الادبي في فرنسا بوصفه رجلاً يدعى اللورد بايرون » . كان داود دانجيه يحاول ان يجبل الرخام . وتحدث الراهب كارون باطراء ، في اجتماع صغير لطلاب المعاهد الاكليريكية في زقاق القويّاتين ، عن كاهن مجهول يدعى فيلبسيتيه روبير الذي أصبح « لامنيه » ***** في ما بعد . كان شيء يرسل دخاناً ويهدر في رفق على صفحة السين ، في مثل صوت الكلب السابح ، يروح ويحيى تحت نوافذ التويلتري ، من « الجسر الملكي » الى « جسر لويس الخامس عشر » . كان جهازاً آلياً ليس ذا تناء كبير ، ضرباً من الدمية ، « حلم مخترع ذي أوهام - زورقاً بخاريّاً . ونظر الباربيسيون الى ذلك الشيء غير المجدي في لا مبالاة . وعجز مسيو دو فوبلان ، مصلح « مؤسسة فرنسا » ، على نحو جذري ، بأمر ملكي ، والصانع البارز لعدد كبير من اعضاء الاكاديمية - عجز ، بعد ان

* Guillaume - Henri Dufour جنرال سويسري (١٧٨٧ - ١٨٧٥) قاد القوات السويسرية الاتحادية في الحرب السويسرية الاهلية وقضى على الحركة الانفصالية (١٨٤٧)
 ** Saint - Simon فيلسوف فرنسي اشتراكي (١٧٦٠ - ١٨٢٥) نادى بملكية الدولة للثروة العامة ، والناء الملكية الوراثية ، كما نادى بالمبدأ القائل : « لكل حسب قدرته ، ولكل مقدرة حسب اعمالها . »

*** Joseph Fourier رياضي فرنسي (١٧٦٨ - ١٨٣٠)

**** Charles Fourier فيلسوف وعالم اجتماعي فرنسي (١٧٧٢ - ١٨٣٧)

***** Byron الشاعر الانكليزي الشهير (١٧٨٨ - ١٨٢٤)

***** Millevoye شاعر فرنسي يمتاز قصائده بالامعان في الكتابة (١٧٨٢ - ١٨١٦)

***** Lamennais كاتب وفيلسوف فرنسي شهير (١٧٨٢ - ١٨٥٤)

حيتوم اعضاء ، عن أن يدخل هو الى حرّم تلك المؤسسة . وتنت ضاحية
 سان جيرمان وسرادق مارسان لو يصبح مسيو دولافو مديراً للشرطة
 بسبب من ورعه . واختصم دوڤويتران * وريكاميه ** في مدرّج
 مدرسة الطب ، وهزّ احدهما بجمع كفه في وجه الآخر لخلافهما حول ألوهية
 المسيح . ووضع كوفييه *** احدى عينيه على سفر التكوين والاخرى
 على الطبيعة ، وحاول ان يرضي الرجعة المتطرفة في التقوى من طريق التوفيق
 بين الحيوانات والنباتات المتجسّرة المطمورة في الارض وبين النصوص
 الدينية ، ومن طريق جعل الماستودون **** يؤيد موسى . وكانت
 مسيو فرانسوا دو نوفشاتو ، الراعي المحمود لذكرى بارماتيه ، ****
 قد بذل جهوداً جازية لكي يحمل الناس على ان يلفظوا ال pomme de terre
 (البطاطا) Parmenière ***** ، بيد أنه لم يوفق قط الى النجاح .
 وكان الراهب غريغوار ، الاسقف السابق ، والعضو السابق في المؤتمر
 الوطني ، والعضو السابق في مجلس الشيوخ - كان قد انتقل الى حالة
 « غريغوار المرذول » في مهاترات الصحف الملكية . وهذا التعبير الذي
 استعملناه منذ لحظة « انتقل الى حالة » إنما اعتبره مسيو ووييه

* Dapuytren جراح فرنسي شهير كان له على العلم فضل كبير (١٧٧٧ -
 ١٨٣٥)

** Récamier طبيب فرنسي . (١٧٧٤ - ١٨٥٢)

*** Cuvier عالم طبيعات فرنسي ، يعتبره الفرنسيون خالق علم التشريح المقارن
 وعلم الأحاث او علم مطمورات الارض من النبات وغيره . (١٧٦٩ - ١٨٣٢)
 **** حيوان متفرض يشبه الفيل .

***** Antoine - Augustin Parmentier اقتصادي فرنسي وخبير في الزراعة
 (١٧٣٧ - ١٨١٣) كان عضواً في اكاديمية العلوم . وقد طوّر زراعة البطاطا
 في فرنسا بتشجيع من لويس السادس عشر .

***** أي على اسم بارماتيه العالم الاقتصادي المنار اليه آتياً .

كولار * تعبيراً جديداً لم تعرفه اللغة من قبل . وكان لا يزال في مبسور المرء ان يميز ، ببياضها الظاهر تحت القوس الثالث من جسر إبيانا ، تلك القطعة الجديدة من الحجر التي استعملت قبل عامين لشد مدخل المنجم الذي شقه بلوخر ** لنفس الحجر . ومثل أمام المحكمة رجل كان قد صاح إذ رأى الى الكونت دارتوا *** يدخل كاتدرائية نوتردام : « وحق الآلهة ، انا آسف على ذلك العهد الذي دخل فيه بونابرت ونالنا الى « موقص سافاج » وذراع احدهما في ذراع الآخر . » لغة مثيرة للفتنة . السجنة ستة اشهر للقائل .

وبدا الخونة مجردين حتى من الرياء . كان نفر من الرجال الذين انضموا الى الممدود عشية معركة ما لا يخفون الرشوة التي فازوا بها ، ويمشون غير خجلين ، في وضع النهار ، تحيط بهم وقاحة الثروة والجاه . وكان الهاربون من معركتي « لينبي » و « كاتربرا » **** يعرضون ، في خلعة عارهم المرتشي ، ولاهم للملكية عارياً بالكلية ، فاسين ما هو مطور على الجدران الداخلية في المراحض العامة بانكلترة : « الرجاء ان تسوي ثيابك قبل ان تغادر المكان » !

تلك هي ، كيفما اتفق ، جمهرة الاحداث التي طفت على سطح عام

* Royer - Collard سياسي فرنسي (١٧٦٣ - ١٨٤٥) تولى رئاسة مجلس النواب .
 ** Blucher جنرال بروسي (١٧٤٢ - ١٨١٩) لمح نجمة في الحملة على فرنسا (١٨١٤) ، ولعب دوراً كبيراً في معركة واترلو (١٨١٥) حين هرع لنجدة ولينتون وبذلك هُزم نابليون نهائياً .

*** Comte d'Artois أخو لويس السادس عشر ولويس الثامن عشر . وقد تولى عرش فرنسا سنة ١٨٢٤ فعرف باسم شارل العاشر . (١٧٥٧ - ١٨٣٦)
 **** Ligny في بلجيكا حيث هزم نابليون قوات بلوخر البروسية في ١٦ حزيران سنة ١٨١٥

***** Quatre - Bras في بلجيكا ايضاً حيث شنّ اللاند الفرنسي « ني » Ney الحملة على الانكلز في ١٦ حزيران سنة ١٨١٥ ايضاً عشية معركة واترلو ، وحيث قتل دوق بروترويك .

١٨١٧ ، والتي 'نسبت الآن . ان التاريخ ليهمل هذه الخصوصيات كما
تقريباً ، وليس في وسعه ان يفعل خلاف ذلك ؛ إنه واقع تحت سلطان
اللانهاية . ومع ذلك ، فهذه التفاصيل الذي يعمدها الناس ، خطأ ،
صفائر - فليس ثمة وقائع صغيرة في الانسانية ، وليس ثمة اوراق صغيرة
في الحياة النباتية - لا تخلو من غناء . إن ملامح السنين هي التي تشكل
وجه الاجيال والقرون .

في هذه السنة ، ١٨١٧ ، مثل أربعة من الشبان الباريسيين و مهزلة
حلوة .

٢

رباعية مزدوجة

كان احد هؤلاء الباريسيين من تولوز ، والثاني من ليسوج ، والثالث
من كاهور ، والرابع من مونتأوبان ، ولكنهم كانوا تلامذة . وحين
نقول و تلميذ ، فكأننا قلنا « باريسي » ، فلأن يدرس المرء في باريس
يعني انه وُلد في باريس .

وكان هؤلاء الشبان قافئين ؛ ولقد عرف كل منا مثل هؤلاء
الاشخاص . وإن اول اربعة منهم لينهضون غماذج لهم جميعاً . إنهم ليسوا
صالحين وليسوا طالحين ، ليسوا علماء وليسوا جهلة ، ليسوا موهوبين
وليسوا مغفلين ؛ إنهم شبابٌ أغرّ في نيسان الحياة الفائق ذاك الذي
ندعوه سنّ العشرين . كان كل منهم « اوسكار » * ، لأن طبقة « آرثور » **

* اشارة الى اوسكار الاول ملك السويد وزوج (١٧٩٩ - ١٨٥٩) ، وقد

ولد في باريس وتولى العرش من عام ١٨٤٤ - ١٨٥٧

** اشارة الى وايتفون الوارد ذكره في احدى حاشيتي الصفحة التالية .

لم تكن قد وجدت بعد . « أحرقوا على شرفه طيب جزيرة العرب » ، هكذا كانت تصيح الاغنية . « اوسكار يقرب ! اوسكار ، أنا على وشك ان اراه ! » كان أوسيان * هو الذي الشائع ، وكانت الاثاثة اسكتلندية وأسكتلندية ؛ أما الضرب الانكليزي المحض فلم يَسُدْ إلا في ما بعد ، وكانت قد انقضت على انتصار اول الآرثوريين ، ولينفتون ** في واترلو فترة قصيرة ليس غير .

كان اول هؤلاء « الأوسكارات » يدعى فيلكس تولوميس ، من تولوز ، وكان ثانيهم ليستولييه ، من كاهور ؛ وكان ثالثهم فامول ، من ليموج ؛ وكان آخرهم بلاشوفيل ، من مونتأوبان . وكان لكل منهم حبيته طبعاً . أما بلاشوفيل فقد تعشّق فافوريت ، وقد دعيّت بهذا الاسم لانها سافرت ذات يوم الى انكلترة . وأما ليستولييه فأحبّ داهليا التي اتخذت من اسم احدى الزهرات اسماً مستعاراً لها . وأما فامول فكان يعبد زيفين ، مصقر جوزيفين . وأما تولوميس فكانت صاحبه هي فانتين ، المسماة بالشفراء ، بسبب من شعرها الجميل المشبه لونه لون الشمس .

كانت فافوريت ، وداهليا ، وزيفين ، وفانتين اربع فتيات فانتات ، متآلات منضوحات بالعطر ، ما تزال تبدو عليهن سيا العاملات لانهن لم يهجرن شغل الابرة نهائياً ، قد أثارنهن شؤون الحب ولكنهن احتفظن على وجوههن بصفاء العمل ، واحتفظن في نفوسهن بزهرة الطهر التي تعمّر عند النساء الى ما بعد السقوط الاول . كانت واحدة من الفتيات

* Ossian شاعر اسكتلندي من اهل القرن الثالث الميلادي . تنسب اليه مجموعة من الاغاني الشعبية . وقد نشر له في عام ١٧٦٠ ديوان من الشعر المكتيب لهما رواجاً كبيراً وترك اثراً عميقاً في الادب الرومانتيكي .

** Arthur Wellesley , duc de Wellington القائد الانكليزي الشهير (١٧٦٩ -

١٨٥٢) الذي قاد الجيوش المتحالفة ضد فرنسا فهزم نابليون في معركة واترلو سنة ١٨١٥ .

الاربع تدعى الطفلة ، لأنها كانت صفراء ، وكانت واحدة اخرى تدعى المعجوز . وكانت المعجوز في الثالثة والعشرين من العمر . ولكي لا نخفي شيئاً ، نقول ان الثلاث الأوليات كن أكثر اختباراً ، واشد لا مبالاةً ، واعظم انغماساً في ضجيج الحياة من فانتين - الشقراء - التي كانت ما تزال في أحلامها الاولى .

ولم يكن في ميسور داهليا ، وزيفين ، وبخاصة فافوريت ، أن يزمن أنهن يُشبهن فانتين من هذه الناحية . فقد كان ثمة أكثر من حادثة واحدة في روايتهن التي ما كادت تبدأ ، وكان الحب الذي يدعى ادولف في الفصل الاول يصبح الفونس في الفصل الثاني ، وغوستاف في الفصل الثالث . إن الفقر والدلال لمستشاران مشؤومان . إن احدهما يؤنب ، والآخر يُطري . وإن قتيات الشعب الحناوات ليجدن المستشارين جميعاً يسهان في آذانهن ، كلٌ من ناحية . وتصفي نفوسهن غير المصونة الى هذا المس ؛ ومن هنا هاوية السقوط التي يتودّين فيها ، والحجارة التي يُرجمن بها . إنهن يُسحقن بالبهائم الذي ينطوي عليه كل ظاهر غير النال . وأسفاه ! هل عرفت الـ « يونغفراو » ؟

وأعجبت زيفين وداهليا بفافوريت لأن الايام اتاحت لها السفر الى انكلترة . كان لها وهي بعد في سن مبكرة جداً بيت خاص بها . وكان ابوها استاذاً معجوزاً قاسياً متبجحاً من اساتذة الرياضيات . إنه لم يتزوج قط ؛ وكان منغمساً في الملذات برغم أنه العالية . لقد رأى ذات يوم من ايام شبابه الى ثوب احدى الخاديمات يعلق بجاذب الموقد ، فوقع في حبها إثر هذا الحادث . وكانت فافوريت هي الشرة . وكانت تلقي بين الفينة والفينة بأبيها فيرفع لها قبعته . وذات صباح وفدت على

• Jungfrau ، لفظة ألمانية تعني « المذراء » وهي عكس على اسم الاله البالغ ارتضاعها قديماً .

منزلهما عجوزاً تبدو على وجهها سمة التعصب للدين وسألتها : « الا تعرفيني ، اينها الالة ؟ » - « لا . » - « أنا أمك . » وفي الحال فتحت العجوز خزانة الطعام ، فأكلت وشربت حتى الشبع ، واستقدمت فراشاً كان لها ، واقامت هناك . وكانت هذه الأم ورعة كثيرة التذمر ، ولم تتكلم قط مع فافوريت . لقد سلخت عدة ساعات من غير ان تنبس ببنت شفة . لقد تناوت طعام الفطور ، وطعام الغداء ، وطعام العشاء ، وكأنها اربعة اشخاص ، وهبطت لتستقبل الضيوف في كوخ البواب ، وتذمر ابنتها وتطمئن عليها .

وكان الذي جذب داهليا الى لستوليه ، وربما الى غيره ايضاً ، والى البطالة ، اظاferها الوردية الجميلة . كيف السبيل الى حمل تلك الاظافر على العمل ؟ إن تلك التي ترغب في الاحتفاظ بفضيلتها ينبغي ان لا تأخذها الثقة على يديها . اما زيفين فكانت قد غزت فؤاد فامول بطريقتها المتردة المتوددة ، في قول كلمة : « نعم ، يا سيدي . »

كان الشبان الاربعة اصدقاء ، وكانت الفتيات الاربعة صديقات . إن مثل هذا الضرب من الحب ليكون 'مردفاً دائماً' بمثل هذه الصداقة .

إن الحكمة والفلسفة شيان مختلفان . والدليل على ذلك ان فافوريت ، وزيفين ، وداهليا كنّ ، بعد إبداء جميع التحفظات المتصلة بهذه الأسر الصغيرة الشاذة ، فتيات فيلسوفات ، وان فانتين كانت فتاة حكيمة .

وقد ينسأل متسائل : حكيمة ؟ وتولوميس ؟ ولو قد وُجّه السؤال الى سليمان لإذن لأجاب قائلاً إن الحب جزء من الحكمة . أما نحن فكنتني بالقول إن حب فانتين كان حباً اول ، حباً وحيداً ، حباً خالصاً .

كانت هي وحدها ، من بين الصديقات الاربعة ، التي لم يدلبها قط غير رجل واحد .

كانت فانتين واحدة من اولئك المخلوقات المنتزعة من قلب الشعب .
وماذ قد انبثقت من أعماق الظلمة الاجتماعية التي لا يُسبر غورها ، فقد
حملت على جبينها آية الغنفل والمجهول . لقد رأت النور في « مونتروي
سور مير » . من كان ابواها ؟ من يدري ؟ إنها لم تعرف قط لا اباه
ولا أمها . لقد سُميت فانتين لماذا ؟ لأنها لم تُعرف قط بأي
اسم آخر . ويوم «ولدت» ، كانت حكومة الادارة لا تزال قائمة . ولم
يكن لها اسم أسرة ، إذ ما كانت لها أسرة ما . ولم يكن لها اسم
معمودية ، لان الكنيسة لم تكن عندئذ هناك . لقد سُميت وفقاً لمشيئة
اول عابو سبيل عثر عليها ، وهي بعد صغيرة جداً ، هاتمة في الشوارع .
لقد تلقت اسمها كما تلقت ماء السحب الكثيفة الذي سقط على جبينها
عندما هطل المطر . لقد دُعيت فانتين . إن احداً لم يعرف عنها ايما
شيء آخر . تلك هي الطريقة التي وفدت بها هذه المخلوقة البشرية الى
الارض . وفي العاشرة من العمر ، غادرت فانتين المدينة ، وراحت
تعمل في خدمة زراع الضواحي . وفي الخامسة عشرة شخصت الى باريس « بجناً
عن الحظ » . كانت فانتين جميلة ، واقد احتفظت بظهرها ما وجدت
الى ذلك سيلاً . كانت شقراء مليحة ذات أسنان جميلة . كان عندها
تهر من الذهب واللؤلؤ . ولكن ذهبها كان على رأسها ، ولؤلؤها
كان في ثغرها .

لقد اشتغلت لتعيش . ثم احبت لكي تعيش ايضاً ، لأن القلب
جوعه كذلك .

لقد احبت تولوميس .

كان ذلك ، عنده ، عشقاً عابراً ، ولكنه كان عندها هياماً . لقد
شهدت شوارع « الحي اللاتيني » - التي تعج بالطلبة والفتيات المرنديات
ابراداً خفيفة شهباء - بداءة هذا الحب . وهناك ، في متاحف هضبة
البانتزيون ، حيث توثق وتنقسم كثير من العُرى ، كانت فانتين تجتنب

تولوميس فترة طويلة ولكن لتعود بعداً فلتلقيه من جديد . إن ثمة طريقة في الاجتناب هي اشبه ما تكون بالبحث والالتماس . وبالاختصار ، فقد علقت حبالها بحباله .

وَأَلَّفَ بلاشوفيل ، وليستوليه ، وفامول زمرة^{*} كان تولوميس على رأسها . لقد كان هو عقلها المدبّر .

كان تولوميس تلميذاً عتيقاً من الطراز القديم . كان غنياً ، يملك دخلاً مقداره اربعة آلاف فرنك . اربعة آلاف فرنك : فضيحة رائعة فوق جبل سان جانفيف ! وكان تولوميس في الثلاثين من عمره ، منغمساً في اللذات مفرطاً في ذات صحته . كان متغضن البشرية ، مهتم الانسان ، وكانت أمارات الصلع قد شرعت تبدو عليه ، فهو يشير الى ذلك في مرج قائلاً : « الجمجمة في الثلاثين والركبتان في الاربعين . » كان يشكو سوء الهضم ، وكانت له عين راشحة . ولكن مرجه كان يزداد اتقاداً كلما خد شبابه . لقد استعاض عن اسنانه بالايماوات الجوفية ، واستعاض عن شعره بالمرح ، واستعاض عن صحته بالسخرية ، وكانت عينه الراشحة ضاحكة ابدأ . كان متهدماً ، ولكنه مثقل بالازهار . كان شبابه الداوي قبل الأوان يتقهقر في انتظام ، وينفجر بالضحك ، غير متكشف الا عن نار مشبوبة . لقد قدّم الى مسرح ال « فودفيل » رواية ثشيلة فرفضت . وكان ينظم الشعر بين الفينة والفينة في شتى الموضوعات . وفوق ذلك ، فقد كان يرتاب في كل شيء بشموخ وتعالٍ ، وتلك قوة عظيمة في أعين الضعفاء . واذن فقد كان ، بوصفه ساخراً وأصلع ، هو رئيس الزمرة . ان كلمة Ironie * انكليزية معناها الحديد ، فهل يكون الحديد هو الاصل الذي اشتقت منه لفظة السخرية ؟

وذات يوم انتهى تولوميس بالثلاثة الآخرين ، وقال لهم في إيماءة

* يحسن بالتاريء ان يعرف ان كلمة Ironie أو Irony تبدد في الفرنسية والانكليزية معنى السخرية والتهكم .

وقور :

- « منذ سنة تقريباً وفانتين ، وداهليا ، وزيفين ، وفاهوريت
يلتمس منا ان نؤتم اليهن مفاجأة . واقد وعدناهن بذلك وعداً جازماً .
وهنّ ما برحن يذكرّنا بالوعد ، وبذكرّني أنا به بخاصة . وكما
تخاطب النسوة المعجّات في نابولي القديس جانففيه * صانحات :
Faccia gialluta fa o miracolo « أيها الوجه الاصفر ، إجتوح معجوزتك ! » كذلك
تقول حاننا في غير انقطاع : « تولوميس » متى ستك مفاجأتك ؟
وفي الوقت نفسه فإن آباءنا يكتبون اليها . فلنصب عصفورين بحجر
واحد . لقد آن الاوان فيها يبدو لي . فلنتحدث في ذلك . »
وهنا خفض تولوميس صوته ، ونطق على نحو غامض بشيء ما جن
الى درجة اطلقت من الحناجر الاربعة ، في وقت معاً ، قمحة حاسية
متطاولة ، وجعلت بلاشوفيل بصيح :
-- « يا لها من فكرة ! »

وتبدّت لهم حانة ، فدخلوها ، وضاعت بقية حديثهم في ظلامها .
وكانت غرة هذه الظلمات حفلة فاتنة اقيمت يوم الاحد التالي ، عندما
دعا الشبان الاربعة الفتيات الاربعة .

٣

اربعة إزاء اربع

من الامير على المرء ان يتصور ، اليوم ، نزهة ريفية من تلك التي
كان يقوم بها الطلاب والفتيات منذ خمس واربعين سنة : فلم تبق
لباريس ضواحيها السابقة عينا ، ولقد تغير وجه ما يمكن ان ندعوه

« راعي مدينة نابولي » وقد استشهد سنة ٣٠٥ م .

« الحياة حول باريس » تغيراً كاملاً خلال نصف قرن . فبدلاً من العربدة الجافية ذات الجواد الواحد أصبح عندنا الآن عربة السكة الحديدية ، وبدلاً من المركب الصغير أصبحنا نشاهد الفينة البخارية . نحن نقول فيكان * اليوم ، كما كانوا يقولون - ان كلو ** آنذاك . إن باريس ١٨٦٢ مدينة " ضواحيها فرنسة " كلها .

واستمع الأزواج الأربعة ، في دقة بالغة ، بجميع ضروب الطبش والحماقة التي كانت ميسورة آنذاك . كانوا في مسهل العطلة ، وكان اليوم يوماً حاراً صافياً من أيام الصيف . وفي الليلة السالفة ، كانت فافوريت - وهي وحدها التي تعرف الكتابة من بين الرفيقات الأربع - قد كتبت الى تولوميس رسالة قالت فيها باسم صواحبها جميعاً : « من حسن الطالع ان نطلق باكراً . » من اجل ذلك نهضوا في الساعة الخامسة صباحاً ثم امتطوا العربة الى سان كلو ، ورأوا الى الشلال الجاف وصاحوا : « لا بد ان يكون هذا جميلاً جداً حين يحفل بالماء ! » وتناولوا الفطور في « الرأس الأسود » ، ولم يكن كاستين *** قد مرّ بذلك المكان بعد ، ومتعوا النفس بلعبة الخواتم في مربع الحوض الكبير ، وصعدوا الى مصباح ديوجين ، وجعلوا 'بكرتون' الحلوى ذات الاقراص المدورة فوق جسر سيفر ، وجمعوا باقات الزهر في بوتو ، واشتروا صفارات القصب في نوي ، واكلوا حلوى التفاح في كل مكان ، وكانوا على غاية السعادة .

وهذرت الفتيات وثرثرن كالطير المفردة أطلقت من اقفاصها . كنّ نشاوى بالابتهاج . وبين الفينة والفينة كنّ يداعبن وفاقهن الشبان بضربة صغيرة بالكف . ذلك غلّ الحياة في فجرها ! سنوات خليك بها ان

* Fécamp ثمر واقع على بحر المانش .

** Saint - Cloud وتقع على نهر السين ، على مسافة ثمانية كيلو مترات من فرساي .

*** Castaling طيب فرنسي 'عرف بأفاده للاخلاق . (١٧٩٧ - ١٨٢٣) .

تُعَبِّد ! إن اجنعة اليعاسيب لترتجف ! أوه ، ألا تزال ، كائناتاً من كنت ، تذكر أيامك الماضية ؟ هل قدر لك ان تمشي في الادغال ، راداً الاغصان ليكون في ميسور الوجه الجميل السائر خلفك ان يتابع ميله ؟ هل قدر لك ان تنزل ضاحكاً من فوق منحدر بلله المطر ، وقد شدت بك الى الورا يد امرأة تحبها ، وانشأت تصبح : « أوه ، حذائي الجديد ! الى اية حالة قد انتهى ! »

ولنسرع الى القول ان هذا العائق البهيج ، المطر ، لم يُسعف الزمرة الانسية المرححة على الرغم من ان فافوريت كانت قد قالت ، لحظة انطلقوا ، في جرس استاذي أمومي : « ان البزاق يتزده في المرات . وهذه علامة المطر ، يا ابنائي . »

كانت كل من الفتيات الاربع جميلة الى حد يفق العقول . وكانت ميسو دو لا بوييس - وهو شاعر كلاسيكي عجوز طيب من مشاهير الادباء آنذاك ورجل ساذج كانت في حياته ايليونورا * - كان يهيم على وجهه ذلك اليوم تحت شجرات الكسناء في سان كاو ، فراحن في طريقه في نحو الساعة العاشرة صباحاً فصاح وهو يفكر في « آلهات الملاحه » ** : « ولكن ههنا واحدة اضافية ! » وكانت فافوريت ، صاحبة بلاسوفيل ، « العجوز » ذات الثلاثة والعشرين ربيعاً ، تعدو امامهم تحت الاغصان الحضر العريضة ، وتقفز عبر الحفر ، وتنب في جنون من فوق شجرات العليق ، حاملة لواء المرح بمثل حياء آله شاب من آله الاحراج الرومانيين . أما زيفين وداهليا اللتان حبسهما المصادفة

* في المصادر ان ايليونورا دو غويين تزوجت عام ١١٣٧ من ملك قرنة لويس السابع الصغير الذي ما لبث ان طلقها عام ١١٥٢ إثر الفضائح التي حفلت بها حياتها الخاصة . فتزوجها هنري بلاغنيث الذي اصبح ملك انكلترا سنة ١١٥٤ واغلب الظن ان المؤلف يشير هنا الى هذا المعنى .

** Les Graces عند الاغريق ، وهن آلهات ثلاث تذهب الاسطورة الى انهن

يمتدّن كل ما في الجمال من نقة . وهن Aglaé و Thalie و Euphrosine .

بضرب من الجمال كان يسو ويتكامل بالمغايرة فلزمت احدهما الاخرى بدافع من غريزة الغنخ والدلال اكثر بما فعلنا ذلك بدافع من الصداقة ، وانعطفت احدهما على الاخرى في اوضاع انكليزية . كانت الالبومات التذكارية التي اعتاد الشباب والشابات تبادلها في ذلك العصر قد شاعت منذ فترة قصيرة ، وكانت الكتابة زياً شائعاً عند النساء ، كما كانت البايرونية * بعد ذلك عند الرجال ؛ وكانت غداثر الجنس الرقيق قد بدأت تسقط متأثرة . كانت زيفين وداهليا قد زينتا شعرهما على نحو دائري ملتف . واستغرق لستوايه وفامول في نقاش حول اساتذتهما ، وراحا بشرحان لفاتنين الفرق بين ميسو ديلفينكور وميسو بلوندو .

وبدا بلاشوفيل وكأنه خلق خصيصاً ليحمل على ذراعه ، يوم الاحد ، سأل فافوريت الشبه لونه بلون الاوراق الميتة .

وتبعهم تولوميس ، مهيناً ، ميطراً على الزمرة . كان مبتهجاً جداً ، ولكن كان في ميسور المرء ان يستشعر فيه السلطان . كان ثمة ديكتاتورية في جذله . وكانت حليته الرئيسية بنطلونا من نيج قطني أصفر مفصل على طريقة رجل القبل ، مع سير يُربط تحت النعل ذي جديلة بلون النحاس . كانت في يده عصاً ضخمة من أسل الهند تبلغ قيمتها مئتي فرنك . واذا لم يحرم نفسه شيئاً ، فقد كان في فمه شيء غريب يدعونه سيجاراً . واذا لم يكن ثمة شيء مقدس عنده ، فقد أنشأ يدخن .

وقال الآخرون في إجلال :

— « ان تولوميس هذا مذهش . أي بنطلون ! أية قوة ! »
أما فاتنين فكانت المرح عينه . كان واضعاً ان الله قد عهد الى

* اي التزعة الرومانتيكية التي عرف بها الشاعر الانكليزي اللورد بايرون والسبق كثيراً ما استوحاها الرومانتيكيون الفرنسيون .

اسنانها الرائعة في مهة واحدة ، هي الضحك . كانت تحمل في يدها ،
 اكثر مما تحمل على رأسها ، فبعتها الصغيرة من القش الخيط ، ذات
 الاشرطة الطويلة البيضاء . وكانت غداؤها الكثيفة الشقراء ، النزاعة الى
 التنوع والمتحررة في سهولة من عفالاتها بحيث تكرهها على ان 'تحكم وثاقها
 على نحو موصول - كانت هذه الفدائر تبدو وكأنها جعلت لفرار
 غالاتيا * تحت الصفاف . وكانت شفتاها الزهراوان تثرثران في سحر .
 وكانت زاويتا فمها المرفوعتان على نحو شهوي مثل افئدة اريغون **
 العتيقة ، تدوان وكأنهما تشبعان الجراءة . ولكن اجفانها الطويلة الظلية
 انخفضت في رزاة نحو الجزء الادنى من وجهها وكأنما تريد ان تكبح من
 نزاعها المرحه . وكانت زينتها كلها متناغمة ساحرة الى حد يمنع على الوصف .
 كانت ترتدي ثوباً رقيقاً 'خَبَازِي' اللون ، وحذاء ذا نعل عال أسمر
 ذهبياً تصالب شريطاه فوق جوربيها الرائعين البضاوين المثقوبين ، وكان
 ذلك الضرب من الـ 'سبنسر' *** المتخوع في مرسيليا والذي يدعى
 كانيزو Canesou - وهي تحريف لكلمتي Quinze Aout **** في اللهجة
 الكاتالونية ***** - يعني الجو البديع ، والدفء ، والظهيرة . أما
 القبتات الثلاث الاخريات ، وكن أقل خبلاً كما ذكرنا ، فارندن
 ملابس تكشف عن العنق واعلى الصدر ، ومثل هذه الملابس يكون في
 الصيف ، وتحت القبتات المفطاة بالرياحين ، ناضجاً بالملاحه والدلال .

* Galatée حورية من حوريات الماء الاسطورية أحبا يوليوس . ولكنها آثرت عليه
 « آميس » الراعي ، وذات يوم فاجأها السلاق فحق رأس منافه بصخرة .
 ** Erigone اريغون في الميثولوجيا ، عذبة بانخوس الاله الحمر ، وقد تحولت لكي
 ينوبها ، ال صفود صب .
 *** غرب من الواب البناء يكون ضيقاً عادة . وهو ينسب الى شريف برطاني
 يدعى الايرل سبنسر (١٧٨٢ - ١٨٤٥)
 **** أي الخامس عشر من آب .
 ***** نسبة الى Canabière ها وهو شارع جميل في مرسيليا .

ولكن الى جانب هذا التبرج الجريء بدا « كانيزو » فانتين الشراء ،
 بشفافيته وإفشائه لما دونه وسقوه له - فهو كاشفٌ حاجبٌ في آن معاً -
 وكأنه مدعاة الى الاحتشام ثمرة من عند الله . ولقد كان خليقاً
 بيلاط الحب الشهير ، يرثيه الفيكونت دو سين ذو العينين الخضراوين
 كمثل خضرة البحر ، ان يخلع جاوذة الفنج على هذا الـ « كانيزو » الذي
 خاض المعركة طمعاً في الفوز بجائزة العفة . إن أبسط الاشياء هو في بعض
 الاحيان أحفلها بالحكمة . كذلك تجري الأمور .

وجه مشرق ، صورة جانبية دقيقة ، عينان عميقتا الزرقه ، اجفان
 كثيفة ، قدمان صغيرتان مقوستان ، معصمان وعقبان مغلفة تغليفاً
 رائعاً ، بشرة ناصعة تتم هنا وهناك عن اشكال الازودة اللازوردية ،
 وجة طفلية نضرة ، عنق قوية كعنق جينو * ، قفا عنق ثابت
 لدن ، ركتفان كأنما نحتهما كوستو ** في وسطهما حفيرة شهوية
 تتواءم من خلال الشاش الموصلية ، بهجة مصقولة بالاحلام ، نقشة
 سائقة - كذلك كانت فانتين ؛ ولقد كان في ميسور المرء ان يكتشف
 تحت هذا الثوب وهذه العصاب تماثلاً ، وان يشعر في هذا التمثال
 ووحاً .

كانت فانتين حناء من غير ان تعي ذلك كثيراً . والحق ان
 اولئك الحالمين القلائل ، كهنة الجمال المحاطين بالاسرار ، الذين يقارنون
 في صمت ما بين الاشياء كلها وبين الكمال ، كان في ميسورهم ان
 يلحوا في هذه المعاملة ، من خلال شفافية الملاحه الباريسية ، ذلك
 التطريب المقدس العريق في القدم . لقد كان لأبنة الظلام هذه نسب .

* Juno في الميثولوجيا الرومانية ، إلهة رومانية قديمة ، كانت زوجة جوبيتر ،
 والمهيمنة على شؤون الزواج والنساء . وهي تقابل « حيرا » عند الاغريق .

** Coustou اسم أسرة فرنسية شهيرة في تاريخ النحت ، وقد أطلت ثلاثة نحاتين معروفين
 اولهم لثولا كوستو (١٦٥٨ - ١٧٣٣) ووليم كوستو الاب (١٦٧٧ - ١٧٤٦)
 ووليم كوستو الابن (١٧١٦ - ١٧٧٧)

كانت غلك ضربيّ الجمال جميعاً : النمط والايقاع . النمط هو شكل
المثل الاعلى ؛ والايقاع هو الحركة .

لقد قلنا ان فانتين كانت هي المرح . لقد كانت فانتين ايضاً
هي الحياة .

ذلك بأن المراقب القادر على ان يدرسها في انتباه خليق بأن يقع
من خلال نشوة العمر هذه ، ونشوة الموسم ، ونشوة الحب كلها على تعبير
لا يُقهر من التحفظ والاحتشام . لقد ظلت منذهولة بعض الشيء .
وهذا الانذهال العفيف هو الظل الذي يفصل بينه * عن فينوس .
كانت لفانتين اصابع الكاهنة في هيكل فتا ** ، تلك الاصابع الطويلة
الممزولة البيضاء التي تثير رماد النار المقدمة بقضيب ذهبي . وعلى الرغم
من انها ما كانت لتضنّ على تولوميس بشيء ، كما نستطيع ان نرى في
وضوح ، فقد كان وجهها ، في الهدأة ، بالغا للغاية في البتولية . كان
ضرب من الوقار الجدي ، الذي يكاد يكون كالحاً ، يربن عليه فجأة في
بعض الاحيان ، وما كان شيء اغرب ولا ادعى الى القلق من ان يرى
المراء الى الابتهاج تحدد جذوته هناك في مثل هذه السرعة ، والى التفكير
يختلف الجدل من غير ما مقدمة او تهديد . وكانت هذه الرصانة المفاجئة
المؤكدة على نحو عنيف احياناً ، تشبه ازدراء الالهة من الآلهات .
وكان جبينها ، وانفها ، وذقنها تُبرز توازن الخطوط ، المختلف كل
الاختلاف عن توازن الثَّـب ، الذي يحدث تناغم الملامح . وفي الفاصل
المميز لها جداً ، والذي يفصل قاعدة الانف عن الشفة العليا ، كانت لها
تلك الثنية الفاتنة غير الملحوظة - وهي آية غامضة على الطهر - التي

* Psyché في الاساطير انها فتاة كانت على جبال عظيم ، حتى لقد احبها الحب .
وحسبها ترمز الى مصير الروح الساطلة التي تحدد دائماً ، اثر مصائب منمودة ،
بالحب الالهي .

** Vesta إلهة النار عند الرومان . وهي تقابل هيبا عند الاغريق .

أوقعت يرباروسا * في حب ديانا ، ** وجدها في اطلال
ايقونيوم ***
الحب خطيئة . فليكن . لقد كانت فانتين هي البراة تطفو على
سطح هذه الخطيئة .

٤

تولوميس مبتهج الى درجة تحمله على انشاد اغنية اسبانية

كان ذلك اليوم مشرقاً بأشعة الشمس من بدايته الى نهايته ، فقد بدت
الطبيعة وكأنها انطلقت كلها في عيد . وكانت رياض سان كلو عابقة
بالعير . وفي رفق ، موجت نسائم السين اوراق الاشجار . كانت الاغصان
تحدث مكثرة من الاشارات في وجه الريح . وشت النحل غاراتها على
الياسمين . وكانت جهرة من الفراشات قد حطت وحالها على زهرات
القنديل ، والبرسيم ، والشوفان البري . لقد غزا حديقة ملك فرنة
الفخية حشد من المشردين : العصافير .

وتألق الأزواج المبتهجون الاربعة ، متناغمين مع اشعة الشمس ،
والازهار ، والحقول ، والاشجار .

وفي هذه الجماعة الفاتحة منها روائع الجنة ، الجماعة اللاغية ، المغنية ،
الراكضة ، الراقصة ، المطاردة للفراشات ، الجامعة للتبلاط ، المبللة

* أمير البحر التركي الشهير الذي قاد اساطيل سليم الاول وتوفي عام ١٥٤٦

** الالهة رومانية ، بنت جوينير ، واخت ابولو .

*** توبة التركية .

جواربها الوردية المثقوبة بالعشب العالي ، النضرة ، المجنونة ، وإن تكن غير شريرة ، اختلس كل ، بين الفينة والفينة ، القبلات من كل ، ما خلا فانتين التي كانت متحصنة في مقاومتها الغامضة ، الذاهلة ، العنيفة ، والتي كانت عاشقة . وقالت لها فافوريت :

.. « انت دائماً منحرفة المزاج . »

تلك هي المباحج الحقيقية . إن هذه المقاطع في حياة الشباب السعيدة هي نداء عميق للحياة والطبيعة ، وهي 'تفجر الوداد والضياء من كل شيء' . لقد كانت في غابر الايام جنينة انشأت المروج والاشجار خصيصاً للعاشقين . ومن هنا مدرسة المحبين السرمدية هذه ، القائمة وسط الفياض ، والمفتوحة الابواب ابدأ ، والتي سوف تعمّر ما دام ثمة ادغال وتلاميذ . ومن هنا شعبية الربيع عند المفكرين . إن العظيم والحقير ، والدوق والامير ، والفلاح ، ورجال البلاط ، ورجال المدينة ، كلهم - كما كانوا يقولون في العهود القديمة - خاضعون لسلطان هذه الجنة . إنهم يضحكون . انهم يلتسمون بعضهم بعضاً . إن الهواء يبدو طافحاً باشراق جديد . أيّ تحول في الصورة 'يمجدته الحب ! إن الكتاب العدول ليصبحون آلهة . وإن الصيحات الصغيرة ، والمطارادات وسط الاعشاب ، والحصور التي تطوق خلعة ، وهذه الرطانات التي هي نغمات ، وهذا الهيام الذي يتفجر في مقطع من كلمة ، وحبات الكرز هذه التي ينتزعها ثم من ثم ، كل اولئك يلتصق ويتحول الى ايجاد سماوية . إن الفتيات الحاسنات لينتحن فتنهن في اسراف عذب . وان المرء ليتوهم انها لن تنضب ابدأ . ويرى الفلاسفة ، والشعراء ، والرسامون الى هذه النشوات الوجدية كلها ولا يدرون ما يصنعونه بها . إنها باهرة الى هذا الحد !

الرحيل الى سينر * ! كذلك يصبح واتو . ** أما لانكويه *** ،
رسام العامة ، فيتأمل بورجوازيه المخلّفين في السماء . على حين يفتح
ديدرو ذراعيه لجميع هؤلاء العشاق ؛ ويقترنهم دورفيه ****
بالـ « ذرويند ، *****

وبعد الفطور ، مضى الأزواج الاربعة ليروا ، في ما كان يدعى
آنذاك ساحة الملك ، الى نبتة جيـ بها من الهند حديثاً ؛ نبتة غاب
عنا اسمها في الوقت الحاضر ، وكانت تجتذب باريس كلها آنذاك الى
سان كلو . كانت شجيرة غريبة فاتنة ، طويلة الساق ، ذات اغصان لا
حصر لها دقيقة كالخيوط ، شعاع ، غير مورقة ، مثقلة ببلالين الزهيرات
البيضاء ، بما جعلها شبه ما تكون بشعرٍ مُنسب تناثرت فوقه الرياحين .
وكان يجتشد حول هذه النبتة دائماً جمهرة من المعجبين .

حتى اذا سعدوا بمشاهدتها صاح تولوميس : « انا أقترح ان نستاجر
حميراً . » وبعد مساومة مع سائق حمير ارتدّوا من طريق و قائف ،
و « إيسي » . وفي إيسي كانت لهم مغامرة . ذلك أن الحديقة التي
كانت من قبل ملكاً قومياً والتي كان يملكها آنذاك سمون الجند
و بورغوان ، كانت بمجرد المصادفة مشرعة الابواب . فاجتازوا حاجز
القضبان المشبكة ، وزاروا النامك القزم في كهفه ، وجربوا المفاعيل
الصغيرة العجيبة الخاصة بحجرة المرايا - وهي شرك داعرٍ جدير برجل

* Cythère احدى جزر الارخبيل في شمال غربي كريت . وفي الاساطير اليونانية
انها موقوفة على فينوس التي ولدت من زبد الموج . ولقد غدت سينر ، في هذه
الشعر ، موطن المحبين الرمزي .

** Watteau رسام فرنسي (١٦٨٤ - ١٧٢١)

*** Lancret رسام فرنسي (١٦٩٠ - ١٧٤٣) اشتهر برسومه المذبة الضاحكة .

**** Honoré d'Urfé كاتب فرنسي (١٦٢٦ - ١٦٦٨)

***** Druides هم كهان الغالين ، وكانوا يعقدون اجتماعاتهم في الهواء الطلق ، وفي

النبات . وكانوا يعبدون آلهة عدة ويؤمنون بخلود النفس وتناسخ الارواح .

معنى في الفسوق أمسى مليونياً ، او بد و توركاريه * استعمال الى
 برياب ** - وتأرجعوا في عزم بالارجوحة الكبيرة المشدودة الى شجرتي
 الكتناء اللتين شهرهما الراهب بيرنيس *** وفيما هم يؤرجحون
 الفتيات ، واحدة إثر واحدة ، محدثين بذلك ثابا من التناير كانت
 خليقاً بـ « غروز » **** ان يحدها جديرة بالدرس ، أنشد تولوميس
 التولوزي - وكان فيه شيء من الدم الاسباني ، فـ « تولوز » هي
 ابنة عم « تولوزا » ***** - أنشد في نبوة كثيفة اغنية « غالينا »
 القديمة التي اوحىها الى الناظم ، في ما يبدو ، فتاة صغيرة تأرجحت في
 الهواء بين شجرتين :

*Soy de Badajoz.
 Amor me llama.
 Toda mi alma
 Es en mi ojos
 Porque ensenas
 A tus piernas. ******

* Turcaret كوميديا لـ « لياج » Lesage (١٦٦٨ - ١٧٤٧) كان
 بطلها خادماً ثم غدا من طريق النيب غنياً يتحلق حوله مغامرون اشد إيماناً في
 الاثم منه .

** Priape الآله الجنائ والكرمة والتامل . ابن ديونوس وأفروديت . وهو
 في الاساطير رمز الرجولة والفتوة .

*** de Bernis شاعر وكاهن فرنسي (١٧١٥ - ١٧٩٤)

**** Greuze رسام فرنسي (١٧٢٥ - ١٨٠٥) وهو يتأخر خاصة في رسم
 المشاهد المألوفة ووجوه الاشخاص .

***** مدينة اسبانية في اقليم الباسك او البشكنس .

***** أنا من باداغوز

الحب يناديني .

كل روعي

هي في عيني ،

لأنها تثيران

الى مايلك .

ورفضت فانتين ، وحدها ، أن تتأرجح .

ونغممت فافوريت في شيء من الحدة :

« انا لا احب هذا النوع من التصنع . »

وتوكلوا الخير ، لينصرفوا الى متعة جديدة . وعبروا نهر السين في زورق ، ثم مشوا ، على الاقدام ، من باسي الى « حاجز الأيتوال » . لقد سعوا على أرجلهم ، كما نذكر ، منذ الساعة الخامسة صباحاً ، ولكن فافوريت قالت : « ليس في أيام الاحد تعب . ان التعب لا يشغل يوم الاحد ! » وحوالي الساعة الثالثة ، كان الأزواج الاربعة يسرعون في المهبوط ، وقد دلتهم السعادة ، نحو الجبال الروسية * وهي صرح فريد كان يحتل آنذاك مرتفعات « بوجون » ، وكان في استطاعة المرء ان يلمح منه ذلك الخط الافعواني المستد فوق شجرات الـ « شان زيليزيه » .

وبين الفينة والفينة ، كانت فافوريت تصيح :

« والمفاجأة ؟ انا اريد المفاجأة ! »

فيجبها تولوميس :

« اعتصمي بالصبر ! »

٥

في حانة بومباردا

حتى اذا استنفدوا الجبال الروسية ، فكثروا في الغداء . وجنع السعداء الثمانية ، وقد أصابهم التعب بعض الشيء آخر الامر ، الى حانة بومباردا ، وهي مؤسسة فرعية انشأها في شان زيليزيه ذلك المطعمي « يفعد بالجبال الروسية سلة من المرتفات والمنخفضات الشديدة الانحدار يتزلج عليها المتزلجون .

الشهير ، بومباردا ، الذي كانت لافته تـرى آنذاك فوق شارع ريفولي ،
قرب مجاز دولورم .

كانت قاعة رجة ، ولكنها بشعة ، في ادناها مخدع وسريـر . (كان
المكان يـفص بالرواد يوم الاحد بحيث يتعيـن على بعضهم ان يرتضوا هذا
المأوى) وكانت ثمة نافذتان كان في استطاعة المرء ان يرى منهما ،
خلال شجرات الدردار ، الى الرصيف والنهر . وكانت اشعة رائعة
من شمس آب تمسّ النافذتين متاً رفيقاً . وكانت هناك طاولتان ،
احدهما مثقلة بجبل مظفر من باقات الزهر المختلطة بقبعات الرجال
والنساء ، والاخرى ، وهي التي تـحلق حولها الازواج الاربعة ، مثقلة
بركام بهيج من الصعاف والاطباق ، والكؤوس والزجاجات ، واكواز
الجمعة وقناني الخمر . كان ثمة قليل من النظام فوق الطاولة ، وقليل
من الفوضى تحتها .
يقول مولير :

« انهم يـعدنون تحت الطاولة
ضجة وقرع طبول عجباً بأقدامهم . »

الى هنا كانت الزهرة الريفية التي انطلقت في الحامسة صباحاً قد
انتهت بأصحابها عند الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر . كانت الشمس
تجنح للغروب ، وكانت شهوتهم الى الطعام قد خمدت .
ولم يكن الشان زيليزيه ، الحافل باشعة الشمس وبالناس ، شيئاً
اكثر من ضياء وغبار ، وهما العنصران اللذان يتألف منهما المجد . كان
جوادا مارلي ، * هذا الرخام الصاـهل ، يشبان في غمامة ذهبية .

* Marly موضع على بعد عشرة كيلومترات من فرساي ، قرب نهر السين .
وكان لويس السادس عشر قد انشأ به قصراً فخماً خربته الثورة . وكان « جوادا
مارلي » Chevaux de Marly - وهما ثنتان شيران من عمل النحات ولم كوستو -
يزينان قصر مارلي هذا ثم نقلتا الى الشان زيليزيه .

وكانت العربات تروح ونجى . وكانت كوكبة رائعة من حرس الملك ، تتقدمها الابواق ، تمبط شارع دو نوي . ورفوف العلم الابيض ، الذي خضبه الشمس المختصرة بلون احمر باهت ، فوق قبة التويلري . وكانت ساحة الكونكوردي ، التي عُرفت آنذاك ككرة أخرى ، بساحة لويس الخامس عشر ، تقص بالتزهين المبتهجين . وكان كثير من الناس يحملون زنابق فضية تتدلى من العصائب البيضاء المتوجة التي لم تكن قد اختفت نهائياً ، عام ١٨١٧ ، من عُرى الثياب . وهنا وهناك ، وسط جماعات من عابري السبيل المصفقين ، كانت حلقات من الفتيات تطلق في الهواء لحناً بوربونياً تافهاً ، قصيد به الى ان يفهم الايام المنة ، وكانت لازمته تجري هكذا :

« اعيدوا البنا ابانا الذي في غان *
« اعيدوا البنا مولانا ! »

وكانت حشود من ابناء الأرباض المرتدين ملابسهم الخاصة بيوم الاحد ، المترنين احياناً بالزنابق مثل البورجوازيين ، قد انتشرت فوق الساحة الكبرى وساحة ماريني يلعبون لعبة الخواتم ، ** ويطوفون على متون الحبل الحشوية . وكان آخرون يجذون الحُر . على حين كان نفر قليل ، وهم من عمال المطابع ، يعثمون قبعات من الورق . كان في ميسور المرء ان يسمع صدى ضحكاتهم . وكان كل شيء مشعاً مشرقاً . كان عهداً من السلام الوطيد والسلامة الملكية العميقة - عهداً اختتم فيه آنغلينز مدير الشرطة تقريراً شخصياً وخصوصياً رفعه الى الملك حول الوضع في ضواحي باريس بهذه الاطر : « اذا اخذنا كل شيء بعين الاعتبار ، يا مولاي ، استطعنا ان نقول ان لا خطر البتة من هؤلاء القوم .

* امي الملك لويس الثامن عشر ، وكان قد لجأ ، خلال « الايام المنة » ، الى مدينة غان Gand احدى مدن بلجيكا .

** jeu de bagues من الباب الرشاقة ، وقوامها ان ينتزع الفارس ، بواسطة رمح او سيف ، بعض الحلقات المتدلية ، فيما الجواد منطلق به .

إنهم مهملون متكاسلون كاهرة . وإذا كان العوام من أبناء الولايات قلقين غير راضين فإن عوام باريس ليسوا كذلك . إنهم جميعاً رجال صغار ، يا مولاي ، إذا وضع اثنان منهم واحداً فوق الآخر لم يكادا يشكلان رجلاً من رماة قنابلك . لا ، ليس ثمة ما يُخشى من ناحية سكان العاصمة . وبما يلفت النظر ان هذا الجزء من السكان قد تقاصرت قاماته ايضاً خلال السنوات الخمسين الماضية ، وان أبناء الضواحي الباريسية أضال أجساماً كما كانوا قبل الثورة . إنهم ليسوا خطرين . وبالاختصار ، فإنهم سفة طيبون . »

أما ان من الجائز ان تنقلب الهرة الى أسد فذلك ما لا يعتقده مدراء البوليس بأنه ممكن . وأياً ما كان فقد يقع هذا ، وتلك هي معجزة شعب باريس . وإلى ذلك ، فإن الهرة التي يزدريها الكونت آنغليز الى هذا الحد قد حظيت بأجلال الجمهوريات في العصر الحالية . كانت تجسداً للحرية ، في نظرهم . ولقد كان في ساحة كورنت العامة تمثال ضخم جداً لهرة ما ، فهو يحيل الى المرء ان القوم قصدوا الى جعله ندأً لمينيرفا « بيويه » * غير المجنحة . كانت الشرطة الساذجة ، في عصر لويس الثامن عشر ، تنظر الى شعب باريس نظرة تحفل بالأمل والتفاؤل اكثر مما ينبغي . انهم ليسوا ، بحال من الاحوال ، « سفة طيبين » بقدر ما يُظن . فالباريسي هو بين الفرنسيين ما كانه الاثيني بين الاغريق . إن احداً لا ينام احسن مما ينام هو ؛ إن احداً ليس اكثر منه ولا اصرح طيشاً وكسلًا ؛ إن احداً لا يبدو أيسر نسياناً للاشياء منه ، ومع ذلك فعذار ان نطش اليه . إنه قادر على مختلف ضروب البلادة والتراخي . ولكن ما إن يتبدى له طيف تجدد حتى ينتزع اعجابك بأنواع الاحتمام المجنون كلها . أعطه حربة يعطك يوم

* Pirée ثغر اثينا .

١٠ آب * أعطى بندقية يُعطيك معركة أوسترايتز . إنه مرتكز نابوليون ،
ومعين دانتون * هل الوطن في خطر ؟ إذن ، يتطوع للنضال . هل
الحرية في خطر ؟ إذن ، يقتلع بلاط الشارع . حذار ! إن شعوره
الطافح بالغضب هو ملحمة ؛ إن قميصه ليبدو وكأنه معطف من معاطف
الجند الاغريقي القديم . انتبه ! فعند الزاوية الاولى ، يصنع « غرينيتا »
« شو كات كودية » * * * * * وحين يدق ناقوس الخطر ينمو هذا الرجل
الساكن في الضواحي ، وينهض هذا الرجل الضئيل . عندئذ تغدو
نظراته فظيعة ، ويصبح نفسه عاصفة ، وتنطلق من صدره البائس المهزول
ريح عاتية تقلقل جبال الالب . إن رجل الضواحي الباريسية هو الذي
جعل الثورة ، وقد أفرغت في جيوش ، تفتح أوروبا . إنه يغتني ؛
تلك هي بهجته . وازن ما بين اغنيته وطبيعته ، ثم انظر فما دام لا
يملك غير الكارمانبول * * * * * لازمة غنائية فلن يُسقط غير لويس السادس
عشر . ولكن دعنا ينشد المارشيلياز بجلل العالم .
وبعد ان كتبنا هذه الملاحظة على هامش تقرير آنفليز نعود الى ازراجنا
الاربعة . كانوا قد تناولوا ، كما قد قلنا ، طعام الغداء .

٦

فصل من محبة الذات

إن احاديث المائدة واحاديث الحب لا سبيل الى ان تمسك بها قبضة

* يوم ثار الشعب الفرنسي (١٠ آب ١٧٩٢) ثورته التي انتهت بسجن لويس
السادس عشر وسقوط الملكية .

** Danton احد زعماء الثورة الفرنسية المشاهير (١٧٥٩ - ١٧٩٤)

*** Fourches Caudines وهو مضيق مجاور لكوديوم (مدينة في ايطالية القديمة)

حيث هزم القائد السمني بونتيوس هيرينيوس الجيش الروماني وانزل به ضروب الخف
والاذلال (٣٢١ ق . م) والمقصود انه يعمل عملاً يذل المغلوبين .

**** carmagnole ضرب من الرقص والفناء شاع في اثناء الثورة الفرنسية .

القايض . احاديث الحب سُحُب ، واحاديث المائدة دُخَان .
ودندن فـَامول وداهليا بالأنعام ؛ واحسنى تولوميسى الشراب ؛
وضحكت زيفين ، وابتمت فانتين . ونفع لـِستواليه في بوق خشبي
اشتريَ في سان كار . ونظرت فافوريت ، في حنان ، الى بلاشوفيل
وقالت :

- « بلاشوفيل ، أنا اعبدك . »
فأدى هذا الكلام الى سؤال من بلاشوفيل :
- « ماذا تفعلين ، يا فافوريت ، إذا اقلعتُ عن حبك ؟ »
فصاحت فافوريت : « أنا ! آه ، لا تقل ذلك ، ولو على سبيل
المزاح ! إذا اقلعت عن حبي فسوف ألحق بك . سوف أخدشك . سوف
أشدّ بشعرك . سوف أقذفك بالماء . سوف أحمل الشرطة على ان تلقي
القبض عليك ! »

وابتم بلاشوفيل في الاختيال الخليع الجدير بوجل دُغْدُغ حبّ
الذات عنده . وازافت فافوريت :
- « أجل ، سوف استغيث ! لا ! سوف أصبح مثلاً : وغد ! »
وفي نشوة بالغة ارتدت بلاشوفيل في كرسيه الى الوراء ، وأغمض كلتا
عينيه في زهو .
وممت داهليا ، وكانت لا تزال تأكل ، في اذن فافوريت وسط
الضجة :

- « انت مولعة بفلاشوفيل الى حد بعيد ، اذن ؟ »
فأجابت فافوريت ، بالجرس نفسه ، وهي تمسك بشوكتها من جديد :
- « أنا اكهره . إنه شحيح . انا احب ذلك الفتى الساكن في
المنزل المقابل لمنزلي . إنه شاب ممتاز ، هل تعرفينه ؟ في استطاعة كل
امريء ان يرى انه مُخلق لكي يكون مثلاً ! انا احب الممثلين . إنه
لا يكاد يدخل البيت حتى تصيح أمه : « اوه ، يا الهي ! لقد فقدت

طمأنيتني . ها هو ذا في طريقه الى الصراخ ! إنك سوف تفلق رأسي !
وما ذلك إلا لأنه يطوف في المنزل ويمضي الى العلية ذات الجرذات
والى الزوايا المعتمة ، مصعداً أعلى ما يستطيع ان يصعد ، وهناك يغني
وينشد - ومن اين لي أن اعرف أن في إمكانهم ان يسمعه تحت ؟ إنه
يكسب الآن عشرين « سو » يومياً من طريق كتابة الدعاوى لأحد
المحاميين الصغار . إنه ابن مرثل كنسي قديم في سان - جاك - دو -
هو - با . آه ! انه شاب ممتاز . إنه يحبني الى درجة جعلته يقول لي
ذات يوم ، وكنت اعجن الدقيق لعمل بعض الحلوى : « يا آنسة ،
اجعلي من قفازيك زلاية أسارع الى اكلها ! » ان الفنانين وحدهم هم
الذين يستطيعون ان يقولوا اشياء مثل هذه . أنا على وشك ان اجنّ
بهذا الفتى . لست ابالي . انا اقول لبلاشوفيل إني اعبده . يا لي من
كاذبة ! اوه ، يا لي من كاذبة !

ونمت فافوريت لحظة ثم اردفت :

- « داهليا ، انت تلاحظين أني محزونة . إن هذا الصيف لم يجد
علينا بغير المطر المتواصل . إن الريح تثير عصيتي ؛ وان الريح تشوهني
بالكآف . بلاشوفيل بخيل جداً . ان المرء لا يكاد يجد شيئاً من
الجلبان في السوق . والناس لا يعنون بشيء غير الطعام . أنا استشر السأم
والسويداء كما يقول الانكليز . الزبدة غالية جداً ! وفوق ذلك ، انظري !
إن هذا مخيف . نحن نتناول طعام الغداء في غرفة تحتوي على سرير .
إن هذا يجعلني أقتزز من الحياة . »

٧

حكمة تولوميس

وفي غضون ذلك ، بينا كان بعضهم يتغنى كان سائرهم يتحدثون في

صخب دفعةً واحدة . كان ثمة هدير كامل . واعترض تولوميس صائحاً :
 - « لا تتحدثوا كيفما اتفق ، ولا في سرعة فائقة ! يتعين علينا ان نتأمل
 اذا كنا نرغب في ان نكون متألقين . إن الامعان في الارتجال يجعل الذهن
 فارغاً على نحو احمق . والجمعة الجارية لا تجمع شيئاً من الزبد . ايها
 السادة ، على رسلكم ! امزجوا الجلال بالقصف والابتهاج . كلوا في تأمل
 وتعموا في بطن . لا تتعجلوا . انظروا الى الربيع . اذا اسرع اصابه
 الحراب ، يعني أنه يتجمد . ان الافراط في الاندفاع يقتل شجرات الحوخ
 والشمس . والافراط في الاندفاع يقتل طلاوة الموائد السخية وهبتها . لا
 اندفاع ، ايها السادة ! إن غريمون دو لا رينير هو من رأي تاليوان . »
 فقال بلاشوفيل : « اليك عنا ، يا تولوميس . »

فصاح قامول : « ليقط الطاغية ! »

فهتف ليستوليه : « بومباردا ، بومبانس ، وبامبوش ! » *

فقال قامول : « إن يوم الاحد لم ينته بعد . »

واضاف ليستوليه : « نحن زاهدون في الطعام والشراب . »

فقال بلاشوفيل : « تولوميس ، تأمل هدوتي . » *mon calme*

فاجاب تولوميس : « انت مركيزها . »

وكان لهذا التلاعب اللامبالي بالالفاظ مثل اثر الحبر الذي يُلقى في
 بركة . كان المركيز دو منكالم ** ملكياً من ملكي العصر المشهورين .
 وصمت الضفادع كلها .

وصاح تولوميس في لهجة من استعاد السلطة :

- « ايها الاصدقاء ، التزموا الرصانة . هذه النكتة الجنسية لا
 ينبغي ان تستقبل رغم هبوطها من السماء ، بكثير من الدهش ، وكل

* بومباردا هو صاحب الحانة . وبومبانس Bombance وبامبوش Bamboche تفيدان
 معنى اللصف والتلذذ بالطعام والشراب . وفي ذلك كله تلاعب بالالفاظ واضح .
 ** Montcalm ويبدو الجناس واضحاً بين هذا الاسم وبين قوله في الاسطر
 السابقة *mon calme*

ما يهبط على هذه الشاكلة لا يستحق ، بالضرورة ، الحماة والاحترام .
 النكتة الجناسية هي روث الروح المحلقة . والمزاح الماكن يتساقط في ايام
 مكان . حتى اذا تحررت الروح من حماقتها غاصت في السحب . إن
 الرقعة البيضاء المنبسطة على الصخر لا تحول بين القدر * وبين النجوم
 في الجو . لست انا الذي يزدي النكتة الجناسية وبقها ! أنا أجلها
 على قدر براعتها . إن كل معن في العظمة ، وكل معن في السنو ،
 وكل معن في السحر ، سواء في الانسانية او خارج الانسانية ، قد
 اصطنع التلاعب بالالفاظ . فقد اطلق المسيح نكتة جناسية حول القديس
 بطرس . واطلق موسى نكتة جناسية حول اسحق . وكذلك فعل
 أشيل بيولينيس * وكليوباترة بأوكثافيوس . ولا ننسوا ان نكتة كليوباترة
 هذه سبقت معركة آكتيوم * * * ، وانه لولاها لما استطاع احد أن
 يتذكر مدينة تورين ، وهو اسم يوناني يعني المغرفة . والآن وقد
 حسنا هذه المسألة ، استطيع ان اعود الى موعظتي . ايها الاخوة ،
 اني اكرر : لا اندفاع ، لا ضجة ، لا إفراط ، حتى في النكت ،
 والخبور ، والابتهاج ، والتلاعب بالالفاظ . اسمعوا لي . ليكن لكم
 نصير آمفياراوس * * * * * وجارة قيصر . ينبغي ان يكون ثمة حد
 حتى للألفاظ Est modus in rebus * * * * * ينبغي ان يكون ثمة حد حتى للموائد .
 أنتن تحبين حلوى التفاح ، يا سيداتي ، فلا تفرطن في ذلك . ينبغي أن

* غلاب ضخم طويل الاجنحة شديد التحليق في الفضاء .

** polynice ابن اوديب ، وفي الميثولوجيا اليونانية انه تقاثل مع اخيه ايتيوكل
 Etéocle وان الموت نفسه عجز عن ان يطفى البغضاء بين الاخوين المدوين فوثت
 نيران الخطب تفصل الى قسمين .

** هي المعركة البحرية التي انتصر فيها اوكيافيوس وآغريبا على انطونيوس
 وكليوباترة عام ٣١ ق . م .

*** Amphiarāus عراف لإغريقي شهير .

**** من كلام هوارس الشاعر اللاتيني ومناه : بحسن الاعتدال في كل شيء .

يتعلّى المرء ، حتى حين يأكل حلوى التفاح ، بالحصافة والمهارة . أنت الشرّ يعاقب الشرّ . ولقد عهد الربّ الى سوء الهضم في توبيخ المعدة . واذكروا هذا : لكلّ من أهواننا ، حتى الحب ، معدة ينبغي ان لا تُحمّل فوق ما تطيق . وفي كل شيء ، ينبغي ان نكتب كلمة « انتهى » في الوقت المناسب . يجب ان نكبح جماح انفسنا حين يغدو الامر ملحاً . يجب ان نوصد على شهوتنا بالمفاليق الحديدية ، وأن نزع أهواننا في في السجن ، ونغضي الى محطة البريد . الرجل الحكيم هو ذلك الذي يعرف متى يقف وكيف يقف . ثقوا بي . واذا كنت قد درست القانون بعض الشيء ، كما تثبت امتحاناتي ؛ واذا كنت اعرف الفرق ما بين الدعوى المرفوعة الى المحكمة ، والدعوى التي لما تقطع المحكمة بأمرها ؛ واذا كنت قد وضعت اطروحة باللاتين عن طرائق التعذيب في رومة يوم كان موناتيرس ديمتر قاضياً ينظر في الدعاوى الخاصة بقاتلي آبائهم وأمهاتهم ، واذا كنت على وشك ان اصبح طبيباً في ما يبدو ، فلا يستفاد من ذلك ، بالضرورة ، أنني أبه . أنا أوصيكم بالاعتدال في رغباتكم جميعاً . أنا واثق بأنني اقول قولاً حكيماً ثقني بأن اسمي فيلكس تولوميس . سعيد هو ذلك الذي يتخذ ، عندما تأزف الساعة ، قراراً بطولياً ، ويستقبل مثل سيلّا* أو أوريجين ! ،

وأصفت فافوريت في انتباه عميق . وقالت :

— « فيلكس ! ما اجملها كلمة ! انا احب هذا الاسم . إنه لاتيني .

إنه يفيد معنى الازدهار . »

وأضاف تولوميس :

— « ايها المواطنون ! ايها السادة ! ايها الاصدقاء ! اتريدون ان

لا نشعروا بأي حافز ، وان نستغفوا عن المطبخ الزوجي ، وتحدثوا

* ديكتاتور روماني (١٣٦ - ٧٨ ق . م) وقد استقال سنة

٧٩ ق . م .

الحب ؟ ليس قة ما هو أيسر من ذلك . واليسكم الوصفة : شراب الليمون ، والافراط في الرياضة البدنية ، والعمل الشاق . ارهقوا انفسكم بالتعب ؛ اسحبوا الاثقال ؛ لا تناموا ؛ أطيلوا السهر ؛ اكرعوا الاثربة النظرونية وماء النيلوفر ؛ تخطقوا بمستحلبات الحشخاش وكفـ مريم ؛ تبّلوا ذلك بغذاء خشن ؛ جوعوا انفسكم ؛ وأضيفوا الى هذا الابطواد بالماء ، وأحزمة الاعشاب ، واستخدام طبق رصاصي ، وضروب الفسول * مع سائل ملح الرصاص ، والكمادات مع مزيج من الخل والماء . . فقال ليستولييه : « أنا أفضل امرأة على ذلك كله . »

فأضاف تولوميس : « المرأة ! إحترز من هذا . شقيّ هو ذلك الذي يُسلم نفسه الى قلب المرأة المتقلب ! المرأة خاتلة غادرة . إنها تكره الافعى بحكم التنافس في الصناعة . الافعى هي الدكان المقابل . »

وصاح بلاشوفيل : « تولوميس ! انت سكران ! »

فقال تولوميس : « وحق الشيطان ! »

فأضاف بلاشوفيل : « كن مبتهجاً اذن . »

فأجاب تولوميس : « موافق . »

ثم إنه أترع كأسه ونغض :

— « المجد للخمر ! ** *Nunc , te, Bacche, Canam* عفوآ ، ايتهآ الآنات ،

هذا كلام اسباني . واليكنّ البرهان ، سينيورا : مثل ' هذا الشعب يحتاج الى مثل هذه الدنان . إن « آروب » قشالة مجنوي ستة عشر ليتراً ؛ وقنطار « لقنت » اثني عشر ؛ و « آلودا » جزر الكافاري خمسة وعشرين ؛ و « كوارتن » جزر الباليار ستة وعشرين ؛ و « جزمة » القيصر بطرس ثلاثين . فليحيّ هذا القيصر الذي كان عظيماً ، واتحي جزمته التي كانت أعظم ! ايتهآ السيدات ، إني أسدي اليكنّ نصيحة

* الفسول : ما يُفضل به من الماء . وقد اعتمدناها لتؤدي معنى « لوسيون »

Lotion في افئات الاجنية .

** « والان سأغني لك ، يا باخوس ! » وهو كلام لاتيني وليس اسبانياً .

صديق : إخدعن جيرانكنّ اذا بدأ ذلك حسناً في أعينكنّ . إن خاصة الحب الاولى هي انه يهيم على وجهه . فالحب لم يجعل لكي مجلس القرفصاء ويصيبه الحبل مثل خادمة انكليزية يبتس الفك العنيف ركبتيها . إن الحب اللطيف لم يجعل لهذا ؛ إنه يهيم على وجهه مبتهجاً . لقد قيل : إن الهيام على الوجه ظاهرة إنسانية . أما انا فأقول : الهيام على الوجه ظاهرة عشقية . ايها السيدات ، انا أعبدكنّ جميعاً . اوه زيفين ، اوه جوزيفين ، يا ذات الوجه الاكثر من متجمد ، لقد كنتِ جديرة ان تكوني فاتنة لو لم تكوني عبوساً . ان وجهك اشبه ما يكون بوجه جميل جلس عليه بعضهم خطأ . اما فافوريت ، إيه حوربات الماء وعرائس الشعر ! ففي ذات يوم كان بلاشوفيل يعبر مجرى شارع غورين بواسطه فرأى فتاة حسنة ترتدي جوربين بيضارين مشدودين شداً محكماً ، وكانت تلك الفتاة تكشف عن ساقها . وأعجب بلاشوفيل بهذا الاستهلال ، فوقع في الحب . وكانت تلك التي أحبها هي فافوريت . اوه ، فافوريت ! إن لك شفتين يونانيتين . لقد كان في غابر الزمن رسام اغريقي ، اسمه أوفوريون ؛ وكانوا يلقبونه برسام الشفاء . إن هذا الاغريقي وحده ليستحق ان يصور فك . اسمي ! قبلك لم يكن ثمة مخلوقة جديرة بهذا الاسم . لقد جعلتِ لكي تتلقّي التفاحة مثل فينوس ، او لكي تأكلها مثل حواء . إن الجمال يبتديء بك . لقد تحدثتُ عن حواء ؛ إنك أنتِ التي خلقتها . انت تستحقين ان تمنحي شهادة اختراع المرأة الجميلة . اوه ، فافوريت ، إني انتقل من مخاطبتك بضمير المفرد الى مخاطبتك بضمير الجمع لأنني أنتقل من النثر الى الشعر . لقد تحدثتُ منذ لحظة عن اسمي . لقد أثار ذلك فيّ . ولكن يتعين علينا ، كأئناً من كنا ، ان نحذّر الاسماء . إنها قد تكون خادعة . أنا أدعي فيلكس * ، واست بالرجل السعيد . إن الكلمات لتكذب : فليس ينبغي ان

* نعيد لفظة Felix في اللاتينية معنى السادة واليمن .

نقبل دلالانها قبولاً أعمى . وانه لمن الحطل ان نكتب الى ليبيج *
 التماساً للفلين والى « بو » * التماساً للقفازات . ويا آتنة داهليا ، لو
 كنت مكانك لسميت نفسي روزا * * يجب ان يكون للزهرة سدى ،
 وان يكون للمرأة ذكاء . انا لا اقول شيئاً عن فانتين . إنها متخيلة ،
 حاملة ، متفكرة ، حساسة . إنها طيف له شكل حورية من حوريات
 الماء ، وحياه راهبة تاهت فاتخذت سبيل عاملة مغناج ، ولكنها تقزع
 الى الاوهام ، وتغني ، وتصلي ، وتحدق الى السماء من غير ان تعرف في
 وضوح ما الذي تراه وما الذي تعمله ، وتبه - وعيناها ممرتان الى
 السماء - في حديقة قنظم من الطير أكثر مما يوجد هناك . أوه ، فانتين ،
 اعرفي هذا : أنا ، تولوميس ، وهم - ولكنها لا تسمعي مجرد سماع ،
 هي ابنة الاوهام الشقاء . ومع ذلك ، فكل ما فيها نظارة ، وحلاوة ،
 وشباب ، وضياء صباحي ناعم . أوه ، فانتين ، انت خليقة بأن تسمي
 « مرغريت » * * * أو « لؤاؤة » . انت امرأة ذات لمعان ليس أجل
 منه . ايتها السيدات ، اليكن نصيحة ثانية : لا تتزوجن ابدأ . الزواج
 طعام كالذي تطعم به الاشجار . وقد ينبجج هذا الطعام وقد يحقق ، فاجتنبن
 هذه المغامرة . ولكن ماذا أقول ؟ أنا أضيع كلماتي سدى . إذ لا شفاء
 للنساء من داء الزواج . وكل ما نستطيع نحن الرجال الحكماء قوله لن
 يحول بين صانعات الصدرات ورابطات ساقيات الاحذية وبين ان يحملن
 في ازواج مثقلين بالماس . حسن ، ليكن ذلك . ولكن ، ايتها الحسان ،
 اذكرن هذا : انتن تسرفن في أكل السكر . إن لكن خطيئة واحدة ،
 ايتها النساء ، ليس غير ، هي قضم السكر . أوه ، ايتها الجنس

* « ليبيج » و « بو » مدينتان ، الاولى بلييكية والثانية فرنسية .
 * * اي وردة . و « داهليا » في الامل اسم زهرة نجمة الشكل ، جلة ولكنها غير
 ذات عير .

* * الزهرة المروقة بهذا الاسم . وتدعى ايضاً زهرة اللؤلؤ وزهرة الربيع .

القاضم ، إن اسنانكن الصغيرة البيضاء مدلتها بالسكر . والآن ، انتبهن جيداً ! السكر ملح . وكل ملح يجفف . والسكر أكثر الاملاح تجفيفاً . إنه يمتص سوائل الدم من طريق الأوردة ، ومن هنا ينشأ تخثر الدم ، ثم تصلبه . ومن بعد ذلك يكون السلّ الرئوي ، فالمت . وهذا هو السبب الذي من أجله يتأخم الداء السكري داء السلّ . فلا تقضن شيئاً من السكر ، اذن ، وعندئذ نعشن ! ولا تلتفت الآن الى الرجال . ايها السادة ، عليكم بالفتوح . لينهب بعضهم محبوبات بعضهم الآخر من غير ان تستشعروا وخز الضمير ! اقتنصوا وتقاتلوا ! فليس في الحب اصدقاء . وحيثما توجد امرأة جميلة يفتح باب الحصومة على مصراعيه . لا رافة ولا استبقاء ، ولكن قتال حتى الموت ! المرأة الجميلة هي *Casus Belli* * المرأة الجميلة هي جرم مشهود . إن جميع غزوات التاريخ إنما قوتها تنانير النساء . المرأة هي حق الرجل . فقد سبا رومولوس ** نساء سابيين *** وسبا ولیم **** نساء الكسون ، وسبا قيصر نساء الرومان . إن الرجل غير المحبوب بجوّم كالعقاب فوق معشوقات الآخرين . أما أنا ، فأقدم الى جميع الارامل البائسات الاعلان السامي الذي قدمه نابوليون الى جيش ايطالية : « ايها الجند ، إنكم في حاجة الى كل شيء . وان العدو ليسلك كل شيء . »

وكبح تولوميس جراح نفسه .

وقال بلاشوفيل : « خذ نفسك ، يا تولوميس . »

وفي الوقت نفسه همهم بلاشوفيل ، بإساعده ليستولييه وقامول ، في صوت نادب ، باحدى اغنيات العمال المؤلفة من أولى الكلمات التي ترد على الحاطر ، الغنية بالقوافي والمحرومة منها في وقت معاً ، المجردة من

* تعبير لاتيني يعني : حالة حرب .

** Romulus ، مؤسس رومة الاسطوري واول ملوكها (٧٥٣ - ٧١٥ ق.م)

*** Sabine من ممالك ايطالية الوسطى في العصور القديمة .

**** ولیم الفاتح الذي استولى على انكلترا عام ١٠٦٦ (١٠٢٧ - ١٠٨٧)

المعنى مثل حركة الشجر وعزف الرياح ، والمولودة من بخار الانابيب ،
المتبددة معه المولدة في إثره . وهذا هو المقطع الذي اجابت به الزمرة
على خطاب تولوميس .

« لقد دفع الآباء المفلون
مالاً الى احد الوكلاء ،
لكي يتمكن ميو كليرمون تونير ،
من ان يصبح بابا في « سان جان » .
ولكن كليرمون لم يكن قادراً على ان يصبح بابا .
لانه لم يكن كاهناً ؛
وعندئذ تمز وكيلهم من النيط ،
واعاد اليهم مالهم . »

وما كان ذلك ليهدي من وحي تولوميس . لقد افرغ كأسه ، ثم
أترعها ، واستأنف الكلام :

— « فلنسطط الحكمة ! أنسوا كل ما قلته . ينبغي ان لا نكون
مفرطين في التعقّف ، ولا متبصرين ، ولا حكماء صالحين . انا اشرب
نخب الجذل . لنكن جذلين . لنختم دراستنا للقانون بالحقاقة والغذاء .
سواء المضم ومجموع الفتاوى . * ليكون جوستنيان هو الذكر والشرافة
هي الانثى . إن في الاعماق لبهجة . عيشي ايتها الخليقة ! ان العالم ماسة
ضخمة . انا سعيد . ان الطيور مدهشة ! أيّ عيد هذا الذي يعمّ
الكون ! إن العنديل هو « ايليفيو » * بجاني . ايها الصيف ، اني
احبيك . ايه يا حديقة اللوكسمبورغ ، ايه يا قصائد « رو مدام »
وزقاق الاوبسرفاتوار ! ايه ايها الحالمون الذاهلون ! ايه يا جميع أولئك

* Digeste وهي مجموعة الفتاوى التي وضعا اشهر رجال القانون الرومان بأمر من
الامبراطور جوستنيان . وبين سوء الهضم indigestion ولفظة Digeste تلاعب لفظي
واضح .

* * Francois Elleveux مفتن فرنسي مشهور . (١٧٦٩ - ١٨٤٢)

الخدمات الفاتنات اللواتي يتسلّين برسم الاطفال فيما هنّ يقمن بخدمتهم !
لقد كانت سهول اميركة الجنوبية الواسعة المغطاة بالعشب خليقة بأن
تبهجني لو لم تكن عندي قناطر الاوديون * إن روعي لتنتلق نحو
الغابات العذراء ونحو السهوب . كل شيء جميل . ان الذباب ليدندت
في أشعة الشمس . وان الشمس لتدعو صغار الطير الجواثم الى العطاس .
قبّلي ، يا فانتين ! «
وضلّ ، وعانت فافوريت .

٨

موت فرس

وصاحت زيفين :

« الغداء في حانة إيدون خير من الغداء في حانة بومباردا . »
فقال بلاشوفيل : « انا افضل بومباردا على إيدون . إنه اكثر ترفاً .
إنه أشد آسوية . انظري الى القاعة القلي . هناك مرايا *glaces* على
الجدران . »

فقالت فافوريت : « انا أفضل ان اجد المرطبات *glaces* في صحن . »
وأصرّ بلاشوفيل :

« انظري الى السكاكين . إن مقابضها فضية عند بومباردا ،
وعظمية عند إيدون . والفضة طبعاً أثمن من العظم . »
فلاحظ تولوميليس قائلاً :

* اثر اغريقي قديم اطلق اسمه على « المسرح الفرنسي الثاني » الذي اسس
عام ١٧٩٧ ، والذي أُلحق عام ١٩٤٦ بـ « الكوميدي فرنيه » تحت اسم « حالة
اللوكسمبورغ » .

- « إلا عند اصحاب الذقون الفضية . »
وفي هذه اللحظة القى نظرة على قبة الانقلايد ، وكانت تبدو لعمري
الناظر من نوافذ حانة بومباردا .
وران الصمت .
ثم صاح فامول :
« تولوميس ، لقد جرى اللعظة نقاشٌ بيني وبين ليستوليه . »
فاجاب تولوميس : « النقاش حسن . ولكن النزاع أحسن . »
« كنا نتناقش في الفلسفة . »
« ليس عندي اعتراض . »
« من تفضل : ديكارت أم سبينوزا ؟ »
فقال تولوميس :
« أنا افضل ديسوجيه * . »

حتى اذا اطلق هذا القرار ، احتسى قليلاً من الخمر واطاف :
« أنا أرتضي ان اعيش . ليس كل شيء بنتهي على الارض
ما دام لا يزال في امكاننا ان نهذي . وانا اعزو الفضل في هذا الى
الالهة الخالدة . نحن نكذب ، ولكننا نضحك . نحن نؤكد ، ولكننا
نشك . ان غير المتوقع ليتجبر من قياس منطقي . هذا شيء جميل .
ولا يزال ثمة على الارض ناس يعرفون كيف يفتحون ويغلقون ،
في ابتهاج ، صندوق المفاجآت المنطوي على ما يناقض الآراء السائدة .
إلا فاعلمن ، ايها السيدات ، ان هذه الخمرة التي تشربنها في كثير من
الهدوء هي خمر ماديرا المعتصرة من كروم « كورال داس فريراس »
التي تعلو ثلاثة وسبع عشرة قامة فوق سطح البحر . إنتهين وإنتم
تشرين ! ثلاثة وسبع عشرة قامة ! ومسيو بومباردا ، هذا المطعمي
الرائع ، يقدم اليكن هذه الثلاثة والسبع عشرة قامة لقاء أربعة

* Désaugiers منتم ومثل فرنسي (١٧٧٢ - ١٨٢٧)

فرنسكات وخمسين سنتيماً . »

وقاطعه فامول كيرة اخرى :

— « تولوميس ، إن آراءك فانون . من هو الكاتب المفضل عندك ؟ »

-- « بير ... »

— « ... كين ؟ » *

وتابع تولوميس :

— « الحمد لبومباردا ! إنه جدير بأن يكون صنواً لـ « مونوفيس

ديليفانتا » اذا استطاع أن يأتي بمسألة ** وصنواً لـ « تيجيليون دو

شيرونيه » اذا استطاع ان يأتي بأحدى بنات الهوى ! لانه كان ثمة

— اوه ، ايها السيدات — بومباردات في اليونان ومصر . ذلك ما

يخبرنا به « آبوليه » *** وأسفاه ! الشيء نفسه دائماً ، ولا جديد البتة .

لم يبق شيء غير منشور في خليفة الخالق ! **** *Nil sub sole novum*

كذلك يقول سليمان الحكيم . ***** *Amor omnibus idem* كذلك يقول

فيرجيل . وتركب كارابين مع كارابان في الزورق في سان كلو كما ركبت

آسباسيا ***** مع بريكليس ***** متى اسطول ساموس . كلمة

اخيرة . هل تعرفن ، ايها السيدات ، من كانت آسباسيا هذه ؟ على

* المقصود « بيركين » Berquin الكاتب الفرنسي (١٧٤٧ - ١٧٩١) صاحب

كتاب « صديق الاطفال » .

** هكذا في الاصل *almée* وهي كلمة عربية مصرية تعني الرافضة الغيبة .

*** *Apulée* كاتب لاتيني من اهل القرن الثاني .

**** في اللاتينية ومعناها : لا جديد تحت الشمس .

***** في اللاتينية : الحب واحد عند الجميع .

***** *Aspasia* بتي اغريقية اشتهرت ببهاها وذكاها ، وقد اصبحت في ما بعد

زوجة بريكليس ، وكان منزلها موئلاً لاعظم الفلاسفة والفنانين والكتاب وبخاصة سقراط .

***** *Périclès* رجل الدولة الاغريقي الكبير ، وكانت له يد بيضاء على الحياة

الادبية والفنية في اثينا . وقد جرد حلة بحرية على ساموس ، احدى جزر

الارخبيل اليونانية .

الرغم من انها عاشت في عصر كانت المرأة لا تزال فيه غير ذات روح ، فقد كانت روحاً ؛ روحاً ذات ظلّ ورديّ وارجواني ، اشدّ توهجاً من النار ، وأنضر من الفجر . كانت آسبانيا مخلوقة مست طرقي المرأة الاكثر تطرفاً ؛ كانت البغيّ الالاهة . كانت سقراط ، مضافاً اليه مانون ليسكو . * لقد خلقت آسبانيا للظرف الذي قد يحتاج فيه بروميثيوس ** الى زانية .

ولم يكن من البسير ان يُكبح جماح تولوميس ، بعد ان انطلق ، لو لم يسقط جواد ، في هذه اللحظة ذاتها ، على رصيف الشاطيء . لقد اوقعت الصدمة كلاً من العربية والخطيب . كانت فرساً من افراس مقاطعة بوس ، عجوزاً مهزولة جديرة بالقصاب ، تسحب عربة ذات ثقل ثقل . حتى اذا انتهت الدابة الى حانة يومباردا ، وقد هدتها الاعياء ، أبت ان تتقدم خطوة واحدة . وادى هذا الحادث الى تجمهر القوم . ولم يكده سائق العربية ، المهدف المفناط ، يجد الوقت الذي يمكنه من ان يلفظ ، في عزم ملائم ، تلك الكلمة الحاسمة : « كلب ! » مردفاً ايها بضربة سوط رهية ، حتى خرّت الفرس الخفية على الارض لكي لا تنهض بعد ذلك ابدأ . وعلى جلبة عابري السيل أدار رفاق تولوميس ، المستمعون الى خطابه ، رؤوسهم ، واغتم تولوميس هذه الفرصة فنختم الخطاب بهذا المقطع الكئيب :

« كانت من ذلك العالم حيث تنتهي طيور الوقواق
والمربات الفاخرة الى المسير نفسه .

* Manon Lescaut هي بطلّة الرواية التي تحمل اسمها وقد عاشت عيش البغايا الفاضلات .
والرواية من تأليف الراهب بريغوست (١٧٩٧ - ١٧٦٣)
** الاله النار ، وهو يبدو في الاساطير الكلاسيكية وكأنه مبدع اول حضارة
انسانية . فقد أن شكل الانسان من الوحل الراسب في قعر المياه الراكدة سرق النار
من السماء لكي يبعث الحياة في انثائه ذاك ، فانتم منه جوييتير ، الخ ...

والفرس الضعيفة ، افقدت على قدر ما تعيش المنادى ،
فترة صباح ! »

وتنهدت فانتين : « يا لها من فرس مكينة ! »
وصاحت داهليا :

- « هي ذي فانتين ترفي للخيول ! هل عرفتم قبل اليوم شيئاً اكثر
حماقة من هذا ؟ »

وفي هذه اللحظة صالت فافوريت ذراعها ، وادارت رأسها الى
الوراء ، وحدقت الى تولوميس قائلة :
- « آه ! والمفاجأة ؟ »

فأجابها تولوميس :

- « تماماً . لقد أزلت اللحظة . ايها السادة ، لقد آآن لنا ان نقدم
المفاجأة الى هاته السيدات . ايها السيدات ، انتظرننا لحظة . »
فقال بلاشوفيل : « إنها تبدأ بقبلة . »

واضاف تولوميس :

- « على الجبين . »

وفي رصانة ، طبع كل منهم قبلة على جبين صاحبه ، ومن ثم تقدم
الشباب الاربعة نحو الباب ، واحداً إثر واحد ، وقد وضع كل منهم
إصبعه على فمه .

وصققت فافوريت فيما كانوا يخرجون .

وقالت : « إنها ممتعة منذ الآن . »

وتتمت فانتين :

- « لا تتأخروا اكثر مما ينبغي ! نحن في انتظاركم ! »

نهاية الابتهاج البهيجة

واسندت الفتيات مرافقهن ، اثنتين اثنتين ، - وقد غودرن وحدهن - على دعامة النوافذ ، وانشأن يثرثن ، حانيات رؤوسهن ، ويتكلمن من نافذة الى اخرى .

لقد رأين الشبان يغادرون حانة بومباردا متشابكي الاذرع ، ثم يلتفتون الى وراء وبومثون اليهن ضاحكين ، ليختفوا بعد ذلك وسط حشود يوم الأحد المغبرة التي تغزو الـ « شان زيليزيه » مرة كل اسبوع .

وصاحت فانتين :

- « لا تتأخروا ! »

وقالت زيفين : « ايّ شيء سيجملونه لنا ؟ »

فقال داهليا : « سيكون شيئاً جميلاً من غير شك . »

واندفعت فافوريت الى القول :

- « ارجو ان يكون من ذهب . »

وما هي الا فترة قصيرة حتى اذهلتهن الحركة المضطربة عند شاطئ الماء - تلك الحركة التي ميزنها من خلال اغصان الاشجار السامقة ، والتي ألهتهن إلهاء شديداً . كانت ساعة انطلاق مركبات البريد وعربات المسافرين ، ولقد سرت العربات العامة ، القاصدة الى الجنوب والغرب - سرت كلها تقريباً ، آنذاك ، بـ « شان زيليزيه » . واتخذ القسم الاعظم منها ميبيل الرصيف ، وانطلق من خلال « حاجز باسي » . ففي كل دقيقة كانت احدى العربات الضخمة ، المدهونة باللونين الاصفر والاسود ، المثقلة الى حد بعيد ، المجهزة على نحو صارخ ، المشوّهة

بصناديق الامتعة ، والاغطية الجلدية ، والحقائب ، الملقى بالرؤوس التي كانت تختفي على نحو موصول ، المفتحة الجزء المقوس من الطريق ، المحوطة حصاة الشارع الى زناد للقدح - في كل دقيقة كانت احدى هذه العربات تندفع وسط الحشد مطلقة الشرر مثل كور الحداد ، وقد حلّ القبار محلّ الدخان ، وبدأت عليها سماء الحدة والغضب . وسرت الفتيات بهذه الجلبة . وصاحت فافوريت :

- « يا لها من ضوضاء ! يجئ إلى المرء ان اكواماً من السلاسل تولى فراراً . »

وشامت المصادفة ، ان تقف احدى هذه العربات التي كان في ميـوـرهـن رؤيتها في عسر من خلال شجرات الدردار الكثيفة ، ثم تنطلق بعد لحظة على جناح السرعة . واثار ذلك عجب فانتين .
وقالت : « هذا عجيب ! لقد حسبت ان عربات المسافرين لا تقف أبداً . »

وهزت فافوريت كنفها :

- « ان فانتين هذه تثير الدهش ؛ أنا انظر اليها في فضول . إنها تعجب لا بسط الاشياء . لنفرض اني مسافرة من المسافرين ؛ عندئذ أقول للعربة العمومية : انا راحلة ؛ في استطاعتك أن تحمليني في طريقك من على رصيف الشاطئ . وتمر العربة ، وتراني ، وتقف ، وتقلّني على متنها ، هذا يقع كل يوم . أنت لا تعرفين الحياة ، يا عزيزتي . »
وتقصّى بعض الوقت ، على هذا النحو . وفجأة أجفلت فافوريت إجمال نائم استيقظ من الرقاد .

وقالت : « ولكن ... اين المفاجأة ؟ »

فقال داهليا :

- « اجل ، المفاجأة الشهيرة . »

وقالت فانتين :

« لقد تأخروا كثيراً جداً ! »
ولم تكذب فانتين تمّ تهديتها حتى دخل النادل الذي خدمهم على المائدة .
كان يحمل في يده شيئاً بدا وكأنه رسالة .
وتساءلت فافوريت :
« ما هذا ؟ »
فأجاب : « انها ورقة تركها اولئك السادة الى هؤلاء السيدات . »
« ولماذا لم تحملها الينا في الحال ؟ »
فأجاب الغلام :
« لأن اولئك السادة املوا ان لا اقدمها الى هؤلاء السيدات
الا بعد ساعة من تسلمي اياها . »
وانتزعت فافوريت الورقة من يدي الغلام . كانت رسالة حقاً .
وقال : « عجيب ! ليس ثمة عنوان . ولكن انظرت ما كتبت
فيها :

هذه هي المفاجأة

وفي مثل لمح البصر ، فضّت الرسالة ، وفتحتها وقرأت (كانت
تعرف القراءة) :

« أوه ، يا احببتنا !

« اعلمن ان لنا أهلاً . أجل أهلاً . إنكن لا تكدن تعرفن معنى
هذه الكلمة . إنهم اولئك الذين ندعوم في القانون المدني آباء وامهات .
إنهم بسطاء ولكنهم فاضلون . إنهم يحسنون الينا . ان هؤلاء العجائز
يطالبون بنا . ان هؤلاء الرجال الطيبين وهاته النساء الطيبات يدعوننا
« الابناء الضالين » وهم يتمنون عودتنا ، ويعيدون بأن يذبحوا العجول
لنا . ولما كنا متعلقين باهداب الفضيلة فسوف نطيعهم . وهكذا ستطلق

حالمًا نقرأ أن هذه الورقة ، خمسة جياذ قوية عائدة بنا الى آبائنا وامهاتنا .
نحن ننصب خيامنا ، كما يقول بوسوييه . إننا ذاهبون ، لقد ذهبنا .
نحن نظير بين ذراعي لافيت ، وعلى جناحي كاتار . ان عربة تولوز
العمومية تنتشلنا من الهوة ، وما هذه الهوة الا انتن ، يا صغيراتنا
الجميلات ! نحن عائدون الى المجتمع ، الى الواجب والنظام ، في سرعة
عظيمة بمعدل ثلاثة فراسخ في الساعة . إنه لما بهم الوطن ان تصبح
مثل سائر الناس ولاية ، وارباب - أمر ، ونواطير ،
ومنتشاري دولة . إحترمنا ووقرتنا ! نحن نضحى بانفسنا . إنتعبن
علينا في الحال ، وسارعن الى الاستعاضة عنا بغيرنا . واذا مزقت هذه
الرسالة افقدتكن ، فمزقتها بدوركن . وداعاً .
لقد أدخلنا السعادة على نفوسكن طوال سنتين تقريباً . فلا نخفدن
علينا من أجل هذا .

« التواقيع : بلاشوفيل .

« فامول .

« ليستولييه .

« فيلكس تولوميس .

« حاشية : - نفقات الغداء قد دُفعت . »

وتبادلت الفتيات الاربع النظرات .

وكانت فافوريت اول من قطع حبل الصمت .

وصاحت : « إنها مهزلة حلوة حقاً . »

وقالت زيفين :

- « إنها مضحكة جداً . »

واردفت فافوريت :

- « لا شك في ان بلاشوفيل هو صاحب الفكرة . هذا ما يجعلني

أحبه . فراق عاجل ، وحب عاجل . تلك هي القصة . »

فقلت داهليا :
- « لا . إنها فكرة تولوميس . هذا شيء واضح . »
فصادت فافوريت الى القول :
- « اذا كان ذلك ، فليقط بلاشوفيل ، وليحي تولوميس ! »
وهتفت داهليا وزيفين :
- « فليحي تولوميس ! »
وانفجرت ضاحكات .
وضحكت فانتين مثل غيرها .
وبعد ساعة ، عندما عاودت الدخول الى غرفتها ، سفعت الدمع .
كان ذلك ، كما ذكرنا ، حبها الاول . وكانت قد اسلمت نفسها الى
تولوميس ذاك وكأنه زوجها . كانت الفتاة المسكينة أمّ ولد .

الكتاب الرابع

الإيداعُ يعني التحسُّبُ حيَّاناً

١

أَمْ تَلْتَقِي أُمًّا

كان في الربع الاول من هذا القرن ، في مونفيرماي قرب باريس
شبه مطعم حقير لم يعد قائماً اليوم . وكان يدير هذا المطعم رجل يدعى
تيناردييه ، وزوجته . وكان يقوم في زقاق بولانجييه . وفوق الباب
كان المرء يرى لوحةً مسطرةً على الجدار تماماً . وكان مرسومًا
على هذه اللوحة شيء يشبه رجلاً على ظهره رجلٌ آخر يحمل
كتافتين * ضخمتين مذهبتين كاللتين يحملها الجنرالات ، وقد زانتها

* الكتافة لفظة اصطنعناها لتقابل كلمة épaulette وهي ما يضعه الجندي من زينة عسكرية على كتفيه .

نجوم كبيرة مفضضة . وكانت ثمة لطخات حمراء ترمز الى الدم . اما سائر الصورة فكان دخاناً ، ولعله كان يمثل معركة . وتحت الرسم كانت مكتوباً : رقيب * واترلو .

وليس شيء اكثر شيوعاً من عربة او عجلة ذات دولابين أمام باب فندق . ومع ذلك ، فان تلك المركبة ، او على الاصح ، ذلك الجزء من مركبة ، التي اعترضت الشارع امام مطعم « رقيب واترلو » ذات مساء من ربيع عام ١٨١٨ ، كانت خليفة من غير شك بأن تلفت بضخامتها اقتباه أيما رسام يرثيها .

كانت عربة أمامية من تلك العربات الضخام ، التي تُصطنع في الديار المحاطة بالغابات لنقل ألواح الحشب الفليظة وجذوع الاشجار . وكانت هذه العربة الامامية تتألف من محور حديدي ضخيم ذي قطب مُشدّ اليه بحجر ثقيل ، وتنهض على عجلتين هائلتين . وعلى الجملة ، فقد كانت ضخمة قصيرة ، ساحقة ، مشوّهة : لقد كان من الجائز ان يحبسها الرائي عربة مدفع عملاقة .

كانت الطرق قد غطت العجلتين وإطاريهما ، ومركزهما ، والمحور ، والمجرّ بطبقة من الطين قبيحة ضاربة الى الصفرة شبيهة لونها بذلك الذي نرغب في ان نزين به جدران الكانديديات . لقد اختفى الحشب تحت الطين ، واختفى الحديد تحت الصدا .

وتحت المحور كانت تتدلى سلسلة ضخمة تلائم جباراً من جبابرة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وما كانت هذه السلسلة لتعيد الى الذاكرة العوارض الحشبية الضخمة التي كانت تحملها ، ولكن صور الحيوانات المنقرضة من ماستودون وماموث ** التي كان خليقاً بها أن تقرنها . كانت لا تذكر المهر

* الرقيب رتبة عسكرية تقابل « سرجان » sergent

** الماموث mammoth ضرب من فيلة الاعمى الجيولوجية المنقرضة .

يسجون المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة الخاصة بالبشر ، ولكن يسجون الاشغال الشاقة الخاصة بجماعة السيكلوب * ومن هم فوق البشر . ولقد بدت وكأنها قد نُزعت عن مارد من المردة . كان هوميروس خليفاً بأن يوثق بها بوليفيموس ** ، وكان شيكسبير خليفاً بأن يوثق بها كاليبان *** لم كانت هذه العربية الامامية في ذلك الموضع من الشارع ؟ اولاً ، لكي تعترض السبيل ، وثانياً لكي تستكمل صداها . إن في النظام الاجتماعي القديم مجموعة من المؤسسات التي نجدها هكذا معترضة سبيلنا ، والتي ليس لوجودها أي مبرر آخر .

كان وسط السلسلة يتدلى فُوق الارض ، تحت المحور . وعلى منحناها ، جلست ذلك المساء ، في تشابك رائع ، فتاتان صغيرتان ، وكأنهما فوق جبل ارجوحة من الاراجيع . كانت صغيراهما تبلغ من العمر ثمانية عشر شهراً ، وكانت كبيراهما تبلغ من العمر سنتين ونصف سنة تقريباً . وكانت الكبرى تضم الصغرى بين ذراعيها .

كان منديل بارع العقْد يقيها من السقوط . ولقد رأَتْ احدى الامهات هذه السلسلة المروعة ، ذات يوم ، فقالت : « آه ، هي ذي لعبة لأولادي ! »

كانت الطفلتان مزبنتين على نحو بهيج ، وكانتا عند التحقيق مُشرقتي الوجه ، فكانهما وردتان عُرسا في الحديد الصدي . كانت أعينهما تومض إيماضة الظفر ، وكانت وجناتهما النظرة تضحك . كانت احدهما

* Cyclope في الاساطير اليونانية عملاق ذو عين واحدة في وسط الجبين . وعائلة السيكلوب هؤلاء كانت مهمتهم ان يطرقوا الصواعق لجوبيتر ويساعدوا فولكان ، الاله النار والامادن ، في اعماله .

** Polyphème هو اشهر عمالقة السيكلوب ، وابن نبتون . وقد اقتلع اوليس بطل اوذيسة هوميروس عينه الوحيدة ، وجبه في كهفه مع سائر رفاقه .

*** Caliban من شخصيات شيكسبير في روايته « العاصفة » . وهو يمثل القوة البهيمية الجبارة التي تُكره على الخضوع لقوة عليا ، ولكنها تحاول دائماً الثورة عليها .

كستنائية اللون ، وكانت الاخرى سمراء . وكان وجههما الساذجان عجبين فاتنين . وكان العبير الذي اطلقته بعض الشجيرات البرية المنورة غير بعيد منها يبدو وكأنه انفاسها . وكانت الصغرى تكشف عن جسدها اللدن بقلّة الاحتشام العفيفة التي تميز الطفولة . وفوق هذين الرأسين الناعمين وحولهما - هذين الرأسين المفرغين في السعادة ، المستحيين بالضياء - تقوّست العربية الهائلة - سوداء بالصدأ ، مروّعة ، او تكاد ، بانحناءاتها المتشابكة وزواياها الوعرة - وكأنها لم مغارة من المغاور .

وكانت أمهما - وهي امرأة بشوش بعض الشيء ولكنها كانت مؤثّرة في هذه اللحظة - جالسة على عتبة الفندق ، تؤرّجح الطفلتين بحبل طويل ، حاضنة إياهما بعينها خشية ان يصيبها حادث ما ، وقد طفت على عيها تلك الانطباعة الحيوانية السهاوية التي تميز الامومة . ومع كل اندفاعة من اندفاعات السلسلة الى امام والى وراء كانت الحلقات البشعة تطلق ضجة صارّة أشبه ما يكون بصيحة غضبي . كانت الطفلتان الصغيرتان في نشوة غامرة ؛ ولم يكن ثمة شيء اكثر فنة من هوى المصادفة هذا الذي جعل من سلسلة من سلاسل العماقة ، ارجوحة لصغار الملائكة .

وفيا الأم نهز الطفلتين غثت في صوت ناشز أغنية كانت شعبية آنذاك :

« يجب ، يجب ، قال احد الحارين ، »

ومنعها غناؤها ومراقبتها طفلتيها من ان تسمع وترى ما كان جارياً في الشارع .

كان شخص ما يقترب منها ، على اية حال ، فيا هي تستهل المقطع الاول من الاغنية . وفجأة سمعت صوتاً ، قريباً جداً من اذنها ، يقول :

« إن لك هناك طفلتين جميلتين ، يا سيدتي . »

بهذا اجابت الأم ، منمتة اغنيها . ثم ادارت رأسها .
كانت امرأة واقفة على بضع خطى منها . وكان لها هي ايضاً طفلة
تحملها بين ذراعيها .

وكانت تحمل ايضاً 'خرجاً ضخماً من اخراج السفر ، بدا ثقيلاً جداً .
وكانت طفلة هذه المرأة من اكثر الكائنات التي تقع عليها العين بهاء
والوهية . كانت فتاة يراوح عمرها ما بين سنتين وثلاث سنوات . وكان
في ميسورها ان تخوض الى جانب الطفلين الصغيرتين الاخيرين في مسابقة
في روعة اللباس . كانت تعتمر قبعة من كتان ناعم ، وكانت على
كتفها عصائب ، وعلى قبعتها وشي . كانت ثنيات تنورتها مرفوعة الى
درجة تكشف عن ساقها البيضاء البدينة المكتنزة . كانت وردية فاضحة
بالصحة الى حد فائق . وكانت الطفلة الصغيرة الحلوة تعري المرء بأن
يعض تقاح خديها . وليس في ميسورنا ان نقول شيئاً عن عينيها إلا أنها
كانتا من غير ريب متسعيتين جداً ، محوطين باجفان باهرة . كانت نائمة .
لقد استغرقت في ذلك الرقاد الموغل في الطأئينة ، الذي لا يعرفه
غير الاطفال . إن اذرع الامهات مصوغة من حنان . وإن الاطفال
لينامون عليها نوماً عميقاً .

أما الأم فقد بدت فقيرة محزونة . كانت تطفو عليها انطباع عاملة
منعاملات تريد ان تستأنف العيش في الريف . كانت نضرة العود
- وجيلة ؟ جائر . ولكن الجمال لا يمكن ان يتبدى في تلك الكسوة .
وكان شعرها ، الذي تدلّت منه خصلة شقراء ، يبدو أثيراً جداً ،
ولكنه كان محجوباً في قسوة تحت قلنسوة من قلانس الراهبات بشعة ،
محكمة الربط ، ضيقة ، معقودة تحت ذقنها . ومن شأن الضحك ان
يكشف عن الاسنان الجميلة حين يكون للمرء اسنان جميلة ، ولكنها لم

تضحك . ولقد بدت عيناها وكأنها سلختا دهرآ طويلاً تسفحات
المبروات . كانت مهزولة ، وكانت تبدو عليها سجا الاعياء الشديد ،
والمرض الطفيف . لقد نظرت الى طفلتها الراقدة بين ذراعيها تلك
المنظرة التي لا تتم الا لأمّ "توضع فلذة كبدها . وكان منديل عريض
أزرق كمناديل العبرة مطويّ عبر صدرها ، يفتّح شكلها على نحو تعوذه
البراعة . وكانت يداها مسفوعتين ، منقطتين بالنمش ؛ وكانت سبابتها
متصلة بمنزقة من اثر الابرة . كانت ترتدي رداءً فضفاضاً بنبياً من
صوف غليظ ، وفستاناً من خام ، وتنتعل حذاءً ضخماً ثقيلاً . كانت
فانتين .

أجل ، فانتين . كان من العسير على المرء ان يعرفها . ومع ذلك
فما ان يعمّن النظر اليها حتى يرى انها ما تزال محتفظة بجهاها . كان خطّ
كسب كذلك الذي يتشكل عند مطلع التهكم ، يطبع خدها الايمن .
اما زينتها - تلك الزينة الرقيقة المؤلفة من حرير موصليّ ومن عصائب ،
والتي بدت وكأنها مصنوعة من البهجة ، والحماقة ، والموسيقى ؛ والتي
حفلت بالبهارج ، ونعطرت بالزنايق - فكانت قد ذابت كما يذوب
الجليد المثلّق الجليل الذي نحبه تحت اشعة الشمس ماساً متوهجاً . لقد
ذابت ، مخلّقة العنص اسود موحشاً .

كانت عشرة أشهر قد تقصّصت على " المهزلة الحلوة " .

ايّ شيء جرى خلال هذه الاشهر العشرة ؟ في استطاعتنا ان
نحزّر .

فبعد التهوّر يأتي البلاء . فما هي إلا فترة حتى غابت فافوريت ،
وزيفين ، وداهليا عن ناظرَيّ فانتين . ذلك بأن الصلة التي قُطعت من
جانب الرجال ما لبثت أن حُلّت من جانب النساء ، فمن خليقات
بأن يدهشن اذا ما زعمت إحداهنّ ، بعد اسبوعين اثنين ، انهنّ كنّ
صديقات . لم يكن ثمة سبب يدعوهن الى الابقاء على تلك الصداقة .

وغودرت فانتين وحدها . وإذا مضى والد طفلتها لبيبه - وأسماء !
فأمثال هذه المهجرة تكون دائماً الى غير رجعة - ألفت نفسها في عزلة
مطلقة ، وقد تضاءلت عندها عادة العمل ، وتعاطفت عندها الرغبة في
الملاذات . كانت صلتها بتولوميس قد قادتها الى ان تؤدي المهنة
الصغيرة التي عرفتھا ، فإذا هي تشيع بوجهها من المنافذ التي عرضت لها ،
وإذا بهذه المنافذ توصل آخر الامر في وجهها . وغدت ولا مورد لها .
كانت فانتين لا تكاد تفك الحرف ، ولم تكن تعرف الكتابة . لقد
علموها في طفولتها كيف توقع اسمها ليس غير . وعهدت الى احد
كتاب الرسائل العموميين في ان يسطر لها رسالة الى تولوميس . ثم
عهدت اليه في ذلك ثانية وثالثة . ولكن تولوميس لم يجب على اي
من تلك الرسائل . وذات يوم ، سمعت فانتين بعض النوبة الثورات
يقلن ناظرات الى ابنتها : « وهل ينظر الناس الى هؤلاء الأطفال نظرة جدية ؟
إنهم يهزون اكتافهم حين يرون امثال هؤلاء الاطفال ! » وعندئذ
فكرت في تولوميس الذي هزّ كتفيه لولده ، والذي لم يأخذ هذه
المخلوقة البريئة أخذاً جدياً . وغدا فؤادها مظلماً في الموطن الذي كان
موطنه . ما الذي يتعين عليها ان تفعله ؟ لم يكن ثمة من تستشير . لقد
ارتكبت خطيئة ، ولكن طبيعتها كانت ، في اعماقها ، كما عرفنا ، عنوان
الحياء والفضيلة . وراودها شعور غامض بانها على وشك التردّي في الشقاء
والانزلاق الى الشارع . ينبغي ان تكون لديها الشجاعة الكافية . ولم
تعوزها الشجاعة . وتحملت مصيبتها في صبر . وخطر لها ان توجه الى
موطن رأسها ، قرية مونتروي سور مير ، فقد تجد هناك من يعرفها ،
ويعطيها عملاً . اجل ، ولكنّ عليها ان تخفي خطيئتها . وتواءى لها
على نحو غامض شبح فراقٍ اشدّ ايلاماً من الفراق الاول . وانقبض
صدرها ، ولكنها وطنت النفس على ذلك . لقد كانت فانتين غلّك ،
كما سوف نرى ، شجاعة الحياة الضاربة .

وكانت قد تخلصت ، في بسالة ، عن تبرّجها ، وارتدت الملبس
المصنوعة من الخام ، وحوّلت اثوابها الحريرية كلها ، وخيرَها كلها ،
وعصائبها كلها ، ووشىها كله الى ابنتها - زهوها الأوحـد الذي بقي لها ،
وإنه لزهوٌ إلهي . وباعت كل ما تملك ، فعاد عليها بمئتي فرنك . حتى
إذا وفّت ديونها الصغيرة لم يبق معها غير ثائين فرنكاً تقريباً . وذات
صباح جميل من أيام الربيع ، وفي سنـها الثانية والعشرين ، غادرت
باريس حاملة طفلتها على ظهرها . وخلق بكل من رأى اليها تجوزان
الشوارع ان يأخذـه الاشفاق عليهما . فهذه المرأة لم يكن لها في العالم غير
هذه الطفلة ، وهذه الطفلة لم يكن لها في العالم غير هذه المرأة . كانت
فانتين قد ارضعت ابنتها ؛ وكان ذلك قد اوهن صدرها بعض الشيء ،
فهي تسعل سعالاً طفيفاً .

ولست بنا حاجة ، بعدُ ، الى ان نتحدث عن مسيو فيلكس
تولومبيس . فنجتزئ ههنا بالقول انه انتهى الى ان يصبح ، بعد
عشرين سنة ، وفي عهد الملك لويس فيليب ، نائباً عاماً ريفياً بديناً ،
ذا ثروة وذا نفوذ ؛ وناخباً حكيماً ومخلصاً شديد القسوة ، بيد انه
ظلّ دائماً رجل لهو ومتعة .

وحوالى الظهر ، وبعد أن امتطت بين القينة والقينة - التماساً للراحة
ومقابل ثلاثة فلوس او اربعة اكلّ فرسخ - متنّ ما كان يُعرف
آنذاك بـ « العربات الصغيرة الخاصة بضواحي باريس » وصلت فانتين الى
مونفيرماي ، ووقفت في زقاق بولانجيـه .

وفيما هي تجتاز بفندق تيناردييه ، ترك منظر الطفلتين القاعدتين في
ابتهاج على اوجوحتهما الهائلة ، اثرّاً مذهلاً في نفسها ، وتملّت امام هذا
المشهد المرح .

إنّ ثمة رُقيّ . ولقد كانت هاتان الطفلتان الصغيرتان رقية لهذه الأمّ .
وتأملتـهما في انفعال غامر . ان وجود الملائكة بشرى بالجنة . وخيل
لها انها رأت فوق هذا الفندق لفظة « هنا » الخفية التي تحطّـها العناية

الالهية . كانت هاتان الطفلتان سميدتين من غير منك ! وحدقت اليها
وأعجبت بها ، وقد غلب عليها التأثر الى حد جعلها لا تملك نفسها -
حين اخذت الأمّ نفساً يمين يميني أغنيتهما - عن ان تقول ما سبق
ان قرأناه :

« إن لك هناك طفلتين جميلتين ، يا سيدتي . »

إن امّ الحيوانات ضراوة لتلقي السلاح حين ترى صفارها موضع
تودد وملاطفة .

ورفعت الأمّ رأسها ، وشكرتها ، وسألت عابرة السبيل ان تجلس
على درجة السلم الحجرية ، وكانت هي نفسها قاعدة على عتبة الباب .
وتجاذبت المرأتان اطراف الحديث .

فقال أمّ الفتاتين الصغيرتين :

« اسمي مدام تيناردييه . نحن ندير هذا الفندق . »

ثم واصلت انشادها فغنت من بين اسنانها :

« يجب ، يجب ، فانا فارس
« ولوف اسافر الى فلسطين ! »

وكانت السيدة تيناردييه امرأة حمراء الشعر ، بدينة ، ذات زوايا
ونتوءات : نموذج زوجة الجندي بكل ما يوحي به من الرعب . ومن عجب
انه كانت تطفو على بحياها انطباعة استرخاء اكتسبتها من قراءة الروايات .
كانت مغناجاً مترجلة . والواقع ان الروايات القديمة المنطبعة على خيال
صاحبات الفنادق لتختلف مثل هذه الآثار . كانت لا تزال شابة لما
تجاوز الثلاثين من عمرها . ولو كانت هذه المرأة ، الجالسة القرفصاء ،
واقفة منتصبه القائمة ، اذن لكان من الجائز لقسامتها الشاحنة وكتفها
العريضتين المشبهتين كنفي تمثال عظيم متحرك - الجديرة بامرأة من نساء
السوق الموسمية - ان تحقل عابرة السبيل ، ونعكر صفو اطمئنانها وتحول

دون وقوع الاحداث التي سنرويها . شخصٌ جالس بدلاً من ان يكون واقفاً : إن القَدَر ليتأرجح على خيط رقيق مثل هذا .
وقعت عابرة السبيل حكايتها ، في شيء من التعديل .

قالت انها كانت عاملة ، وان زوجها قد مات ؛ واذ لم توفق الى عمل في باريس فقد مضت تلتسه في مكان آخر ، في المقاطعة التي ابصرت فيها النور ؛ وانها غادرت باريس ذلك الصباح سعيًا على قدميها ؛ وان حملها طفلتها قد اورثها إعياءً شديداً ؛ وانها التقت عربية فيلوبل فركبتها ؛ وانها انطلقت من فيلوبل الى مونفيرماي سيرا على القدمين ؛ وان الطفلة الصغيرة ممت قليلًا ، ولكن ليس كثيرًا ، فهي اصغر من ان تقدر على ذلك ؛ وانها اضطرت الى ان تحملها ؛ وان الجوهرة كانت قد استسلمت للرقاد .

حتى اذا لفظت هذه الكلمة طبع على جبين ابنتها قبةٌ حنوناً أيقظتها من نومها . لقد فتحت الطفلة عينيها الزرقاوين الواسعتين ، مثل عيني أمها ، وأبصرت - ماذا أبصرت ؟ لا شيء ، كل شيء ، بانطباعة الاطفال الصغار الجدية ، الصارمة في بعض الاحيان ، التي هي احد اسرار براحتهم امام فضائلنا المعتة . وفي ميسور المرء ان يزعم أن اولئك الاطفال يستشعرون انهم ملائكة ، ويعرفون اننا بشر . ثم انشأت الطفلة تضحك . وعلى الرغم من ان امها كبت جماحها ، فقد انزلت الى الارض بثقل القوة التي لا سبيل الى قهرها والتي تكون لطفل يريد ان يفر .
وفجأة رأت الطفلتين الاخرين على ارجوحتهما ، فوقفت فجأة ، واخرجت لسانها علامة الاعجاب .

وحلّت السيدة نيناردييه وثاق طفلتيها وأنزلتها عن الارجوحة ،
قائلة :

- « إلبَنِّ كلكن معاً . »

إن الاطفال في مثل هذه السن ليأنس بعضهم الى بعض في سهولة

ويسر . فما هي إلا لحظة حتى كانت بنتا السيدة تيناردييه تلعبان مع الوافدة الجديدة ، حافرات ثقوباً في الارض يابتهاج غامر .

كانت هذه الرافدة الجديدة مريحة جداً : ان طيبة الأم لمطورة في بهجة الطفلة . كانت قد تناولت شطية من خشب واتخذت منها مجرفة ، وراحت تشق في نشاط حفرة تلائم ذبابة . إن عمل حفار القبور ليصبح سائغاً جيلاً حين يقوم به طفل .

واستأنفت المرأتان حديثها .

— « ما اسم طفلك الصغيرة ؟ »

— « كوزيت . »

ولكن عليك ان تقرأ أوفرازي بدلاً من كوزيت . فقد كانت الصغيرة تدعى أوفرازي . بيد ان الأم جعلتها كوزيت بتلك الغريزة الحلوة الفاتنة التي تجعل الامهات والناس يحوّلون « جوزيفا » الى « بيتا » ، و « فراندواز » الى « سيليت » . ذلك ضرب من الاستقاق يزعج علم علماء الاستقاق ويشوشه كله . فنحن نعرف جدة وُفقت الى ان تقلب « تيودور » الى « غنون » .

— « ما عمرها ؟ »

— « انها تخطو نحو الثالثة . »

— « هي اذن في عمر ابنتي الكبرى . »

كانت الفتيات الثلاث قد اجتمعن في وضع من القلق والغبطة العميقين . لقد وقع حادث خطير . كانت دودة كبيرة قد انبثقت من الارض . وكنّ قد خفن منها ، وكنّ قد غمرتهن النشوة لمرآها .

لقد تماست جباههن الواضحة ، واقعد كان في ومع المرء ان يزعم انها كانت ثلاثة رؤوس تحيط بها هالة من النور .

وصاحت السيدة تيناردييه :

— « ما اسرع ما يتعارف الاطفال ! أنظري اليهن ! ان المرء

ليقسم اخن ثلاث أخوات . «
واغلب الظن ان تلك الكلمات كانت الشرارة التي انتظرتها الام
الاخري . فامسكت بيد السيدة تيناردييه ، وحدفت اليها قائلة :
- « هل لك ان تحتفظي لي بابنتي ؟ »
وأنت السيدة تيناردييه بجرعة من حركات الدمش التي لا تفيد ايأ
من القبول أو الرفض .
واردفت والدة كوزيت : «

- « انتِ ترين اني لا استطيع ان أصحب ابنتي الى الريف . إن
العمل يحظر ذلك . إني لن اجد عملاً ، هناك ، ما دامت طفلي معي .
إنهم على غاية السخف في تلك الديار . إن الرب هو الذي جعلني امرأ
بفندقك . وحين وقعت عيناى على ابنتيك الصغيرتين ، البالغتي الجمال ،
والنظافة ، والسعادة ، غلبني التأثر . لقد قلت : ههنا أمّ طيبة . إنهن
سوف يكنّ مثل ثلاث أخوات . وعندئذ فلن أغيب طويلاً . هل لك
ان تحتفظي لي بابنتي ؟ »

فقالت السيدة تيناردييه :

- « ينبغي ان افكر . »

- « سوف اقدم اليك ستة فرنكات في الشهر . »

وهنا سمع صوت رجل من داخل المطعم الحقيق :

- « لا نرضى بأقل من سبعة فرنكات . وستة اشهر مدفوعة

مقدماً . »

فقالت السيدة تيناردييه :

- « ستة في سبعة يساوي اثنين واربعين . »

فقالت الامّ : « سوف اعطيكما ذلك . »

فأضاف صوت الرجل :

« وخمسة عشر فرنكاً إضافية مقابل النفقات الاولى . »

فقلت السيدة تيناردييه : « اصبح المجموع سبعة وخمسين فرنكاً . »
وفي غمرة من هذه الأرقام غنت على نحو غير معين :

« يجب ، يجب ، قال احد الحارين ... »

فقلت الأم : « سوف ادفعها اليكما . إن عندي ثمانين فرنكاً .
وهذا سوف يتروك لي ما يكفيني للذهاب الى الريف اذا مشيت على
قدمي . » ولسوف اكسب شيئاً من المال هناك ، وحالاً يجتمع لديّ
مبلغ قليل ارجع الى هنا لأخذ حبيبي الصغيرة . »

واستأنف صوت الرجل الكلام :

— « هل عند الصغيرة ملابس ؟ »

فقلت السيدة تيناردييه : « هذا زوجي . »

— « طبعاً ، إن عند حبيبي المكيّنة ملابس . لقد أدركت جيداً
أنه زوجك . وملابس جميلة ايضاً ! ملابس كثيرة تتجاوز الحد . من
كل شيء دزينات ، وفساتين حريرية كفساتين السيدات . إنها هناك في
جراب سفري . »

فامرّع صوت الرجل الى القول :

— « يجب ان تعطينا هذا كله . »

فقلت الأم : « طبعاً ، سوف اعطيكما اياه . وهل يُعقل ان اترك

ابنتي عارية ؟ »

وبرز وجه صاحب الفندق .

وقال : « هذا حسن . »

وُخِست المساومة . وأمضت الأم ليلتها في الفندق ، ودفعت ما
'طلب اليها ان تدفعه ، وتركت طفلتها ، واعادت عقْد جرابها الذي
تقلّص بعد ان جرّدت من ملابس الطفلة وغدا خفيفاً ، ومضت لسبيلها
في الصباح ، متوقعة ان ترجع وشيكاً . إن هذه المجرات ونظائرها

تتظم في هدوء ، ولكنها مفعمة بالقرط .
والتقت إحدى جارات امرئة نيناردية هذه الام فيما هي تمضي لسبيلها .
حتى اذا رجعت قالت :
- « لقد رأيت اللحظة امرئة تبكي في الشارع وكأن قلبها يتمزق . »
وحين مضت والده كوزيت قال الرجل لزوجته :
- « إن في ذلك ما يمكنني من ان ادفع السند المالي البالغة قيمته
مئة وعشرة فرنكات ، والمستحق أداؤه غداً . كنت في حاجة الى
خمسین فرنكاً . أندرین ان حاجب المحكمة كان من المنتظر ان يدفع عليّ ،
وأن وثيقة بعدم الدفع كان من المنتظر ان نحرر بحقي ؟ لقد مثلت
انتر وابنتاك الصغيرتان دور مصيدة الفيران تمثيلاً جيداً .
فقلت المرأة : « من غير أن نعرف ذلك . »

٢

رسم إعدادي أول لوجهين مبهمين

كانت الفأرة التي القي القبض عليها ضعيفة البنية جداً ، ولكن النطة
ابتهجت لاصطيادها مجرد فأرة مهزولة .
من كان نيناردية هذا وزوجته ؟
سوف نجتزئ بكلمة نقولها هنا . وفي ما بعد سنكمل الصورة .
كانا ينتسبان الى تلك الطبقة النغلة المؤلفة من اناس أجلاف ارتفعت
بهم الايام ، ومن أناس اذكياء هبطت بهم الايام ، والتي تقع بين ما
ندعوه الطبقة الوسطى وما ندعوه الطبقة الدنيا ، والتي تجمع بعض
خطيئات الثانية ، الى وذائل الأولى كلها تقريباً ، من غير أن تملك حوافز

العامل الكريمة ، وسجايًا البورجوازيّ الباعثة على الاحترام .
كانا من تلك الطبائع القزمية التي اذا اتفق ان مستها نارٌ كالحة
أمت ، في سهولة ، ذات ضخامة هائلة . كانت المرأة ، في اعماقها ،
بهيمة شرسة ، وكان الرجل ، في أعماقه ، وغداً محتالاً . وكان كلاهما ،
في اعلى الدرجات ، قادراً على ذلك الضرب من التقدم البشع الممكن
تحقيقه في اتجاه الشرّ . إن ثمة نفوساً ترحف مثل عقرب الماء * زحفاً
موصولاً نحو الظلمة ، راجعةً القهقري في الحياة ، بدلاً من ان تتقدم
فيها ، مصطنعة ما تمّ لها من تجارب لكي تريد تشوّهها الذاتي ، فكل
يوم يمر بها يجعلها اكثر سوءاً ، واكثر انحداراً نحو الرذيلة المتكاثفة .
هذا الرجل وهذه المرأة كانا من اصحاب هذه النفوس .

لقد كان الرجل على الخصوص خليقاً به ان يجبر المتسكن من علم
الفراسة . اننا لا نحتاج الى اكثر من النظر الى بعض الناس لكي نرتاب
فيهم ، ذلك لأننا نستشعر ظلمة نفوسهم من ناحيتين . انهم قلقون بالنسبة
الى ما فاتهم ، مهددون بالنسبة الى ما يستقبلهم . إنهم لغز من الالغاز .
فنحن لا نستطيع بعد ان نقرر ما قد فعلوه باكثر مما نستطيع ان نقرر ما
سوف يفعلونه . إن الظلمة التي في نظرائهم تشي بهم . فاذا ما سمعناهم
ينطقون بكلمة ، او رأيناهم يؤمنون ايماءة وقفنا على لمحات اسرار مجرمة
في ماضيهم ، والغاز قائمة في مستقبلهم .

وكان تبناردييه هذا ، اذا متنا ان نصدقه ، جندياً ، برتبة رقيب
كما قال . ولعله ان يكون اشترك في حملة ١٨١٥ وان يكون قد
ابلى بلاءً حسناً في ما يبدو . وسوف نرى في ما بعد علام قام بلاؤه
هذا . والواقع ان اللافتة التي تعلق باب فندقه ترمز الى احدي مآثره
الحربية . لقد رسمها بريشته ، إذ كان يعرف شيئاً من كل شيء ، ويعرفه
على نحو ردي .

* او الحيوان المائي المعروف بالمرطان .

كانت تلك الحقبة هي الحقبة التي ألهمت فيها الرواية الكلاسيكية العتيقة (التي كانت من قبل « كليلي » * فهبطت حتى امست « لودويكا » ، والتي احتفظت بنبيلها ؛ ولكنها امعنت في الابتذال يوماً بعد يوم ، هابطة من مدموزيل دو سكوديري الى مدام بارتيليمي هادو ، ومن مدام دو لا فاييت ** الى مدام بورنون مالارم (نفوس بوابات باريس المحبة ، وحدثت بعض الاضرار حتى في الضواحي . وكانت السيدة تينارديه على قدر من الذكاء يكفي بشق النفس لتسكينها من قراءة هذا الصنف من الروايات . لقد اغذت بها . لقد اغرقت فيها عقلها الصغير كله . وهذا ما منحها منذ صباها الاول ، وحتى بعد ذلك بقليل ، ضرباً من النزعة التأملية تجاه زوجها ، وكانت ندلاً على شيء من العمق ، خليعاً لا تكاد ثقافته تبلغ حد علم النحر ، جلفاً ومصقول الحاشية في آن معاً ؛ اما في القضايا « العاطفية » - وكان من قراء بيغو لوبران *** - و « في كل ما يتصل بشؤون الجنس » - كما عثر برطانت - فكان احمق حقيقياً ، احمق صرفاً غير مشوب . وكانت زوجته اصغر منه باثني عشرة سنة او خمس عشرة سنة . وفي فترة متأخرة ، عندما بدأ شعر الباكين الرومانتيكيين بشيب ، وطلقت الـ « ميجير » **** الـ « باميل » ***** ، انتهت مدام تينارديه الى ان تصبح مجرد امرأة بدينة شريرة تذوقت الروايات الخفاه . والحق ان الناس لا

* Clélie رواية من تأليف الاديبة الفرنسية مادلين سكوديري (١٦٠٧ -

١٧٠١) .

** Madame de La Fayette اديبة فرنسية (١٦٣٤ - ١٦٩٣)

*** كاتب فرنسي وضع عدة روايات داعرة وقد ورد ذكره سابقاً .

**** Mègère احدى آلهات الجحيم الثلاث ، رمز الحد والكراهية . ويقصد بها

هنا المرأة الذرة الشريرة .

***** Pamela رواية للكاتب الانكليزي ريكاردسون (١٦٨٩ - ١٧٦١) وهي

قصة خادمة شابة تنجىها الفضيلة من جميع ما نصب لها من الاثراك . وقد جعلها المؤلف

هنا نموذجاً للرواية الاخلاقية .

يقرأون الحقايق من غير ان يحسم الضرر . فكان من عاقبة ذلك ان سميت ابنتها الكبرى ايونين ، وان ابنتها الصغرى كانت على وشك ان تسمى غولنار ، ولكن انحرافاً سعيداً سببته رواية من تأليف دوكري دومينيل * جعلها لا تسمى إلا آريلما .

واياً ما كان فلنقل بالمناسبة إن كل شيء لم يكن مضحكاً وسطحياً في هذه الحقبة الغريبة التي "نلمع اليها" ، والتي نستطيع ان ندعوها فوضى أسماء العمودية . فالى جانب العنصر الرومانتيكي الذي اشرنا اليه كان ثمة العَرَض الاجتماعي . فليس من النادر ، اليوم ، ان نرى صبياً بقارين يدعون آرتور ، وألفرد ، أو آلفونس ؛ وان نرى فيكونتات - اذا كان لا يزال ثمة بقية من هؤلاء - يدعون توماس ، وبطرس ، أو جاك . وهذا التغير الذي يخلع الاسم و الأنثى ، على ابن السوقة ، والاسم الربيعي على ربيب الارستقراطية ، ليس غير اندفاعاً من اندفاعات الموج في مدّ المساواة . ان تسرّب الالهام الجديد الذي لا يقاوم ناشطاً هناك نشاطه في كل شيء آخر . وان تحت هذا التنافر الظاهري لحقيقة ضخمة وحقيقة : الثورة الفرنسية .

٣

القبرة

ان كون المرء شريراً لا يكفل له الرخاء ؛ وآية ذلك ان المظلم الحقيق لم يعرف الازدهار .

واذا كان تيناردييه قد وفق الى تشريف توقيعهِ والتخلص من تلك الوثيقة التي تؤذن بعدم الدفع فالفضل في هذا راجع الى فرنكات فانتين

* Ducray - Duminil روائي شبي فرنسي (١٧٦١ - ١٨١٩)

السبعة والخمسين . وفي الشهر التالي كانا لا يزالان في حاجة الى المال ، فعملت المرأة ملابس كوزيت الى باريس حيث رهنها في مـون دو بيتيه مقابل ستين فرنكاً . حتى اذا نقد هذا المبلغ شرع تيناردييه وزوجته ينظران الى الطفلة الصغيرة نظرتها الى طفلة يؤويها صدقة واحساناً ، وعاملاها على هذا الاساس . واذ لم يبق لديها أيّ ملابس ، فقد ألباسها قمصان طفلتيها القديمة وتتايرهما العتيقة ، يعني انها البسها اسمالاً بالية . ليس هذا فحسب ، بل لقد أطعمتها فضلاتها وفضلات بنتيها - أطعمتها على نحو أحسن قليلاً من الكلب ، وأسوأ قليلاً من الهرة . كان الكلب والهرة رفيقي مائدتها الدائمين . لقد أكلت كوزيت معها تحت الطاولة في صحن خشبي مثل صحنيتها .

وكانت أمها ، التي استقرت كما سوف نرى بعد في مونقوي سور مير ، تكتب اليها ، او على الاصح تكلف احداً بالكتابة اليها ، مرة كل شهر ، مستطلعةً انباء ابنتها . وكان تيناردييه وزوجته يجيبانها جواباً لا يتغير :

- « كوزيت في حال ممتازة جداً . »

وتقضت الاشهر الستة الأولى . وأرسلت الأم سبعة فرنكات مقابل الشهر السابع ، وواصلت ارسال هذا المبلغ على نحو نظامي شهراً إثر شهر . ولم يكد العام ينقضي حتى قال تيناردييه : « إن هذا لثمن رائع حقاً ! ايّ شيء تنتظر منا ان نفعله مقابل فرنكانها السبعة ؟ » وكتب اليها رسالة مطالباً باثني عشر فرنكاً . ووافقت الأم - وهي التي أقنعها صاحب المطعم وزوجته بأن ابنتها سعيدة مسرورة - وارسلت اليهما الفرنكات الاثني عشر .

ان ثمة بعض الطبايع التي لا تستطيع ان تحب من ناحية من غير أن تكره من ناحية أخرى . كانت تيناردييه الأم هذه تحب طفليها الصغيرين حباً جماً ، واعد حملها ذلك على ان تبغض الطفلة الغريبة .

وانه لمن المؤسف ان يفكر المرء بأن حب أم من الامهات يمكن ان تكون له مظاهر بشعة . فعلى الرغم من ضيق المجال الذي احتله كوزيت في منزلها ، فقد تراءى لها ان هذا المجال الصغير قد انتزع من طفلتها ، وان هذه الغريبة الصغيرة قد أنقصت الهواء الذي تنفسته ابنتها . وكانت لهذه المرأة ، شأن كثيرات من نوعها ، جبهة من الملاحظات ، وجبهة من الضربات والشتائم تنفقها كل يوم . ولو لم تكن كوزيت ضيقة عليها اذن لكان من الثابت ان تتلقى ابنتها - بوغم حبها العظيم لهما - ذلك كله . ولكن الغريبة الصغيرة خدمتهما فحوّلت الضربات الى جسدها هي . وهكذا لم يُصَب ابنتها غير الملاحظات . فما ان تتحرك كوزيت حركة حتى ينهال على رأسها وابل من ضروب العقاب القاسي الذي لا تستحقه . كانت طفلة رقيقة ضعيفة لا تعرف شيئاً عن هذا العالم ، او عن الله ، ثم الحف على نحو موصول ، وثقوع ، وتعاقب ، وتضرب ، ثم ترى الى جانبها طفلتين صغيرتين تعيشان وسط هالة من المجد !

لقد أساءت المرأة الى كوزيت وخاشنتها . وكذلك فعلت ايونين وآزيليلا ايضاً . فليس الاطفال في هذه السن إلا نسخاً طبق الاصل عن الأم . إن القَطْع أصغر ، ليس غير . وانقضى عام ، وتبعه ثان . وقال الناس في القرية :

- « ما اطيب تيناردييه وزوجته ! لهما لبسا غنيين ، ومع ذلك فهما ينشئان فتاة مسكينة تركت عندهما ! »
لقد حسبوا أن أم كوزيت نسيها .

وفي الوقت نفسه ، وبعد ان علم تيناردييه من طريق خفي ان الطلة كانت في اغلب الظن غير شرعية وان امها لا تستطيع ان تعترف بها ، طالب بخمسة عشر فرنكاً في الشهر قائلاً ان « المخلوقة » كانت تنمو

وانها « تسرف في الأكل » ، مهددآ بطردها .
وصاح : « انها لن تخدعني ! سوف اسحقها وطفلتها في قلب المكان
الذي تختبئ فيه ! يجب ان احصل على مبلغ اكبر . »
ودفعت الأم خمسة عشر فرنكاً .

ومن عام الى عام كبرت الطفلة ، وكبر معها شقاؤها ايضاً .
كانت كوزيت اول الاسر « تبس المغفرة » الذي يتحمل ذنوب
الفناتين الآخرين . ولكن ما ان اخذت تنمو قليلاً ، يعني قبل ان
تبلغ الخامسة من العمر ، حتى غدت خادمة المنزل .

وقد يقول قائل : خمس سنوات ؟ هذا غير محتمل الوقوع .
وأسفاه ! انه صحيح . إن العذاب الاجتماعي يبدأ في مختلف الاعمار .
ألم نشهد منذ قريب محاكمة دومولارد ، ذلك اليتيم الذي امسى قاطع
طريق ، والذي وجد نفسه وحيداً في هذا العالم فحاول - وهو بعد في
الخامسة من العمر كما تقول الوثائق الرسمية - أن « يكسب قوته
فسرقة ؟ »

وكلفت كوزيت بشراء الحاجات المنزلية ، وكس الفرف ، والقناء ،
والشارع ، وغسل الاطباق ، بل وبحمل الاثقال . واستشعر تيناردية
وزوجته ان حقها في معاملتها على هذا النحو يتعاضد بعد ان بدأت
الأم ، المقيمة ابدآ في مونثروي سور مير ، تتأخر في الدفع . لقد
استعقت عليها اجور بضعة اشهر .

ولو قد عادت هذه الأم الى مونثروماي ، عند نهاية هذه السنوات ،
اذن لما عرفت ابنتها . ذلك ان كوزيت ، التي كانت بالغة الملاحه
محنة في النضارة لدن وصولها الى هذا المنزل ، امست الآن مهزولة
شديدة الشحوب . كانت تطفو على وجهها انطباعة قلقه مضطربة . وكان
تيناردية وزوجته يقولان : « خبيثة ماكرة ! »

كان الظلم قد جعلها كالحة الوجه ، وكان الشقاء قد جعلها فيححة .

ولم يبق لها غير عينيها الجيلتين ؛ وكان النظر اليها يوقع الالم في النفس
لانها بدت ، بسبب من انساعها ، وكأنها تريد ان في مقدار حزنها
وكآبتها .

وكان بما يمزق القلب ان ترى ، في ايام الشتاء ، الى هذه الطفلة
البائسة التي لم تتجاوز السادسة ، ترتجف تحت الحرق البالية التي كانت ذات
يوم فتاة من الحام ، كانه الشارع قبل مطلع الفجر بمكنسة ضخمة
تحميها بيديها الصغيرتين المرارين ، وقد تفرقت الدموع في عينيها
الواسعتين .

وفي تلك المنطقة كانوا يدعونها القبرة . ان الناس يحبون الاسماء
المجازية ، ومن هنا سرهم ان يخلعوا هذا الاسم على تلك الخلوقة الصغيرة
التي لا يزيد حجمها على حجم الطائر ، المرتدة ، المروعة ، المرتجفة ، المستيقظة
كل صباح قبل اهل المنزل جميعاً واهل القرية جميعاً ، العاملة ابدأ في
الشارع او في الحقول قبل ان يرتفع الضحى .

بيد ان القبرة المسكينة لم تنطق حنجرتها بالغناء في يوم من الايام .

الكتاب الخامس

الانحدر

١

قصة تحسين في صناعة الزجاج الاسود

ما الذي حلّ ، في غضون ذلك ، بهذه الأم التي بدت - وفقاً لما ذهب اليه أبناء مونفيرماي ، وكأنها هجرت طفلتها ؟ أين كانت ؟ ماذا كانت تعمل ؟

لقد مضت لسبيلها ، بعد ان تركت بنتها الصغيرة عند تيناردييه وزوجته ، حتى بلغت مونتروي سور مير .

ولما كان ذلك ، كما نذكر ، في عام ١٨١٨ . كانت فانتين قد غادرت تلك الديار منذ اثني عشرة سنة تقريباً ،

وكانت معالم مونتروي سور مير قد تغيرت . ففيما كانت فانتين تنحدر في بطنها من شقاء الى شقاء كان مسقط رأسها قد اخذ سبيله نحو الازدهار . منذ سنتين تقريباً تم في تلك البلدة تطور من تلك التطورات الصناعية التي تقلب وجه الحياة في المجتمعات الصغيرة . وهذا الحدث ذو خطر . ونحسب ان من الخير ان نروي خبره ، بل ان نروي به بأحرف ضخام .

فمن اقدم الازمان وصناعة سكان مونتروي سور مير الخاصة تقليد الزجاج الانكليزي الملون والحرز الالماني الاسود . وكانت تلك الصناعة تشكو أزمة موصولة بسبب من غلاء المواد الاولى على نحو كان له اثره في اليد العاملة . حتى اذا رجعت فانتين الى مونتروي سور مير كانت تغير كامل قد طرأ على انتاج هذه « البضائع السوداء » . ذلك بأن رجلاً مجهولاً كان قد استقر في تلك البلدة ، اواخر عام ١٨١٥ ، وخطر له ان 'يحل' صنغ اللك * ، في تلك الصناعة ، محل صنغ الصنوبر . اما في عمل الاساور على الخصوص فقد صنع المشابك بمجرد قتل احد طرفي المعدن على الآخر بدلاً من لحمها بالالتحام .

واحدث هذا التغير البالغ الضالة ثورة في الصناعة . ان هذا التغير البالغ الضالة قد خفض نفقات المواد الاولى تخفيضاً هائلاً ، وهذا ما جعل من الممكن ، اولاً ، رفع اجرة اليد العاملة - وفي ذلك فائدة للبلاد - وثانياً ، تخمين الانتاج - وفي ذلك خدمة للمستهلك - وثالثاً بيع ذلك الانتاج بسعر ادنى مع الفوز بثلاثة اضعاف الربح القديم - وفي ذلك كسب للمنتج .

وهكذا نشأت عن هذه الفكرة نتائج ثلاث . وفي اقل من ثلاث سنوات غدا مبتدع هذه الطريقة غنياً ، وهو شيء حسن ، وجعل كل من حوله غنياً ، وهذا احسن . كان غريباً

* اللك : نبات يتخذ منه نوع من الصنغ .

عن المقاطعة . وكان الناس لا يعرفون عن اصله شيئاً ، ولا يعرفون عن تاريخه الاول غير القليل .

وتحدثت الناس بأنـه وفد على المدينة وليس معه غير دراهم معدودات - بضع مئات من الفرنكات على الاكثر .
ومن رأس المال الضئيل هذا ، المسخر في خدمة فكرة عبقرية ، المشتر بالنظام والروية ، أستمدة ثروة لنفسه ، وثروة للمنطقة كلها .
وعند وصوله الى مونتروي سور مير لم يكن عنده غير ثياب العامل ، وعادات العامل ، ولغة العامل .

ويبدو انه في اليوم نفسه الذي دخل فيه بلدة مونتروي سور مير على هذا النحو الفامض ، عند هبوط الليل من احد ايام كانون الاول ، وعلى ظهره كيس وفي يده عصاً شوكية ، اندفعت نار هائلة في دار البلدية . فاقشع هذا الرجل النار ، وأنفذ ... مغامراً بحياته - طفلين ظهر بعد انهما ولدا قائد الدرك . ومن هنا لم يفكر احد قط في ان يسأله إبراز جوازه . ولقد عرف منذ ذلك الحين بالاب مادلين .

٢

مسيو مادلين

كان رجلاً في نحو الخمسين ، تبدو عليه سيما المستغرق في العمل ، ذي النفس الكريمة . ذلك كل ما كان في استطاع المرء ان يقوله عنه .
وكانت مونتروي سور مير قد غدت بفضل ما تم لهذه الصناعة من تقدم مربع أسبع هو عليه حياة رائعة جداً ، مركزاً تجارياً ذا خطر .
لقد أخذت تصدر كل عام مقادير هائلة من انتاجها الى الاسواق الاسبانية حيث تشتد الرغبة في الحرز الاسود ، وكادت ان تضاهي ، في هذا

الميدان ، كلاً من لندن وباريس . وكانت ارباح الاب مادلين كبيرة الى درجة مكنته ، في نهاية النة الثانية ، من ان ينشيء مصنعاً ضخماً يحتوي على معلمين واسعين ، احدهما للرجال والآخر للنساء . كان في ميسور اياما جائع ان يطرق ابواب هذا المصنع ، وان يستيقن انه سوف يجد فيه عملاً وخبزاً . وكان الاب مادلين يتطلب في الرجال حسن النية ، ويتطلب في النساء الاخلاق الحميدة ، ويتطلب فيهم جميعاً الامانة والاخلاص . لقد قسم المصنع لكوي يفصل ما بين الجنسين ، ولكوي يحفظ النسوة والفتيات باحتشامهن . وفي هذه المسألة ، كان صلباً لا يلين . كانت هي المسألة الوحيدة التي لم يعرف فيها التسامح قط . وانما زاده نعلماً بهذه النسوة ان المزالق الاخلاقية كانت موفورة في مونتروي سور مير بوصفها مقرّ حامية من الحاميات العسكرية . واخيراً كان قدومه نعمة ، ووجوده فضلاً من الله . فقبل ان يصل الاب مادلين الى المنطقة كانت ذابطة كلها ، اما الان فقد غدا كل ما فيها فاضراً بحياة العمل الصحية . لقد أوقع الدم الناشط الدفء في كل شيء ، وتسرب الى كل شيء . واحتت البطالة والبؤس ، فلم تبق ثمة جيب قائمة الى حد يجعلها خلواً من بعض الدراهم ، ولم يكن ثمة مأوى فقير الى حد يجعله حراماً على شيء من البهجة .

وشغل الاب مادلين كل انسان . كان عنده شرط واحد ليس غير :
« كن رجلاً أميناً ! » ، « كوني امرأة أمينة ! » ،

وفي فترة هذا النشاط ، الذي كان هو سببه وبحووه ، جمع الاب مادلين ثورته . ولكن ذلك لم يبدُ همّه الرئيسي ، وهي ظاهرة غريبة جداً بالنسبة الى مجرد رجل من رجال الاعمال . لقد بدا انه يفكر في مصلحة الآخرين كثيراً ، ويفكر في مصلحته الذاتية قليلاً . وفي عام ١٨٢٠ كان معروفاً انه يملك سبعة وثلاثين الف فرنك موضوعة باسمه في مصرف لافيت . ولكن قبل ان يدّخر هذه الستة والثلاثين الف

فرنك كان قد انفق اكثر من مليون فرنك على المدينة وعلى الفقراء . كانت اوقاف المستشفى هزيلة فأخذ على عاتقه نفقة عشرة سُرُرٍ إضافية . وتنقسم مونتروي سور مير قسمين : المدينة العليا ، والمدينة السفلى . ولم يكن في المدينة السفلى حيث يقطن غير مدرسة واحدة هي عبارة عن بناء حقير يتداعى الى السقوط . فبنى اثنتين : احدهما للصبيان ، والاخرى للبنات ، ودفع الى المعلمين من جيبه هو ضعف راتبها الحكومي الهزيل . وذات يوم قال لجار له استغرب هذا الوضع : « ان أسمى موظفين في الدولة هما الممرضة والمعلم . » وشيد على نفقته الخاصة ملجأ للعاجزين ، وهي مؤسسة تكاد تكون غير معروفة في فرنسا ، ورصد اموالاً للعامل الشيوخ والمعتلين . وما لبث ان نشأ حول مصنعه ، حيّ جديد نما نمواً سريعاً ، وانتظم كثيراً من الأسر الفقيرة . وهناك اسس صيدلية قدمت الدواء الى الجميع ، من غير مقابل .

وفي البدء ، حين شرع يجتذب الانتباه العام ، قال الطيبون من الناس : « هذا رجل يريد ان يغتني . » وحين رأوه يُغني البلاد قبل ان يُغني نفسه قال الاناس الطيبون انفسهم : « هذا الرجل طموح . » ولقد بدا هذا اكثر احتمالاً ، اذ كان نقياً ، حريصاً على اداء الطقوس الكنسية ، الى حد ما ، وهو شيء كان يُستقبل في ذلك الزمن بكثير من الرضا . كان يمضي يوم الاحد ، على نحو نظامي ، لسماع القداس . فما هي الا فترة قصيرة حتى استشر نائب المنطقة - وكان يستروح المنافسة في كل مكان - شيئاً من القلق بسبب من تدبّر مادلين . وكان هذا النائب - العضو في هيئة الامبراطورية التشريعية - يقول بالآراء الدينية التي نادى بها احد آباء رهبانية الأوراتوار ، ويُعرف باسم فوشيه دوق اوترانت ، وكان صنيعة وصديقه . وفي المجالس الخاصة ، كان هذا النائب يسخر من الله سخريّة خفيفة . ولكنه ما إن رأى الصناعي الموسر ، مادلين ، يشهد القداس غير الصارخ في الساعة السابعة حتى

استشفّ فيه مرشحاً من مرشحي المستقبل المنافين له على النيابة ، وعزم على أن يبرّزه . فاصطعب كاهناً يسوعياً معروفاً ، وشهد وإياه القداس الصارخ وصلوات العصر او الغروب . وكان الطموح في ذلك العهد ، كما يدل المعنى المباشر لهذه اللفظة ، ضرباً من سباق يُجرى بين الفرسان في حقل كثير العوائق والعقبات . وافاد الفقراء ، وافاد الله ايضاً ، من هذا الهول ؛ ذلك بأن النائب النبيل تبرّع بنفقة سريرين اضافيين من مرور المستشفى ، وهكذا أصبح عددها اثني عشر .

واخيراً ذاع بين الناس في المدينة ، ذات صباح من ايام سنة ١٨١٩ نبأ يقول انه بناء على اقتراح المحافظ ، وتقديراً للخدمات التي اداها الاب مادلين الى المنطقة ، فقد اصدر الملك امراً بتعيينه عمدة لبلدة مونتروي سور مير . فما كان من اولئك الذين حكموا على الوافد الجديد بأنه « رجل طموح » إلا ان اغتنموا هذه الفرصة - التي يتمناها كل انسان - ليصبحوا في حماسة بالغة :

- « أرايتم ! ألم نقل لكم ذلك ؟ »

ولغطت مونتروي كلها بالنبأ . وما كان النبأ كاذباً . فبعد بضعة ايام نُشر مرسوم التعيين في الـ « مونيتور » . وفي اليوم التالي رفض الاب مادلين قبول المنصب .

وفي تلك السنة نفسها - ١٨١٩ - وجدت نتائج الطريقة الجديدة التي ابتدعها مادلين مكاناً لها في المعرض الصناعي . وبناء على تقرير لجنة المحكمين منح الملك مخترعها وسام جوقة الشرف من رتبة فارس . وهنا لغطت المدينة الصغيرة كرة اخرى . « حسن ! وإذن فقد كان بطمع في وسام جوقة الشرف دون غيره ! » ورفض الاب مادلين الوسام .

ليس من ريب في ان هذا الرجل لغز من الالغاز . وألقى الطيبون من الناس سلاحهم قائلين :

— « وعلى أية حال ، فهو لا يعدو أن يكون مغامراً ! »
كانت البلدة مدينةً لهذا الرجل كثيراً ، كما قد رأينا ، وكان الفقراء
مدينين له بكل شيء . كان نافعاً الى درجة اكرهتهم كلهم على إجلاله ،
وكان دمثاً الى درجة جعلتهم كلهم يجمعون على حبه . وكان عماله ، على
الخصوص ، يحبونه حتى العبادة ، وكان هو يتقبل حبهم هذا بضرب من
الوقار الكئيب . وحين انقادت اليه الثروة شرع اولئك الذين يتألف منهم
« المجتمع الراقي » ينحنون له حين يلقونه ، واخذ أهل المدينة يدعونه
« مسيو مادلين » . اما عماله ، واما الاطفال فظلوا يدعونه « الاب
مادلين » ؛ وكان وجهه يشرق دائماً بابتسامة ، لدن سماعه هذا النداء .
وظفت الدعوات تنهال عليه كالمطر بعد ان اتخذ سبيله في مراقي العز
والشهرة . وادعاه « المجتمع الراقي » . وفتحت صالونات مونتروي سور
مير الصغيرة المتكلفة للعظمة ، الحسنة التنظيم ، والتي كانت في الايام الأولى
محرمّة على الصانع الحقير — فتحت هذه الصالونات ابوابها على مصاريعها
للليونير . لقد قدّم اليه الف عرض وعرض ، ولكنه رفضها كلها .
وهذه المرة ايضاً لم يكف أصحاب النفوس الطيبة عن لغوهم .
« إنه رجل جاهل ، ذو ثقافة هزيلة . إن احداً لا يعرف من اين
أقبل . إنه لا يعرف كيف يسلك في المجتمعات الراقية . وليس من
الثابت بحال من الاحوال أنه يعرف القراءة . »

حين رأوه يكسب ثروة قالوا : « انه تاجر » . وحين رأوه يبذّر
ثروته قالوا : « انه طموح » . وحين رأوه يرفض المناصب والاورسمة
قالوا : « إنه مغامر » . وحين رأوه يجتنب المجتمع الراقي قالوا : « إنه
بهيمة » .

وفي سنة ١٨٢٠ ، بعد انقضاء خمس سنوات على وصوله الى مونتروي
سور مير ، كانت خدماته التي قدّمها الى المنطقة ساطعة جداً ، وكانت
رغبة السكان كلهم إجماعية الى حد جعل الملك يعيد تعيينه عمدة

للمدينة . ورفض كرة أخرى . ولكن المحافظ لم يقبل رفضه ذلك ، ووفد عليه وجوه البلدة يسألونه ان يقبل ، وتضرع اليه الناس في الشوارع ، وكان الالحاح شديداً الى درجة حملته آخر الأمر على الاذعان . ولقد لاحظ القوم ان الذي دعاه الى القبول اكثر من اي شيء آخر ، في ما يبدو ، تلك الصيحة التي توسك ان تكون غاضبة ، والتي أطلقها من على عتبة بابها - في شيء من الخلق - امرأة من الطبقة الأكثر فقراً :

- « العمدة الصالح شيء مفيد . فهل انت خائف من الخير الذي تستطيع أن تعمله ؟ »

كانت هذه هي المرحلة الثالثة من مراحل ارتقائه . كان الاب مادلين قد أمسى مسيو مادلين ، وها قد غدا مسيو مادلين السيد العمدة .

٣

اموال مودعة عند لافيت

وأياً ما كان ، فقد ظلّ بسيطاً شأنه في ابامه الاولى . كان ذا شعر اسنوب ، وعين واعية ، وبشرة سمراء كبشرة العامل ، وبحيثاً مفكر كميّ الفيلسوف . وكان من دأبه ان يعتبر قبعة عريضة الحاشية ، وان يرتدي سترة طويلة من قماش خشن ، مزوّرة حتى الذقن . لقد ادى واجباته بوصفه عمدة ، ولكنه عاش في ما وراء ذلك عيشاً منعزلاً . كان يتحدث مع نفر قليل من الناس ؛ وكان ينفر من الجماعات ، فهو يمسّ قبعته تلك ويمضي لسبيله في غير اناة . كان يبتسم اجتناباً للكلام ، وكانت يعطى ، اجتناباً للابتسام . وقالت النسوة عنه : « ياله من دب طيب نافر من الناس ! » كانت متعته التمشي في الحقول .

كان يتناول طعامه وحده دائماً ، وامامه كتاب مفتوح يطالع ف كانت مكتبته صغيرة ، ولكنها مختارة . لقد احب الكتب ، فالكتاب صديق بارد ، ولكنه موثوق . واذا سمحت له ثروته المتعاطية بمقدار اكبر من اوقات الفراغ ، فقد بدا وكأنه يفيد من هذا الفراغ ، في تثقيف عقله . ومنذ ان وفد على مونتروي سور مير لوحظ ان لغته غدت اكثر صفالاً ، واحسن اختياراً ، وارق حاشية ، عاماً إثر عام . وكان يحب ان يحمل في نزواته ، بندقية ، ولكنه لم يكن يستعملها الا نادراً . حتى اذا اتفق له ذلك اجاباً ، كان هدفه لا يخفي ، الى حد مرّوع . إنه لم يقتل قط حيواناً غير مؤذٍ ، ولم يطلق النار قط على أيّ من صغار الطير .

وعلى الرغم من أنه لم يعد شاباً فقد قبل إنه كان على قوة أسطورية . كان يمد يد العون الى كل من يحتاج اليها ، فيقبل عثرة جواد كبا ، ويدفع عجلة ساخنة في الطين ، او يمسك بقرني ثور هارب . وكانت جيوبه مملوءة بالنقود كلما انطلق ، وكانت جيوبه فارغة من النقود كلما رجع . فاذا اجاز بقرية من القرى لحق به الاطفال ذور الاسمال البالية فرحين مبهجين ، وتحلقوا حوله مثل سرب من الذباب .

وحس القوم بأنه ينبغي ان يكون قد عاش ، قبل ذلك ، في الريف ، فقد كان على علم بضروب الاسرار النافعة يعلتها للفلاحين . لقد علمهم كيف يقضون على عثة القمح بان ينضحوا العنبر ، ويفلوا فحوات ارضه ، بسائل الملح ، وكيف يطاردون سوس القمح بأثر يعلّقوا في كل مكان - على الجدران وعلى السطوح ، في الحيطان الفاصلة وفي البيوت - زهرات الاورفير . وكانت لديه صفات لتحرير الحقول من وباء دود الحبر ، وسوسة الزرع ، ومن الكرسة ، وذيل الثعلب ، وجميع النباتات الطفيلية التي تعيش على القمح . ولقد سمى الارانب من

الفئران براحة ختوص * من خنايص بلاد البربر وضعه هناك
ليس غير .

وذاث يوم رأى بعض ابناء المنطقة منهمكين في اقتلاع القُرّاص
فنظر الى كومة الثبات المتأصلة ، والتي بدأ الجفاف بصيها وقال :
- « هذه ميتة . ولكن من الخير ان نعرف كيف نقيدها منها .
فعين يكون القُرّاص صغيراً تكون اوراقه بقلأ ممتازاً . وحين ينمو
يصبح ذا خيوط وألياف مثل القنب والكتان . والنسيج المصنوع من
القُرّاص لا يقلّ قيمة عن نسيج القنب . والقُرّاص ، مقروماً ، يصلح
طعاماً للطيور الداجنة . والقُرّاص ، مسحوقاً ، يصلح طعاماً للماشية
ذوات القرون . وبذر القُرّاص ، ممزوجاً بعلف الحيوانات ، يخلع على
جلودها بريقاً . وجذورها ، ممزوجاً بالملح ، يحدث صبغاً اصفر
جميلاً . وهو ، الى ذلك ، صائفة ممتازة نستطيع ان نجزّها مرتين في
الموسم الواحد . وإلام يحتاج القُرّاص ؟ الى قليل من التربة ، والى لا
عناية ، ولا حراثة . بيد ان بذوره تتساقط حالما تنضج ، ومن العسير
جمعها . هذا كل ما هنالك . فاذا ما تجشمتا بعض الغناء ، أمسى
القُرّاص ذا غناء . واذا ما أهملناه ، اصبح مؤذياً . وعندئذ نقتله .
ما اكثر الرجال الذين يشبهون القُرّاص ! »
وصمت لحظة ثم اضاف :

- « يا اصدقائي ، اذكروا هذا : ليس ثمة اعشاب رديئة ، وليس
ثمة رجال اردياء . ليس ثمة غير زراع اردياء . »
وتعاطف حب الاطفال له لانه عرف كيف يعمل لعباً صغيرة فاتنة
من القش ومن جوز الهند .

وكان اذا ما رأى باب كنيسة مجللاً بالسواد ، دخل . كان يلتبس
الجنّازة كما يلتبس غيره المعبودية . وكان ثكل الآخرين وأرزاؤهم تجذبه

* الخوص : الخنزير الصغير .

بسبب من رفته البالغة . وكان يختلط بالاصدقاء اللابسين ثوب الحداد وبالأسر المتشعة بالسواد ، وبالكهنة المنتهجين حول نعش . لقد بدا سعيداً بأن يتخذ موضوعاً لافكاره من هذه الترائيل المزمورية المأتمية الحافلة برويا عالم آخر . وبعينين مرتفعتين الى السماء كان يصيح في ضرب من التوق الى اصرار اللانهاية جميعاً ، الى هذه الاصوات الحزينة التي تئنشد عند حافة هاوية الموت المظلمة .

لقد قام بجمهرة من الاعمال الصالحة بمثل الكتمان الذي يُصطنع عادة في الاعمال الطالحة . كان يتسلل ، في موهن من الليل ، الى المنازل ، ويرتقي السلم خلسة . فكم من بائس رجع الى عليته فوجد بابها مفتوحاً بل مكسوراً في بعض الاحيان ، أثناء غيابه ، فصاح : « لقد كان ههنا لص ! » حتى اذا دخل العلية كان أول ما يراه قطعة من الذهب منسية على طاولة . إن « اللص » الذي كان هناك لم يكن غير الاب مادلين . كان انبياً ومحزوناً . وكان الناس يقولون :

— « هو ذا رجل غني لا يشخ بأنفه . هو ذا رجل سعيد لا تبدو عليه أمارات الرضا . »

وزعم بعضهم أنه شخصية غامضة ، واعلنوا ان أحداً لم يدخل قط غرفته التي كانت حجيبة ناسك حقاً — حجيبة مؤتنة بالساعات الرملية المجنحة ، مزخرفة بعظام الساق المتصالبة ، وبمحاجم الموتى . واكثر القوم من تكرار هذه المزاعم حتى لقد زارته ذات يوم بعض سيدات مونتروي سور مير الشابات ، الانبيات ، الماكرات وقلن له :

— « أيا السيد العدة ، هل لك ان ترىنا غرفتك ؟ لقد سمعنا أنها مغارة . »

فابتسم ، وقادهم في الحال الى هذه « المغارة » . وعوقب عقاباً قاسياً على فضولهم . كانت غرفة مزودة على نحو ملائم جداً بأثاث مصنوع من خشب الماهوغاني ، البشع مثل سائر الاثاث المماثل ، وكانت

جدرانها مغطاة بورق لا يزيد ثمنه على اثني عشر « سو » . ولم يستطعن ان يرين شيئاً غير شمعدين ذوي شكل عتيق قائمين فوق الموقد ، وقد ظهرا وكأنهما فضيان ، « اذ كانا موسومين بِسِمَةٍ رَسْمِيَةٍ » ، وهي ملاحظة تنضج بروح هذه المدن الصغيرة .

ومع ذلك فما كفى الناس عن القول إن احداً لم يدخل الى تلك الغرفة ، وإنما كانت كهف ناسك ، وموطن احلام ، وحفرة ، وقبراً . وتهاوس القوم ايضاً بأنه أودع مصرف لافيت مقادير « هائلة » من المال على شرط خاص يجعلها دائماً تحت امرته المباشرة بحيث يكون في ميسور مسيو مادلين - كذلك اضافت هذه الهبات - ان يشخص صاحباً الى مصرف لافيت ، فيرتفع ايضاً ويحمل مليونيه الاثنين أو ملايينه الثلاثة في عشر دقائق . والحق أن « هذين المليونين الاثنين » أو « هذه الملايين الثلاثة » كانت قد انكسرت ، كما سبق منا القول ، الى ستة وثلاثين ألف فرنك ، أو ستة واربعين ألف فرنك .

انتهى الجزء الثاني

ويليه الجزء الثالث

البؤساء

لشاعر فرنسية العظيم
فيكتور هيجو

٣

نقله إلى العربية
مُنير العبدلي

دار العلم للملايين
بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

أيار (مايو) ١٩٥٥

الطبعة الثانية

أيلول (سبتمبر) ١٩٧٩

مسيو مادلين في ثياب الحداد

وحوالى مطلع عام ١٨٢١ نعت الصحف مسيو ميريل ، اسقف د
 « الملقب بمونسينيور بينفينو » ، الذي توفي عابق الصيت بعبير القداسة
 في الثانية والثمانين من العمر .
 وكان اسقف د ... - وهذه حقيقة أغفلت الصحف الاشارة اليها - قد
 فقد حاسة البصر قبل وفاته ، بضع سنوات ، وقد ارتضى ذلك اذ
 كانت اخته الى جانبه .

ولنقل بالمناسبة لأن يكون المرء اعمى ومحبوباً هو من غير ريب
 شكل من اطيب اشكال السعادة واعجبها ، في هذه الاوضاع حيث لا
 شيء كامل . لأن تكون الى جانبك على نحو موصول امرأة ، بل
 فتاة ، بل اخت ، بل كاتبة فائقة ، تقيم هناك لانك في حاجة اليها
 ولأنها لا تستطيع ان تحب بدونك ؛ ولأن تعلم انك ضروري لا سبيل
 الى الاستغناء عنك في نظر من تحتاج اليها ؛ ولأن تستطيع في مختلف
 الظروف والاحوال ان تقيس حنانها بمقدار مثولها بين يديك ، وأن
 تقول لنفسك : « انها تقف وقتها كله لخدمتي لاني املك قلبها كله » ؛
 ولأن ترى الفكر بدلاً من الوجه ؛ ولأن تستيقن من ولاء مخلوقة ما
 بعد إظلام الكون ؛ ولأن تتخيل حفيف ثوبها وكأنه حفيف اجنحة ؛
 ولأن تسمعها تتحرك جيئة وذهوباً ، خارجة من الغرفة ، داخله اليها ،
 متحدثه ، مغتية ، وان تفكر انك نقطة الدائرة في هذه الخطى ، وهذه
 الكلمات ، وهذه الاغنية ؛ ولأن تظهر في كل دقيقة جاذبيتك الخاصة ؛
 ولأن تشعر انك تزداد سلطاناً كلما ازددت عجزاً ؛ ولأن تغدو في

الديجور ، وبسبب من الديجور ، النجم الذي يدور حوله هذا الملاك - لأن يتم لك ذلك كله مرتبة في السعادة يندر ان تدانيها مرتبة . انت اسمى مراتب السعادة في الحياة إيماننا بأننا محبوبون ؛ محبوبون لذواتنا - وبكلمة افضل - محبوبون برغم ذواتنا . وهذا الايمان يتمتع به الاعمى . إنه يجد في الخدمة التي تسديها اليه ، في محنته ، ضرباً من الملاطفة والتدليل . اهو محروم من اي شيء ؟ لا . ان النور لا يعوز الموطن الذي يدخل اليه الحب . واي حب ؟ حب مؤسس كله على الطهر . ليس ثمة عى حيث يوجد يقين . ان الروح لتلتبس في الظلام بجناً عن الروح ، وإنها لتجدها . وتلك الروح المكتشفة المثبتة على هذا النحو هي امرأة . ان يدأ لتسندك ، تلك هي يدها . وان شفتين لمتان جبينك مساً رفيقاً ، إنهما شفتاها . انك لتسمع نفساً يتردد قريباً منك ؛ إنها هي . ولأن تنعم بها كاملة ، من تقواها الى شفتها ؛ ولأن لا تُترك وحدك البتة ؛ ولأن تسعد بذلك الضعف العذب الذي هو سنادك ؛ ولأن تتوكأ على تلك القصة التي لا تلتوي ؛ ولأن تمس العناية الالهية بيديك وتمكن من ان تضما بين ذراعيك ؛ ولأن يصبح الله جلياً ملموساً - لأن تفوز بهذا كله لهو الخطف اي الخطف ! إن القلب - تلك الزهرة السماوية المظلمة - لينفتح على نحو عجيب . وخليق بك ان لا تبسع هذا الظلام بالنور كله ! إن الروح الملاك هي هناك ، هي هناك الى الابد . واذا ما ابتعدت مرة فلكي ترجع ثانية . انها تمنحي كالحلم ، ثم تعاود الظهور كالحقيقة . انك تستشعر دفئاً يقترب ؛ إنها هناك . انك تقيض صفاءً ، وجدلاً ، ونشوة ؛ إنك لتشع وسط الظلمة . وألف من ضروب الالتفات والعناية الصغيرة ! تلك التوافه التي هي هائلة في هذا الفراغ . ونبرات الصوت الانشوي الاكثر امتناعاً على الوصف التي تصطنع لهددتك ، وتعويضك من الكون المتلاشي ! إنك تلاطف وتدلل من خلال الروح . انت لا ترى شيئاً ، ولكنك

تحسب انك موضع حب عظيم . انها جنة من ظلام .

من هذه الجنة انتقل مونسينيور بييفينو الى الجنة الاخرى .

وردت صحف مونتروي سور مير المحلية هذا النعي . وفي صباح اليوم التالي برز مسيو مادلين في ثوب الحداد الاسود وطوق قبعته بعصابة حريرية سوداء .

ورأى اهل المدينة الى هذا الحداد وتحذوا عنه في كل مكان . لقد بدا وكأنه يلقي بعض الضوء على اصل مسيو مادلين . واستنتج القوم أنه كان على صلة ما بالاسقف الجليل . وقال المختلفون الى الصالونات : « انه يلبس السواد حداداً على اسقف د... » ورفع ذلك من مقام مسيو مادلين شيئاً كثيراً ، وأسبغ عليه فجأة ، ودفعة واحدة ، اعتباراً ملحوظاً في مجتمعات مونتروي سور مير الراقية . وفكرت « ساف جيرمان » ، وهي ضاحية بالغة الصغر من ضواحي المنطقة ، في ان ترفع الجبر عن مسيو مادلين ، نسيب الاسقف المحتل . وادرك مسيو مادلين اي تقدم احرز ، من خلال إجلال السيدات العجائز له على نحو متعاطف ، وابتسام السيدات الشابات في وجهه على نحو متزايد . وذات يوم تجرأت إحدى السيدات الاكثر إمعاناً في الشيخوخة ، في ذلك الوسط الارستقراطي الصغير - وقد غلب عليها الفضول بحق الطعن في السن - على ان توجه اليه هذا السؤال :

« ان سيد العدة هو من غير ريب ابن عم اسقف د... المتوفى ، أليس كذلك ؟ »

فقال :

« لا ، يا سيدي . »

فأصرت المعجوز المومرة :

« ولكنك تلبس ثوب الحداد عليه ؟ »

فاجابها قائلاً :

— « لقد كنت أبا م شبابي ، خادماً في منزله . »

ولاحظ القوم كذلك انه كلما مر بالمدينة غلام صغير من غلمات
سافوا يطوف في البلاد باحثاً عن مداخن ينظفها ، كان العمدة يستدعيه
ويأله عن اسمه ، وينفحه بشيء من المال . وتحدث غلمان سافوا بذلك ،
ومرّ كثير منهم في تلك الطريق .

٥

بوارق غامضة في الافق

ومع تراخي الايام ، تلاشت المعارضة كلها شيئاً بعد شيء . كان ثمة
باديء الامر اقوال خبيثة وافتراءات ضد مسيو مادلين — وهذا ما
يحدث دائماً لأولئك الذين يلمعون بجهدهم الخاص . وما هي الا فترة
قصيرة حتى تضالت هذه الافتراءات والاقوال الخبيثة ففدت هجاءً ، ثم
انتهت الى ان تصبح مداعبات ، ثم تلاشت نهائياً . لقد أمسى الاحترام
كاملاً ، اجاعياً ، ودياً . ولقد انقضت آونة ، حوالي عام ١٨٢١ ،
'لفظت' خلافاً هاتان الكلمتان : « السيد العمدة » في مونتروي سور مير
بمثل النبرة ، تقريباً ، التي 'لفظت' بها هذه الكلمات : « صاحب السيادة
الاسقف » في مدينة ... عام ١٨١٥ . كان الناس يقبلون من مواطن تقع
على مسبعة ثلاثين ميلاً ليستشيروا مسيو مادلين . لقد سوّى الخلافات ،
وحال دون اقامة الدعاوى ، واصلح ما بين الاعداء . واختاره كل امرئ ،
بطوعه ، قاضياً . لقد بدا وكأنه يحفظ كتاب القانون الطبيعي عن ظهر
قلب . وفي مدى ست سنوات ، انتشرت عدوى من الاجلال ، شيئاً
بعد شيء ، في طول الاقليم وعرضه .

ولكن رجلاً واحداً ليس غير ، في المدينة وما حولها ، اجتنب

هذه العدوى اجتناباً كاملاً . كان يعتصم باللامبالاة ، أياً ما كان العمل الذي يأتيه الاب مادلين ، وكأن اعتصامه ذاك كان بضرب من الغريزة ثابت رابط الجأش . وكان يلتزم اليقظة والحذر . والذي يبدو ، في الواقع ، ان في بعض الناس غريزة بهيمية حقيقية ، خالصة وكاملة مثل جميع الغرائز ، غريزة تخلق النفور والمشاركة الوجدانية ، وتفصل طبيعة عن طبيعة فصلاً سريماً ؛ غريزة لا تردد ابداً ، ولا تتكدر ابداً ، ولا تعتصم بالصمت ابداً ، ولا تجيز لنفسها ان تخطيء ابداً ؛ غريزة صافية في غموضها ، منزّهة عن الضلال ، متفطّرة ، متمردة على جميع نواحي الفطنة ، وجميع تحليلات العقل ؛ غريزة تحذر سرّاً الرجل الكلب من وجود الرجل المهرّة ، والرجل الثعلب من وجود الرجل الاسد ، مهما تكن مصائرهم ومقاديرهم .

وفي كثير من الاحيان ، فيما يكون مسيو مادلين مجتازاً بأحد الشوارع ، هادئاً ، ودوداً ، محوطاً ببركات الجميع ، كان يتفق ان يلتفت خلفه فجأة رجلٌ طويل القامة مُرْتَدٍّ قُبْعَةً مسطحة وسترة رمادية ضارباً لونها الى لون الحديد ومسلح بخيصرانة ضخمة ، فيتنبه نظره حتى يتوارى عن البصر ، ويصالب ذراعيه ، هازأ رأسه بعض الشيء ، رافعاً شفته العليا بشفته السفلى حتى تحاذي أنفه ، وهي حركة ذات مغزى يمكن ان تُترجم على هذا النحو : « ولكن من هو هذا الرجل ؟ ألا واثق من اني رأيتك في مكان ما . وعلى أية حال ، فلست انا مغفلاً يُخدع به . »

وكانت هذه الشخصية ، الرصينة على نحو يكاد يكون مهدداً ، من اولئك الذين يسيطرون على انتباه المراقب ، حتى حين يلقاهم لقاءً خاطئاً . كان اسمه جافير ، وكان رجلاً من رجال البوليس .

كان يقوم في مونتروي سور مير بهمة مفتش الشرطة البغيضة ، ولكن النافعة . إنه لم يكن هناك يوم وفد مادلين على المدينة . وكان مدينناً

بمنصبه لحماية مسيو شابويه ، سكرتير وزير الدولة الكونت آنغلير ، وكان آنذاك مديراً للشرطة في باريس . وحين أقبل جافير على مونتروي سور مور كان الصناعي الكبير قد مكث لنفسه في المدينة ، وكانت الاب مادلين قد امسى مسيو مادلين .

إن لبعض رجال الشرطة سبباً فريدة تستطيع ان تلمح فيها الحجة بمزوجةً بالسultan . لقد كانت لجافير تلك السبب ، ولكن من غير حجة . ونحن على مثل اليقين من أنه لو كان في ميسور العيون ان تطلع على النفوس اذن لتجلى لنا في وضوح هذه الواقعة الغريبة : ان كل فرد من الانواع البشرية يطابق واحداً من انواع الخليقة الحيوانية . واذن لادرکنا في بسر هذه الحقيقة التي لا تخاطر للمفكر الا بشق النفس : أنه ابتداءً من المحارة الى النسر ، ومن الحنزيير الى النسر ، نجتمع الحيوانات كلها في الانسان ؛ وان كلاً منها مائل في احد الرجال ، بل إن عدداً منها لتلتقي في الشخص عينه في آن معاً .

وليت الحيوانات غير امثال من فضائلنا وذرائلنا هامة أمام أعيننا . إنها اطياف نفوسنا المنظورة . ان الله يرينا اياها لكي يحملنا على التفكير . ولكن ، لما كانت الحيوانات مجرد ظلال ، فإن الله لم يجعلها قابلة للتربية بمعنى الكلمة الكامل . وما الداعي الى ذلك ؟ على حين أنه منح نفوسنا - بوصفها حقائق وبوصفها ذات اهداف خاصة بها - فطنةً وذكاءً ، يعني انه منحها قابلية للتربية . ان في ميسور التربية الاجتماعية السليمة ان تتل من النفس دائماً ، كائنة ما كانت ، الخير الذي تنطوي عليه .

بيد ان هذا ينبغي ان يقال من وجهة النظر المحدودة الخاصة بالحياة الارضية الظاهرية ، ومن غير ما افشلت على المسألة العميقة المتصلة بالشخصية السالفة والمستقبل للكائنات غير البشرية . إن الـ أنا ، المنظورة لا تخول المفكر ، بأية حال من الاحوال ، إنكار الـ أنا ، الحية . وبعد هذا التحفظ نستطيع ان نخفي في سبيلنا .

والآن ، اذا سلم المرء لحظةً معنا بأن في كل رجل نوعاً من انواع الخليفة الحيوانية فسوف يكون يسيراً علينا ان نصف ضابط الامن بجافير .

ان فلاحى آشتوريش * يعتقدون بأن في كل مجموعة من الجراء التي تلدها الذئاب من بطن واحد كلباً تدارع الأم الى قتله ، خشية ان يفترس الجراء الصغيرة عندما يكبر .

اخلع على ولد الذئب الكلبى هذا وجهاً بشرياً تحصل على جافير . لقد 'ولد' جافير في سجن . كانت امه عرّافة ، وكان ابوه في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . وحين ترعرع وقع في روعه أنه خارج نطاق المجتمع ؛ وليس من امكان اجتياز ذلك النطاق في يوم من الايام . لقد لاحظ ان المجتمع يوصد ابوابه ، من غير ما رحمة ، في وجه طبقتين من الناس : اولئك الذين يعتقدون عليه ، واولئك الذين يحرمونه . ولم يكن في ميسوره اكثر من ان يختار احدى هاتين الطبقتين ليس غير . وفي الوقت نفسه استشعر ان له اسماً لا سبيل الى وصفه من الصرامة والنظامية ، والنزاهة 'مرْدَقاً' بكراهية لا سبيل الى وصفها ايضاً لذلك العرق العجري الذي ينتسب اليه . والتحق بالشرطة .

ووفق الى النجاح . وفي الاربعين من العمر غدا مفتشاً . وكانت قد استخدم في صدر شبابه في سجون الجنوب الخاصة بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وقبل أن نخفي الى ابعد ، يحسن بنا ان نفهم ما الذي نعنيه بـ«الوجه البشري» اللتين اصطنعناهما اللحظة في الكلام على جافير .

كان وجه جافير البشري يتألف من انف افطس ، ذي منخرين عميقين يحيط بهما شاربان ضخمان كثيفان يغطيان خديه جميعاً . وان المرء

* من مقاطعات الاندلس القديمة ، وهي بلاد جباله تغطيها البيرنييه (جبال البرانس) الآشتوريشية .

ليأخذه شيء من الضيق حين يرى أول مرة الى هاتين الغابتين وهاتين المغارتين . ركأت جافير اذا ما ضحك - وهو شيء نادر وفظيع - تنفرج شفتاه الرقيقتان وتنكشفان لا عن اسنانه وحسب ، بل عن لثاته ايضاً . وحول أنفه كانت ثنية عريضة ووحشية كنتلك التي تكون حول خطم الابل او الظبي . كان جافير ، اذا ما غلبت عليه الصرامة كلباً من كلاب درواس الشرسة الطباع الغليظة الرأس ، وكانت اذا ما ضحك نمرأ . وفي ما عدا ذلك كان ذا رأس صغير ، وفكين ضخين ، وشعر يخفي الجبهة وينوس فوق الحاجبين ، وعدسة بين العينين مركزية سرمدية كأنها نجم الغضب ، ونظرة قائمة ، وفي مطبق روع ، وسيا من السلطة الضاربة .

كان هذا الرجل مزاجاً من عاطفتين هما في ذاتهما بسلطان وصالحتان جداً ، ولكنه كاد يجعلهما شريرتين بغلوّه في توكيدهما : احترام السلطة ، وكره التمرد . وفي عينيه لم تكن السرقة ، والقتل ، وجميع الجرائم غير أشكال من التمرد . لقد احاط كل ذي وظيفة في الدولة ، ابتداء من رئيس الوزراء حتى الناطور ، بضرب من الايمان الاعمى العميق . ولم يكن عنده ما يقدمه الى جميع اولئك الذين تخطّوا مرة حدود القانون غير الازدراء ، والكراهية ، والاشمئزاز . كان جازماً معيماً لا محل عنده لاستثناء ما . فمن ناحية ، كان يقول : « الموظف لا يمكن ان يتجذع ، والقاضي لا يمكن ان يخطيء ! » ومن ناحية ثانية ، كان يقول : « اولئك قد فقدوا نهائياً فليس الى شفائهم من سبيل . إن اياما خير لا يمكن ان يصدر عنهم » . كان يشايع مشايعة كاملة اولئك المتطرفين الذين يعزّون الى القانون البشري قدرة ما ادرها على صنع ، او اذا سُئلت فقل على تحقيق ، الملوك من البشر ، والذين يضعون نظيراً لـ « ستيكس » * في ادنى المجتمع . كان رواقياً ، جدياً ، كالح الوجه . كان حالمًا كثيراً ؛ وكان وضعياً

* Stryx في الميثولوجيا الاغريقية انه نهر في جهنم يطوقها سبع مرات .

ومتشاحناً مثل جميع المتعصبين . كانت نظره باردة ، وكانت ثاقبة مثل الحرز . كانت حياته كلها مفرغة في هاتين الكلمتين : اليقظة والمراقبة . لقد رسم خطأً مستقيماً عبر أشد الأشياء التواء في العالم . كان ضميره رهن جدواه ، وكان دينه رهن واجباته ، وكان جاسوساً كما يكون غيره من الناس كاهناً . والويل لمن يُقدّر له ان يقع بين يديه ! كان خليقاً به ان يعتقل اباه لو فرّ من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، ويشي بأمه اذا خالفت الحكم الذي يفرض عليها الاقامة في مكان بعينه بعد الخروج من السجن . وكان خليقاً به ان يفعل هذا بمثل ذلك الضرب من الارتياح الباطني الذي ينبثق من الفضيلة . كانت حياته حياة حرمان ، وعزلة ، وانكار ذات ، وعفة ، حياة لا تعرف اللهو البتة . كانت هي الواجب العنيد ، الحقود ، المستغرق في عمله كشرطي كما استغرق الاسبارطيون في اسبارطة . ترصد لا رحم ، وإخلاص ضار ، وجاسوس بوليسي قاسٍ رخامي القلب . كان هو بروتوس * متحداً بفيدوك . ** كان شخص جافير كله بمثل الجاسوس والهجر . وكان خليقاً بمدرسة جوزيف دو ميستر *** الصوفية - التي كانت تنعش في ذلك العهد ما كان يدعى الصحف الموالية للنظام القديم موالاتاً عنيدة بالنظريات المجلجلة حول تكون العالم - ان تزعم ان جافير كان رمزاً . لم يكن في ميسورك ان ترى جبينه المحجوب تحت قبعته ، ولم يكن في ميسورك ان ترى عينيه الضائعتين تحت حاجبيه ، ولم يكن في ميسورك ان ترى

* لومبوس جونيوس بروتوس الزعيم الروماني الكبير الذي قاد الثورة على الملوك التاركين واقام النظام الجمهوري في رومة . واذا تأمر اولاده لاعادة التاركين لم يتردد في محاكمتهم واصدار حكم الموت عليهم .

** Vidocq مقامر فرنسي (١٧٧٥ - ١٨٣٨) انتهى الى ان يصبح مديراً للامن العام بعد ان كان شريراً .

*** de Maistre فيلسوف ديني كان شديد التعصب لرومة ، شديد المداوة لثورة الفرنسية (١٧٥٣ - ١٨٢١)

ذقته المدفونة في ربطة عنقه ، ولم يكن في ميسورك ان ترى بسديه المرتدتين الى رديه ، ولم يكن في ميسورك ان ترى خيثراته التي كان يحملها تحت ستوته . ولكن ما ان تأزف الساعة حتى تقع عينك على جبين ضيق ذي زوايا ، ونظرة مشؤومة ، وذقن مهددة ، ويدين هائلتين ، وهراوة ضخمة جداً ، وقد انبثقت كلها ، فجأة ، من هذا الشبح ، وكأنما تنبثق من كمين .

وفي لحظات فراغه ، التي كانت نادرة ، كان من دأبه ان يطالع على الرغم من كراهيته للكتب . ومن هنا لم يكن أمياً مئة بالمئة . ذلك ما كان يلاحظ ايضاً من بعض التوكيد في حديثه .

كان في نجوة من الرذيلة ، كما قلنا . فاذا ما استشعر الرضا عن نفسه أمتعها بقبضة من السعوط ، وهذا ما اثبت انه كان بشرياً .

ولسوف ندرك ، في غير عسر ، ان جافير كان « بعبعاً » لجميع افراد تلك الطبقة التي تدرجها احصاءات وزير العدل السنوية تحت عنوان : « افاس متشردون » . كان مجرد النطق باسم جافير كافياً لأن يحمل اولئك جميعاً على الفرار ، كأنّ وجه جافير يحجرهم تحجيرواً . كذلك كان هذا الرجل الرهيب .

كان جافير اشبه بعين مهددة أبداً الى ميو مادلين . عين مفعمة بالشك والظنون . ولاحظ ميو مادلين ذلك ، آخر الامر ، ولكنه بدا وكأنه لم يأبه به . إنه لم يوجه أيما سؤال الى جافير ؛ إنه لم يلتمسه ولم يجتنبه . لقد تحمل هذه النظرة البغيضة ، الموشكة ان تكون ثقيلة الوطأة ، من غير ان يبدو منتبهاً لها . لقد عامل جافير كما عامل اي امريء آخر ، في طمأنينة وكرم نفس .

ومن بعض الكلمات التي نددت من جافير كان في ميسور المرء ان يحزر أنه استقصى على نحو سرّي - وبذلك الفضول الخاص - بالعرق الذي ينتسب اليه ، والمنبثق من الغريزة اكثر من انبثاقه من الارادة -

جميع الآثار السالفة التي خلفها الاب مادلين في مواطن اخرى . لقد بدا انه يعرف ، ولقد ذكر احياناً على نحو مغلّف ، ان شخصاً قد جمع بعض المعلومات في منطقة ما ، عن اسرة مفقودة ما . وذات يوم اتفق أن قال ، مخاطباً نفسه : « أحسب اني امسكت به ! » وطوال ثلاثة أيام ظل مضطرب البال لم ينطق بكلمة واحدة . لقد بدا وكأن الحيط الذي حب انه امسك به كان مقطوعاً .

ولكن - وهذا هو التصحيح الضروري لما يمكن لمعنى بعض الكلمات ان يمثله حين تكون مطلقة اكثر مما ينبغي - ليس يمكن ان يكون ثمة ما هو معصوم عن الضلال ، حقاً ، في الكائن البشري ، وان خاصة الفريزة الرئيسية ، هي على وجه الضبط كونها قابلة لأن تُزعج وأن تُقتفى آثارها وان تُضلّل . ولولا ذلك لكنت اسمي من الذكاء ، وعندئذ تكون البهيمة متمتعة بنور أصفى من ذلك الذي يتمتع به الانسان .

ومع هذا فقد بدا ان ملكه العجيب ترك انطباعة ما ، ذات يوم ، في نفس مسيو مادلين . وفيما يلي تفصيل الحادثة .

٦

الاب فوشلوفان

كان مسيو مادلين ينمشي ذات صباح في احد ازقة مونتوي سور مير غير المعبدة . فسمع صراخاً ، ورأى حشداً على مسافة قصيرة . فمضى الى هناك . كان رجل عجوز يدعى الاب فوشلوفان قد سقط تحت عربته ، بعد ان خرّ فرسه على الارض .

وكان فوشلوفان هذا واحداً من النفر القلائل الذين ظلوا اعداء لمسيو

مادلين في ذلك الحين . فحين وفد مادلين الى تلك المقاطعة ، كانت لفوشلوفان هذا ، وهو كاتب عدل وفلاح يكاد يكون امياً ، صناعة آخذة في البوار . لقد رأى هذا العامل البسيط يصبح غنياً ، على حين كان هو - الحجير العالم - يخطط نحو الافلاس . وملاه ذلك حياءً ، فبذل غاية جهده ، في جميع المناسبات ، لكي يؤذي مادلين . ثم كان الافلاس ؛ واذ لم يبق للرجل العجوز غير عربة وفرس ، واذ لم تكن له اسرة وأولاد ، فقد اضطر الى ان يكسب رزقه بوصفه سائق عربة .

لقد كسرت فخذا الفرس ، فليس في ميسوره ان يتحرك . وعلق الرجل العجوز بين العجلات . وكانت سقطته ، لسوء الحظ ، على نحو جعل الثقل كله منصّباً على صدره . كانت العربة مثقلة بالاحمال ، وكان الاب فوشلوفان يُطلق حشرجة موجعة . كانوا قد حاولوا محبه ، ولكن على غير طائل . ان الجهد الذي يعوزه النظام ، والعون الذي تعوزه البراعة ، والدفعه التي لا يحالفها الصواب قد تجهز عليه . كاث من المتعذر إتقاذه إلا برفع العربة من أدنى . وكان جافير ، الذي اقبل في اللحظة التي وقع فيها الحادث ، قد ارسل في طلب رافعة من رافعات الاثقال .

ووصل ميسو مادلين . وارتدت الحشد في احترام .

وصاح فوشلوفان العجوز :

« النجدة ! اليس فيكم فقي صالح ينقذ حياة رجل عجوز ؟ »

والتفت ميسو مادلين الى حشود النظارة :

« هل عند احد منكم رافعة ؟ »

فاجاب احد الفلاحين :

« لقد ارسلنا في طلب واحدة . »

« ومتى سوف تصل الى هنا ؟ »

« لقد طلبناها من اقرب مكان - من « فلاسو » حيث يوجد حداد

ولكن ان تصل قبل ربع ساعة او اكثر ، على كل حال .
فصاح مادلين :

- « ربع ساعة ! »

كان المطر قد هطل الليلة البارحة ، وكانت التربة دمثة لينة ، فاذا بالعربة تسيخ في الارض ، اكثر فأكثر ، لحظة اثر لحظة ، واذا بها لا تزداد إلا ضغطاً على صدر السائق المعجوز . كان واضحاً ان اضلاعه سوف تسحق في اقل من خمس دقائق .

فقال مادلين مخاطباً الفلاحين الذين كانوا يشهدون المأساة :

- « ليس في استطاعتنا ان ننتظر ربع ساعة . »

- « يتعين علينا ان نفعل . »

- « ولكن الاوان يكون قد فات ! الا ترون ان العربة تسيخ

اكثر فأكثر ؟ »

- « لا حيلة لنا في ذلك . »

فاستأنف مادلين القول :

- « إسمعوا ! لا يزال ثمة منسع ، تحت العربة ، يمكن رجلاً ما

من ان يزحف الى هناك ويرفعها بظهره . وفي نصف دقيقة يكون في

إمكاننا ان نخرج الرجل البائس . اليس فيكم رجل ذو قوة وشجاعة ؟

خمس ليرات ذهبية لمن يتقدم ! »

ولم يتحرك احد من افراد الحشد .

وقال مادلين :

- « عشر ليرات ذهبية ! »

وخفض القوم ابصارهم . وغمغم احدهم قائلاً :

- « ينبغي ان يكون المرء قوياً الى حد شيطاني . ومع ذلك فقد

يعرض جسده للسحق . »

فقال مادلين :

- « هيا ! عشرون ليرة ذهبية ! »
وران الصمت ، شأنه في المرة الأولى .
وقال صوت :

- « لبت الرغبة هي التي تعوزم . »
والتفت مادلين ، فوقع بصره على جافير . لم يكن قد رآه حين
أقبل .

وتابع جافير كلامه :
-- « إنها القوة . ينبغي ان يكون المرء رجلاً فظيماً حتى يتمكن
من ان يرفع على ظهره عربة مثل هذه .
ثم انه سدّد نظراته الى مسيو مادلين ، وأضاف مؤكداً كل كلمة
من كلماته :

- « مسيو مادلين ، انا لم اعرف قطّ غير رجل واحد قادر على
ان يفعل ما تدعو اليه . »
وارتعد مادلين .

واردف جافير ، في انطباعة لامبالية ، ولكن من غير ان يرفع
عينيه عن مادلين :

- « كان واحداً من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . »
فقال مادلين :

- « آه ! »

- « في السجن الخاص هؤلاء ، في طولون . »
وغدا وجه مادلين شاحباً .

وفي غضون ذلك كانت العربة تسبح شيئاً فشيئاً . وهدر الابل
فوشلوفان وصاح :

- « لاني أخشق ! إن اخلاعي تتعظم ! إيتوني براقة اثال !
إيتوني بأي شيء ! اوه ! »

واجال مادلين بصره في ما حوله :
- « ليس هناك اذن شخص يرغب في ان يكسب عشرين ليرة ذهبية ،
وينقذ حياة هذا الرجل العجوز البائس ؟ »
ولم يتحرك احدٌ من النظارة . واستأنف جافير كلامه :
- « انا لم اعرف قط غير رجل واحد كان يقدر على ان يحمل عقل
رافعة أثقال . كان هو ذلك المحكوم عليه بالاشغال الشاقة . »
وصاح الرجل العجوز :

- « اوه ، إنها تسعني ! »
ورفع مادلين رأسه ، فألقى عين جافير الصغرية ما تزال مسددة اليه .
ونظر الى الفلاحين المستمرين في اماكنهم ، وابتمس ابتسامة حزينة . ثم
إنه ركع ، من غير ان ينبس بكلمة . وحتى قبل ان يجد الحشد متسعاً
من الوقت لاطلاق صيحة ، أمسى تحت العربة .
كانت لحظة رهيبة من التوقع والصمت .

لقد شوهد مادلين ، منبطحاً على بطنه تقريباً تحت هذا الثقل المخيف ،
يحاول مرتين ان يجمع ما بين مرفقيه وركبتيه ، ولكن على غير
طائل . وصاح القوم :

- « ايها الاب مادلين ! اخرج من هناك ! »
وقال فوشلوفان العجوز نفسه :
- « مسيو مادلين ! اذهب من هنا ! لا مفر من الموت ؛ انت
ترى ذلك . دعني وشأني . اخشى ان تسحقك العربة انت ايضاً ! »
ولكن مادلين لم يجب .

وحبس النظارة انفاسهم . كانت المعجلات لا تزال تسيخ في الارض ،
وكان قد غدا شبه متعذر على مادلين ان يخرج من تحت العربة .
وفجأة ، أجفل الحشد الضخم . لقد ارتفعت العربة في بطنها ، وشرعت
المعجلات تخرج من مغارزها . وسمع صوت محتق بصيح :

« عجلوا ! ساعدوا ! »

كان صوتَ مادلين الذي بذل في تلك اللحظة جهداً نهائياً .
واندفعوا كلهم الى العمل . كان في التفاني الذي اظهره رجل فرد^١
ما أوقع القوة والشجاعة في نفوس الجميع . وتعاونت عشرون ذراعاً على
رفع العربة . ونجا فوشلوفان العجوز .

ونفض مادلين . كان شديد الشحوب ، برغم انه كان يتصبب عرقاً .
ركانت ملابسه ممزقة يعلوها الطين . وبكى القوم جميعاً . وقبل الرجل
العجوز ركبتيه ، ودعاه « الربّ الطيب » . أما هو فكانت تعلو وجهه
انطباعة من الألم المبتهج ، السماوي لا أقدر على وصفها . وستر عينه
المهادئة على جافير الذي كان لا يفتأ يراقبه .

٧

فوشلوفان يصبح بستانياً في باريس

كان فوشلوفان قد كسر رُضفته * اثر سقوطه تحت العربة . فنقله
الاب مادلين الى دار للمرضى كان قد انشأها لعماله في بناء مصنعه نفسه ،
وعهد في شؤونها الى اثنتين من راهبات المحبة . وفي صباح اليوم التالي
وجد الرجل العجوز ، على الطاولة القائمة الى جانب سريره ورقة ، نقدية من
قئة الالف فرنك ، وهذه الكلمة مكتوبةً بخط الاب مادلين :

« إني اشتري منك عربتك وحصانك . »

كانت العربة مهشمة ؛ وكان الحصان ميتاً . ونعمَ فوشلوفان بالشفاء .
ولكن ركبته ظلت متصلبة . ووفق مادلين - من طريق توصيات
حصل عليها من الراهبات ومن الكاهن - الى ان يقين الرجل العجوز

* الرضفة : عظام الركبة .

بستانياً في دير للراهبات في حيّ سان انطوان بباريس .
وبعد ذلك بقليل ، عُيّن مسيو مادلين عمدة . واول ما رأى جافير
الى مسيو مادلين متقلداً الوشاح الذي يمنحه السلطة المطلقة على المدينة ،
استشعر مثل تلك الرعدة التي يجدر بكلب من كلاب درّواس ان
يشعرها حين يتروح ذئباً في ثياب سيده . ومن ذلك الحين انشأ
يحتبه ما استطاع . فاذا ما حتمت ضرورات المصلحة الاتصال بالسيد
العمدة ، فليس من سبيل الى التفادي من ذلك البتة ، تحدث اليه في
احترام عميق .

وكان للازدهار الذي خلقه الاب مادلين في مونتروي سور مير -
بالاضافة الى آياته المنظورة التي اشرنا اليها - مظهر آخر غير منظور ،
ولكنه ليس اقلّ شأنًا وخطراً . وهذا المظهر لا يخدع المرء عن نفسه
ابداً . فعين يتألم السكان ، وحين يطلبون العمل فلا يجدونه ، وحين
تصاب التجارة بالكساد ، يقاوم المكلف الضريبة ، بحكم الفاقة ، ويستنفد
المهمل القانونية ويتخطاها ، وتضطر الدولة الى ان تنفق اموالاً طائلة على
جباية الضرائب وعلى تحصيلها عنوةً من المكلفين . اما حين يكون
العمل موفوراً ، وحين يكون البلد غنياً سعيداً فعندئذ تدفع الضرائب
في سر ، ومن غير ان تنفق الدولة مالاً كثيراً في جبايتها . وفي
ميسورنا القول ان للفقر والثروة العاميين ميزاناً لا يخطيء ، هو نفقات جباية
الضرائب . وخلال سبع سنوات خفّضت نفقات جباية الضرائب في
اقليم مونتروي سور مير الى ربع ما كانت عليه من قبل ، مما جعل
كثيراً من المسؤولين - وبخاصة مسيو دو فيليل وزير المال آنذاك -
يكثرون من الاشارة الى ذلك الاقليم والاستشهاد به .

تلك كانت حال المنطقة عندما رجعت فانتين اليها . ان احداً لم
يتذكّرهما . ومن حسن الطالع ان باب مصنع مسيو مادلين كان شبه
بوجه صديق من الاصدقاء . لقد شخّصت الى هناك ، فألحقت بالمصنع

الخاص بالنساء . كان العمل جديداً عليها ، تماماً ؛ فلم يكن في ميسورها ان تبرع فيه براعةً كبيرة ، ومن هنا لم توفق الى ان تفوز بأكثر من تعويض ضئيل عن عملها اليومي . ولكن ذلك التعويض الضئيل كان يكفيها . لقد حلت المشكلة ؛ فهي تكسب رزقها .

٨

مدام فيكتورين

تفوق خمسة وثلاثين فرنكاً على الاخلاق

وحين ادركت فانتين انها ضمنت رزقها عرفت لحظةً من الابتهاج . أي نعمة من السماء ان تكسب قوتها بعرق جبينها ! وعادتها الرغبة في العمل حقاً . لقد اشترت مرآة ، واهبت نفسها بمشهد شبابها ، وشعرها الجميل ، وأسنانها الرائعة ، ونسبت اشياء كثيرة ، ولم تفكر الا بانقاذ كوزيت ، والا بأمكانيات المستقبل ، وكانت سعيدة تقريباً . واستأجرت غرفة صغيرة ، واثنتها على ان تدفع نفقات ذلك من دخل عملها في المستقبل . وتلك بقية من بقايا عدم التنظيم الذي تعودته من قبل .

واذ لم يكن في وسعها ان تقول انها كانت متزوجة ، فقد عذبت اشد العنابة ، كما ألمعنا سابقاً ، بأن لا تتحدث عن بنتها الصغيرة .

وفي البدء ، كما رأينا ، كانت تبعث الى تيناردييه وزوجته بالمبلغ المتفق عليه تماماً . واذ كانت لا تحسن غير توقيع اسمها فقد اضطرت الى ان تستكتب واحداً من الكتاب العموميين .

كانت تبعث اليها بالرسائل بين الفينة والفينة ؛ ذلك ما لاحظته

الناس . وشرعتعاملات في قسم النساء يتها من بأن فانتين و تكتب رسائل ، وان « لها مال ك غرية » .

وليس اقدر على ترصد أعمال الناس من اولئك الذين لا تعنيهم تلك الأعمال . « لماذا لا يرجع هذا الرجل الا بعد الفسق ؟ » « لماذا لا يستغني عن مفتاحه يوم الخميس ابدأ ؟ » « لماذا يسلك الطرق الفرعية دائماً ؟ » « لماذا تغادر هذه السيدة عربتها ، دائماً ، قبل ان تصل الى المنزل ؟ » « لماذا تبعت من يشتري لها دفترآ من ورق الرسائل على حين تملي حقيبتها بذلك الورق ؟ » الخ . الخ . وهناك أناس لا يحجمون - لكي يحلوا هذه الاحاجي التي هي برغم ذلك غير ذات اهمية البتة بالنسبة اليهم - عن ان ينفقوا مالاً اكثراً ، ويضيعوا وقتاً اكبر ، ويحشوا أنفسهم عناءً اعظم من ذلك الذي يقتضيه القيام بعشرة اعمال صالحة ، يفعلون ذلك بالجحان ، لجرد اللذة ، ومن غير ان يقبضوا ثمن فضولهم شيئاً غير الفضول . انهم يمتعون هذا الرجل او تلك المرأة اباماً بكاملها ، ويقفون موقف الحرس ساعات بطولها في زوايا الشارع ، تحت ابواب الازقة ، في موهن من الليل ، وقد استبدت بهم البرد واصابهم المطر ، ويرشون الرسل ، ويسكرون سائقي العربات والخدم ، ويدفعون الاجور الى احدى الخادما ، ويشترى احد البوابين . من اجل ماذا ؟ للاشياء . مجرد توق الى النظر ، الى المعرفة ، الى النفاذ الى الاشياء . مجرد رغبة عاومة في القال والقليل . وكثيراً ما يؤدي الكشف عن هذه الاسرار ، ونشر هذه الحقايا ، وبسط هذه الاحاجي في وضح النهار الى كواو ، الى مبارزات ، الى افلاسات ، الى خراب أسر ، الى إسقاء نفوس ، ليغتبط اعظم الاغتباط اولئك الذين اكتشفوا كل شيء . من غير ان تكون لهم مصلحة ما ، وبدافع من الفريزة ليس غير . شيء يحزن !

وبعض الناس تأتيهم النزعة الى الشر من مجرد حاجتهم الى الكلام .

إن حديثهم ، وإن سهرم في الصالونات ، وإن ثروتهم في غرف الانتظار
هي أشبه ما تكون بتلك المواقف التي تستنفد الخطب على نحو سريع .
إنهم في حاجة الى مقدار كبير من الوقود . وما ذلك الوقود غير جارهم .
وهكذا أخضعت فانتين للرقابة .

والى هذا ، فإن غير واحدة كانت تحدها لشعرها الاشقر واسنانها
البيضاء .

ولقد روى بعضهم انها كثيراً ما كانت تشيح بوجهها ، في المصنع ،
وقد تملقت النسوة من حولها ، لكي تكفكف عبرة من عبراتها .
تلك كانت اللحظات التي فكرت فيها بابنتها . ومن يدري ، فقد
تكون فكرت في تلك اللحظات بالرجل الذي سبق لها ان احبته ايضاً .
إنها لمحة فاجعة تلك التي تقتضي المرء ان يقطع صلات الماضي القاعة .
لقد اقيم الدليل على انها كانت تكتب مرتين في الشهر ، على الأقل ،
وتوجه تلك الرسالة الى العنوان نفسه دائماً ، وانها كانت تدفع اجرة البريد
سلفاً . ووفقت النسوة الى معرفة العنوان : « مسيو ، مسيو تينارديه ،
صاحب فندق ، في مونفيرماي . » وكان الكاتب العمومي ، وهو رجل
عجوز ساذج ما كان قادراً على ان يملأ معدته بالنيذ من غير ان يُفرغ
جيبه من الامرار ، قد أغري بافشاء ذلك في حانة من حانات الحمر .
وبالاختصار ، فقد عُرف ان لفانتين ولدأ . « ينبغي ان تكون من
ذلك النوع من النساء » . ولقد وجدت امرأة ثائرة قصت الى
مونفيرماي ، وتحدثت مع تينارديه وزوجته ، حتى اذا رجعت قالت :
« لقد دفعت خمسة وثلاثين فرنكاً فوفقت على جلبه الامر . لقد

رأيت الطفلة بعيني ! »

وكانت المرأة الفضولية التي فعلت ذلك عجوزاً تدعى مدام فيكتورينين ،
الحارسة فضيلة كل انسان ، الموكلة بالمحافظة عليها . كانت مدام
فيكتورينين في السادسة والخمسين ، وكانت ترندي قناع الشبخوخة فوق

قناع البشاعة . كان صوتها يرتجف ، وكانت احوالها متقلبة . والواقع ان هذه المرأة المعجوز كانت في يوم من الايام شابة - شيء عجيب حقاً . وفي صباحا ، وفي قلب عام ٩٣ ، تزوجت راهباً فرّ من الدير بقلنسوة حمراء ، وانتقل من البرناردين * الى البقويين ** . كانت سهولة ، عنيدة ، فظة ، نزقة ، شائكة ، تكاد تكون سامة . انها لم تنس قط راهبها ، التي كانت ارملة ، والذي كان يعاملها في قسوة وغلظة . كانت 'قراصاً' فتنة ثوب راهب . وبعد سقوط نابوليون ، غدت متطرفة في التقوى ، وكان تطرفها هذا حاسياً الى درجة حلت الكهنة على ان ينفروا لها حكايتها مع الراهب . وكان لها ملك صغير ، اوصت به - في كثير من الطنين والرنين - لاحدى الرهبانيات الدينية . وكانت تتمتع بمكانة مرموقة في قصر الاسقفية في آراس . ان مدام فيكتورين هذه ، اذن ، قصدت الى مونفيرماي ، ثم رجعت قائلة : « لقد رأيت الطفلة بعيني . »

واستغرق ذلك كله بعض الوقت . وكانت فانتين قد سلخت ما يزيد على عام في المصنع عندما تقدمت نحوها ناظرة المصنع ودفعت اليها ، باسم العمدة ، خمسين فرنكاً ، قائلة لها ان المصنع لم يعد في حاجة اليها ، داعية اياها - باسم العمدة ايضاً - الى مغادرة المنطقة .

وانما وقع هذا في ذلك الشهر عينه الذي طالب فيه تبنارديه وزوجته بخمسة عشر فرنكاً بدلاً من اثني عشر ، بعد ان سبق لها ان فازا باثني عشر فرنكاً بدلاً من ستة فرنكات .

وُصفت فانتين . لم يكن في استطاعها ان تغادر المنطقة . فقد كان عليها ان تدفع الدين المستحق عليها من أجر الغرفة وثن الاثاث ، وما

* البرنارديون Bernardines رهبانية دينية تنسب الى القديس برنارد (١٠٩١ - ١١٥٣) .

** البقويون او البقابة Jacobins حزب ثوري شهير كان يعقد اجتماعاته في دير

البقابة القديم في باريس . وقد لعب البقابة دوراً كبيراً في الثورة الفرنسية .

كانت المحسوس فرنكاً لتغطي ذلك الدين . ونهتج صوتها بوضع كلمات متوسلة . فأفهمتها الناظرة ان عليها ان تغادر المصنع في الحال . والى هذا فلم تكن فانتين الا عاملة من درجة متوسطة . فما كان منها إلا ان غادرت المصنع ، يفرها الحجل اكثر مما يفرها اليأس ، ورجعت الى غرفتها . لقد أصبحت خطيئتها معروفة عند الجميع !

ولم تؤانس في نفسها القدرة على ان تنطق بكلمة . ولقد أشير عليها بأن تقابل العمدة . ولكنها لم تجرؤ . لقد أعطاهها العمدة خمسين فرنكاً ، لأنه كان خبيراً ؛ وطردها من المصنع لانه كان مستقيماً . لقد اذعنت لذلك القرار .

٩

نجاح مدام فيكتورين

واذن فقد صلحت ارملة الراهب لشيء . ولم يعرف مسيو مادلين بشيء من ذلك كله . وذلك مصادفات تحفل بها الحياة . فقد كان من عادة مسيو مادلين ان لا يدخل الجناح النسوي من المصنع الا في النادر النادر .

لقد أقام على رأس هذا الجناح عائناً اقترح الكاهن اسمها عليه ؛ وكان له كامل الثقة في هذه الناظرة المهيبة حقاً ، الرصينة ، المنصفة ، النزينة ، العامر صدرها بالرحمة التي تقوم على اساس من العطاء ، اكثر مما هو عامر بتلك الرحمة التي تقوم على التفهم والصفح . لقد فوض مسيو مادلين كل شيء اليها . وان خير الناس ليضطرون في بعض الاحيان الى ان يُنيبوا عنهم من يباشر سلطتهم . وهذا السلطان المطلق ، وعلى اساس من الايمان بأنها تأتي عملاً حسناً ، صاغت ناظرة

المصنع الانهام ، وحاكت فانتين ، وادانتها ، ونفذت حكمها فيها .
أما الحسون فرنكاً فقد قدمتها اليها من اعتماد كان مسو مادلين
اودعها إياه للتصدق على المهورات ومد يد العون الى العاملات ، من
غير ان يسألها عنه حساباً .

وحاولت فانتين ان تكسب رزقها من طريق الخدمة في بيوت
المنطقة . . لقد طرقت ابواب المنازل باباً اثر باب . ولكن احداً لم يكن
راغباً فيها . وما كان في ميسورها ان تغادر البلدة . ذلك بان تاجر
الامتعة المستعملة الذي كانت مدينة له بشئ أثاثها ، وبأله من اثاث ،
قال لها : « اذا رحلت فسوف أعمل على القاء القبض عليك بوصفك
لصّة . » وبأن المالك الذي كانت مدينة له بأجر غرفتها قال لها :
« انتِ نضرة العود بية الطلعة ، وفي ميسورك ان تدفعي . » وقسمت
الحسين فرنكاً بين المالك والتاجر ، واعادت الى هذا الأخير ثلاثة ارباع
بضاعته ، مبقية ما هو ضروري ليس غير ، فاذا بها تجد نفسها من
غير عمل ، ومن غير منزلة ، واذا بها تجد نفسها ولم يبق لها ما
تملكه غير سريره ، ولا يزال عليها دينٌ يبلغ نحواً من مئة فرنك .

وبدأت تصنع قصصاً خشنة لجنود الحامية ، كاسبةً بذلك اثني عشر
« سو » يومياً . كانت ابنتها تكلفها عشرة . وفي هذه الفترة بالذات
شرعت تقصر في أداء ما عليها الى تيناردييه وزوجته في ميقاته المحدد .
وايأ ما كان ، فان المرأة العجوز التي كانت تضيء شمعها لها حين
ترجع الى غرفتها بعد ان يهبط الليل علتبتها فنّ الحياة في غمرة البؤس .
فوراء العيش على القليل ، يقوم العيش على لا شيء . انها غرفتان : الاولى
مظلمة ، والثانية حالكة السواد .

وتعلّمت فانتين كيف تستغني عن نار الشتاء استغناء تاماً ، وكيف
تتخلّى عن طائر يأكل من الذرة البيضاء ما قيمته ربع « سو » كل
يومين ، وكيف تصنع من تنورتها الداخلية لحافاً ، وكيف تصنع من

لحافها تنورة داخلية ، وكيف توفر شحمتها بان تتناول طعامها على الضوء المنبعث من النافذة المقابلة . ان افراد آقلائل يعرفون كم يستطيع بعض المخلوقات الضعاف الذين شابوا على الحرمان والامانة ان ينتزعوا من الفلئ الواحد . وانما ينتهي ذلك الى ان يصبح مرهبة . ولقد اكتسبت فانتين هذه الموهبة الرفيعة ، واستعادت شجاعتهما بعض الشيء . وفي تلك الفترة قالت لاحدى جارئاتها :

— « عجيب ! إني اقول لنفسي : اذا لم أتم غير خمس ساعات ، واذا اشتغلت طوال الساعات الباقية في خياطة الثياب ، فعندئذ استطع أن أكب دائماً ما يقيم أودي ، أو يكاد . وفوق هذا ، فحين يكون الانسان محزوناً يكون استهلاكه من الطعام اقل . وأياً ما كان ، فان الالم والتلق ، وان قليلاً من الحزب في يد ، وقبضة من الاحزان في يد — كل ذلك سوف يبقيني على قيد الحياة . »

وفي محنتها تلك كان خليقاً بابنتها ، لو كانت الى جانبها ، أن تدخل على فؤادها سمادة عجيبة . وفكرت في أن تبعث في طلبها . ولكن ماذا ؟ أتريد أن تقاسمها حرمانها ؟ والى هذا ، فهي مدينة لتيناردييه وزوجته . وكيف السبل الى ان تقيها دينها ؟ والسفر ؟ كيف السبل الى ان تدفع نفقاته ؟

وكانت العجوز التي اعطتها ما يمكن ان يدعى دروساً في حياة الفقر امرأة تقية ، تدعى مارغريت — امرأة ورعة ورعاً حقيقياً ، فقيرة ، محنة الى الفقراء ، ومحنة الى الاغنياء ايضاً ، عارفة من الكتابة ما يمكنها من ان توقع « مارغريت » ، مؤمنة بالله ، وذلك هو العلم .

إن ثمة كثيراً من هذه الفضائل في المواطن الدنيا . ولسوف تصبح ذات يوم في المواطن العليا . فلهذه الحياة غدٌ .

وفي بادئ الامر ، كانت فانتين تستشعر الحجل الى حد جعلها لا تجرؤ على مغادرة غرفتها .

وكانت اذا خرجت الى الشارع تتخيل ان الناس يتلفتون خلفها
ويومنون اليها . لقد نظر اليها كل إنسان ، ولكن احداً لم يلتق عليها
السلام . لقد نفذ ازدراء عابري السبيل الحاد البارد الى جسدها وروحها
وكانه ربيع شمالية .

وفي المدن الصغيرة يبدو وكأن المرأة التمتعة تقف عارية أمام تمك
الجميع ، وفضول الجميع . ففي باريس ، على الاقل ، لا يعرفك أحد ،
وهذه الظلمة وقاء لك وستر . أوه ! كم قد تاق الى الذهاب الى
باريس ! متحيل !

والحق انه تعين عليها ان تعود الاحتقار كما تعودت الفقر . وشيئاً بعد
شيء حفظت دورها . وبعد شهرين أو ثلاثة ، رفضت عنها العار وعاودت
الخروج من غرفتها وكأن لم يكن شيء . لقد قالت في ذات نفسها :
« لست أبالي بعد اليوم . » وطفقت تروح وتجيء ، رافعة رأسها ،
مبتسمة ابتسامة مريرة ، شاعرة بأن ماء الحياء عندها قد بدأ يجف .

ورأتها مدام فيكتورينين أحياناً غرّاً بنافذتها ، ولاحظت شقاء هذه
المخلوقة ، التي أعيدت ، - بفضلها - الى مكانها . وهناك
نفسها بذلك . إن للشريرين سعادة سوداء .

وارهق العمل الوصول صحة فانتين ، وازداد سعالها الجاف الضئيل .
ولقد قالت ذات يوم لجارتها مارغريت :

- « انظري ما أشد حرارة يدي » .

ومع ذلك ففي الصباح ، حين كانت تسرّح بمشط عتيق مكسور
شعرها الجميل الذي ينساب في أمواج حريرية ، كانت فانتين تستمتع
بلحظة من لحظات السعادة .

عاقبة النجاح

كانت قد فصلت من العمل في أواخر الشتاء . وتقتضى الصيف . ولكن الشتاء أقبل من جديد . أيام قصار ، وعمل أقل . وفي الشتاء ليس ثمة دفء ، ولا نور ، ولا ظهر . إن المساء ليلا من الصباح ، وإن ثمة ضباباً ، وغسقاً ، ونوافذ مريدة ، فليس في ميسورك أن ترى في وضوح . إن السماء في الشتاء لا تمدو أن تكون باب مغارة ؛ والنهار كله هو المغارة . إن سماء القمر لتبدو على وجه الشمس . فصل مخيف ! إن الشتاء ليحيل ماء السماء وقلب الإنسان إلى حجارة . وأبومها دائئوها .

كانت فانتين تكسب أقل مما ينبغي . وكانت ديونها قد تضخمّت . وامطرها تيناردييه وزوجته بعد أن قصرت عن دفع المال اليها - برسائل متلاحقة فطّرت محتوياتها فؤادها ، واستنفدت نفقاتها البريئة آخر درهما . وذات يوم ، كتب اليها أن صغيرتها كوزيت ليس عندها شيء من الملابس تستعين به على برد الشتاء ، وأنها في حاجة إلى تنورة من الصوف ، وأن على أمها أن تبعث اليها بعشرة فرنكات على الأقل في هذه السبيل . لقد تلقت الرسالة ، وراحت تسحقها بيديها طوال النهار . حتى إذا هبط الليل شخصت إلى دكان حلاق عند زاوية الشارع ، ونزعت مشطها ، فتدلى شعرها الاشتقر الرائع حتى خصرها .

وصاح الحلاق :

« يا له من شعر جميل ! »

فقالت :

« كم تدفع إليّ فيه ؟ »

— « عشرة فرنكات . »

— « قصة . »

واشتت تنورة مزرودةً وبعثت بها الى تيناردويه وزوجته .
وانارت هذه التنورة غضب الزوجين . كان المال هو طلبتها .
وقدما التنورة الى ايونين . وظلت القبرة المسكينة ترتجف .
وقالت فانتين في ذات نفسها : « ان ابنتي لم تعد تعاني البؤس .
لقد ألبستها من شعري ثوباً . » واعتمرت قلنسوة صغيرة مستديرة غطت
رأسها المجزوز . وبرغم ذلك ، فقد ظلت جميلة .
واعلمت في فؤاد فانتين لواعج مظلمة .

فحين رأت انه لم يعد في ميديورها ان تسرح شعرها شرعت تنظر
في كراهية الى كل ما حولها . كانت قد ساطرت القوم ، منذ زمن
بعيد ، حبهم العظيم للأب مادلين ، ولكنها بحكم تكرارها لنفسها انه
هو الذي طردها من العمل ، وانه هو سبب شقاؤها ، ما لبثت ان
أبغضته هو ايضاً ، هو بخاصة . كانت اذا ما اجتازت بالمصنع حين يكون
العمال لدى الباب تكرر نفسها على ان تضحك وتغني .

وذات يوم وأنها عاملة عجوز تغني وتضحك على هذه الشاكلة فقالت :
— « وهنا فتاة سوف تنتهي الى نهاية سيئة . »

واتخذت لها خليلاً ؛ كان هو الواصل الاول . إنها لم تحبه ولكنها
عاشرته بدافع من التبجح والمباهاة الفارغة ، وقد عصفت الحق بفؤادها .
كان رجلاً شقيماً — شبه موسيقي متسول — رجلاً كسولاً ذا أظفار
بالية ، أوسعها ضرباً ، ثم هجرها ، اذ كانت قد عاشرته في اشمزاز .
كانت تعبد ابنتها .

وكلما أمعت في الانحدار ، وكلما ازداد جميع ما حولها إظلاماً ،
تعاطف اشراق هذا الملاك الصغير العذب في فؤادها . وقالت : « حين
أصبح غنية سوف أبقى حبيبي كوزيت الى جانبي . » وضحكت . ان

السعال لم يفارقها ، وان جسدها ليتصبب في الليل عرقاً .

و ذات يوم تلقت من تيناردييه وزوجته رسالة تقول : « كوزيت مصابة بمرض من الامراض الوبائية . إنها الحمى العنكبونية ، كما يدعونها ، والادوية الضرورية غالية جداً . ان ائمانا تكاد تفلنا ، وليس في استطاعتنا بعد ان نشترها . وما لم تبقي الينا بأربعين فرنكاً في خلال اسبوع فان الصغيرة سوف تقضي نحبها . »

وانفجرت بالضحك ، وقالت لجارتها العجوز :

— « اوه ، إنها طيبان ! اربعون فرنكاً ! فكثري في هذا ! يعني ليرتين ذهبيتين ! من اين يجبان اني استطيع الحصول على هاتين الليرتين ؟ أهما مجنونان ؟ هذان الفلاحان ؟ »

ومع ذلك ، فقد مضت الى السلم ، قرب احدى الكوى ، وأعدت تلاوة الرسالة من جديد .

ثم انها هبطت السلم ، وغادرت المنزل راكضةً واثبةً ، وهي لا تزال تضحك .

والتقاها بعضهم فقال لها :

— « ماذا الذي يملكك على ان تكوني مبتهجةً الى هذا الحد ؟ » فاجابته قائلة :

— « نكتة بلهاء بعث بها اليّ بعض اهل الريف منذ لحظة . انهم يطالبونني بأربعين فرنكاً ! يا لهم من فلاحين ! »

وفما هي تجوز بالساحة وأت جمهرة من الناس محتشدةً حول عربة ذات شكل غريب وقد وقف في اعلاها خطيب يرتدي ملابس حمراء . كان مشعوداً يلهي الناس بأعمال الرشاقة وطبيب أسنان متجولاً ، وكان يعرض على الجمهور مجموعات كاملة من الاسنان ، وضروب المعاجين ، والذرور ، والادوية الكحولية السائلة .

وانضمت فانتين الى الحشد ، وانشأت تضحك مع سائر القوم على

هذا الخطاب الذي اختلط فيه العامة الموجبة الى الرعاع ، بالرواثة
الموجبة الى اصحاب الوجاهة . ورأى قالع الاسنان هذه الفتاة الجميلة
الضاحكة ، وصاح فجأة :

« ان لك اسناناً رائعة ، ابتها الفتاة الضاحكة هناك ! إذا يعني
سنيك القاطعتين أعطك ليرة ذهبية مقابل كل منها . »
فسأله فانتين :

« ما هذا ؟ ما هما سني القاطعتان ؟ »

فاستطرد استاذ طب الاسنان قائلاً :

« السنان القاطعتان هما السنان الأماميتان ، السنان الاماميتان

من الفك الأعلى . »

فصاحت فانتين :

« يا لافظاعة ! »

فدمدمت عجوز لا اسنان لها كانت واقفة هناك :

« ليرتان ذهبيتان ! ما اسعدها وأعظم حظها ! »

ورلت فانتين فراراً ورضعت بعض اصابعها في أذنيها لكي لا

تسمع صوت الرجل الابحّ الذي كان يناديها صائحاً :

« فكّري ، ابتها الحناء ! ليرتان ذهبيتان ! ما اعظم الخدمة

التي تستطيعان اسداءها اليك ! اذا آنست في نفسك الجرأة على ذلك

فتعالى الليلة الى فندق « تيلك دارجان » . انك سوف تجدينني هناك . »

ورجعت فانتين الى غرفتها . كانت هائجة غصبي ، وقد روت القصة

لجاوتها الطيبة ماوغريت :

« هل تفهمين هذا ؟ أليس هر رجلاً فظيماً ؟ لماذا يجيرون لمثل

هؤلاء الناس ان يطوّفوا في البلاد ؟ ان اخلع سني الاماميتين !

ولكن ، سوف أبدو خيفة عندئذ ! ان الشعر ينمو من جديد ، أما

الاسنان ! اوه ، يا له من رجل وحش ! اني افضل ان ألقى بنفسي

من الدور الخامس الى بلاط الشارع ! لقد قال لي انه سوف يكون ،
الليلة ، في الـ « تيلاك دارجان . »

فألتها مارغريت :

« وماذا عرضَ مقابل ذلك ؟ »

« ليرتين ذهبيتين . »

« يعني اربعين فرنكاً . »

فقلت فانتين :

« أجل ، انها تساويان اربعين فرنكاً . »

ولازمها القلق ، وانصرفت الى عملها . وبعد ربع ساعة تركت ما

كانت تخطيه ، ومضت الى السلم لتعاود تلاوة الرسالة التي تلقتها من
تيناردية وزوجته .

حتى اذا رجعت ، قالت لمارغريت التي كانت تعمل الى جانبها :

« ما هي هذه الحمى العكرية ؟ هل تعرفين ؟ »

فأجابتها العانس :

« نعم . إنها مرض . »

« واذن ، فهي تحتاج الى كثير من الادوية ؟ »

« نعم ، الى ادوية فظيعة . »

« وكيف تصيب الانسان ؟ »

« إنها مرض يصيب الانسان في لحظة . »

« هل تصيب الأطفال ؟ »

« انها تصيب الاطفال على الخصوص . »

« وهل يموت الناس فيها ؟ »

فقلت مارغريت :

« في كثير من الاحيان . »

وانسجت فانتين ، ومضت كرة اخرى لتعيد تلاوة الرسالة ، فوق

السلم .

وفي المساء غادرت الغرفة ، متجهة نحو « شارع باريس » حيث تقوم الفنادق .

وفي صباح اليوم التالي ، حين شغصت مارغريت الى غرفة فانتين قبل بزوغ الفجر - ذلك بأنها كانتا تعملان دائماً معاً ، وهكذا تضيئان شمعة واحدة بدلاً من شمعين - وجدت فانتين جالسة على سريرها ، شاحبةً مثلوجة . لم تكن قد آوت الى الفراش . وكانت قلنسوتها قد سقطت على ركبتيها . كانت الشمعة قد اشتعلت طوال الليل ، وكانت على وشك ان تلفظ انفاسها الاخيرة .

ووقفت مارغريت على العتبة ، وقد اذهلتها هذه الفوضى المائلة وصاحت :

« يا الهي ! لقد فئيت الشمعة . لقد حدث شيء ما . »
ثم إنها نظرت الى فانتين ، التي ادارت نحوها رأسها العاطل عن الشعر .

كانت فانتين قد كبرت عشر سنوات ، منذ الليلة البارحة .
وقالت مارغريت :

« ورحمك ، يا رب ! ماذا دهالكِ ، يا فانتين ؟ »
فقالت فانتين :

« لا شيء . على العكس تماماً . إن ابنتي لن تموت بذلك المرض الفظيع نتيجة لانعدام المساعدة . أنا مرتاحة النفس . »
حتى اذا قالت ذلك أرتِ العانس الليرتين الذهبيتين اللتين التبعنا فوق الطاولة .

فقالت مارغريت :

« اوه ، يا الهي ! ولكن هذه ثروة ! من اين جئت بهاتين الليرتين الذهبيتين ؟ »

فأجابتها فانتين :

- « لقد جئتُ بها . »

قالت هذا ، وابتسمت . واضاءت الشمعة بحياتها . كانت ابتسامة
كليسة ؛ ذلك بأن زاويتي فيها كانتا مخرجتين بالدماء ، وكانت فجوة
مظلمة تتبدى هناك .

كانت السنان قد قُلعنا .

وارسلت الاربعين فرنكاً الى مونفيرماي .

ولم تكن هذه غير خدعة من تيناردييه وزوجته . إن كوزيت لم
تكن مريضة .

وطرحت فانتين مرآتها من النافذة . كانت قد انتقلت ، منذ زمن
طويل ، من غرفتها الصغيرة القائمة في الدور الثاني الى غرفة في أعلى
البنية توصد بمزلاج تحت السقف - الى عليّة من تلك العلالي التي بشكل
سقفها زاوية مع أرضها ، والتي يصطدم بها رأسك كل لحظة . إن الفقير
لا يستطيع ان يمضي الى أقصى غرفته ، او الى أقصى قدره ، إلاّ بأن
ينحني اكثر فأكثر على نحو موصول . إنها ما عادت تملك سريراً . لم
يبق لديها غير خرقة بالية دعنتها لحافاً ، وغير فراش أرضي ، وكرسي
تقطع قشته . وكانت شجرة الورد التي عندها قد جفت في احدى
بالزوايا ، وأضرّ بها النيان . وفي الزاوية الاخرى كان وعاء زبدة
خصّص للماء ، الذي جلد في الشتاء ، وقد ظلت مختلف المستويات
التي انتهى اليها الماء واضحة المعالم ، فترةً طويلة ، بدوائر من الجليد .
لقد فقدت حياءها ، وها هي ذي تفقد الرغبة في التزين . وتلك هي
الأمارّة الاخيرة . أمست تغادر مأواها بقلنوة قدرة . ولم تعد تفضل
ملابسها إما بسبب من قلة الوقت وإما بسبب من اللامبالاة . وكانت
كلما تراءت اعقاب جواربها تخفض هذه الاعقاب وتخفيها في الحذاء . وإنما
كان يتجلى ذلك بعض التفضّعات العمودية : لقد رقت مشدّها العتيق

المتهريء بمحرق من الحام كانت تتمزق عند أضال حركة . وعنفها دائئوها ولم يتركوها تروح لحظة واحدة . كانت تلتقيهم في الشارع ، وكانت تلتقيهم كرتة اخرى على سلتها . لقد انفتحت ليالي بكاملها وهي تبكي وتفكر . كانت عيناها شديدي اللتاع ؛ وكانت تحس بألم موصول في كتفها ، قرب أعلى عظم الكتف الأيسر . كانت تسعل كثيراً . وكانت تكره الاب مادلين كرهاً عيقاً . ولم تشك قط . لقد خاطت سبع عشرة ساعة يومياً ، ولكن احد مقاولي السجون - وكان يشغل السجناء بشن بحس - كسر السعر فجأة ، بما اسقط أجرة العامل الحر الى تسعة « سو » في اليوم . سبع عشرة ساعة من العمل ، وتسعة « سو » في اليوم ! وغدا دائئوها اشد قسوة بما كانوا في اياما وقت مضى . وكان تاجر الامتعة المستعملة الذي استرد كل أثاثه تقريباً لا يفتأ يقول لها : « متى ستدفعين اليّ » ، ايها النذلة ! »

يا السّمي ! اي شيء كانوا يريدون منها ان تفعله ؟ لقد استشعرت انها مطاردة ؛ وبدأ شيء من الوحش الضاري ينمو في ذات نفسها . وحوالى ذلك الوقت كتب تيناردييه رسالة اليها قال فيها إنه قد انتظر - في سماحة وكرم نفس - اكثر بما ينبغي ، وان عليها ان ترسل اليه مئة فرنك في الحال ، وإلا فإنه سوف يطرد كوزيت الصغيرة ، التي نعت من مرضها الويل ، ويقذف بها الى البرد ، الى قارعة الطريق ، وعندئذ تصبح ما تستطيع أن تصبجه ، وعندئذ تموت اذا شئت . وفكرت فاتين : « مئة فرنك ، ولكن اين المـسكان الذي يستطيع الانسان ان يكسب فيه مئة « سو » في اليوم ؟ » ثم قالت :

- « حسن . سوف أبيع ما بقي لي . »
وأمت الخلوقة البائسة بنتاً من بنات الهوى .

المسيح هو مخلصنا

ما هي قصة فانتين هذه ؟ إنها قصة المجتمع يشتري أمةً رقيقة .
تمن ؟ من الشقاء .

من الجوع ، من البرد ، من الوحدة ، من التخلّي ، من الحرمان .
صفة موجعة . نفسٌ بشرية مقابل كسرة من الخبز . الشقاء يعرض ،
والمجتمع يقبل .

إن شريعة يسوع المسيح المقدسة تهبّن على حضارتنا ، ولكنها لما
تنفّذَ إليها بعد . يقولون إنَّ الرقّة قد زال من الحضارة الاوروية .
هذا خطأ . إنه لا يزال قائماً ، ولكن المرأة وحدها ترزح اليوم تحت
ثقله . وهو يدعى البغاء .

اجل ، إن ثقله ملقىّ اليوم على المرأة ، يعني على اللطافة ، على
الضعف ، على الجمال ، على الامومة . وليس هذا خزيّاً من مخازي
الرجل الثانوية .

وفي المرحلة التي انتهينا إليها من هذه المأساة الفاجعة ، لم يكن قد
بقي لفانتين شيءٌ بما كان لها من قبل . كانت قد امتست رخاماً بعد
أن أصبحت وحلاً . فأما امرئٌ يمستها يشعر بقشعريرة . إنها تقضي في
سبيلها ؛ إنها تتحملك ؛ وإنها تتجاهلك . انها تحمل وجهاً كالحلأ مسربلاً
بالعار . لقد قالت لها الحياة وقال لها النظام الاجتماعي آخر كلمة من
كلماتها . لقد أصابها كل ما يمكن ان يصيبها . لقد قاست كل شيء ،
وصبرت على كل شيء ، وجربت كل شيء ، وكابدت كل شيء ،
وفقدت كل شيء ، وبكت على كل شيء . إنها لمدعنة لما قدّر لها ،
وإن اذعانها ليشبه اللامبالاة ، مثلما يشبه الموت الرقاد . إنها لا تجتنب

بعدُ شيئاً ، ولا نخشى بعدُ شيئاً . فليسقط عليها السحاب كله ، وليغيرها
 الاوقيانوس كله ! ما الذي يضرّها ؟ لقد أُشربت الاسفنجة حتى الاشباع .
 لقد اعتقدت بذلك على الاقل ، ولكن من الخطأ ان نتخيل ان في
 استطاعة المرء أن يستنفد قدره ، وان يبلغ قعر اي شيء منها يكن .
 وأسفاه ! ما هي هذه الاقدار كلها المسوقة هكذا كيفما اتفق ؟
 الى اين تمضي ؟ لم كانت كذلك ؟
 ان الذي يعرف ذلك يرى الظلام كله .
 انه واحدٌ أحد . ان اسمه الله .

١٢

بطالة مسيو باماتابوا

يوجد في جميع المدن الصغيرة ، ولقد كان يوجد في مونتروي - سور
 مير على الخصوص ، طبقة من الشبان الذين يقضون الفأ وخمسة ليرة
 من الدخل ، في الريف ، بثل الانطباعة التي يزدرد بها زملائهم ألفي
 فرنك سنوياً ، في باريس . انهم كائنات من النوع المحايذ العظيم . انهم
 خصيان ، طفيليات ، لا شيء . انهم من اولئك الناس الذين يملكون
 قليلاً من الارض ، وقليلاً من البلاهة ، وقليلاً من الظرف ، والذين
 يكونون اجلاً في صالون ثم يحسبون انفسهم اشرافاً في حانة ، والذين
 يتحدثون عن « حقولي ، وغاباتي ، وفلاحي » ، والذين يصفرون لمحتلات
 المسرح ازدراءً لكي يثبتوا انهم اصحاب ذوق رفيع ، والذين يتخاضمون
 مع ضباط الحامية لكي يظهروا انهم رجال حرب ، والذين يتصيدون ،
 ويدخنون ، ويتشاءبون ، ويحرقون الخمر ، ويستشفون السعوط ، ويلعبون
 البليارد ، ويمجدقون الى المسافرين وهم ينزلون من العربّة العمومية ،

ويعيشون في المقهى ، ويتعشون في الفندق ، والذين عندهم كلب يأكل
العظام تحت الطاولة ، وخليقة تضع الاطباق فوقها ، والذين يتشبثون
بالفلس ، ويغالون في اتباع الازياء ، ويُعجبون بالتراجيديا ، ويزدرون
النساء ، ويُبلون احذيتهم العتيقة ، ويقلدون لندن من خلال باريس ،
وباريس من خلال « بون - آ - موسون » ، والذين يزدادون حماقة كلما
تقدمت بهم السن ، والذين لا يشتغلون ولا يعملون صالحاً ، ولا يؤذون
كثيراً .

ولو قد اقام مسيو فيلكس تولوميس في مسقط رأسه ولم يَرِ باريس
قط ، اذن لكان واحداً من هؤلاء .

ولو كانوا اكثر غنى لقلنا : انهم مخشون . ولو كانوا اكثر فقراً
لقلنا : انهم منشدون . والواقع انهم متبطلون ليس غير ، وبين هؤلاء
المتبطلين نفرٌ مضجرون ، ونفر ضجرون ، وبينهم قوم حالمون ،
وقوم مضحكون .

وفي تلك الايام كان الخنث يتألف من طوق قميص ضخم ، وربطة
عنق ضخمة ، وساعة مثقلة بالسلاسل ، وثلاث 'صدرات' تُلبس احداها
فوق الاخرى ، وتكون ذات الوان مختلفة ، فالحمراء والزرقاء منها في
الداخل ، وسترة زيتونية اللون قصيرة ذات ذيل كذنب السمكة ،
وصفين من الازرار الفضية ، المزوز بعضها الى بعض ، والمرتفعة حتى
الكتف ، وينطلون زيتوني ازهر لوناً ، مزدان من جهتيه بعدد من
الاضلاع غير محدود ، ولكنه وتر* دائماً ، يراوح من واحد الى احد
عشر وهو حدة لا يتجاوز البتة . اخف الى ذلك حذاء طويل الساق
على عقبيه نعلان حديديتان صغيرتان ، وقبعة عالية الذروة ضيقة الحافة ،
وشعراً مصقفاً خضلاً خضلاً ، وخيزرانة ضخمة ، وحديثاً متمقاً بنكات

* الوتر من الاعداد : الفرد ، كالواحد والثلاثة والخمسة والستة كالاثنتين
والاربعة الخ .

« بونيه ، الجنسية . ولا نفعل فوق ذلك كله ، عن المهاجرين والشاربين .
ففي تلك الايام كان الشاربون شارة المدنيين ، وكان المهاجرون شارة
المشاة .

وكان الحث الريفي يصطنع مهاجرين اكثر طولاً ، وشاربين اشد
ضراوة .

كان عهد النزاع بين جمهوريات اميركا الجنوبية وملك اسبانية ، عهد
صراع بوليفار * ضد موريللو . كانت القبعات ذات الحواف الضيقة
ملكية ، وكانت تدعى « موريللو » ، على حين كان الاحرار يعتبرون
قبعات ذات حواف عريضة يدعونها « بوليفار » .

وبعد ثمانية اشهر او عشرة اشهر انتقضت على الاحداث التي روينها
في الصفحات السابقة ، وفي الايام الاولى من كانون الثاني سنة ١٨٢٣ ،
وذات ليلة تساقط فيها الثلج ، كان احد هؤلاء الحثين ، احد هؤلاء
الماطلين عن العمل ، وهو رجل « ذو رأي صائب » اذ كان يعتبر قبعة
من قبعات « موريللو » ويتلفع في دفء بالغ بواحد من تلك المعاطف
الضخمة التي تكمل زي العصر في فصل البرد - كان هذا الرجل يتمتع النفس
بالنهرش بمخلوقة كانت تروح ونحي . امام نافذة مقهى الضباط ، مرتدية
ثوباً للرقص يكشف عن عنقها وكتفها وقد زينت رأسها بالرياحين .
كان الحث يدخن ، فقد كانت تلك هي الموضة من غير ريب .

كان كلما مرت أمامه تلك المرأة قدفها ، مع بحجة دخان من سيجاره ،
بملاحظة ظنها ظريفة مرحة : « ما أبشعك ! » - « اتحاولين ان
تختبي . ? » - « لقد فقدت اسنانك ! » الخ . الخ . وكان هذا السيد
يدعى مسو بامانابوا . ولم تجبه المرأة - وكانت شبعاً حزيناً متبرجاً
يمشي على الثلج جيئة وذهوباً - بل لم تلتفت اليه ، ولكنها واصلت

* قائد ورجل دولة شهير حرر فنزويلا من الحكم الاسباني واسس جمهوريتي
كولومبيا وبوليفيا . ويعرف بواشنطن اميركا الجنوبية .

سيرها في صمت وفي نظامية كالحلة كانت تعرضها لسخريته كل خمس دقائق مثل الجندي المُدان الذي يرجع في فترات معينة تحت المحاصر * واثوت هذه اللامبالاة ، من غير شك ، حتى المتبطل ، فما كان منه الا ان افاد من احدى اللحظات التي استدارت فيها ، وشى خلفها في خطى مختلفة ، وانحنى خائفاً ضحكته ، وتناول حفنة تلج من جانب الطريق ، وسارع الى افحامها في ظهرها بين كتفيها العاريتين . وصرخت الفتاة في حق ، واستدارت ، ووثبت مثل النميرة ، وانقضت على الرجل ، منبهة اظافرها في وجهه ، مصطنعة افطع الالفاظ التي يمكن ان تتساقط من اوغاد مركز من مراكز الحرس . وكانت هذه الاهانات المتقيئة في صوت جعلته الحمر أبج ، تنطلق من فم بشع تعوزه السنان الاماميتان . كانت هي فانتين .

واندفع الضباط من المقهى ، على جلبه الحادث ؛ واحتشد عابرو السبيل . وتشكلت دائرة ضخمة ، ضاحكة ، ساخرة ، مصفقة ، حول مركز الجذب هذا المواقف من مخلوقين من العسير ان يُعرف انها رجل وامرأة . فأما الرجل فكان يدافع عن نفسه وقد انطرحت قبعته على الارض ، وأما المرأة فكانت ترفس ، وتضرب ، حاسرة ، صائجة ، من غير اسنان ، ومن غير شعر ، زرقاء ضارباً لونها الى السواد من شدة الغضب ، بخيفة مروعة .

وفجأة اندفع رجل طويل من بين الحشد ، وامسك بالمرأة من النصف الاعلى من فستانها الملوّث بالطين وقال لها :
- « اتبعيني ! »

ورفعت المرأة رأسها وخذ صوتها الضاري في الحال . كانت عينها زجاجيتين يعوزهما اللعان ، وكان لونها الازرق الضارب الى السواد قد امسى شاحباً . وارتجفت ارتجافة الذعر . لقد عرفت جافير .

* جمع بحمرة ، وهي شيء اشبه بالسوط ، يقرب به ويتكأ عليه .

واغتم الخنث الفرصة وانسل هارباً .

١٣

حل لبعض مشكلات الشرطة البلدية

وصدّ جافير المتجهرين ، وحطم الطوق الذي كانوا قد ضربوه حول المرأة والرجل ، وانطلق نحو مكتب الشرطة القائم عند اقصى الساحة ، جاواً المخلوقة البائسة خلفه . ولم تبداي مقاومة ، تابعة اياه على نحو آلي . بل انها لم تنطق بكلمة . وفي اثرها مضى جمهور النظارة ، وهو في ذروة الابتهاج ، يرسل النكات المستقبحة . كان البؤس الذي ما بعده بؤس ، مناسبة عندهم للبداءة والفحش .

حتى اذا انتهرا الى مكتب الشرطة ، وكان قاعة خفيضة يدفنها موقد ويصونها حارس وينفتح لها على الشارع باب مزجج ذو قضبان مشبكة ، فتح جافير الباب ، ودخل مع فانتين ، ثم اغلق الباب ، مخبياً بذلك آمال الحشد الفضولي الذي وقف افراده على رؤوس اصابعهم واتلعوا أعناقهم امام نافذة مركز الحرس القذرة ، تائقين الى ان ينظروا . إن الفضول ضرب من الشراهة . والنظر هو التهام .

وحين دخلا المكتب خربت فانتين في احدى الزوايا خرساء جامدة ، مثل كلب مذعور .

ورضع رقيب المركز شمعة مضاءة على الطاولة . وجلس جافير ، واخرج من جيبه ورقة تحمل طابعاً ، وأنشأ يكتب .

إن هؤلاء النساء ليوضعن وفقاً لقوانيننا ، تحت تصرف الشرطة المطلق . انهم يفعلون بهن ما يشاءون ، ويعاقبونهن كما يحلو لهم ، ويصادرون من تلقاء انفسهم هذين الشينين الحزينين اللذين يسميها صناعتهن

وحريتهن . كان جافير عديم الاحساس ؛ وكان وجهه الصارم لا ينم عن عاطفة ما . كان ، على اية حال ، مستغرقاً في تفكير جدي عميق . كانت احدى تلك اللحظات التي يمارس فيها ، على نحو غير محدود ، ولكن بكامل التردد والتدقيق الجديرين بالضمير الصارم ، سلطته الرهيبة المطلقة . وفي تلك اللحظة استشعر ان كرسى رُجل الامن المنخفض منصة قضاء . كان يحاكم . كان يحاكم ويدين . لقد حشد كل ما قدر عليه من فكريات حول الشيء العظيم الذي كان يقوم به . وكلما تعمق درس سلوك هذه الفتاة تعاضلت ثورته . كان واضحاً انه قد بصُر مجرمة تُقتول . لقد رأى ، هناك في الشارع ، الى المجتمع ممثلاً في مالك - ناخب ، يهان ويهاجم من قبل مخلوقة منبوذة . لقد تعدت مومس على مواطن . وهو ، جافير ، قد رأى ذلك بنفسه . لقد كتب في صمت .

وحين انتهى ، وقع الورقة ، وطواها ، ثم سلمها الى رقيب المركز قائلاً :

- « خذ ثلاثة رجال ، وُسُقْ هذه الفتاة الى السجن . »

ثم التفت الى قائنين وقال :

- « سوف تمكثين هناك ستة اشهر . »

وارتعدت المرأة البائسة .

وصاحت :

-- « ستة اشهر ! ستة اشهر في السجن ! ستة اشهر لكي اكسب

سبعة « سو » في اليوم ! ولكن ما الذي سيحل بكوزيت ! ابنتي !

ابنتي ! ولكني لا ازال مدينة باكثر من مئة فرنك لتيناردييه وزوجته ،

يا سيدي المفتش ، هل تعرف ذلك ؟ »

وجرت نفسها على ارض القاعة الملوثة بأحذية جميع هؤلاء الرجال

الموحلة ، من غير ان تنهض ، شابكة يديها ، منطلقة في سرعة على

ركبتها .

وقالت :

- « مسيو جافير ، اسألك الرحمة . اؤكد لك اني لم اكن معتدية . لو شهدت الحادثة من بدايتها لرأيت ذلك ! اقسم لك بالله اني لم اكن معتدية . لقد وضع ذلك السيد ، الذي لا اعرفه ، الثلج في ظهري . هل يملكون الحق في ان يضعوا الثلج في ظهورنا حين نمرّ هكذا في هدوء من غير ان نؤذي أحداً ؟ لقد هاجني ذلك . أنا مريضة بعض الشيء ، كما ترى ! وإلى هذا ، فقد كان قبل ذلك يوجّه الي ، طوال فترة غير قصيرة ، أشياء مثل هذه : « أنت بشعة ! » ، « انت بلا اسنان ! » ، « انا اعرف جيداً اني فقدت اسناني . انا لم اعمل شيئاً . لقد قلت في نفسي : « إنه سيُدّ يعبت ويلهو » . كنت محتشمة معه . انا لم اكلمه قط . وفي هذه اللحظة بالذات وضع لي الثلج . مسيو جافير ، ياسيدي المفتش الطيب ! ألم يكن هناك شخص رأى الحادث ليقول لك ان هذا صحيح ؟ لعلي أخطأت باستلامي للغضب . انت تدري ان الانسان لا يستطيع ، في اللحظة الاولى ، ان يسيطر على نفسه . إنه يكون سريع الاحتياج . فما بالك اذا وُضع شيء بارد الى هذا الحد في ظهرك حين لا تكون متوقفاً ذلك البتة ! لقد اخطأت في إتلافي قبعة ذلك السيد . لماذا ذهب ؟ سوف ألتس عفوه . اوه يا الهي ، لن يضيرني ان ألتس عفوه . إرحمني هذه المرة ، يا مسيو جافير . على رسلك ، انت لا تعرف هذا : إنهم في السجن لا يكبون غير سبعة « سو » . هذه ليست خطيئة الحكومة ، ولكنهم يكسبون سبعة « سو » ؛ وتصور ان عليّ مئة فرنك ينبغي ان ادفعها وإلا قذفوا بابنتي الصغيرة الى الشارع . آه ، يا الهي ! انا لا استطيع ان أبقياها معي . إن ما أعمله شنيع جداً . اوه ، كوزيت ، اوه يا ملاكاً صغيراً من ملائكة العذراء الطاهرة الطيبة ! ما الذي سوف يحلّ بتلك الطفلة المكيّنة

الجامعة ! اقول لك ان تيناردية وزوجته صاحباً فندق . إنها جلفان ، لا يملكان شيئاً من الروية والتفكير . ينبغي ان يُرسل اليها مَالٌ . لا تلقني في السجن ! أرأيت ، إنها صغيرة سوف يقذفون بها الى عرض الطريق لتعمل ما تستطيع ان تعمل ، في اشدّ ايام الشتاء برداً . ينبغي ان تشفق على هذه المخلوقة الصغيرة ، يا سيدي الطيب جافير . لو كانت اكبر سناً لاستطاعت ان تكسب رزقها ، ولكنها لا تستطيع في هذه السن . أنا لستُ امرأة ساقطة بالفطرة . وليس الكل والشرافة هما اللذان قاداني الى هذا . لقد شربت الخمر . ولكن ذلك كان بدافع من البؤس . أنا لا أحبها ، ولكنها تسلي عن الملوم . وحين كنت اكثر سعادة كانت نظرة واحدة يلقيها المرء على خزائني كافية لكي يتأكد أنني لم اكن فتاة محبة للزينة ، لا تعرف النظام . كانت عندي ملابس داخلية ، كثير من الملابس الداخلية . إرحمني ، يا ميسو جافير ! ، لقد تحدثت هكذا ، محنيةً بالاعياء ، مرتعدةً بالزفرات ، مكفوفةً بالدموع ، عارية الرقبة ، ملوية الذراعين بالألم ، مرسلّة سعالاً جافاً قصيراً ، متجلجلة في وهن بالغ بصوت الحشرة . ان الالم العظيم شعاع إلهي وفظيع ينقل البؤساء من صورة الى صورة . ففي هذه اللحظة بالذات عاود فانتين جمالها المفقود . لقد كفت عن الكلام في بعض الفترات وقبلت ، في رفق ، ادنى معطف الشرطي . لقد كانت خليقة بان تلبس قلباً من صوان . ولكن المرء لا يستطيع ان يُلبس قلباً من خشب .

وقال جافير :

— « والآن ، لقد استمعت لك . ألم تنتهي بعد ؟ انطلقني في الحال ! امامك ستة اشهر تقضيها في السجن . إن الأب الازلي نفسه لا يستطيع ان يعمل شيئاً من اجلك . »

حتى اذا سمعت هذه الكلمات المسهية « ان الاب الازلي نفسه لا

يستطيع ان يعمل شيئاً من اجلك » ادركت ان الحكم عليها قد صدر.
وخارت قواها وهي تتمم :

— « الرحمة ! »

وادر جافير ظهره .

وأمسك بها الجند من ذراعيها .

وقبل ذلك بيضع دقائق كان رجل قد دخل من غير ان يلحظه
أحد . كان قد اغلق الباب ووقف مولياً اياه ظهره ، وكان قد سمع
توسلات فانتين الياسة .

وحين وضع الجند ايديهم على المخلوقة المسكينة التي أبت ان تنهض ،
تقدم خطوة الى الأمام ، خارجاً من الظلمة ، وقال :

— « دقيقة واحدة ، من فضلكم ! »

ورفع جافير عينيه ، فتبين في ذلك الرجل مسيو مادلين . فما كان منه
إلا ان تزع قبعته ، وانحنى في ضرب من الارتباك المغضب :

— « عفوك ، يا سيدي العمدة »

وكان لهاتين الكلمتين « سيدي العمدة » اثر عجيب في نفس فانتين .
فوثبت على قدميها في الحال ، وكأنها شبح ينبثق من باطن الارض ،
وردت الجند بذراعيها الى الوراء ، واندفعت اندفاعاً مباشراً الى مسيو
مادلين قبل ان يستطيعوا وقفها ، وحدقت اليه على نحو موصول ،
بنظرة ضارية ، وصاحت :

— « آه ، فانت اذن السيد العمدة ! »

ثم إنها انفجرت بالضحك ، وبصقت في وجهه .

ومسح مسيو مادلين وجهه ، وقال :

-- « ايها المفتش جافير ، أطلق سراح هذه المرأة . »

واستشعر جافير وكأنه على وشك ان يفقد صوابه . لقد اصابته ،
في تلك اللحظة ، ضربة فوق ضربة ، وأحس في الوقت نفسه تقريباً

بأعنف الانفعالات التي قدّر له ان يعرفها طوال حياته . لقد كان مشهد بنت من بنات الهوى تبصق في وجه عمدة شيئاً شنيعاً خارجاً على الذوق الى حدّ كان خليقاً بأن يجعله يحسب - في اوهامه الاكثر انظلاقاً - ان من الحرق للقدسيات الاعتقاد بأنه ممكن . ومن ناحية ثانية ، فقد عقدت في اعماق ضميره ، وعلى نحو مبهم ، مقارنة بشعة بين ما كانته هذه المرأة وما يمكن ان يكونه هذا العمدة . وعندئذ لمح في دعر شيئاً بسيطاً الى حدّ لا يوصف في هذه الاهانة المدهشة . ولكن ما ان رأى الى هذا العمدة ، الى هذا الحاكم ، بيسح وجهه في هدوء وبقول : « أطلق سراح هذه المرأة . » حتى استبدت به الدهول والانشداه ؛ وخانه التفكير والنطق جميعاً . كان قد تجاوز مجموع الدهش الممكن . وظلّ معتصماً بالصمت .

ولم تكن الضربة التي انزلتها كلمات العمدة بفاتنين اقلّ غرابة . لقد رفعت ذراعها العارية وتشبّثت بلولب الموقد وكأنها تترنّح . وفي الوقت نفسه اجالت طرفها في ما حولها وبدأت تتكلم بصوت خفيض ، وكأنها تخاطب نفسها :

- « إطلاق سراحي ! سوف يسمحون لي ان اذهب ! انا لن اساق الى السجن لأقضي ستة اشهر فيه ! من الذي قال هذا ؟ ليس من الممكن ان يكون احد قد قال ذلك ! لقد اسأت الفهم . إنه لا يمكن ان يكون هذا العمدة الشبيه بالغول ! اكنت انت ، يا سيدي الطبيب جافير ، الذي اخبرتهم ان يطلقوا سراحي ؟ أوه ، انظر ! سوف اخبرك ، وسوف تعيد اليّ حريتي . ان هذا العمدة الغول ، ان هذا العمدة الجرو العجوز هو السبب في كل شيء . تصوّر ، يا مسيو جافير ، انه طردني ، بسبب حزمة من الشحاذات اللواتي يروين القصص في المصنع ! ألم يكن مروّعاً ان تُفصل فتاة مسكينة تؤدي عملها في اخلاص ! ومنذ ذلك الحين لم يعد في امكاني ان اكسب مقداراً كافياً من المال ، وجاء

الشفاء كله . قبل كل شيء ، ان هناك تغييراً يجب عليكم يا رجال الشرطة ان 'تحدثوه' - وهو ان تحولوا بين مقاولي السجون وبين ازالة الظلم بالفقراء . سوف اشرح لك ذلك ؛ اسمع . انت تكسب اثني عشر 'سو' من صنع القمصان ، فاذا بذلك الرقم يهبط الى تسعة 'سو' ، وهو مبلغ لا يمك الرمتق . ثم يتعين علينا ان نفعل ما نستطيع ان نفعله . اما انا فكانت عندي صغيتي كوزيت ، وكنت مجبرة على ان اصبح بنت هوى . انت تدرك الآن ان هذا العمدة الشحاذ قد فعل ذلك كله . وبعد ذلك دُست على قبعة هذا السيد امام مقهى الضباط . ولكنه كان قد اثلف فستاني كله بالثلج . انا نحن النساء ، ليس عندنا غير فستان حريري واحد للسهرة . انظر . انا لم اقصد في يوم من الايام ان اسمي الى احد قصداً . صدقتي ، يا مسيو جافير . وانا ارى في كل مكان نساء اكثر خبثاً مني الى حد بعيد ومع ذلك فهنّ اسعد مني الى حد بعيد . اوه ، يا مسيو جافير ، إنك انت الذي قلت لهم ان يطلقوا سراحي ، اليس كذلك ؟ اذهب واستطلع . تحدثت الى صاحب الغرفة التي أسكنها . انا ادفع أقساطي ، ولـوف يقولون لك انني أمينة . اوه ، يا عزيزي ، انا التمس عفوك . لقد لست ، من غير ان ادري ، لولب الموقد ، وهذا ما جعل الدخان ينبعث .

واصفى مسيو مادلين في انتباء عميق . وفيما هي تتحدث ، كان قد بحث في صدرته واخرج محفظته وفتحها . كانت فارغة . وكان قد أعادها الى جيبه . وقال لفانتين :

- « ما المبلغ الذي قلت انك مدينة به ؟ »
والتفتت فانتين نحوه ، وكانت لا تنظر من قبل ولا إلى جافير ، وقالت :

- « وهل كنت أوجه الحديث اليك ؟ »

ثم خاطبت الجند قائلة :

« قولوا ، انتم أيضاً ، رأيتم كيف بصقت في وجهه ؟ أوه ،
أيها العمدة الوغد المعجوز ، أنت تأتي الى هنا لتروّعني ، ولكنني لست
خائفة منك . أنا خائفة من مسيو جافير . أنا خائفة ، من سيدي الطبيب
مسيو جافير ! »

حتى اذا قالت ذلك التفتت كرة اخرى الى المفتش :

« والان ، يا سيدي المفتش ، يجب ان تكون عادلاً . أنا
أعرف انك عادل ، يا سيدي المفتش . والواقع ان المسألة بسيطة جداً :
رجل يلهو بوضع قليل من الثلج في ظهر امرأة ؛ ذلك ما جعلهم - اولئك
الضباط - يضحكون ، فالانسان ينبغي ان يتلهى بشيء ، ونحن الكائنات
الشقية لم نخلق إلا لأمتاع الناس ! ثم تأتي أنت ، اجل انت ، فتضطر
الى حفظ النظام ، فتعتقل المرأة التي أذنبت ، ولكنك ما تكاد تفكر
في الامر - وانت الرجل الطبيب - حتى تأمرهم باطلاق سراحها ، وما
ذلك إلا من أجل بنتي الصغيرة ، لأن ستة اشهر في السجن سوف تحول
بيني وبين إعالة طفلي . على شرط ان لا تعودني الى مثلها مرة أخرى ،
أيتها الوغدة ! أوه ، انا لن اعود الى مثلها مرة ثانية ، يا مسيو جافير ! في
استطاعتهم ان يفعلوا ما يشاؤون الآن ، فلن أحرّك ساكناً على الاطلاق .
اليوم فقط - كما نرى - صرخت لأن ذلك آذاني . انا لم اتوقع البتة
ان يضع ذلك السيد الثلج في ظهري . وفوق هذا ، فقد سبق ان قلت
لإني مريضة بعض الشيء . انا اسعل . إن في صدري شيئاً مثل الكرة
يجرقني ، ولقد قال لي الطبيب : « إعتني بنفسك . » والان ، جُسي .
اعطني يدك . لا تخف . ها هي ذي . »

وكفّت عن البكاء ، وغدا صوتها ملاطفاً . لقد وضعت يد جافير
الضخمة الغليظة على صدرها الابيض الرقيق ، ونظرت اليه وهي تبسم .
وفجأة سارعت الى تسوية ما اضطرب من ملابسها ، وملست ثنيات

فستانها ، وكان قد ارتفع فيما هي تجرّ نفسها على الارض حتى بلغ ركبتيها تقريباً . ومشت نحو الباب ، وخاطبت الجند في صوت خافت ، هازة رأسها هزة ودية :

— « أيتها الغلمان ، إن السيد المفتش قال يجب ان تطلقوا سراحي . أنا ذاهبة . »

ووضعت يدها على مزلاج الباب . خطوة واحدة وتصبح في الشارع . وكان جافير قد ظل واقفاً ، حتى تلك اللحظة ، جامداً ، مسرّاً عينيه على الارض ، بادياً وسط ذلك المشهد وكأنه تمثال ينتظر ان يوضع في مكانٍ ما .

وأيقظه صوت المزلاج . فرفع رأسه وعلى وجهه انطباعة السلطة المطلقة ، وهي انطباعة تكون اكثر ترويعاً حين تُسند الى كائنات من الدرجة الدنيا . إنها وحشية عند الأطباء البوية ، شرسة عند العقاشة * من الناس .

وصاح :

— « أيتها الرقيب ، الا ترى هذه المتشردة تضي ليلها ؟ من قال لك ان تدعها تذهب ؟ »

فقال مادلين :

— « انا . »

وكانت فانتين قد ارتجفت لدن سماعها كلمات جافير وأفلتت مزلاج الباب كما يُفلت اللص المقبوض عليه ما كان قد سرقه . حتى اذا تكلم مادلين استدارت . ومنذ تلك اللحظة ، ومن غير ان تبس بكلمة ، ومن غير ان تجرّو حتى على التنفس في حرية ، نقلت طرفها من مادلين الى جافير ومن جافير الى مادلين مصغية الى من يتفق ان يكون هو المتحدث منها .

* العقاشة : من لا خير فيه .

كان واضحاً ان جافير قد استثير غضبه كما يقولون والا لما اجاز
لنفسه ان يخاطب الرقيب كما قد فعل بعد ان دعا العمدة الى اطلاق
سراح فانتين . أنسي ان العمدة هناك ؟ أقرر آخر الامر بينه وبين
نفسه ان من المستحيل على « سلطة » ما ان تصدر أمراً كهذا ، وان
العمدة من غير شك قد قال شيئاً وهو يعني نقيضه ؟ أم انه قال في
ذات نفسه ، نظراً للأعمال الفاحشة التي شهدا منذ ساعتين ، إن من
الضروري ان يلجأ الى الاجراءات القصوى ، وان من واجب الصغير
ان يكتب نفسه ، ومن واجب جاسوس الشرطة ان يحول نفسه الى
حاكم ، ومن واجب البوليس ان يصبح قاضياً ، وان النظام ، والقانون ،
والاخلاق ، والحكومة ، والمجتمع كله كانت تمثل - في هذه الحالة
الاستثنائية المروعة - في شخصه هو ، جافير ؟

وأياً ما كان ، فعين قال مسيو مادلين تلك الـ « أنا » التي سمعناها
منذ لحظة استدار مفتش الشرطة ، جافير ، نحو العمدة ، صاحب
الوجه ، بارداً ، ازرق الشفتين ، باللس النظرة ، مضطرب الجسم كله
بارتجاف غير ملحوظة ، وقال له - وذلك ما لم يُسمع به من قبل -
مطرق العين ، ولكن في صوتٍ كَبُت :

- « سيدي العمدة ، هذا لا يمكن أن يُعمل . »

فقال مسيو مادلين :

- « لماذا ؟ »

- « هذه المرأة الشريرة قد اهانت احد المواطنين . »

فأجابه مسيو مادلين في نبوةٍ مصالحةٍ هادئة :

- « ايها المفتش جافير ، اسمع . انت رجل نزيه ، وليس عندي

ما يحول دون شرح وجهة نظري لك . تلك هي الحقيقة : كنت
ماراً بالساحة العامة حين اعتقلت هذه المرأة . كان لا يزال هناك حشد
من الناس . فعرفت ظروف الحادث . لقد علمت كل شيء . إن

المواطن هو الذي أذنب ، وهو الذي كان ينبغي - لو كان ثمة شرطة
صالحة - ان يُعقل . ،

فتابع جافير :

- « إن هذه الساقطة قد أهانت السيد العمدة ، منذ لحظة . ،

فقال سيو مادلين :

- « هذه مسألة تتصل بي شخصياً . إن الإهانة الموجهة الي مرهونة

بحكمي أنا ، في ما أظن . في استطاعتي ان افعل بشأنها ما اشاء . ،

- « استمبح السيد العمدة عفواً . إن الإهانة ليست مرهونة بحكمه ،

ولكنها مرهونة بحكم العدالة . ،

فقال سيو مادلين :

- « ايها المفتش جافير . العدالة العليا هي الضمير . لقد سمعتُ هذه

المرأة . أنا اعرف ما الذي أصنعه . ،

- « وأنا ، يا سيدي العمدة ، أعرف ما الذي اراه . ،

- « اذن ، فاكتمل بالطاعة . ،

- « انا اطيع واجبي . إن واجبي يفضي بأن تُسجن هذه المرأة

سنة اشهر . ،

فاجابه سيو مادلين في دمائه :

- « إسمع هذا جيداً . إنها لن تقضي هناك يوماً واحداً . ،

ولم يكذ سيو مادلين ينطق بهذه الكلمات الحاسمة حتى جرؤ جافير

على ان يحدق النظر الى العمدة ، وان يقول له ولكن في نبرة ما تزال

ترشح بالاحترام العميق :

- « انا آسف جداً أن اعارض السيد العمدة . انا افعل ذلك لأول

مرة في حياتي ، ولكنه سوف يتفضل ويحيز لي ان الالحظ اني اتصرف

ضمن نطاق سلطتي . وسوف اتحدث عن مسألة المواطن ، ما دام السيد

العمدة راغباً في ذلك . لقد كنتُ هناك . إن هذه الفتاة هي التي انقضت

على مسيو بارماتابوا ، الذي هو ناخب ، ومالك ، لذلك البيت الجميل
ذي الشرفة ، القائم عند زاوية الساحة ، والمؤلف من ثلاثة ادوار ،
والمشيد كله من حجر منحوت . والواقع ان في هذا العالم اشياء ينبغي
ان تؤخذ بعين الاعتبار . وعلى اية حال ، يا سيدي العمدة ، فهذه
المسألة من خصائص شرطة الشارع . انها تتصل بي ، واني أحتجز هذه
المرأة .

وهنا صاب مسيو مادلين ذراعيه وقال في صوت قاسٍ لم يسمعه قط
احدٌ في المدينة من قبل :

– « إن المسألة التي نتحدث عنها من خصائص الشرطة البلدية . وانا
الذي أنفي فيها وفقاً لأحكام المادة التاسعة ، والحادية عشرة ، والخامسة
عشرة ، والسادسة والسبعين من قانون العقوبات . انا آمر بإطلاق سراح
هذه المرأة . »

واراد جافير ان يقوم بمحاولة اخيرة .

– « ولكن ، يا سيدي العمدة ... »

– « اني اذكرك بالمادة الحادية والثلاثين من قانون ١٣ كانون الاول

١٧٩٩ في ما يتصل بالسجن غير المشروع . »

– « سيدي العمدة ، اسمح لي ... »

– « لا تقل اي كلمة اخرى . »

– « ومع ذلك ... »

فقال مسيو مادلين :

– « اخرج من هنا ! »

وتلقى جافير الضربة ، وهو واقف على قدميه يواجهها ب صدره كله ،

مثل جندي روسي . لقد انحنى حتى الأرض ، امام العمدة وخرج .

ووقفت فانتين الى جانب الباب ، ونظرت اليه في ذهول بينما هو

يمر امامها .

ولكنها كانت هي ايضاً فريسة اضطراب عجيب . لقد رأت الى قوتين متعارضتين تتنازعانها بطريقة ما . رأت رجلين يصطراعان امام عينيها ، رجلين يملكان في ايديهما حريتها ، وحياتها ، ونفسها ، وابنتها . فأما احدهما فكان يشد بها نحو الظلام ، وأما الآخر فكان يقودها نحو النور . وفي هذا الصراع المنظور اليه من خلال تضخيمات الذعر ، تراهي لما هذان الرجلان مثل عملاقين . كان احدهما يتكلم وكأنه شيطانها ، وكان الآخر يتكلم وكأنه ملاكها الكريم . لقد قهر الملاك الشيطان ، ولقد كان في مجرد التفكير بذلك ما جعلها ترتعد من قمة رأسها الى اخص قدميها . وكان هذا الملاك ، هذا المحلّص ، هو على وجه الضبط ذلك الرجل الذي ابغضته ، ذلك العمدة الذي اعتبرته منذ عهد طويل صانع بلاياها كلها ، مادلين هذا ! وفي تلك اللحظة عينا التي اهانته فيها على نحو بشع ، عمدة الى انقاذها ! هل كانت مخدوعة اذن ؟ هل يتعين عليها ان تغير قلبها كله اذن ؟ لم تكن تدري . لقد ارتعدت اوصالها ؛ لقد اصغت في انفعال ، واجالت طرفها حولها في هلع . ومع كل كلمة نطق بها ميو مادلين احست بظلمات بغضها المروعة تذوب في إهابها وتجري منفصلة عنها ، على حين ولد في فؤادها دفء يعجز البيان عن وصفه ، دفء البهجة ، دفء الثقة ، دفء الحب .

حتى اذا خرج جافير التفت ميو مادلين اليها ، وقال لها في تودة وفي عسر مثل رجل يناضل حتى لا تسيل عبرانه :

- « لقد سمعت كلامك . لم اكن اعرف شيئاً مما قلته . انا اعتقد انه صحيح ، وانا اشعر انه صحيح . بل اني كنت اجعل انك تركت العمل في مضاعي . لماذا لم تراجعيني في ذلك ؟ ولكن اسمعي : سوف ادفع ديونك ؛ سوف آتيك بابنتك ، او اذهب بك اليها . سوف تعيشين هنا ، او في باريس ، او في اي مكان تختارين . سوف اتولى امر العناية

بك وبطفلك . إنك لن تشتغي بعد اليوم ، اذا شئت . سوف اقدم اليك كل ما تحتاجين اليه من مال . وسوف تصبحين امرأة فاضلة ككرة اخرى بأن تنعمي بالسعادة من جديد . وفوق هذا ، فأني اصرح امامك منذ هذه اللحظة قائلاً : اذا كان كل شيء كما وصفت ، ولست اشك في هذا ، فأنت ما زلتِ فاضلة طاهرة امام الله . اوه ! ايها المرأة الشقية ! ،

وكان ذلك أكثر مما استطاعت فانتين المسكينة ان تحتمل . ان تفوز بكوزيت ! ان تطلتي هذه الحياة الشائنة ! ان تعيش حرة ، غنية ، سعيدة ، فاضلة مع كوزيت ! ان ترى الى حقائق الجنة هذه كلها تنبثق فجأة وسط شقاها ! لقد نظرت وكأنها بلهاء ، الى هذا الرجل الذي يخاطبها ، ولم تستطع ان ترسل غير زفرتين او ثلاث زفرات : « اوه ! اوه ! اوه ! » وخذلتها ساقاها ، فارقت على ركبتيها امام ميسو مادلين . وقبل ان يتمكن من منعها استشعر انها امسكت بيده ورفعتها الى شفتيها . ثم غابت عن الوعي .

الكتاب السادس

جاثير

١

بداية الراحة

ونقل مسيو مادلين فانتين الى المستشفى القائم في منزله نفسه . لقد عهد الى الراهبتين في أمر العناية بها ، فوضعتها في السرير . لقد عصفت بها حمى عنيفة ، فسلخت شطراً من الليل وهي نهذي وتتكلم بصوت عال . وأخيراً استسلمت للرقاد .

وحوالي الظهيرة من اليوم التالي استيقظت فانتين . لقد سمعت تنفساً قرب سريرها ، فأزاحت الستارة ، فرأت مسيو مادلين واقفاً يتحدث الى شيء فوق رأسه . كانت نظراته مغممة بالآلم النفسي الشفوق المتوسل . وتابعت

اتجاه نظرتة هذه فوجدت انها كانت مسددة الى شمال المصلوب المسمر على الجدار .

ومن تلك اللحظة 'خلق' مسيو مادلين خلقاً آخر في عيني فانتين . لقد تراءى لها مكسوآً بالضياء . كان مستغرقاً في ضرب من الصلاة . وحدقت اليه فترة طويلة من غير أن تجرؤ على مقاطعته . وأخيراً قالت في خوف :

« ما الذي تفعله ؟ »

كان مسيو مادلين قد سلخ ساعة في ذلك المكان . كان ينتظر فانتين حتى تفتق من سباتها . فأمكن يدها ، وجس نبضها ، وقال :

« كيف حالك ؟ »

ف قالت :

« حسنة جداً . لقد نمت . أظن أنني أتحمّن . لن يكون هذا شيئاً . »

ثم إنه قال ، مجيباً عن سؤالها الذي وجهته اليه في البدء ، وكأنما سمعه 'اللحظة' :

« أنا أصلي للشهيد الذي في الاعالي . »

ثم أضاف بينه وبين نفسه :

« للشهيدة التي في هذا العالم . »

وقضى مسيو مادلين الليل والصباح مستظلاً . لقد غدا عارفاً كل شيء . لقد غدا عارفاً قصة فانتين بكامل تفاصيلها الموحجة . وتابع كلامه :

« لقد كابدت كثيراً ، ابتها الام المكينة . أوه ، لا تنتهي . لقد فزت الآن بنصيب الخناوين من الناس . وإنما بهذه الطريقة يصبح البشر ملائكة . إنها ليست خطيئتهم على الاطلاق . إنهم لا يعرفون كيف يبدأون على نحو آخر . إن هذا الجحيم الذي خرجت منه هو

الخطوة الأولى نحو الجنة . ينبغي ان نبدأ من هناك .
وأطلق زفرة عميقة . أما هي فابنست تلك الابتسامة الرفيعة التي
تعوزها سنان .

وفي الليلة نفسها كتب جافير رسالة . وفي صباح اليوم التالي حمل
هذه الرسالة بنفسه الى مركز بريد مونتروي - سور مير . كانت موجهة
الى باريس ، حاملة هذا العنوان : « الى مسيو شابوييه ، سكرتير
السيد مدير الشرطة . »

واذ كانت حادثة مكتب الشرطة قد شاعت بين الناس فقد ظنت
مديرة مكتب البريد وغيرها ممن رأوا الرسالة قبل ان 'تحمل الى وجهتها ،
ومن عرفوا في العنوان خط جافير ، أن مفقش الشرطة قد قدم بذالك
استقالته .

وسارع مسيو مادلين الى الكتابة الى تيناردييه . كانت فانتين مدينة
له بئنة وعشرين فرنكاً . ولقد ارسل اليه ثلاثة فرنك ، طالباً منه أن
يقطع ديونه منها ، وينقل الطفلة في الحال الى مونتروي سور مير لأن
أمها المريضة تريد ان تراها .

وأوقعت هذه الرسالة الدهش في نفس تيناردييه .
وقال لزوجته :

« يا للشيطان ! نحن لن نتخلى عن الطفلة . ان هذه الفتاة المهزولة
سوف تصبح بقرة حلباً . واحسب ان رجلاً أحق قد فُتِنَ بالأم . »
وأجاب بأن أرسل فاتورة بمحسنة وبضعة فرنكات كتبت كتابته
حسنة . وقد تمثّل في هذه الفاتورة بيانان لا ريب في صحتها بما يزيد على
ثلاثمئة فرنك ، أحدهما من طيبب والآخر من صيدلي عاچا إيونين
وآزبيلما وقدّما الادوية اليها خلال مرضين طويلي الأجل . ذلك بأن
كوزيت لم تكن مريضة كما رأينا . ولم يكن ذلك غير تبديل طفيف في
الاسماء . وكتب تيناردييه في أدنى الفاتورة : « وصلنا ثلاثمئة فرنك

على الحساب . »

وفي الحال أرسل مسيو مادلين ثلاثئة فرنك أخرى وكتب قائلاً :
« عجل بأعادة كوزيت . »
فقال تينارديه :

— « يا للمسيح ! نحن ان نتخلى عن الطفلة . »

ولم تشف فانتين في غضون ذلك . كانت لا تزال في المستشفى .
ولم يكن استقبال الراهبتين ، لـ « هذه الفتاة » وعنايتها بها خلواً ،
أول الأمر ، من شيء من الاشتزاز . وكل من رأى نقش « رئيس »
ذا الصورة المجسمة البارزة بروزاً خفيفاً يذكر انتفاخ شفاة العذارى
الحكيما لدى رؤية العذارى الحقاوات . والحق ان هذا الازدراء القديم
الذي تبديه الفتيات الطاهرات نحو الفتيات الاقل حظاً غريزة من أهدى
غرائز الكرامة الانثوية . ولقد عرفت الراهبتان ذلك الاشتزاز قوياً
ضاعفه الدين . ولكن ما إن انقضت بضعة أيام حتى جردتها فانتين من
سلاحها . فقد حرّكت قلبها كلماتها الرقيقة المؤثرة ، وعاطفة الامومة
التي انطوت عليها . وذات يوم سمعتها الراهبتان تقول وهي بحمومة
تهذي : « كنت خاطئة ، ولكن حين افوز بابنتي فسوف يكون معنى
ذلك ان الله قد غفر لي . ويوم كنت منغمسة في الاثم لم اكن اريد ان
ارى صغيرتي كوزيت الى جانبي . أنا ما كنت قادرة على ان أحتمل
نظراتها المتعجبة المحزونة . ومع ذلك فمن أجلها هي أمنت ، وهذا هو
السبب الذي من أجله يغفر الله لي . سوف أحس ببركة الله حين تأتي
كوزيت . سوف أنعم النظر فيها . إن مشهد براعتها سوف يعود عليّ
بالخير . إنها لا تعرف شيئاً من ذلك كله . انها ملك ابنتها الراهبتان .
ففي سنّها تلك تكون الالجنة لما تسقط بعد . »

ووفد مسيو مادلين لرؤيتها مرتين يومياً ، وكل مرة كانت تسأله :
— « هل سأرى كوزيت قريباً ؟ »

فيجيها :

« ربما ترينها غداً . أنا أتوقع مجيئها كل لحظة . »
وعندئذ يشرق وجه الام الشاحب .
وتقول :

« آه ، كم سأكون سعيدة ! »

لقد قلنا منذ لحظة انها لم تشف . على العكس لقد بدا أن صحتها
اخذت تتقهر أسبوعاً بعد أسبوع . ذلك بأن تلك الحفنة من الثلج التي
وضعت على جلدها العاري بين عظمي الكتف كانت قد سببت انقطاع
المروق على نحو فجائي ، فاذا بالداء الذي كان كامناً فيها منذ عدة سنوات
يهاجمها آخر الأمر في عنف . وكانوا قد شرعوا في ذلك العهد باتتباع
نظرية لايبنيك* الرائعة في دراسة امراض الصدر ومعالجتها . وفحص الطبيب
رئتئها وهز رأسه .

وسأله مسيو مادلين :

« وبعد ؟ »

فقال الطبيب :

« أليس لها طفلة ترغب في أن تراها ؟ »

« نعم . »

« حسن . اذن عجلوا في الإتيان بها . »

وارتعد مسيو مادلين .

وسأله فانتين :

« ماذا قال الطبيب ؟ »

وحاول مسيو مادلين ان يتسم :

« لقد قال لنا ان نأتي بابنتك في الحال . إن ذلك سوف يعيد

* Laennec طبيب فرنسي (١٧٨١ - ١٨٢٦) كان له خدمات جليلة في مكافحة امراض
الصدر وتصنيفها .

اليك صحتك . ،

فصاحت :

- « اوه . إنه على صواب . ولكن ما الذي يحمل تيناردييه وفوجهه
هذين على إبقاء صغيرتي كوزيت بعيدة عني ؟ اوه ، إنها سوف تأتي !
وهكذا سأرى السعادة ، آخر الامر ، قريبة مني ! »

بيد ان تيناردييه « لم يتخلّ عن الطفلة » ، وقدم مئة من الاعذار
القييحة . كانت كوزيت متوجعة بعض الشيء فليس في امكانها أن تحتل
السفر في الشتاء ، ثم كانت هناك بضعة ديون صغيرة يعمل على جمع
فرائدها الخ . الخ .

وقال ميو مادلين :

- « سوف أرسل شخصاً يحميني بكوزيت . واذا اقتضى الامر
فسوف أذهب أنا نفسي . »

وأملت عليه فانتين هذه الرسالة ثم وقعتها :

« ميو تيناردييه ،

« سوف تسلم كوزيت الى ناقل هذه الرسالة .

« إنه سوف يدفع اليك جميع الديون الصغيرة .

« لي الشرف ان أحبك في احترام .

« فانتين »

وفي غضون ذلك اعترضت مسألة خطيرة . فمهما 'نجِدْ' نحت الكتلة
التي تتألف منها حياتنا فإن عرق القضاء الاسود يبرز فيها دائماً .

كيف يمكن لجان فالجان ان يصبح «شان»

وذات صباح كان مسيو مادلين في مكتبه يسوّي مقدّماً بعض شؤون وظيفته الملحة مخافة ان يضطرّ للسفر الى مونفيرماي بنفسه عندما أبلغ أن جافير ، مفتش الشرطة ، يريد أن يتحدث اليه . حتى اذا سمع مسيو مادلين هذا الاسم لم يستطع ان يكتب انطباعة كريمة . فنذ حادثة مكتب الشرطة وجافير يجتنبه اكثر من ذي قبل ، فلم يره مسيو مادلين قط .

وقال :

- « دعه يدخل . »

ودخل جافير .

وظل مسيو مادلين قاعداً قرب الموقد ، وفي يده قلم ، فهو يمن النظر في ملفّ يقلّب صفحاته ويعلق عليها ؛ وكان ذلك الملفّ يحتوي محاضر مخالفات دوتنها دوريات الشرطة . ولم يزج نفسه قطّ من أجل جافير . إنه لم يتألك عن التفكير بفائتين المسكينة ، وكان من الملائم ان يستقبله في برود كثير .

وفي احترام ، حتى جافير العمدّة الذي كان يوليه ظهره . ولم يرفع العمدّة بصره ، بل واصل تدوين الملاحظات على اوراقه . وتقدّم جافير خطوتين او ثلاث خطوات ، ثم وقف من غير ان يقطع حبل الصمت .

ولو ان خبيراً في القراءة قدّر له أن يألف وجه جافير وان يدرس طوال سنوات عديدة هذا الوحش العامل في خدمة الحضارة ، هذا المركّب العجيب من الروماني والامبارطي ، من الراهب والجندي

العزيز ، هذا الجاسوس العاجز عن ان يكذب كذبة ، هذا الشرطي السري البتول - لو ان خبيراً في القراءة اطلع على كراهيته السرية القديمة لمسيو مادلين ، وعلى خلافه مع العمدة حول مسألة فانتين ، ورأى الى جافير في تلك اللحظة اذن لكان جديراً بان يقول : « ما الذي دهاه ؟ »

كان واضحاً لكل امرئ عرف هذا الضير المستقيم ، الصريح ، الجدي ، التزيه ، الكالنج ، الضاري أن جافير قد عانى اضطراباً داخلياً كبيراً . لم يكن في ذهنه شيء غير مرتسم على محياه . كان مثل اهل العنف جميعاً عرضةً لتغيرات مفاجئة . ولم يكن وجهه في أيما وقت مضى أغرب ولا أدعى الى الدهش منه في تلك اللحظة . كان قد انحنى ، لدن دخوله ، لمسيو مادلين في نظرة لم يكن فيها لا حقد ، ولا غضب ، ولا تحدٍ . ولقد وقف على بضع خطوات خلف الكرسي ، وها هو ذا الآن منتصب هناك على نحو يكاد يكون عسكرياً بالشراسة الطبيعية الباردة التي يتكشف عنها رجل لم يكن قط كريماً ، ولكنه كان دائماً صبوراً . لقد انتظر من غير ان ينطق بكلمة ، أو يأتي بحركة ، في ضراعة حقيقية وإذعان ساكن ، حتى يحلوا للسيد العمدة ان يلتفت نحوه . انتظر هادئاً ، جاداً ، مكأً قبعة بيده ، مطرق العينين في انطباعة هي وسط بين سبيل الجندي المائل بين يدي ضابطه ، والمتهم المائل بين يدي قاضيه . لقد اختفت جميع المشاعر وجميع الذكريات التي يمكن للمرء ان يتوقع ظهورها في حاله تلك . ولم يبق على هذا الوجه المغلق البسيط كالصوان غير حزن كالنج . كان شخصه كله ينطق بالضعف والصلابة ، وبضرب غريب من الكتابة الباسطة .

واخيراً اطرح العمدة قلعه واستدار على نحو جزئي .

« حسن . ماذا تريد ؟ ما المسألة ، يا جافير . »

وظل جافير صامتاً ، لحظة ، وكأنه يستجمع نفسه . ثم رفع صوته في خشوع حزين لم تعوزه البساطة ، برغم ذلك :

- « لقد اقْتَرِفَ عمل إجرامي » ، يا سيدي العمدة .
- « وما هو ؟ »
- « لقد أظهر احد عمال الحكومة الثانويين قلة احترام ، على نحو خطير ، لحاكم من الحكام . ولقد جئت ، بجذوني واجبي ، لكي احيطك بذلك علماً . »

فأله مسيو مادلين :

- « ومن هو ذلك العامل ؟ »

فقال جافير :

- « أنا . »

- « انت ؟ »

- « أنا . »

- « ومن هو الحاكم الذي ينبغي أن يشكو هذا العامل ؟ »

- « انت ، يا سيدي العمدة . »

وتصدّر مسيو مادلين في كرسيه . وتابع جافير كلامه في انطباعة صارمة ، وعينه ما تزالان مطرقتين الى الارض :

- « سيدي العمدة . لقد جئت لكي ارجوك ان تتلطّف غاية التلطّف وتفري السلطة بصرفي من الخدمة . »

وفي ذهول ، فتح مسيو مادلين فمه . فقاطعه جافير :

- « ستقول إن في استطاعتي ان اقدم استقالي . ولكن هذا غير كافٍ . الاستقالة مشرّفة . ولكنني قد أذنبت . ويجب ان أعاقب . يجب ان امرّح من الخدمة . »

وبعد ان تمهل لحظة ، أضاف :

- « سيدي العمدة ، لقد كنت قاسياً عليّ ، ذلك اليوم ، في غير حق . فكن قاسياً عليّ اليوم ، في حقّ . »
- « آه ، هكذا ! ولماذا ؟ ما هذا المراء كله ؟ ما معنى هذا ؟ »

واي عمل إجرامي ارتكبتَه ضدي؟ ما الذي عملته لي؟ كيف اذنبت في حقّي؟ انت تتهم نفسك. تريد ان نُسند منصبك الى رجل آخر؟ فقال جافير :

- « اريد ان أَسْرَحَ من الخدمة . »
- « فلتَسْرَحْ ، اذن . هذا غريب جداً . أنا لا أفهم . »
- « سوف تقهم ، يا سيدي العمدة . »
- وزفر جافير من اعماق صدره ، ثم اضاف في حزن ووبرود :
- « يا سيدي العمدة ، منذ ستة اشهر ، عقب المشادة حول تلك الفتاة ، امتدت بي الفضيحة ، فشكوتك . »
- « شكوتني ! »
- « الى مديرية الشرطة في باريس . »
- وشرع مسيو مادلين يضحك ، وهو الذي كان مثل جافير لا يضحك الا نادراً :

- « بوصفي عمدةً اعتدى على صلاحيات الشرطة ؟ »
- « بوصفك رجلاً حُكِمَ عليه في ما مضى بالاشغال الشاقة . »
- وغدا وجه العمدة أزرق ضارباً الى السواد .
- وتابع جافير - ولم يكن قد رفع عينيه - قائلاً :
- « لقد اعتقدت ذلك . فمنذ عهد بعيد والظنون تساورني . فهناك الشبه ، والمعلومات التي جمعتها في فايفرول ، وقوتك الهائلة ، ومألة فوشلوفان العجوز ، وبراءتك في الرماية ، ورجلك المتشاقة بعض الشيء ، وما لا ادريه من الحقايق الاخرى . ولكني حسبتك ، في آخر الأمر ، رجلاً يدعى جان فالجان . »

- « يدعى ماذا ؟ كيف تلفظ ذلك الاسم ؟ »
- « جان فالجان . كان محكوماً عليه بالاشغال الشاقة وأيته منذ عشرين سنة عندما كنت نائب ضابط الحرس الخاص بسجن المحكومين »

عليهم بتلك الاشغال في طولون . وبعد ان غادر فالجان هذا ، السجن سرق في ما يبدو قصر احد الاساقفة ، ثم قام بسرقة اخرى ، والسلاح في يده ، في طريق عام ، وكان المرووق غلاماً من غلمات سافوا . ومنذ ثماني سنوات وهو متواوٍ ، والسلطة تبحث عنه . لقد توهمت . - وبالاختصار ، قمت بهذا العمل . وإنما حملني الغضب على ان اقرر . لقد شكوتك الى مدير الشرطة .

واستأنف مسيو مادلين الكلام - وكان قد عاود الامساك بالملف قبل بضع ثوان - فقال في نبوة من الامبالاة الكاملة :

- « وماذا اجابوك ؟ »

- « بأنني معتوه . »

- « ثم ماذا ؟ »

- « انهم على صواب . »

- « من حسن الحظ ان تعتقد ذلك ! »

- « يجب أن أعتقد . لأن جان فالجان الحقيقي قد وُجد . »

وسقطت الورقة ، التي كان مسيو مادلين ممكاً بها ، من يده .

ورفع رأسه ، ونظر الى جافير على نحو موصول ، وقال في نبوة لا سبيل الى وصفها :

- « آه ! »

وتابع جافير حديثه :

- « سوف اخبرك كيف كان ذلك ، يا سيدي العمدة . يبدو أنه

كان ثمة في المنطقة ، قرب « آبي - لو - هو - كلوشيه » رجل بسيط

يدعونه الأب شانغايو . كان فقيراً جداً . ولم يكن احد يلتفت اليه .

إن المرء يكاد لا يفهم كيف يعيش هؤلاء الناس . واخيراً ، في هذا

الحريف ، اعتقل الاب شانغايو لسرقته شيئاً من التفاح الذي تصنع منه

الحمر ، في ... ؛ ولكن هذا لا يهم . لقد وقعت مرققة ، وتسور

شخص" ما جداراً ، وكسر أغصاناً . واعتقل صاحبنا شانتايو . كاث يحمل حتى في ذلك الحين غصناً من اغصان التفاح بيده . والقي الرجل الحقيير في السجن . والى هنا لم تكن الحادثة غير مجرد جنحة . ولكن العناية الإلهية ما لبثت ان تدخلت . ذلك بأن السجن كاث في حال سيئة فرأى رجال الشرطة ان من الخير ان ينقلوه الى آراس حيث سجن المدّيرة . وفي ذلك السجن كان محكوم سابق بالاشغال الشاقة يدعي بروفيه أدخل السجن لذنوب طفيف لا أدريه ثم جعل لحسن سلوكه سجاناً . ولم يكد المقام يستقر بشانتايو حتى صاح بروفيه : « ها ، ها ! انا اعرف هذا الرجل . إنه واحد من 'قدّر لهم ان يدخلوا سجن الاشغال الشاقة . انظر اليّ جيداً ، ايها الرجل الطيب . انت جاث فالجان ! » فقال له الرجل : « جان فالجان ؟ ومن هو جان فالجان هذا ؟ » وتظاهر شانتايو بالدهش . فقال له بروفيه : « لا تتجاهل . انت جان فالجان . لقد كنت في سجن الاشغال الشاقة في طولوت . كان ذلك منذ عشرين عاماً . وكنا هناك معاً . » وانكر شانتايو . يا السهي ! أفهت ؟ وتعمّقا المسألة . وبحثوا ونقبوا ، فاكشفوا ما يلي . لقد كان شانتايو هذا قبل ثلاثين عاماً ، مشذب اغصان في اماكن متعددة ، وخاصة في فافيرول . وهناك نفقده أثره . وبعد فترة طويلة نجده في أوفيرني ، ثم في باريس ، حيث يقال انه كان صانع عربات ، وانه كانت له بنت عملت غسالة ، ولكن ذلك شيء لم يقم عليه دليل ، واخيراً وجدناه في هذه المنطقة . والآن ، قبل ان يساق الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة لارتكابه سرقة موصوفة ماذا كان جان فالجان ؟ مشذب اغصان . أين ؟ في فافيرول . ونهي آخر . كان امم العمودية عند فالجان هو جان ، وكان امم اسرة أمه ماتيو . وطبيعي جداً ان يكون عند خروجه من السجن قد اتخذ امم امه إخفاء لهويته ، وعندئذ يكون قد اصبح معروفاً بـ « جان ماتيو » .

ويذهب الى اوفيرني وهناك يتحول « جان » بحكم طريقة النطق الخاصة بتلك الديار الى « شان » فاذا به يدعى شان ماتيو . ويتبنى صاحبنا هذه التسمية ، فيصبح شانماتيو . انت تتابعني ، اليس كذلك ؟ ثم أجريت مباحث في فايرول . ان اسرة جان فالجان لم تعد هناك . وليس ثمة من يعرف اين هي . وانت تدري ان اختفاء الأسر على هذا النحو كثيراً ما يقع عند امثال هذه الطبقات . ويستمر البحث ، ولكن على غير طائل . فحين لا يكون هؤلاء القوم وحلاً يكونون غباراً . واذ كانت بداية هذه القصة ترجع الى ثلاثين سنة خلت فليس في فايرول الآن من يعرف جان فالجان . ولكن تحقيقات قد أجريت في طولون . فباستثناء بروفيه لم يكن ثمة غير محكومين اثنين بالاشغال الشاقة يعرفان جان فالجان . إنها من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، ويدعيان « كوشباي » و « شونيلدرو » . وجيء بهذين الرجلين من سجن الاشغال الشاقة ، ودعي شانماتيو المزعوم لمواجهتهما . فلم يترددا قط . لقد قالوا ، كما قال بروفيه ، إنه جان فالجان . فالعمر واحد - اربع وخمسون سنة - والطول واحد ، والشكل واحد ، والاثنان في الواقع رجل واحد . إنه هو . وفي هذا الوقت بالذات ارسلت شكواي الى مديرية الشرطة في باريس ، فجاءني الجواب يقول اني فقدت صوابي ، وان جان فالجان بين يدي العدالة في آراس . وفي استطاعتك ان تتخيل كم ادهشني ذلك ، انا الذي اعتقدت اني امسكت هنا بجان فالجان نفسه . فكتبت الى قاضي التحقيق . فاستدعاني ، وجاء بشانماتيو ليثل امامي .

فقاطعه مسيو مادلين :

— « ثم ماذا ؟ »

فأجابه جافير ، بوجه عفيف محزون :

— « سيدي العمدة ، الحق هو الحق . انا آسف جداً ، ولكن

ذلك الرجل هو جان فالجان . لقد عرفته انا ايضاً . ،

فقال مسيو مادلين في صوت منخفض جداً :

– « اوائق انت من ذلك ؟ »

– وبدأ جافير يضحك تلك الضحكة المكبوتة التي تؤذن بالايام

الميتى :

– « انا وائق . ،

وظلّ شارد الذهن لحظةً ، رافعاً على نحو آلي قبضات من 'نشارة

الحشب التي 'تصطنع لتجفيف الخبز كانت في صندوق على الطاولة ،

ثم أضاف :

– « والآن اذ ارى جان فالجان الحقيقي لا استطيع أن افهم كيف

جاز لي ان اعتقد غير ذلك . انا ألتبس عفوك يا سيدي العمدة . ،

وفيا هو يوجه هذه الكلمات المتوسلة الرصينة الى ذلك الذي اهانه ،

قبل ستة اسابيع ، امام الحرس كلهم وقال له : « اخرج ! » كان جافير

– هذا الرجل المتكبر – مفعماً على غير وعي منه بالبساطة والوقار .

واجابه مسيو مادلين عن التماسه بهذا السؤال المفاجيء :

– « وماذا قال الرجل ؟ »

– « اوه ، عجباً ! المسألة قبيحة ، يا سيدي العمدة . اذا كان هو

جان فالجان ، فمعنى ذلك عودة الى الجريمة . إن تسوّر جدار ما ،

وكسر غصن من الاغصان ، وسرقة بعض التفاح لا تعدو ان

تكون – بالنسبة الى الطفل – ذنباً . وهي – بالنسبة الى الرجل –

جناية . ولكنها – بالنسبة الى المحكوم عليه بالاشغال الشاقة – جريمة .

إن التسوّر والسرقة يشلان كل شيء . إنما ليست قضية من قضايا

شرطة الجنج ، ولكنها قضية تنظر فيها محكمة الجنايات .

ان عقوبتها ليست السجن بضعة ايام ، ولكنها الاشغال الشاقة مدى

الحياة . والى هذا ، فهناك قضية ذلك الغلام السافواني الصغير

الذي ارجو ان يُعثر عليه . بالشيطان ! هناك شيء ينبغي ان يُناضَلَ ضده ، ليس كذلك ؟ نعم ، من اجل اي امرى باستثناء جان فالجان . ان جان فالجان رجل ذو وجهين . وتلك عندي علامته الفارقة . لقد كان خليفاً باي انسان آخر ان يدرك أنه في وضع حرج حام فيضطرب . ويصرخ كما يصفر الاناء المعدني فوق النار . كان خليفاً به ان يقول إنه ليس جان فالجان ، الخ . ولكن هذا الرجل يتظاهر بأنه لا يفهم ان يقول : « انا شغافيو ، ليس عندي ما اقوله غير ذلك . » إنه يتظاهر بالدهش . إنه يمثل دور البهيمة . اوه ، إن الوغد داهية ! ولكن ، سيان . فهناك الدليل . لقد عرفه اربعة اشخاص ؛ وان النذل العجوز سوف يُدان . لقد رفعت القضية الى محكمة الجنايات في آراس . وسوف امضي الى هناك لأدلي بشهادتي . لقد دُعيت من اجل ذلك . »

كان ميو مادلين قد ارتدت الى منضدته ، وانشأ بقلب اوراقه في هدوء ، فهو يقرأ حيناً وهو يكتب حيناً ، مثل رجل مثقل بالأعمال . ثم التفت الى جافير ككرة اخرى وقال :

— « كفى ، يا جافير . الواقع ان هذه التفاصيل كلها لا نخفي إلا قليلاً . نحن نضيع وقتنا ، ولدينا مهام ملحة ، يا جافير . اذهب في الحال الى منزل المرأة الطيبة بوزوبيه التي تباع الاعشاب في زاوية شارع سان سولف . وقل لها ان ترفع شكواها على سائق العربات بيير شينلون . إنه وحشي كاد ان يسحق هذه المرأة وطفلها . يجب ان يعاقب . ثم اذهب بعد ذلك الى ميو شاريلي ، في شارع مونتر دو شابيني . انه يشكو من ان ثمة ميزاباً في احد البيوت المجاورة يقذف بيته بماء المطر ، على نحو يقوّض أساس البناء . وبعد ذلك ينبغي ان تحقق في التحالفات التي رُفِع امرها اليّ ، والتي وقعت عند الارملة دوريس في شارع غيبورغ ، وعند مدام رينيه لو بوسيه في شارع غارو - بلان ، وان

نضع تقريرك عنهما . ولكنني أثقل عليك بالعمل . ألم تقل لي انك ذاهب الى آراس ، خلال ثمانية ايام او عشرة ايام ، لأمر يتصل بهذه المسألة ؟

- « أبكر من ذلك ، يا سيدي العمدة . »

- « في اي يوم اذن ؟ »

- « أحسب اني انبأت سيدي العمدة ان تلك القضية سوف 'تنظر غداً' ، وان عليّ ان أسافر بالعربة العمومية الليلة . »

وأنى مسيو مادلين بحركة لا تكاد 'تلاحظ' .

- « وكى ستستغرق هذه المسألة ؟ »

- « يوماً واحداً على الاكثر . وسوف 'يلفظ الحكم غداً مساءً على الأبعد' . ولكنني لن أنتظر صدور الحكم فهو راهن لا شك فيه . فيها إن ادلي بشهادتي حتى ارجع الى هنا . »

فقال مسيو مادلين :

- « حسن . »

واذن له بالانصراف بحركة من يده .

ولكن جافير لم ينصرف . وقال :

- « عفواً ، يا سيدي العمدة . »

فسأله مادلين :

- « وماذا بعد ؟ »

- « سيدي العمدة ، هناك شيء آخر ارغب في أن ألفت نظرك

اليه . »

- « وما هو ؟ »

- « هو أنني يجب ان أصرح . »

ونهض مسيو مادلين .

- « جافير ، انت رجل شرف ، وأنا أقدرك . انك تبالغ في

تضخيم غلطتك . والى ذلك ، فهذه مخالفة تعني اني انا . انت جدير بالترفع

لا بالاستقاط . انا اريد منك ان تحتفظ بمنصبك .
ونظر جافير الى مسيو مادلين ، بعينين هادئتين 'يُخَيَّل الى الناظر انه يرى في اعماقها هذا الضيق ، غير المستير ، وإن يكن صارماً طاهراً .
وقال في صوت هادي :
- « سيدي العمدة ، انا لا استطيع ان اوافق على ذلك . »
فقال مسيو مادلين :

- « أكرر ان هذه مسألة تتعلق بي شخصياً .
ولكن جافير ، المستغرق في فكرته الوحيدة ، تابع الكلام :
- « أما المبالغة ، فأني لا ابالغ على الاطلاق . هذه هي الطريقة التي افكر بها : لقد ارتبتُ بك في غير حق . وليس هذا شيئاً . إن وظيفتنا قوامها الارتياح ، على الرغم من اننا قد نسيء استعمال حقنا اذا ارتبنا في رؤسائنا . ولكن من غير بينات ، وفي سورة من الغضب ، وبدافع من الانتقام الشخصي ، شكوتك بوصفك محكوماً سابقاً بالاشغال الشاقة - انت ، الرجل المحترم ، العمدة ، الحاكم . هذه مسألة خطيرة ، خطيرة جداً . لقد أهنتُ السلطة في شخصك ، انا العامل في خدمة السلطة . ولو قد فعل احد رؤوسمي ما فعلته اذن لاعتبرته غير جدير بالعمل ، ولطرده من منصبه . ثم ماذا ؟ كلمة أخرى ، يا سيدي العمدة . لقد كنت في معظم أيامي قاسياً على الناس ، وكان ذلك عدلاً . لقد أحسنت في ذلك . والان ، اذا لم أكن قاسياً على نفسي فان كل ما فعلته بعدل سوف ينتقل الى ظلم . هل يحسن بي أن أتفق بنفسي اكثر من الآخرين ؟ لا . ماذا أقول ؟ اذا لم أحسن إلا معاقبة الناس من دون نفسي فعندئذ اكون دينياً حقاً ! وعندئذ يصبح أولئك الذين يقولون « هذا الوغد جافير » على حق . سيدي العمدة ، انا لا اريد منك ان تعاملني في رفق . لقد كان اصطناعك الرفق في معاملة الآخرين يهيج غضبي ، فأنا لا أبغيه لنفسي . ذلك الرفق

الذي قوامه الانتصار لبنت من بنات الهوى على مواطن من المواطنين ،
ولشرطي على عمدة ، ولرؤوس على رئيس - إنه ما أدعوه ، و الرفق
الموضوع في غير حمله . مثل هذا الرفق يشيع الفوضى في المجتمع .
يا السهي ، من البسير ان يكون المرء رفيقاً ، ولكن من العسير ان
يكون عادلاً . ولو أنك كنت كما توهمتك ، لما كنت خليفاً بأن أرفق
بك . لا ، غيري الذي يرفق . ولقد كنت جديراً بأن ترى ، يا سيدي
العمدة . يتمتع عليّ أن أعامل نفسي كما أعامل أي إنسان آخر . كثيراً
ما أقول لنفسي حين أزجر الاشرار ، وحين أعاقب الخالفين : « حذار
ان تزي ، حذار أن أقبض عليك متلبساً بخطيئة ! » لقد زلت . لقد
قبضت على نفسي متلبساً بخطيئة . لأمي المبطل ! يجب ان أقصى ، أن
أحطّم ، أن أسرح . هذا حسن . إن لي ذراعين . أنا لا أزال قادراً
على أن أفلح الارض ؛ ولست أجد في ذلك غشاً . إن المصلحة العامة
في حاجة الى مثل . وأنا لا أطلب غير تبريح المفتش جافير . »
وانما قيل ذلك كله في نبرة متضعة ، فخور ، يائسة ، جازمة خلعت
عظمة غريبة لا ميل الى وصفها على هذا الرجل التزي الى حد عجيب .

فقال مسيو مادلين :

- « سنرى . »

وبسط يده نحوه .

وارتد جافير الى الوراء ، وقال في جرس خارٍ :

- « عفواً ، يا سيدي العمدة . هذا شيء لا ينبغي ان يكون .

ان العمدة لا يبسط يده الى الجاسوس . »

وأضاف من بين أسنانه :

- « جاسوس ؛ أجل . فنذ اللحظة التي أسأت فيها استعمال سلطتي ،

لم أكن أكثر من جاسوس ! »

ثم انحنى انحناء مغالى فيها ، ومضى نحو الباب .

وهناك استدار ، وعيناه ما تزالان مطرقتين الى الارض .
- « سيدي العمدة ، سوف استمرّ في الوظيفة حتى أسرح . »
قال ذلك وخرج . واستغرق مسيو مادلين في تأملاته ، مصغياً الى
خطواته الثبّنة الراسخة فيما هي تبعد متلاشية على ارض الرواق .

الكتاب السابع

قضية شانماتيو

١

الاخت سيمبليس

إن الاحداث التي سنقرأها لم 'تعرف كلها قط' في مونتروي سور مير .
ولكن القليل الذي تسرّب منها قد ترك في تلك المدينة ذكريات 'يحدث
إغفالها ، بتفاصيلها الدقيقة ، ثغرة في هذا الكتاب .

وبين تلك التفاصيل سيلقى القارئ حادثتين او ثلاث حوادث غريبة
ممكنة الوقوع 'نبتتها احتراماً للحقيقة .

ففي الاصل الذي تلا زيارة جافير ، ذهب ميسو مادلين ليري
فانتين كالعادة .

وقبل ان ينتهي الى غرفة فانتين استدعى الاخت سيمبليس .
كانت الراهبتان القانتان بعبء الخدمة في المستشفى ، وهما لعازاريتان
مثل جميع راهبات المحبة هؤلاء ، تدعيان الاخت بيريتو ، والاخت
سيمبليس .

وكانت الاخت بيريتو فتاة ريفية عادية انتمت الى راهبات المحبة
في غير إبطاء - فتاة فظة دخلت في خدمة الله وكانت تلتحق
بأيما عمل من الاعمال . كانت راهبة كما تكون غيرها طاهية . وليس هذا
الطراز نادراً . فالرهبانيات ترحب بهذا الفخار الريفي الثقيل الذي يسهل
تحويله الى « كبوشي » او « ارسوليني » . * ومثل هذه الكائنات
الجلقة تُصطنع عادةً في مهام المباداة الأكثر خشونة . وليس ثمة خدمة
في انتقال المرء من راعي بقرة الى راهب كرملي . ان احد هذين
يستطيع ان يحل محل الآخر من غير كبير عناء . فالجمل ، وهو
الاساس المشترك الذي تقوم عليه القرية والدير ، هو في ذاته لإعداد
« منجَز » وهو يضع الريفي في الحال ، على مستوى واحد مع الراهب .
وسّع القمص قليلاً ، تحصل على ثوب الرهبانية . وكانت الاخت
بيريتو راهبة شديدة البأس ، من مارين ، قرب بونتواز ، تكثر
من استعمال التعابير الاقليمية ، وتتلو المزامير على نحو رتيب . وكانت
تزاعة الى التذمر ، تضع السكر في الدواء ، وفقاً لتطرف المريض في
التوى أو في الرباء ، جلقةً مع المرضى ، خشنة مع الموتى تكاد ان
تقذف بهم في وجه الرب قذفاً ، راجمة حشرجاتهم بصلوات مغضبة ، وقد
شاع الدم في وجهها وبدت عليها أمارات الجسارة والطهارة .

اما الاخت سيمبليس فكانت بيضاء شمعية اللون . وكانت اذا ما
قورنت بالاخت بيريتو اشبه ما تكون بشمعة طويلة عسكية المادة الى
جانب شمعة مُصنعت من شمع . ولقد سبق للقديس فنان دو بول ان

* الكبوشية والارسولينية رهبانيتان معروفتان .

رسم أكمل ما يكون الرسم صورة لراهبة المحبة في هذه الكلمات الرائعة التي يمزج فيها كثيراً من الحرية بكثير من العبودية : « إن ديرها الأوحده سوف يكون بيت المرضى ، وقليتها » الوحيدة غرفة « متأجرة . ولن يكون لها معبد غير كنيسة الابريشية ، ولا محبس » غير شوارع المدينة أو غرف المستشفى . ولن يكون سياجها غير الخضوع ، وحاجزها المقضب غير خوف الله ، وخمارها غير الحياء . » وإنما تجسد هذا المثل الاعلى حياً في الاخت سيمبليس . إن احداً ما كان قادراً على ان يحزر عمر الاخت سيمبليس . انها لم تكن شابة في يوم من الايام ، ولقد بدا وكأنها لن تشيخ في يوم من الأيام . كانت شخصاً - فنحن لا نجروء على ان نقول امرأة - هادئاً ، عابساً ، حسن العشرة ، بارداً لم تكذب طوال عمرها مرة واحدة . كانت من اللطف البالغ بحيث تبدو قصفة سريعة الانكسار ، ولكنها في ما عدا ذلك أشد صلابة من الصوّان . كانت تمسّ البائسين بأصابع فائقة ، رفيقة ، طاهرة . كان ثمة - اذا جاز التعبير - صمت في كلامها . كانت تقول ما هو ضروري ليس غير ، وكان لها جرس قادر على ان ينير كرمي اعتراف ، وعلى ان يفتن صالوناً من الصالونات ، في وقت معاً . وكانت هذه الرقة تكبف نفسها مع الثوب الصوفي الاسمر الحشن واجدة في لمسة الجافية مذكراً دائماً بالجنة وبالله . ولتؤكد مسألة واحدة : ان كونها لم تكذب قط ، ولم تقل قط - لأي غرض مهما يكن ، بل ولغير ما غرض - كلمة واحدة ليست هي الحقيقة ، الحقيقة المقدسة - إن هذه الواقعة كانت هي شبة الاخت سيمبليس الميزة . كانت آية فضيلتها . وقد كادت تكون شهيرة في الرهبانية بسبب من هذا الصدق الثابت الجنان . وإنما تحدث الراهب سيكارد عن الاخت سيمبليس في رسالة بعث بها الى « ماسيو » الاصح الأبكم . إننا مهما نكن مخلصين ، امناه ، طاهرين نحمل كلنا طابع كذبة صغيرة بريئة . اما هي فلا . كذبة صغيرة ، كذبة

* الغاية : شبه الصومعة .

بريئة ، هل يوجد شيء مثل هذا ؟ الكذب هو الشر المطلق . والكذب قليلاً ليس شيئاً ممكناً . إن ذلك الذي يكذب ، يكذب كذبة كاملة . الكذب هو وجه الشيطان نفسه . إن لابلوس إسمين ، فهو يدعى إبليس ، وهو يدعى الكذاب . تلك كانت افكارها . وكما كانت تفكر ، كانت تعمل . ومن هنا هذا البياض الذي تحدثنا عنه ، البياض الذي يغطي بأشعاعه حتى شفيتها وعينيها . كانت ابتسامتها بيضاء ، وكانت نظرتها بيضاء . لم يكن ثمة نسيج عنكبوت ، او ذرة من الغبار على زجاج ذلك الضمير . وحين نذرت نفسها للعمل تحت لواء القديس فنان دو بول اتخذت اسم سيمبلوس باختيار خاص . وسيمبلوس الصقلية هي ، كما هو مشهور ، تلك القديسة التي آثرت ان يُقتلع ثدياها الاثنان على ان تجيب - وهي التي ولدت في سيراكيوس - بقولها انها ولدت في سيجيستا ، وتلك كذبة كان جديراً بها ان تنفذها . كانت هذه القديسة الشفيعة ، تلاثم هذه النفس .

وكانت للاخت سيمبلوس ، حين دخلت الرهبانية ، علتان تحررت منهما شيئاً بعد شيء . كانت تحب الحلويات ، وتحب ان تتلقى الرسائل . اما الان فلم تعد تقرأ غير كتاب صلاة ضخيم الحروف لاتيني اللغة . لم تكن تفهم اللاتينية ، ولكنها فهمت الكتاب .

وانعطف قلب المرأة التقية على فانتين ، ولعلها ان تكون قد لمست فيها فضيلة كامنة ما ، ووقفت نفسها وفقاً كاملاً تقريباً على العناية بها ، وانتحى ميسو مادلين بالاخت سيمبلوس مكاناً ، وأوصاها بفانتين في نبرة غريبة تذكرتها الاخت في يوم نال .

حتى اذا فارق الاخت ، اقترب من فانتين .

كانت فانتين تنتظر كل يوم ظهور ميسو مادلين كما ينتظر المرء شعاعاً من الدفء ومن البهجة . وكانت تقول للراهبتين :

- « أنا لا أحيأ إلا حين يكون السيد العبدة هنا . »

وفي ذلك اليوم اشتدت عليها وطأة الحمى . فلم تكـد ترى مسيو
مادلين حتى سأله :

— « كوزيت ؟ »

فأجابها في ابتسامة :

— « قريباً جداً . »

وبدا مسيو مادلين ، وهو الى جانب فانتين ، في حالة المعتادة .
بيد أنه أقام عندها هذه المرة ساعة بدلاً من نصف ساعة ، موقفاً بذلك
اعظم الرضا في نفس فانتين . ولقد ألح ألف مرة على كل امرئ بأن
تلبس مطالب المريضة كلها . ولقد لوحظ أن محبته بدا ، في لحظة من
اللمحات ، قائماً جداً . ولكن تفسير ذلك ما لبث ان انضح عندما عُرف
ان الطبيب قال له بعد ان انحنى فوق اذنها :

— « إن قواها تتلاشى في سرعة . »

ثم انه رجع الى مكتب العدة ، فرآه الخادم يدرس في دقة خريطة
من خرائط الطرق في فرنسة تتدلى على جدار غرفته . ولقد صور بعض
الارقام بقلم رصاصي على فصاحة من الورق .

٢

ذكاء المعلم سكوفليز

ومن مكتب العدة مضى الى ضواحي المدينة قاصداً الى رجل
فلنكي * يدعي المعلم سكاوفلر — وقد فُرِنِسَتْ فأُمت سـكوفليز —
وكان يؤجر الحيل ويؤجر « العربات الخفيفة لمن يشاء » .
وكانت اقصر الطرق للذهاب الى سكوفليز هذا تقضي بسلوك شارع

* الفلنكيون : ابناء بلاد الفلاندر .

نادراً ما تطأه الأقدام ، حيث كان بيت كاهن الابوشية التي يعيش فيها
ميو مادلين . وكانت الكاهن ، كما قيل ، رجلاً جليلاً محترماً ، ذا
رأي ونصيحة . وفي اللحظة التي انتهى فيها ميو مادلين الى بيت
الكاهن لم يكن في الشارع غير عابر سبيل واحد . ولقد لاحظ عابر
السبيل هذا ما يلي : أن العمدة ، بعد ان تخطى منزل الكاهن ، وقف
لحظة ، ثم ارتدت على آثاره حتى باب ذلك المنزل ، وكان باباً ضخماً ذا
قارعة حديدية . وأمسك بتلك القارعة بقوة ، ورفعها ، ثم وقف من جديد ،
متسلاً لحظة وكأنه يفكر ؛ وبعد بضع ثوانٍ اعاد القارعة في تلطف
الى مكانها بدلاً من ان يقرع الباب بها في صخب ، واستأنف سيره بضرب
من العجلة لم يصطنعه من قبل .

ووجد ميو مادلين المعلم سكوفليز في بيته منهكاً في إصلاح جهاز
من أجهزة الحيل .
وسأله :

- « ايها المعلم سكوفليز ، هل عندك جواد أصيل ؟ »
فقال الرجل الفلمنكي :

- « سيدي العمدة ، إن جميع جيادي اصائل . ماذا تعني بالجواد
الأصيل ؟ »

- « اعني جواداً يستطيع ان يقطع عشرين فرسخاً في اليوم . »
فقال الفلمنكي :

- « يا للشيطان ! عشرين فرسخاً ! »
- « نعم . »

- « مقروناً الى عربة ؟ »

- « نعم . »

- « وكم سوف يستريح بعد الرحلة ؟ »

- « يجب ان يكون قادراً على ان يعود في اليوم التالي اذا

اقتضت الحال . »

- « ليقطع المسافة نفسها مرة اخرى ؟ »

- « نعم . »

- « يا للشيطان ! يا للشيطان ! وهي عشرون فرسخاً ايضاً ؟ »

واخرج مسيو مادلين الورقة التي سبق له ان دوّن عليها بعض
الارقام بقلم رصاصي . وأطلع الرجل الفلمنكي على تلك الارقام . فاذا
هي ٥ و ٦ و ١/٢ و ٨ .

وقال :

- « ترى ، المجموع تسعة عشر ونصف ، وبكلمة ثانية عشرون
فرسخاً . »

فاستأنف الفلمنكي كلامه :

- « سيدي العمدة ، عندي ما تطلبه تماماً . إنه جوادي الابيض
الصغير . ولا ريب انك رأيته في بعض الطريق احياناً . إنه بهيمة
صغيرة من « بولونيه الدنيا » . إنه مفعم بالنار . لقد حاولوا اول الامر
ان يتخذوا منه حصاناً للركوب ، ولكنه اخذ في الرفس ، وأزلّ عن
صهوته كل من حاول امتطائه . وظنوا انه حرون ، ولم يدروا ما الذي
ينبغي ان يفعلوه . واشترتته وقرنته الى عربة خفيفة . ذلك ما كان
يريده ، يا سيدي . إنه رفيق الحاشية ، مثل فتاة من الفتيات . إنه
ينطلق كالريح . آه ، مثلاً ، ينبغي ان لا يمتطي المرء صهوته . ليس
من رأيه ان يكون فرس ركوب . إن لكل فرد طموحه الخاص .
اريد ان اجرّ ، لا أن أحمل : ينبغي ان تؤمن بأنه قال ذلك لنفسه . »

- « وسوف يقوم بالرحلة ؟ »

- « أجل سوف يقطع العشرين فرسخاً التي تتحدث عنها ، وسوف
يقطعها خجياً ، وفي أقلّ من ثماني ساعات . ولكن ثمة بعض الشروط . »

- « ما هي ؟ »

« أولاً ، يجب ان تدعه يتنفس ساعة حين تبلغ منتصف الطريق .
وعندئذ يأكل ؛ وينبغي ان يقف الى جانبه بينما هو يأكل شخصاً ما
لكي يمنع صبي الحان من مرقعة شوفانه . لاني لاحظت ان الشوفان
يشربه صبية الحانات اكثر مما تأكله الخيل . »

« ان شخصاً ما ، يجب ان يكون هناك . »

« ثانياً ... اريد سيدي العمدة العربية لنفسه ؟ »

« نعم . »

« هل يعرف سيدي العمدة كيف يسوقها ؟ »

« نعم . »

« حسن . اذن فيسيدي العمدة سوف يرتحل وحده من غير امتعة .

لكي لا يرهق الجواد . »

« موافق . »

« ولكن لما كان سيدي العمدة سيسافر وحده ، فـ سوف يُضطر

الى أن يتجشم عناء حراسة الشوفان بنفسه . »

« لا بأس . »

« اريد ثلاثين فرنكاً يومياً . على ان تُدفع ايام الراحة ايضاً .

ولست أَرْضَى اقلّ من ذلك بربع « سو » . وعلى سيدي العمدة ان

يتحمل نفقة العليق . »

واخرج مسيو مادلين من كيس نفوده ثلاث ليرات ذهبية نابوليونية

ووضعها على الطاولة قائلاً :

« هذه اجرة يومين ، مقدّماً . »

« رابعاً ، إن العربية قد تكون ثقيلة جداً بالنسبة الى رحلة

كهذه ، وقد ترهق الجواد . لذلك ينبغي ان يوافق سيدي العمدة على

السفر في عربية صغيرة ذات دولابين موجودة عندي . »

« اوافق على ذلك . »

- « إنها خفيفة ، ولكنها مكشوفة . »
- « كل ذلك سواء عندي . »
- « هل فكر سيدي العمدة أننا في فصل الشتاء ؟ »
- ولم يجب ميسو مادلين . وتابع الفلمنكي كلامه :
- « وأن الجو بارد جداً ؟ »
- وظلّ ميسو مادلين معتصماً بالصمت .
- وتابع المعلم سكوفليز :
- « وأنها قد تنطر ؟ »
- فرفع ميسو مادلين رأسه وقال :
- « إن الجواد والعربة المكشوفة سوف يكونان أمام بابي غداً في الساعة الرابعة والنصف صباحاً . »
- فأجاب سكوفليز :
- « اتفقنا . »
- قال ذلك ، وأنشأ يחדش بظفر إبهامه لطخة كانت على خشب الطاولة ليستأنف بعد حديثه بتلك الانطباعة اللامبالية التي يحسن أبناء الفلاندر مزجها بدهائهم :
- « ولكن يا عجباً ! أنا لم افكر بذلك إلا الآن . ان سيدي العمدة لم يخبرني الى اين يعتزم أن يذهب . الى اين سيذهب سيدي العمدة ؟ »
- ولم يكن قد فكر بشيء آخر منذ بدء المحادثة ، ولكنه لم يجزؤ - من غير ان يدري لماذا - على أن يطرح هذا السؤال .
- فقال ميسو مادلين :
- « هل لجوادك قائمتان اماميتان قويتان ؟ »
- « نعم ، يا سيدي العمدة . يجب ان تكعب جماعه قليلاً حين نهبط الكتيب . هل ثمة منحدرات كثيرة من هنا الى المكان الذي تعتزم

الذهاب اليه ؟ ،

فأجابه مسيو مادلين :

- « لا تنسَ ان تكون عند باب داري في تمام الساعة الرابعة والنصف صباحاً . »

وخرج .

وغودر الرجل الفلمنكي « مصعوقاً » ، كما عبّر هو نفسه في ما بعد . ولم تكده تمضي على ذهاب العمدة دقيقتان او ثلاث دقائق حتى فُتح الباب من جديد . كان القادم هو السيد العمدة .

كانت تعلق وجهه سياه المعتادة الممتعة على التأثر ، الشاردة الذاهلة . وقال :

- « مسيو سكوفليز ، بكم تقيم الجواد والعربة المكشوفة اللذين ستزودني بهما ، حاملاً أحدهما الآخر ؟ »

فقال الفلمنكي في ضحكة عالية :

- « جاراً أحدهما الآخر . »

- « كما تحب . بكم ؟ »

- « اريد سيدي العمدة ان يشتريها ؟ »

- « لا ، ولكنني اريد ان اضمنها لك على أية حال . حتى اذا

رجعت كان في إمكانك ان 'تعيد الي' المبلغ . بكم تقيم الجواد والعربة المكشوفة ؟ »

- « بخمسة فرنك ، يا سيدي العمدة ! »

- « ها هي ذي . »

ووضع مسيو مادلين ورقة نقدية على الطاولة ، ثم خرج ، ولكن من غير ان يعود هذه المرة .

وندم مسيو سكوفليز اعظم الندم لأنه لم يقل ألف فرنك . والواقع

ان الجواد والعربة المكشوفة لم يكن ثمنها ليزيد - معاً - على مئة

ريال .

وفادي الرجل الفلمنكي زوجته وروى لها المسألة . يا للشيطان ! ولكن الى أين يمكن للعمدة ان يذهب ؟ ونحدثا في ذلك . فقالت الزوجة : « انه ذاهب الى باريس . » فقال الزوج : « لست اعتقد ذلك » وكان مسيو مادلين قد نسي الورقة التي دون عليها الارقام ، تاركاً ايهاا على الموقد . فتناولها الفلمنكي وراح يدرسها . « خمسة ، ستة ، ثمانية ونصف ؟ لا شك في ان هذه الارقام تشير الى محطات البريد . » والتفت الى زوجته قائلاً : « لقد اكتشفتها . » - « كيف ؟ » - « هناك خمسة فراسخ تفصل بيننا وبين هسدين ؛ وستة من هسدين الى سان بول ؛ وثمانية ونصف من سان بول الى آراس . إنه ذاهب الى آراس . »

وفي غضون ذلك كان مسيو مادلين قد انتهى الى منزله . ولقد اتخذ عند عودته من منزل المعلم سكوفليو ، الطريق الطويلة ، لكأنّ باب دار الكاهن كان ضرباً من الاغراء ، فهو يريد ان يجتنبه . وصعد الى غرفته ، واوحد من دونه الباب ، وهو امر لم يكن ليلفت النظر ، إذ كان من عادته ان يأوي الى الفراش باكراً . وائماً ما كان فأن حارسة المصنع ، التي كانت في الوقت نفسه خادمة مسيو مادلين الوحيدة ، لاحظت ان ضوءه قد انطفأ في الساعة الثامنة والنصف ، فذكرت ذلك لامين الصندوق الذي رجع ادراجه ، مضيفاً :

- « هل السيد العمدة مريض ؟ أحسب ان هيئته كانت غريبة بعض الشيء . »

وكان امين الصندوق يحتل غرفة تقع تحت غرفة مسيو مادلين تماماً فلم يلق بالاً الى كلام البوابة ، وآوى الى فراشه ، ونام . وحوالي منتصف الليل استيقظ من رقاذه فجأة . كان قد سمع ، فيها هو نائم ، ضجة فوق رأسه . واصفى . فاذا خطى تروح ونجيه ، وكأن شخصاً

ما ، يشي في الغرفة التي فوقه . واصفى في انتباه أشد ، فتبين وقع خطي مسيو مادلين . وبدا ذلك غريباً في نظره . فما كانت لتسمع ، عادةً ، أي ضجة في غرفة مسيو مادلين قبل نهوضه من النوم . وبعد لحظة ، سمع امين الصندوق شيئاً كأنه صوت خزانة تُفتح وتغلق . ثم ان قطعة من الاثاث 'حركت' ، وتبع ذلك فترة صمت اخرى ، وانشأت الخطي تروح وتجي . واستوى امين الصندوق قاعداً في فراشه ، ونفض عنه النعاس ، ونظر . ومن خلال زجاج نافذته رأى على الجدار المقابل انعكاس النور من نافذة مضادة انعكاساً ضارباً الى الحمرة . ومن اتجاه الأشعة لم يكن في الامكان أن تكون تلك النافذة غير نافذة غرفة مسيو مادلين . وارتعش الانعكاس وكأنه صادر من نار ساطعة لا من نور من الانوار . ولم يكن في الامكان ان يرى ظل اطار النافذة المزعج ، وذلك ما دل على ان النافذة كانت مفتوحة على مصراعها . واذا كان البرد قارساً ، فقد كانت هذه النافذة المشرعة مدعاة الى العجب . واستلم امين الصندوق للرقاد ، كرة اخرى . وبعد ساعة او ساعتين استيقظ من جديد . كانت الخطي نفسها ، بطيئةً ونظاميةً ، تروح وتجي . على نحو موصول فوق رأسه . وظل الانعكاس مرتسماً على الجدار ، ولكنه غدا الآن شاحباً شيئاً مثل ضوء مصباح او شمعة . كانت النافذة ما تزال مفتوحة . فلنر ما الذي كان يجري في غرفة مسيو مادلين .

٣

عاصفة في دماغ

لا ريب في ان القاري قد حزر ان مسيو مادلين لم يكن غير جان فالجان .

ولقد سبق لنا ان نظرنا الى اعماق ذلك الضير . وها قد أوف
الوقت لتعاود النظر اليها من جديد . ولسنا نفعل ذلك من غير انفعال ،
ومن غير ارتجاف ، فليس ثمة ما هو ادعى الى الرعب من هذا الضرب
من التأمل . فالعين العقلية لا تستطيع ان تجد في ايما مكان شيئاً اعظم
إذهاً وأحلك ظلاماً مما تجده في الانسان . إنها لا تستطيع ان تحدد
الى شيء أروع ، أو أعقد ، أو أدهش ، أو أكثر لانهايةً . هناك
مشهد واحد اعظم من البحر ؛ ذلك هو مشهد السماء . وهناك مشهد واحد
اعظم من السماء ؛ ذلك هو باطن النفس البشرية .

إن نظم قصيدة الضير الانساني ، ولو كان ضمير رجلٍ فرد ، بل
ولو كان ضمير اسفل الناس وأحطهم ، يقتضينا اذابة جميع الملاحم في
ملحمة عليا ونهاية . الضير هو هيرلى الاوهام ، والشهوات ،
والاغراءات ؛ هو بوتقة الاحلام ؛ هو مغارة الافكار التي نستحي بها . إنه
وكر المغالطات ، وساحة الحرب التي تصطرع فيها الاهواء . إحترق في
بعض الساعات حجاب الوجه الازرق المسود الذي يحمله كائن بشري مستغرق
في التفكير ، وانظر الى ما وراءه . انظر الى تلك النفس . انظر الى تلك
الظلمة . ان هناك ، تحت الصمت الخارجي ، صراعاً بين العاقلة كالذي نجده
عند هوميروس ، ومعارك بين التنايف والهدويات * وحشوداً من الاشباح
كالتي نقع عليها عند ميلتون ، ومتاهات مخيفة كالتي نلقاها عند دانتي .
اي شيء مظلم هي تلك اللانهاية التي يحملها كل امرئ في ذات نفسه ،
والتي يقيس بها في يأس رغبات دماغه ، وافعال حياته !

لقد انتهى آليغيري ** ذات يوم الى باب مشؤوم وقف أمامه متورداً ،
وها نحن اولاء امام باب آخر نقف على عتبة متوردين . ومع ذلك
فلندخل .

* bydre وهي في الميثولوجيا افسى ذات سبعة رؤوس .

** يقصد الشاعر دانتي آليغيري صاحب « الكوميديا الالهية » .

وليس عندنا غير القايل نضيفه الى ما سبق للقاري. ان عرفه عما وقع لجان فالجان منذ حادث جبرفيه الصغير . كان منذ تلك اللحظة - كما رأينا - رجلاً آخر . وكان قد حقق ما أرواده الاسقف له . كان ذلك اكثر من تحوّل ؛ كان خلقاً جديداً .

لقد وُفق الى الغياب عن الميان ، وباع آنية الاسقف الفضية ، محتفظاً بالشعدانين فقط للذكرى ، مناباً في هدوء من مدينة الى مدينة ، عبر فرنسة ؛ وافداً على مونتروي سور مير ، حيث التعت في ذهنه الفكرة التي وصفنا ، وحقق ما سبق ان رويناه ، وبلغ غاية من الرفعة جعلته أمنع ما يكون ، وأعزّ ما يكون ؛ ومن ذلك الحين استقرّ في مونتروي سور مير ، سعيداً بأن بحسّ بأن ضميره المحزون بماضيه ، وبالنصف الاول من حياته ، قد نعيم بالارتياح الى ما حقق في النصف الاخير . لقد عاش في أمن ، وطأئينة ، وأمل ، وليس بشغل باله غير امرين اثنين : ان يخفي اسمه ، وأن يطهر حياته . أن يجتنب الناس ، وان يرجع الى الله .

وكانت هاتان الفكرتان تمتزجان في ذهنه امتزاجاً قوياً جعل منهما كلاً واحداً . كانتا كلتاهما على مقدار واحد من القدرة على شغل البال ، وعلى فرض الارادة ، وكانتا تتحكمان بأضال اعماله واقلها بشأناً . وكانتا في الاحوال العادية متنافعتين في تنسيق سلوكه في الحياة . لقد وجهناه نحو الجانب المظلم من الحياة . لقد جعلناه عطوفاً بسيط الفؤاد . لقد ارشدناه الى الاشياء نفسها . بيد ان تعارضاً كان ينشأ بينها في بعض الاحيان . وفي مثل هذه الأحوال ، كما نذكر ، كان الرجل الذي عرفته المنطقة كلها المحيطة بمونتروي سور مير باسم ميو مادلين لا يتردد عن التضحية بالاولى في سبيل الثانية ، عن تضحية سلامته من اجل فضيلته . وهكذا احتفظ ، برغم كل احتراس وتبصّر ، بشعداني الاسقف ، ولبس ثوب الحداد عليه ، واستدعى جميع غلمان سافوا

الصفار ووجه اليهم الاسئلة ، وجمع المعلومات عن أسر فافيرول ،
وانقذ حياة فوشلوفان العجوز ، برغم ضروب التلميح المفلق التي قدفه بها
جافير . لقد بدا ، كما لاحظنا من قبل ، وكأنه كان يعتقد - أسرة
بجميع اولئك الذين تحققوا بالحكمة ، والقداسة ، والعدل - ان واجبه
الاسمي لم يكن نحو نفسه هو .

ولكن اياً من هذه المناسبات - وهو أمر ينبغي ان ننص عليه -
لم تكن لتشبه هذه التي عرّضت الآن .

إن الفكرتين اللتين هيمتا على هذا الرجل البائس الذي نروي آلامه
لم يُقدّر لهما ان تخوضا مثل هذا الصراع الخطير من قبل . لقد ادرك
ذلك على نحو غامض ، ولكنه عميق ، من أولى الكلمات التي نطق بها
جافير عند دخوله مكتبه . فلم يكده ذلك الاسم الذي دفعه تحت تلك
الظلمات كلها يُلفظ على ذلك النحو العجيب حتى استبدّ به الذهول ،
وكانما أسكرته غرابة قدره المشؤومة . ومن خلال ذلك الذهول
استشعر الرعدة التي تسبق الصدمات الكبرى . لقد انحى مثل سندية
عند اقتراب العاصفة ، مثل جندي عند اقتراب الفارة المعادية . لقد
استشعر ان ثمة سحائب مفعمة بالرعد والبرق تجتمع فوق رأسه . وحتى
وهو يصغي الى جافير كان اول ما خطر له أن يمضي ، ان يركض ،
ان يعلن عن هويته ، ان يسحب شاتانيو هذا من السجن ، أن يضع
نفسه محله . كان ذلك أليماً ممحاً مثل طعنة في اللحم الحي ، ولكنه
ما لبث ان تقضى ، وعندئذ قال في ذات نفسه : « دعني ارى !
دعني ارى ! » وكبت ذلك الحافز الاول الكريم ، وتراجع أمام مثل
هذه البطولة .

ولا ريب في أنه كان يكون من الجليل - بعد كالمات الاسقف
القدسية ، وبعد سنوات متعددة من التوبة وإنكار الذات ، وفي غمرة
من ندامة استهلت استهلاً رائعاً - ان لا يتعثر هذا الرجل لحظة حتى

أمام حذر فطبيع الى هذا الحد ، وان يواصل سيره بخطى مطردة نحو تلك الهاوية الفاغرة فاما ، والتي تقوم الجنة في قعرها . اجل ، كانت ذلك يكون جيلاً ، ولكن الامور لم تجر على هذا النسق . ويتعين علينا ان نتحدث في تفصيل عما اعتل في تلك النفس ، وليس في استطاعتنا ان نقول غير ما كان هناك . لقد غلبت عليه اول الأمر غريزة حفظ الذات فسارع الى جمع شتات افكاره ، وكبت انفعالاته ، واخذ بعين الاعتبار وجود جافير ، ذلك الخطر الكبير ، وارجأ اتخاذ اي قرار بمثل دسوخ الذعر ، ونفى من ذهنه كل تفكير بالسبيل التي يتعين عليه سلوكها ، واستعاد هدوءه كما يتودد المقاتل ترسه .

وسلخ بقية اليوم على هذه الحال : عاصفة في باطنه ، وهدوء كامل في ظاهره . إنه لم يتخذ غير ما يمكن أن يُدعى إجراءات احتياطية . كان كل شيء لا يزال مختلطاً متلاطماً في دماغه . وكان من الاضطراب بحيث تعذر عليه ان يبين شكل أيما فكرة على نحو واضح ، وبحيث تعذر عليه ان يقول شيئاً عن نفسه ما خلا انه تلقى اللحظة ضرباً قوية . ومضى وفقاً لعاداته الى مرير فانتين المرّضيّ ، وأطال زيارته هذه ، بغريزة الطيبة ، قائلاً لنفسه إن عليه ان يفعل ذلك ، وأن يوصي الراهبتين بضرورة العناية الفائقة بها ، في حال اضطراذه الى الغيبة . لقد أحسّ إحساساً غامضاً بأنه قد يتعين عليه ان يذهب الى آراس . ومن غير ان يعقد النية بحال من الاحوال على القيام بهذه الرحلة قال لنفسه ان في استطاعته ، ما دام في نجوة كاملة من الارتباب ، ان يشهد ما سوف يحدث ، فعجز عربة مكوفليز المكشوفة ، استعداداً لايما طاريء يطرأ .

وتناول طعام العشاء في شبة حنة .

حتى اذا انقلب الى غرفته جمع شتات افكاره .

لقد درس الوضع فوجد أنه شيء لم يُسَمَّ بثلثه من قبل . كانت

شيئاً لم يُسمع بثله الى درجة دفعته - في غمرة هواجسه ، وبدافع غريب من قلق يكاد يمتنع على التعبير - الى ان ينهض عن كروسيه ، ويغلق باب غرفته بالحديد . لقد خشي ان يدخل عليه شيء آخر . لقد تحصن دون الاحتمالات جميعاً .

وبعد لحظة أطفأ ضوء مصباحه . كان ذلك الضوء يزعجه .

اقد بدا له ان في ميسور المرء ان يراه .

من ؟ المرء ؟

وأنساء ! إن ما أراد أن يوصد الباب دونه قد دخل . إن ما

أراد ان يُعصيه كان ينظر اليه . ذلك هو ضيقه .

ضيقه ، يعني الله .

ومع ذلك ، فقد خدع نفسه في اللحظة الاخيرة . لقد استشعر

الأمّن والعزلة . واعتقد - إذ اوصد الباب بالحديد - أنه في حرز

حريز . ومَلِكَ نفسه . لقد اسند سرفقيه الى الطاولة ، وأراح رأسه

على يده ، وانشأ يتأمل في الظلام :

-- هـ أين أنا ؟ - أَلت في حلم ! - ما الذي سمعته ؟ أصبح

حقاً اني رأيت جافير هذا وانه تحدث إليّ هكذا ؟ - من يمكن ان

يكون شاتاغير هذا ؟ - هو يشبهني اذن ؟ - هل هذا ممكن ؟ -

حين افكر اني كنت أمس على مثل ذلك الهدوء ، وكنت ابعد ما

اكون عن الارتباب بشيء ! - اي شيء كنت أعمله أمس في مثل

هذا الوقت ؟ - ما الذي تتطوي عليه هذه المسألة ؟ - إلام سوف

تؤدي ؟ - ما الذي يجب ان يُعمل ؟

ذلك كان الاعصار الذي عصف به . كان عقله قد فقد القدرة على

أن يكبح جماح افكاره . كانت تندفع كالأمواج ، وكان يملك رأسه

بيديه الاثنين لكي يوقفها .

ومن هذه الجلبة التي اقلقت إرادته وعقله ، والتي حاول ان ينتزع

منها يقيناً وعزماً لم ينبعث شيء غير الألم النفسي المبرح .
كان دماغه يغلي . لقد مضى الى النافذة ، ففتحها على مصراعها ، لم
يكن ثمة نجم واحد في السماء . فرجع ، وجلس قريباً من الطاولة .
وهكذا تقضت الساعة الاولى .

وشيثاً بعد شيء ، بدأت بعض الخطوط العامة تتشكل ، برغم ذلك ،
وتركز نفسها في تأملاته . وامسى في ميسوره ان يلح ، بدقة الحقيقة ،
لا الوضع كله ، ولكن بعض تفاصيله .

لقد شرخ يدرك أنه كان سيداً مطلقاً على ذلك الوضع ، مهما يكن
حرجاً ، ومهما يكن فائتاً للمادة .
ولم يزدد ذهوله إلا عمقاً .

فبصرف النظر عن الغاية الزهدية والدينية التي استهدفتها اعماله لم يكن
كل ما فعله حتى ذلك اليوم غير قبر كان يحفره ليدفن فيه اسمه . وكان
أخوف ما خافه دائماً ، كلما خلا الى نفسه ، في لياليه الأرقه ، هو أن
يسمع احداً يتلفظ بذلك الاسم في يوم من الايام . لقد استشعر ان
ذلك خليق بأن يكون ، بالنسبة اليه ، نهاية كل شيء ؛ وأن اليوم الذي
يعود فيه ذلك الاسم الى الظهور سوف يشهد زوال حياته الجديدة من
حواله . ومن يدري ، فقلعه ان يشهد زوال روحه الجديدة من ذات
نفسه . وارتعد لمجرد التفكير بأن ذلك ممكن . ولو ان امرأاً قال له في
مثل تلك اللحظات ان ساعة قد تأتي فتراجع ذلك الاسم في أذنه ؛ وأن
هاتين الكلمتين البشتين ، جان فالجان ، سوف تنبثقان فجأة من قلب
الظلام وتقفان أمامه ؛ وان هذا الضياء الخفيف المقدّر له ان يبدد السر
الذي أحاط به نفسه سوف يلمع فجأة فوق رأسه ؛ وان هذا الاسم
لن يتوعدده ؛ وأن هذا الضياء لن يزيد الظلام الذي يكتنفه الا حلقة ؛
وأن تمزيق ذلك الحجاب سوف يزيد اللغز إبهاماً ؛ وأن هذا الزلزال
سوف يثبت صرحه ؛ وأن هذه الحادثة المعجبة لن يكون من نتائجها ،

بالنسبة اليه ، وقد بدت له جيدة جداً ، غير جعل وجوده اكثر اشراقاً ،
في الحال ، وأبعد مثلاً ؛ وأن المواطن الطيب الجميل ، مسير مادلين ،
سوف يخرج من لقائه مع شبح جان فالجان ، وهو ينعم بتشريف اكبر
وأمن أوفر ، واحترام أعظم مما تمتع به في أي وقت مضى . لو ان
امراً قال له ذلك إذن لمز رأسه ، واعتبر هذه الكلمات هراء . حسناً !
لقد وقع ذلك على وجه الضبط . كان تجمع المستعيل هذا كله قد أمسى
حقيقة ، الآن ، وكان الله قد اجاز لهذه الحقايات كلها ان تصبح أشياء
واقعية .

وازداد تفكيره وضوحاً ، على نحو موصول . لقد صار أقدر على
ان يلقي نظرة أرحب على وضعه .

لقد بدا له وكأنه استفاق اللحظة من سبات عجيب ، وأنه وجد
نفسه ينزلق فوق منحدر ، في جوف الليل ، واقفاً ، مرتجفاً ، مرتدداً
الى الوراء على غير طائل ، وعلى قيد شعرة من هاوية . ولمح على نحو
واضح ، في غمرة الظلام ، رجلاً مجهولاً ، رجلاً غريباً ، ظنه القدر إياه ،
فهو يدفعه الى الهوة بدلاً منه . كان ضرورياً ، لكي تنفلق تلك الهوة ،
ان يقع فيها شخص ما ، هو او الرجل الغريب .

ولم يكن عليه الا ان يترك المسألة وشأنها .

وغدا الضياء كاملاً . وادرك هذا : - أن مكانه في سجن المحكوم
عليهم بالاشغال الشاقة كان شاغراً ، وأنه مهما يفعل فإن مكانه ذلك
ينتظره دائماً ، وان سرقة مال جرفيه الصغير قد أعادته الى هناك ،
وان هذا المكان الشاغر سيظل ينتظره ويجذبه حتى يؤوب اليه ، وان
هذا امر محتوم لا مفر منه . ثم قال لنفسه : إن له في هذه اللحظة
بالذات بدلاً ، وان رجلاً يدعى شانغاتيرو قدّر عليه ان يتحمل هذا
الطالع السيء ، أما هو - هو الذي سيدخل سجن المحكوم عليهم
بالاشغال الشاقة في شخص شانغاتيرو هذا ، والذي يجيا في المجتمع تحت

امم مسيو مادلين - فليس له ما يخشاه بعد ، شرط ان لا يحول بين الناس وبين ان يُثقلوا رأس شائغاتيو هذا بجحر العار الذي يوضع مرة ، مثل حجر القبر ، ثم لا يُرفع ابداً .

وكان ذلك كله من العنف والغرابة بحيث استشعر فجأة ذلك الضرب من الحركة التي لا سبيل الى وصفها والتي لا يعرفها المرء اكثر من مرتين او ثلاث مرات طوال حياته - استشعر ضرباً من اختلاج الضمير الذي يثير كل ما يرتاب فيه القلب ، وهو يتألف من التهمك والبهجة واليأس ، والذي نستطيع ان ندعوه انفجار الضحك الباطني .

وسارع الى إثارة سمعته من جديد .

وقال :

- د حسنأ ، ماذا ! ممّ أنا خائف ؟ لماذا افكر في هذه الاشياء ؟
ها أنا ذا قد سلمت . لقد انتهى كل شيء . لم يكن ثمة غير باب مفرد نصف مفتوح يمكن لماضي ان يعترض من خلاله سبيل حياتي ، وها قد أوصد ذلك الباب الآن ! أوصد الى الأبد ! ان جافير هذا الذي ازعجني منذ عهد بعيد - تلك الغريزة الخفية التي يبدو وكأنها اكتشفت الحقيقة ، بل التي اكتشفت الحقيقة فعلاً -- جافير الذي تعقبني في كل مكان ، وطاردني مثل كلب من كلاب القنص ، جافير هذا قد ضلّ ، وشغل في مكان آخر ، وشغل ختلاً كاملاً . لقد داخله الرضا منذ اليوم ؛ انه سوف يتروكني وشأني ؛ لقد ألقى القبض على جان فالجانة ! ومن يدري ؟ بل ان من المحتمل ان يرغب ، في غد ، في مغادرة المدينة ! وكل ذلك إنما يتم من غير مساعدتي ! وليس لي به ايما علاقة ! آه ، نعم ، ولكن اين العنصر المحزن في هذا كله ؟ ان من يراني ليحسب - وأقسم بشرفي - أن كارثة قد حلت بي ! وعلى اية حال فاذا كان احد قد أصيب باذى ما فليس تلك غلطتي . إن العناية الالهية هي التي فعلت ذلك كله . تلك هي رغبتها في ما يبدو . وهل أملك انا الحق في نقض ما تدبره ؟

ما الذي اطلبه الآن ؟ لماذا احاول ان ادخل ؟ ذلك شيء لا علاقة لي به . كيف ! انا لست قانعاً ! ولكن ما الذي يعوزني اذن ؟ لقد فزتُ بالغاية التي طمعت اليها منذ سنوات عديدة ، فزتُ بحلم ليالي ، بهدف صلواتي الى السماء ، بالامن والسلامة . إنها مشيئة الله . وبتعبتي عليّ ان لا اعمل شيئاً يتعارض ومشية الله . ولماذا شاء الله ذلك ؟ لكي أستطيع ان اتابع ما بدأت به ؛ لكي اتمكن من ان اعمل صالحاً ؛ لكي اكون ذات يوم مثلاً عظيماً ومشجعاً ؛ لكي يمي في الامكان ان يقال إنه نشأ آخر الامر بعضُ العادة عن هذا العذاب الذي احتملته وهذه الفضيلة التي عدتُ الى حظيرتها ! والواقع اني لا افهم لماذا خفت ذلك الخوف كله من ان اقصد الى هذا الكاهن الصالح وأعترف له بالقصة كلها ، وأسأله نصيحته ؛ ذلك من غير ريب ما كان يجدر به ان يقوله لي . لقد قضي الامر ؛ دع المسألة وسأتم ! حذار ان تتدخل في شأن من شؤون الله !

هكذا تحدثت في أعماق ضميره ، وهو متدلّ فوق ما يمكن ان ندعوه هاويته الخاصة . ونهض عن كرسيه ، وشرع يذرع الفرقة وقال : هيا ، فلأقلع عن التفكير في ذلك بعد الآن . لقد تمّ اتخاذ القرار . ، ولكنه لم يستشعر بهجةً ما . على العكس تماماً .

إن المرء لا يستطيع بعدُ ان يمنع العقل من العودة الى فكرة ما إلا بقدر ما يستطيع منع البحر من العودة الى شاطئه ما . إن ذلك يدعى في مثل الملاح مدّاً ؛ وإن ذلك يدعى في مثل المذنب تبكيت الضمير . إن الله ليثير النفس كما يثير الاوقيانوس ، سواء بسواء .

وبعد بضع لحظات - ولم يكن في ميسوره ان يفعل شيئاً غير ذلك - استأنف هذا الحوار الكالحي ، الذي كانت نفسه هي التي تتحدث

فيه ، وهي التي تصفي ، فائلاً ما كان يريد أن 'يخرسه' ، مصغياً لما كان غير راغب في سماعه ، مستنداً الى تلك القوة الخفية التي قالت له : « فكر ! » ، كما قالت لرجل آخر لفظ القضاء حكمه فيه ، منذ الف عام : « سر ! »

وقبل ان نذهب الى أبعد ، ولكي يفهمنا القاري فهماً وافياً ، يتعين علينا أن نبدي ، مع شيء من التوكيد ، ملاحظة واحدة .

من الثابت اننا نتحدث الى أنفسنا ؛ وليس ثمة كائن مفكر لم يمارس ذلك . بل ان في ميسورنا أن نقول إن الكلمة لا تكون ذلك المفكر الرائع إلا حين نقضي ، في باطن الانسان ، من فكره الى ضميره ، وتعود بعد من ضميره الى فكره . وبهذا المعنى وحده ينبغي ان تفهم هذه الكلمات التي نكثر اصطناعها في هذا الفصل : قال ؛ صاح . نحن نقول لانفسنا ؛ نحن نخطب انفسنا ؛ نحن نصيح في داخل انفسنا ، من غير ان 'يقطع' السكوت الخارجي . إن ثمة جلبة قوية في داخلنا . كل شيء في باطننا يتكلم ، ما عدا اللسان . واذا كانت حقائق النفس غير منظورة وغير ملموسة فليس ينقص ذلك من قيمتها كحقائق .

انقد سأل نفسه اذن ابن هو . واستجوب نفسه حول هذا « القرار الذي اتخذه » . ولقد اعترف لنفسه بأن كل ما كانت يهته في ذهنه بغيض شنيع ؛ وان « ترك المسألة وشأنها » ، وعدم التدخل في شؤون الله ، شيء فظيع حقاً ؛ وان السماح لغلطة القدر هذه وغلطة الناس بأن تتم ، وعدم الحؤول دون ذلك ، ومساعدته على اقامتها بالاعتصام بالصمت ، والاحجام عن القيام بعمل ما آخر الامر لا تعدو ان تكون في الواقع إقداماً على عمل كل شيء . كانت ذلك هو غاية الغايات في الحسة المراتية ! كان جريمة بشعة ، دنيئة ، 'مداجية' ، جبانة ، وضيعة . ولأول مرة ، طوال ثلثي سنوات ، ذاق الرجل النفس ذلك الطعم المرير الذي يكون لفكرة شريرة ، وعمل شرير .

ولفظ ما ذاق في اشتمزاز .

وواصل استنطاقه الذاتي . لقد سأل نفسه ، في صرامة ، ما الذي فيه من هذا الكلام : « لقد حققتُ هدي . » ؟ فأعلن انه كانت لحياته ، في الواقع ، غاية . ولكن ما تلك الغاية ؟ ان يخفي اسمه ؟ ان يخدع الشرطة ؟ أمن اجل شيء ضئيل كهذا فعل كل ما فعله ؟ ألم تكن له غاية اخرى ، كانت هي الغاية العظمى ، وكانت هي الغاية الحقيقية ؟ أن ينقذ ، لا جده ، ولكن نفسه . أن يصبح صالحاً وخيراً كرهة ثانية . ان يكون رجلاً متقياً ! ألم يكن ذلك ، فوق كل شيء ، ذلك وحده ، هو الذي رغب فيه دائماً ، والذي أمره الأسقف به ؟ — ان يغلّق الباب على ماضيه ؟ ولكنه لم يكن ليفلّقه بحال من الاحوال . كان يعاود فتحه بارتكابه عملاً سائئاً ! ذلك بأنه عاد لصاً من جديد ، بل لقد أمسى أشنع اللصوص وادعاهم الى الاشتمزاز . لقد مرقّ من رجل آخر وجوده ، وحياته ، وأمنه ، ومكانه تحت الشمس ! لقد أمسى سفاكاً ! لقد قَتَلَ ، لقد قتل معنوياً رجلاً بائساً ! لقد انزل به ذلك الموت الحيّ المروّع ، ذلك الدفن في الحياة ، الذي يدعى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ! على العكس ، فلأن ينقذ نفسه ، ولأن ينقذ هذا الرجل المبني بمنزل هذه الغلطة الرابعة ، ولأن يحمل اسمه من جديد ، ولأن يصبح كرهة اخرى بدافع من الواجب جان فالجان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة فذلك في الواقع هو أنبعائه الحقّ ، وهو الاغلاق الابدي لباب الجحيم الذي خرج منه ! إن العودة اليه ، في الظاهر ، هي النجاة منه ، في الحقيقة ! يجب ان يفعل ذلك ! إن كل ما عمله حتى الآن ليس شيئاً اذا لم يفعل ذلك ! إن حياته كلها كانت غير ذات غناء ، وان آلامه كلها ذهبت ادراج الرياح ، ولم يكن عليه غير ان يأل هذا السؤال : « ما الفائدة ؟ » واستشعر أن الاسقف كان هناك ، ان الاسقف كان حاضراً اكثر مما كان مينا ،

ان الاسقف كان يحدق اليه تحديقاً موصولاً ، وان مادلين العبد ،
بفضائله جميعاً ، سوف يكون منذ اليوم بغيضاً اليه ، وان جان فالجان
العبد الرقيق المحكوم عليه بالاستغال الشاقة سوف يكون باهراً وطارهاً
في عينيه . واستشعر أن الناس كانوا يرون قناعه ، اما الاسقف فكان يرى
وجهه ؛ ان الناس كانوا يرون حياته ، اما الاسقف فكان يرى ضميره .
واذن فيجب ان يذهب الى آراس ، وان ينقذ جان فالجان الزائف ،
ويتم جان فالجان الحقيقي . وأسفاه ! تلك كانت اعظم التضحيات
شأناً ، وأشد الانتصارات إبلاماً ، والخطوة النهائية التي ينبغي ان
تخطى ؛ ولكن عليه ان يفعل ذلك . يا له من قدر فاجع ! إنه لا
يستطيع ان يبلج باب القداسة في عيني الله ، إلا بالعودة الى العار في
أعين الناس !

وقال :

— « حسن . فلنسلك هذه السبيل ! فلنقم بواجبنا ! فلننقذ هذا الرجل ! »
ونطق بهذه الكلمات في صوت عال ، من غير ان يلاحظ أنه كان
يتكلم جهاراً .

وتناول كتبه ، وتحقق منها ، ونظمها . ثم القى في النار رزمة
من السندات المالية كانت له على بعض المعوزين من صفار التجار . وكتب
رسالة ، وختمها ؛ وكان في ميسور المره ان يقرأ على ظاهر ظرفها —
لو كان في الغرفة أحدٌ آنذاك : الى ميسو لافيت ، مصري ، شارع
أوتوا ، باريس .

وسحب من احد المكاتب محفظة تحتوي على بعض الاوراق المالية
وعلى الجواز الذي استعمله في ذلك العام نفسه للاشتراك في الانتخابات .
ولو ان امره آراء فيما كان يقوم بهذه الاعمال المختلفة بمثل ذلك التأمل
الوقور اذن لما ارتاب في ما كان يعتل في ذات نفسه . ومع ذلك فقد
كانت شفتاه ترتعشان بين الفينة والفينة . وكانت يرفع رأسه في بعض

الاحيان ويستر نظره على نقطة ما من الجدار ، وكأنما وجد هناك بالضبط شيئاً يريد ان يحلوه او ان يستنطقه .

واتمّ الرسالة الى مسير لافيت ، فوضعها هي والمحفظة في جيبه ، وشرع يذرع الغرفة من جديد .

ولم يكن مجرى تفكيره قد تغيّر . كان لا يزال يرى واجبه مكتوباً على نحو واضح باحرف ساطعة كانت تتوهج امام عينيه ، وتتحرك مع نظراته : « اذهب ! اعترف باسمك ! إتهم نفسك ! »

ورأى كذلك ، وكأنما انتصبتا أمامه عاربتين وفي شكلين محوسين ، الفكرتين اللتين كانتا حتى ذلك الحين دستور حياته المزدوج : ان يُخفي اسمه ، وان يطهر نفسه . ولأول مرة بدا له مستقتلين ، إحداهما عن الاخرى ، تمام الاستقلال ، ورأى الفرق الذي يفصل ما بينهما . لقد ادرك ان احدى هاتين الفكرتين خيرة بالضرورة ، على حين ان الاخرى قد تصبح شريرة ؛ أن الاولى عبادة والاخرى اناية ؛ أن احدهما تقول : « الجار » وثانيتهما تقول « انا » ؛ ان واحدة تنبثق من النور وواحدة تنبعث من الظلام .

كانتا تتقاتلان . لقد رآهما تتقاتلان . وفيما هو ينظر ، تضختا امام عينه العقلية . لقد اصبحتا الآن هائلتين جداً . ولقد بدا انه رأى الى إلهة وماردة تصطرعان في ذات نفسه ، في تلك اللانهاية التي تحدثنا الآن عنها ، وسط الظلمات والبوارق .

كان مفعماً بالذعر ، ولكن بدا له ان التفكير الحثيث في سبيله الى الانتصار .

لقد استشعر انه بلغ حركة ضميره وقدره الثانية الحاسمة . وان الاسقف كان قد طبع الوجه الاول من حياته الجديدة ، وان شأغباته هذا طبع الوجه الثاني . وبعد الازمة الكبرى ، تأتي المحنة الكبرى . وفي غصون ذلك عاودته الحمى ، شيئاً بعد شيء ، وكانت قد خمدت

لحظة . والتمتع في ذهنه ألف خاطر ، ولكنها لم تزد عزمه الا رسوخاً .
وكان قد قال لحظة : لعلي انظر الى الفضية ، باكثر مما تستحق من
الحماة . وان شأغاتي لم يكن على اية حال جديراً بالاهتمام ، وانه قد
سرق ، فعلاً .

واجاب نفسه بقوله : و اذا كان هذا الرجل قد سرق ، فعلاً ، يضع
تفاحات فمعنى ذلك انه سوف يُسجن شهراً . وثمة شقة واسعة بين هذا وبين
سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . ولكن من يدري ؟ هل سرق ؟
هل قام الدليل على ذلك ؟ ان اسم جان فالجان يُثقل كاهله . ويبدو
وكأنه في غير حاجة الى الدلائل والبيّنات . اليس من عادة النواب
العامة ان يتصرفوا على هذا النحو ؟ إنهم يحسبونه لصاً ، لانهم يعرفون
انه كان ذات يوم في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة .

وفي لحظة اخرى خطر له انه اذا ما اتهم نفسه فمن الجائز أن تشفع
به بطولة موقفه هذا ، والحياة الصالحة التي عاشها منذ سبع سنوات ،
والخدمات التي اداها الى المنطقة ، فيُعفى عنه .

ولكن هذا الفرض ما لبث ان تلاشى . وابتسم في مرارة حين
فكّر ان ورقة الاربعين « سو » من جيرفيه الصغير قد جعلته ذا
سابقة ، وان هذه المسألة سوف تظهر ثانية ، من غير شك ، وانه
سوف يُحكم عليه ، وفقاً لنصوص القانون الحرفية ، بالاشغال الشاقة
مدى الحياة .

واسّاح بوجهه عن الاوهام كلها ، فاصلاً نفسه اكثر فاكثراً عن هذه
الارض ، ملتصقاً العزاء والقوة في مكان آخر . لقد قال لنفسه إن عليه
ان يقوم بواجبه ، بل انه من الجائز ان لا يكون اكثر تعاسة بعد
قيامه بواجبه منه بعد التهرب من القيام بهذا الواجب ؛ وانه اذا ترك
المسألة وشأنها ، اذا ظلّ في مونتروي سور مير ، فان وجاهته ،
وشهرته الحيدة ، وأعماله الحيرة ، والاحترام والاجلال اللذين يتمتع بهما ،

وإحسانه الى الفقراء ، وثروته ، وشعبيته ، وفضيلته - كل هذه سوف
تُلَوِّثُ بجرمة . وايّ متعة سوف تكون في جميع هذه الاشياء المقدسة
حين تُوثقُ بذلك الشيء البشع ! على حين انه اذا اقدم على التضحية
المطلوبة منه فعندئذ تمازجه فكرة سماوية برغم وجوده في سجن المحكوم
عليهم بالاشغال الشاقة ، وبرغم قيده ، وُعْلته ، وقلنسوته الخضراء ، وعمله
الذي لا يعرف الانقطاع ، وعاره الذي لا يعرف الرحمة !

واخيراً قال لنفسه إن تلك ضرورة ، وان قَدَرَهُ قد صيغ على هذا
الشكل ، وانه لا يستطيع أن ينقض تديير الله ، وان عليه ان يختار ،
مهما تكن الاحوال ، احدي خطتين : إما الفضيلة الظاهرية والحجائنة
الباطنية ، وإما الطهارة الباطنية والعار الخارجي .
ولم تضعف شجاعته فيما هو يُدير في ذهنه هذه الأفكار القائمة كلها ،
ولكن دماغه تعب . وعلى الرغم منه شرع يفكر في اشياء اخرى ، في
اشياء قليلة الغناء .

واندفع الدم عنيفاً الى صدغيه . وذرع العرق جثة وذهوباً على
نحو موصول . واعلنت ساعة كنيسة الرعية انتصاف الليل ، اولاً ، ثم
اعلنته بعدها ساعة دار البلدية . وعدت الضربات الاثنتي عشرة التي أطلقته
كل من الساعتين ، وقارن ما بين صوت الجرسين . ولقد ذكره ذلك
بأنه كان قد رأى ، قبل بضعة ايام ، عند احد تجار الحدائد العتيقة ،
جرساً قديماً معروضاً للبيع ، وقد كتب عليه هذا الاسم : انطوانات
آلبين دو وومينفيل .

وسرى البرد في اوصاله . وأوقد ناراً . ولم يخطر بباله ان يوصد
النافذة .

وفي غضون ذلك استغرق في ذهوله ، كرةً اخرى . ولم يكن
الجدد الذي احتاج اليه لكي يذكر ايّ شيء كان يفكر فيه قبل ان
تدق الساعتان ، جهداً يسيراً . ووفق الى ذلك ، آخر الامر .

وقال :

— و آه ! اجل . لقد اتخذت قراراً يقضي بأن أنهم نفسي . ،
ثم إنه فكّر ، فجأة ، بفانتين .

وقال :

— و قف ! وهذه المرأة المسكينة ! ،
ونشأت هنا ازمة جديدة .

كانت فانتين ، وقد برزت فجأةً في هواجسه ، شبه شيء بشعاع من
ضياء مجهول . لقد بدا له وكأن كل شيء من حوله قد تغير مظهره .
وصاح :

— و آه ! نعم ، حقاً ! أنا لم أفكر حتى الآن إلا بنفسي ! أنا لم
أنظر إلا الى ما بوافقي ! لقد درست ما اذا كان ينبغي عليّ ان أعتمد
بالصمت أم اشكو نفسي الى السلطة ، أن أوارى جسدي أم أنقذ
روحي ، أن اكون حاكماً حقيراً ومحترماً أم ان اكون سجيناً مرفوئلاً
وموقترأ . وكلها اسئلة تدور حول نفسي . نفسي دائماً . ونفسي ليس
غير . ولكن ، يا الهي ، هذا كله اتانية ! اشكال مختلفة من الاتانية ،
ولكنها اتانية على كل حال ! هلا فكرت قليلاً في غيري ؟ فلننظر ،
فلندرس ! لنفرض اني ولّيت ، اني 'حييت' ، اني 'شجيت' ، فما الذي
ينشأ عن ذلك كله ؟ — اذا اتهمت نفسي واستسلمت للقضاء ؟ إنهم سوف
يعتقلوني ؛ إنهم سوف يطلقون مراح سائقاتير هذا ؛ إنهم سوف يعيدوني
الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . حسن جداً . ثم ماذا ؟ ما
الذي سوف يحصل هنا ؟ آه ، هنا ، حيث توجد منطقة ، ومدينة ،
وصناعة ، وعمال ، ورجال ، ونساء ، وأجساد عجايز ، واطفال ،
وأناس مساكين ! لقد خلقت هذا كله ؛ لقد أعلت هذا كله . فحيثما
ينطلق الدخان من مدخنة كنت انا الذي وضع الحطب في النار ،
واللحم في القدر . لقد أحدثت الرخاء ، والنشاط ، والثقة . قبلي لم

يكن شيء . لقد رفعت ، وأمرت ، وأنعت ، وأخسبت ، وأنهضت ،
وأغسبت البلاد كلها . اذا ذهبت انا فقدت روح البلاد . واذا زلت
انا مات كل شيء . وهذه المرأة التي قاست كثيراً ، الفاضلة في سقوطها ،
والتي سببت على غير وعي مسني بلاءها كله ! وتلك الطفلة التي كنت
ذاهباً اليها ، والتي وعدت الأم بأعادتها اليها ! ألسنت مديناً ايضاً لهذه
المرأة بشيء ، تعويضاً عن الاذى الذي أنزلته بها ؟ فاذا تواريت عن
مسرحة الاحداث ، فما الذي يحدث ؟ ان الأم سوف تموت . وإن
الطفلة سوف تصبح ما تستطيع ان تصبحه . ذلك ما سوف يجري اذا
ما شكوت نفسي الى القضاء . واذا لم أشك نفسي ؟ فلا درس هذا الوضع -
اذا لم أشك نفسي ؟

ونعم بعد ان طرح هذا السؤال . لقد تردّد لحظةً وارنجف .
ولكن تلك اللحظة كانت وجيزة ، ولقد أجاب في هدوء :

- و حسن ، إن هذا الرجل سوف يُبَاق الى سجن المحكوم عليهم
بالاشغال الشاقة . هذا صحيح . ولكن ايّ بأس في ذلك ؟ لقد سرق !
ومن العبث الذي لا طائل تحته ان ازم انه لم يسرق ؛ لقد سرق !
اما أنا فأبقى هنا ؛ سوف أتابع سبيلي . وما هي الا عشر سنوات حتى
اوفقى الى ان اكسب عشرة ملايين . وسوف انثر هذه الملايين في
البلاد . انا ان أبقى شيئاً لنفسي . وماذا يضيرني ذلك ؟ إن ما أعمله
ليس لنفسي ! إن رفاهية الجميع سوف تزداد تعاضداً ؛ وإن الصناعات
سوف تنهض وتتألق ؛ وإن المصانع والمعامل سوف تتضاعف ؛ وإن
الأسر ، مئات الأسر ، آلاف الأسر ، سوف تسعد . إن المنطقة
ستصبح آهلة بالسكان ؛ وإن القرى ستنبثق حيث لم يكن يوجد غير
المزارع ؛ وإن المزارع سوف تثبت حيث لم يكن يوجد شيء . ان
الفقر سيؤول ؛ وبزوال الفقر ستزول الدعارة ، والبطالة ، والسرقة ،
والقتل ؛ ستزول جميع الرذائل ، وجميع الجرائم ! وسوف يكون في

ميسور هذه المرأة المسكينة ان تربي طفلتها ! ونصبح المنطقة كلها غنية وفاضلة ! آه ، اجل ! ما كان اشد بلاهتي ، وما كان اعظم حماقتي ! ما هذا الكلام الذي كنتُ أقوله حول اتهام نفسي ؟ يجب ان اصطنع الروبة ، وأن لا أتهوّر . ماذا ؟ أقدم على هذا لأن بما يوقع الرضا في نفسي أن اعمل العمل العظيم السخي ! - إن ذلك شيء مثير على أية حال ! - لأنني لم أفكّر إلا في ذاتي ، في ذاتي وحدها ! ماذا ؟ ألكي أنفذ من عقوبة قد تكون مغالىً فيها بعض الشيء ، ولكنها في الاساس عادلة - ألكي أنفذ من هذه العقوبة رجلاً لا يعرفه احد ، لصاً من اللصوص ، وغداً من الاوغاد ، على كل حال ، أدفع بيلاد بكاملها الى الحراب ! ويتعيّن على امرأة مسكينة أن تموت في المستشفى ! ويُقضى على بُنية بائسة ان تلاقى حتفها في الشارع ! مثل الكلاب ! آه ، ذلك خلّيق بأن يكون مقيناً ! بل ومن غير ان يكون في ميسور الأم ان ترى ابنتها من جديد ؟ ومن غير ان تعرف الطفلة أمها او تكاد ! وكل ذلك من اجل سارق التفاح الجرو المعجوز هذا ، الذي يستحق من غير ريب ان يساق الى سجن الاشغال الشاقة لجرّمة اخرى ، إن لم يستحق ذلك من اجل هذه الجرّمة ! إنها لوساوس جميلة هذه التي تنفذ مجرماً وتضحي بأبوياء ، والتي تنفذ متشرداً عجوزاً لم يبق له على كل حال غير بضع سنوات يعيشها ولن يكون أنتمس حالاً في سجن الاشغال الشاقة منه في مكته الحفير ، والتي تضحي بأهل منطقة بكاملها ، وبالامهات ، والزوجات ، والاطفال ! وكوزيت الصغيرة المسكينة التي ليس لها في هذا العالم احد غيري ، والتي يزرّق وجهها في هذه اللحظة ، من غير شك ، بسبب ما تقاسيه من البرد في كوخ تيناردييه وزوجته ! وهذان وغدان بائسان أيضاً ! ومع ذلك اقتصر في القيام بواجباتي تجاه هذه الكائنات البائسة كلها ! ومع ذلك يتمين عليّ ان اذهب واشكو نفسي الى القضاء ! ومع ذلك يجب ان ارتكب هذه

الحاقة البلهاء ! ولنفرض اسوأ الاحتمالات . لنفرض اني اقترفت ، من طريق الصمت ، سيئة ما وان ضميري سوف يخزني في يوم من الايام . فان قبولي - لمصلحة الآخرين - بهذا الوخر الذي لا يُنقل كاهل احد غيري ، وهذه السيئة التي لا تصدّع غير روحي ، هو التفاني عنه ، وهو الفضيلة عينها .

ونفض واستأنف سيره . وهذه المرة ، بدا له انه اقتنع . إن الماس لا يكون إلا في المواطن المظلمة من الارض ؛ وكذلك الحقائق لا تكون إلا في أعماق الفكر . لقد بدا له أنه بعد أن غاص الى تلك الاعماق ، وبعد ان بحث طويلاً في اسدّ هذه الظلمات حلكت ، عثر آخر الأمر على قطعة من ذلك الماس ، على واحدة من تلك الحقائق ، وأنه يملكها بيده . ولقد أعشاه النظر اليها .

وفكّر : « أجل ، تلك هي ! إني اسلك الطريق الصحيحة . لقد وجدتُ الحلّ . يجب ان انتهي بالتشبث بشيء . لقد اخترتُ سبيلي . دع المألة وشأنها ! كفى تردّداً . كفى تراجعاً ! هذا في مصلحة الجميع ، لا في مصلحتي الشخصية . أنا مادلين ؛ ولوف ابقى مادلين . والويل لمن هو جان فالجان ! انا وهو لم نعد شيئاً واحداً . انا لا اعرف هذا الرجل ؛ انا لم أعد اعرف ما هو . واذا وجدت السلطة ان شخصاً ما هو جان فالجان في هذه الساعة فليدير أمره بنفسه . هذا شيء لا علاقة لي به . إنه امم مشؤوم يطفو في الظلام ، فاذا ما وقف واستقر على رأس رجل ما فلأمّ ذلك الرجل المبلّ ! »

ونظر الى نفسه في المرآة المعلقة فوق موقفه وقال :

« أجل ! إن الوصول الى قرار قد ازال عني الغم . أنا الآن

شخص آخر بالكلية ! »

وخطا بضع خطوات اخرى ، ثم وقف فجأة .

وقال :

- د هيا ! يجب ان لا أتردد امام ايّ من نتائج القرار الذي اتخذته . إنه لا تزال ثمة بعض الحيوط التي تشدّني الى جان فالجان هذا . هذه الحيوط يجب ان تُقطع . إن ثمة ، في هذه الغرفة بالذات ، اشياء يمكن ان تهمني ، اشياء خرساء يمكن ان تشهد عليّ . لقد سُويت هذه المسألة ، وينبغي ان تختفي تلك الاشياء كلها .
وبحث في جيبه ، وسحب كيس نقوده ، ففتحه ، واخرج منه مفتاحاً صغيراً .

وادخل هذا المفتاح في قفل كاد ثقبه ان يكون غير منظور ، بعد ان غاب في الظلال القاتمة الى حدّ بعيد والتي ألقها التصاویر المرسومة على الورق الذي يغطي الجدار . وفتح باب سرّي ، فاذا خلفه ضرب من الحزاة الزائفة المقامة بين زاوية الجدار وبوقع المدخنة . ولم يكن في ذلك انحباً غير بعض الحرق البالية : قميص من نسيج ازرق خشن ، وبنطلون عتيق ، وجراب قديم ، وعصاً زعرورية ضخمة طوّق طرفاها بالحديد . إن اولئك الذين شهدوا جان فالجان يوم اجتاز بمدينة د في تشرين الاول سنة ١٨١٥ ، كان خليقاً بهم أن يتبينوا ، في بسر ، بقايا هذا الزي البائس المضحك .

كان قد احتفظ بها ، كما احتفظ بالشعدانين الفضيين ، لتذكره دائماً بنقطة انطلاقه . ولكنه أخفى ما حمله من سجن الاشغال الشاقة ، وأظهر الشعدانين اللذين حملها من لدن الاستف .

وألقى نظرة خفية على الباب ، وكأنما كان يخشى ان ينفتح برغم الحديد الذي يوصده . وبحركة نشيطة مفاجئة طوّق هذه البقايا كلها بذراعيه ، دفعة واحدة ، من غير ان يلقي ولو نظرة عليها - وهو الذي احتفظ بها بكثير من التقديس معروضاً نفسه للمخاطر طوال عدة سنوات - وقذف بها جميعاً ، الأسمال والعصا ، والجراب ، الى النار .

وأغلق الحزاة الزائفة ، وضاعف احتياطاته ، التي أمست منذ ذلك

الحين غير ذات غناء بعد أن أفرغها من محتوياتها ، وخبأ الباب خلف قطعة ضخمة من الاثاث دفعها نحوه .

وفي ثوان قليلة ، أضيئت الغرفة والجدار المقابل بانعكاس نور قوي أحمر مرتعش . كان كل شيء يشتمل . وفرقت العصا الزعرورية ، وقذفت بالشرر حتى وسط الغرفة .

واذ احترق الجراب بما انطوى عليه من الحرق الراحبة فقد خلف شيئاً عارياً التمتع في الرماد . ولو قد انحنى أحدٌ فوق ذلك الشيء إذت لتبتن ، في بسر ، قطعة فضية . كانت هي من غير شك قطعة الاربعين « سو » التي سُلبت من الغلام السافواني الصغير .

ولكنه لم ينظر الى النار . لقد واصل ذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، محافظاً دائماً على المبرعة نفسها .

وفجأة وقعت عيناه على الشمعدانين الفضيّين اللذين التمعا ، على نحو باهت ، فوق الموقد ، بسبب من انعكاس الوهج عليها .
وفكر :

« قف ! إن جان فالجان لا يزال ضمن هذين أيضاً . ينبغي ان يُنلقا مثل غيرهما . »
وتناول الشمعدانين .

كان قمة نار كافية لاذابتها الى ضرب من السبيكة لا تُعرَف إلا بشقّ النفس .

وانحنى فوق النار ، وتدقاً لحظة . واستشعر الهناء حقاً .
وقال :

« يا للدفء العذب ! »

وأثار الجمرات بأحد الشمعدانين .

وما هي إلا دقيقة حتى يكونا في اللهب .

وفي تلك اللحظة ، بدا له أنه سمع صوتاً يصيح في داخله :

- « جان فالجان ! جان فالجان ! »
وقفَ شعر رأسه . كان أشبه برجل يسمع شيئاً فظيعاً .
وقال الصوت :

- « أجل . هكذا . أتمّ ، أكملّ ما أنت فاعله ! أتلّف هذين الشمعدانين !
أمعْ هذا التذكّار ! إنس الأسقف ! إنس كل شيء ! إقصِ على شائغتي
هذا ! حسن جداً . صفّقْ لنفسك ! وهكذا 'سوي الأمر ، وانخذ
فيه قرار ، وانتهى كل شيء . هوذا رجل ، هوذا رجل عجوز لا يدري
ما الذي يهتمونه به ، ولعله ان لا يكون قد فعل شيئاً ؛ هوذا بريء
انزل اسمك به ذلك الشقاء كله ، وأنقص اسمك ظهره مثل جريمة من
الجرائم ؛ هوذا بريء سوف يؤخذ بدلاً منك ، سوف يُدان ، سوف
يقضي أيامه في الذلّ والذعر ! حسن جداً . كن أنت رجلاً مبعلاً .
إبقَ السيد العمدة ؛ إبقَ شريفاً ومُشرّفاً ؛ أغنِ المدينة ؛ أطعم الفقراء ؛
نشيء الايتام ؛ عِشْ سعيداً ، فاضلاً ، محوطاً بآيات الاعجاب . وطوال
هذه الفترة التي ستعتم فيها هنا بالبهجة والنور سوف يكون هناك رجل
يرتدي قميصك الأحمر ، ويحمل اسمك في الحزبي والعار ، ويجرّ أغلاك
في سجن المحكوم عليهم بالاشتغال الشاقة ! أجل ! لقد سويت المسألة
نسوية حسنة ! آه ! مـكـين ! »

وتحدّر العرق من جبينه . ونظر الى الشمعدانين بعين شاردة . ولم
يكن الصوت الذي تكلم في باطنه قد انتهى ، فهو يتابع حديثه :
- « جان فالجان ! سوف تحيط بك اصوات كثيرة 'تحدث ضجة
كبيرة ، وتتكلّم بنبرة عالية جداً ، وتطريك وتباركك ، وصوت
واحد لن يسمعه احد ، صوت مفرد سوف يلعنك في الظلام . حسن ،
إسمع ، ايها الرجل المرذول ! إن هذه البركات كلها سوف تسقط قبل
ان تبلغ باب السماء . وان اللعنة وحدها هي التي سنصعد حتى ننهي
الى الله ! »

وما لبث هذا الصوت الذي كان واضحاً جداً اول الامر ، والذي انبعث من أعماق ضميره - ما لبث ان غدا عالياً عجباً ، شيئاً بعد شيء ، فهو يضج الآن في اذنيه . لقد بدا له ان ذلك الصوت قد فارقه ، وانه كان يتكلم اللحظة من الخارج . ولقد خيل اليه انه سمع الكلمات الاخيرة في كثير من الوضوح جعله يحيل بصره في الغرفة بضرب من الذعر .

وتساءل في صوت مرتفع ، وفي شرود :

- « هل يوجد احد هنا ؟ »

ثم استطرد في ضحكة كانت اشبه بضحكة رجل أبله :

- « يا لي من مجنون ! لا يمكن ان يكون أحد هنا . »

كان ثمة واحد . ولكن ذلك الذي كان هناك لم يكن من اولئك الذين تستطيع العين البشرية ان تراه . ووضع الشمعدانين على الموقد .

ثم استأنف سيره ذاك الرتيب الكئيب ، الذي ازعج الرجل النائم تحت غرفته ، المستغرق في احلامه ، فاستيقظ راجعاً .

وروح هذا السير عنه وأثاره في آن معاً . والذي يبدو أننا في المناسبات الخطيرة نأخذ أنفسنا بالحركة لكي نلمس النصح من ايما شيء . قد نلتقيه نتيجة لتغيير المكان . وبعد بضع لحظات ، لم يعد يدري اين هو .

وتراجع الآن ، في دعر متكافئ ، أمام كل من القرابين اللذين اتخذهما واحداً إثر واحد . لقد بدت الفكرتان اللتان قدمنا النصيحة اليه وخيمتي العاقبة على حد سواء . يا له من قدر ! يا لها من مصادقة تلك التي جعلت السلطة تتوهم ان شائغاتها هو جان فالجان ! أيترودى في الهاوية بدافع من الوسيلة نفسها التي بدا ، في اول الامر ، وكأنه العناية الالهية قد سخرتها لتوطيده ؟!

وغيرت لحظة تأمل خلافا المستقبل . أن يتهم نفسه ! يا الهي ! أن
يستلم ! لقد تجلى له في يأس هائل ، كل ما يتعين عليه ان يهجره ،
وكل ما يتعين عليه ان يستأنفه . يجب عليه اذن ان يودع هذا الوجود الجيد
الى ابعد حد ، الطاهر الى ابعد حد ، المشرق الى ابعد حد ؛ وان يودع
احترام الجميع ، ويودع الشرف ، ويودع الحرية ! انه لن يخرج للنزهة في
الحقول منذ اليوم ! انه لن يسمع الطير تغني في شهر نوار منذ اليوم ! انه
لن يوزع الصدقات على الاطفال الصغار منذ اليوم ! انه لن يستشر حلاوة
نظرات الحب والاعتراف بالجميل الممددة اليه ، منذ اليوم ! ولسوف
يضطر الى ان يغادر هذا البيت الذي بناه ، هذه الغرفة الصغيرة ! لقد
بدا كل شيء فائتاً في عينه الآن . انه لن يطالع بعد اليوم في هذه
الكتب . انه لن يكتب بعد اليوم على هذه الطاولة الصغيرة ذات الحشب
الايض ! إن حاجبته العجوز ، وهي الخادم الوحيدة التي كانت عنده ،
لن تحمل اليه قهوته ، بعد اليوم ، في الصباح . يا الهي ! وبدلاً من
هذا كله سيكون ثمة جمهور السجناء المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ،
وطوق العنق الحديدي ، والرداء الاحمر ، والاصفاد التي تكبل القدم ،
والاعياء ، والحجيرة المظلمة ، والسريр النقال ، وكل هذه الاهوال التي
يعرفها جيداً ! ومتى ؟ في مثل منه هذه ، وبعد ان صار الى ما صار
اليه ! لو كان لا يزال شاباً ! ولكن أن يكون شيخاً ، وأن يات
من قبل أول وافد ، ويخاطب بضير المفرد من جانب حرس السجن ،
ويضرب بهراوة السجن ! ان توضع قدماء عاريتين في حذاء موثق
بالحديد ! ان يُسلم رجله صباحاً ومساء الى مطرقة كبير رجال الحرس
ليفحص الاغلال ! ان يحتل فضول الغرباء الذين سوف يقال لهم :
« هذا هو جان فالجان الشهير الذي كان عمدة مونتروي سور مير ! »
أن يرتقي من جديد في موهن من الليل ، وتحت سوط الرقيب ، درجات
سلم السجن العائم ، اثنتين اثنتين ، وقد سال منه العرق ، وهذه

التعب ، وانحرفت قلنسوته فوق عينيه ! اوه ، ايّ حقاء هذا !
هل في ميسور القدر اذن أن يكون خبيثاً مثل وجل ذكي ، وان
يصبح راعباً كالقلب البشري ؟

كان مها عمل يعود الى السقوط دائماً في هذه الورطة الحادة التي كانت
في اعماق تفكيره والتي تفرض عليه ان يختار احدى خطتين كلاهما بغيضة
الى نفسه : ان يبقى في الجنة ليصبح هناك شيطاناً ، وان يعاود
الدخول الى جهنم ليصبح هناك ملاكاً !

ما الذي ينبغي ان يُعمل ، يا الهّي ! ما الذي ينبغي ان يُعمل ؟
كان العذاب العاصف الذي تغلب عليه في كثير من العمر قد آذنه
بهموم باطنيّ جديد . واختلطت فكراته ككرةً أخرى . لقد اتخذت
ذلك الشكل الداهل الميكانيكي الذي يتمتع على الوصف ، والذي هو من
خصائص اليأس . وتمثل له اسم رومينفيل على غير انقطاع ، مع بيتين
من انشودة سمعها من قبل . وقال في ما بينه وبين نفسه ان رومينفيل
غابة صغيرة قرب باريس حيث يذهب العشاق الشباب ليجمعوا زهرات
الليلنج في شهر نيسان .

وترنح ظاهرياً ، كما ترنح باطنياً . لقد مشى مثل طفل صغير
أجيز له ، أول مرة ، ان يسير وحده .

وبين الفينة والفينة ، وفي غمرة من كفاحه ضد الاعمياء ، بذل جهداً
جديداً لكي يوقظ فكره . لقد حاول ان يجدد ، نهائياً وعلى نحو
قاطع ، المشكلة التي سقط أمامها ، بمعنى من المعاني ، 'جهداً خائراً
القوى . أيتعين عليه ان يشكو نفسه ؟ أيتعين عليه ان يعتصم بالصمت ؟
لقد عجز عن ان يرى أيما شيء في وضوح . لقد ارتجفت الاشكال
الغامضة لجميع الحجاج التي رسمها عقله ، وتبددت واحدة اثر اخرى في
دخان . بيد انه امتشعر ان شيئاً من نفسه - مهما يكن قراره -
سوف يموت ، وسوف يكون موته بالضرورة ،

ومن غير ان يكون ثمة سبيل الى النجاة منه ؛ وانه سوف يدخل قبراً
سواء جنح الى اليمين او جنح الى الشمال ؛ وانه كان يعاني حشرة
موت ، حشرة موت سعادته ، او حشرة موت فضيلته .
والأسفاه ! لقد عاوده تردده كله . إنه لا يزال حيث بدأ ، لم يتقدم
خطوة واحدة .

كذلك ناضت هذه النفس التعبة الراحة تحت وطأة الغم . وقبل
هذا الرجل البائس بألف وثمانيئة عام كان الكائن المجلبب بالاسرار ، الذي
تختصر فيه قداسات الانسانية كلها وعذابات الانسانية كلها ، قد اطرح
هو ايضاً منذ عهد بعيد ، وفيما كانت شجرات الزيتون ترتجف أمام
إعصار الانهيار الضاري ، كأس العشاء الرباني الخفيفة التي ترامت له سائلة
بالظلال ، فائضة بالظلمات ، في الأعماق الخافتة بالنجوم .

٤

اشكال يتخذها العذاب

خلال النوم

وأعلنت الساعة الثالثة . كان قد سلخ خمس ساعات وهو يمشي على
هذا النحر ، ومن غير انقطاع تقريباً ، عندما انطرح على كرسيه .
واستسلم للرقاد ، وانشأ يحلم .

ولم يكن ثمة صلة بين هذا الحلم - شأن معظم الاحلام - وبين
وضع صاحبه غير طابعه الفاجع المروع . ولكنه كان ذا وقع في
نفسه . واخلق ان هذا الكابوس أثر فيه تأثيراً قوياً حله في ما بعد
على ان يدونه . وهذه احدي الاوراق التي كتبها بخط يده ، وخلّفها

من بعده . ونحن نعتبر ان من واجبتنا ان ننسخها هنا بالحرف الواحد .
وأياً ما كان هذا الحلم ، فإن قصة تلك الليلة تكون ناقصة اذا ما
أغفلناه . إنه المغامرة المظلمة تقوم بها روحٌ مريضة .
وما هو ذا . إننا نجد مكتوباً على الطرف هذا السطر : « الحلم
الذي رأيته تلك الليلة . »

« كنتُ في حقل . حقلٍ واسع محزون ليس فيه عشب . ولم يبدُ
أن ذلك كان نهاراً ، أو أنه كان ليلاً .
« كنت أمشي مع اخي ، اخي صباي . هذا الاخ الذي يتعين
عليّ ان اقول اني لا افكر فيه ابداً ، واني لا اتذكره إلا نادراً .
« كنا نتحدث ، ولقد التقينا غيرنا مائياً أيضاً . كنا نتحدث عن
جارية كانت لنا في ما مضى ، وكانت منذ ان سكنت في ذلك الشارع
تعمل ونافذتها مفتوحة ابداً . وحتى فيما نحن نتكلم ، استشعرنا البرد
بسبب من تلك النافذة المفتوحة .

« ولم يكن في الحقل أشجار .
« لقد رأينا رجلاً يمر بقربنا . كان عارياً عرياناً كاملاً ، وكان بلون
الرماد ، وكان ممتطياً جواداً بلون التراب . ولم يكن لذلك الرجل شعر .
لقد رأينا جمجمته وأوردة في جمجمته . ويده كان يمسك عصاً لدنة مثل
غصن من اغصان الكرمة ، ثقيلة كالحديد . واجتاز بنا هذا الفارس ،
ولم يقل شيئاً .

« وقال لي اخي : فلنسلك الطريق المهجورة .
« كان ثمة طريق مهجورة لم نَرَ فيها لا عُليقة ولا علوج طعلب .
كان كل شيء بلون التراب . حتى السماء كان لونها هكذا . وبعد بضع
خطوات لم يُجبني احد حين تكلمتُ . لقد شعرت ان اخي لم يعد معي .
« ودخلتُ قريةً رأيته . لقد ظننتُ أنها ينبغي ان تكون

رومينفيل (لماذا رومينفيل ؟) *

و كان اول شارع اجتزته مهجوراً . ومنه انتقلت الى شارع آخر .
وخلف الزاوية التي شكلها التقاء الشارعين كان رجل واقفاً بجذاء الجدار .
وقلت لهذا الرجل : ما هذا الاقليم ؟ اين انا ؟ فلم يحب الرجل بشيء .
ورأيت باب بيتٍ ينفتح . فدخلته .

و كانت الغرفة الاولى مهمة . فدخلت الثانية . وخلف باب هذه
الغرفة وجدت رجلاً واقفاً بجذاء الجدار . فسألت هذا الرجل : لمن
هذا البيت ؟ اين انا ؟ فلم يحب الرجل بشيء . كانت للبيت حديقة .
و غادرت البيت الى تلك الحديقة . كانت الحديقة مهجورة .
وخلف اول شجرة رأيت رجلاً واقفاً . فقلت لهذا الرجل : ما هذه
الحديقة ؟ اين انا ؟ فلم يحب الرجل بشيء .

و وطوّفتُ في القرية ، وادركت انها كانت مدينة . كانت
الشوارع كلها مهجورة ، وكانت الابواب كلها مفتوحة . لم يكن ثمة
كائن حيٍّ يمرّ بالشوارع ، أو يمشي في الغرف ، أو يتنزه في الحدائق .
ولكن خلف كل زاوية جدارٍ ، خلف كل باب ، خلف كل شجرة ،
كان يقف رجل معتصم بالصمت . ولكن لم يكن في مبدوري ان
أرى هؤلاء الرجال الا منفردين : واحداً في كل مرة . ونظروا اليّ
فما كنت أجتاز بهم .

و غادرت المدينة ، وشرعت أمشي في الحقول .
و بعد فترة قصيرة ، التفتّ فرأيت جمهرة كبيرة من الناس تلحق
بي . لقد عرفت جميع الرجال الذين رأيتهم في المدينة . كانت رؤوسهم
غريبة . لقد بدا وكأنهم لا يسرعون ، ومع ذلك فقد ساروا بأسرع
بما سرت . ولم يُجدّثوا في سيرهم صوتاً ما . وما هي الا لحظة حتى
أدركتني هذه الجمهرة وأحاطت بي . كانت وجوه هؤلاء الرجال بلون

* هذه الملاحظة المقيّدة بهلاين هي بخط جان فالجان .

التراب .

« ثم إن الرجل الأول الذي سبق أن رأيته وسأله لدن دخولي المدينة قال لي : الى اين انت ذاهب ؟ ألا تدري انك مِيت منذ عهد طويل ؟
« وقتحت في لأجيب ، وأدركت انه لم يكن ثمة أحد من حولي . »

واستيقظ . كان مثلوجاً . وكانت ريع باردة كريح الصباح قد جعلت أطرُ النافذة ، التي ما تزال مفتوحة ، تدور على رزاتها . كانت النار قد خمدت ، وكانت الشمعة قد اوشكت ان تلفظ آخر انفاسها وكان الليل لا يزال حالكاً .

ونفض ، ومضى الى النافذة . كانت السماء لا تزال عاطلة عن النجوم . ومن نافذته ، كان في ميسور المرء ان يطلّ على فناء البيت وعلى الشارع . وانبعثت من جانب الارض ضجة مجلجلة تؤذي الاذن ، فنفض بصره .

لقد رأى نخته كوكبين احمرين كانت اشعتهما تترافق جيئة وذهوباً ، على نحو عجيب ، في الظلام .
كان عقله ما يزال نصف مغيب في ضباب هواجسه . وقال في ذات نفسه :

« اجل ! ليس ثمة شيء منها في السماء . إنما على الارض الآن . »
بيد أن هذا الاختلاط ما لست ان تبدّد . وايقظته ضجة أخرى شبيهة بالأولى بإيقاظاً كاملاً . ونظر ، فرأى ان هذين الكوكبين كانا مصباحي عربة . وعلى هدي الضوء الذي انبعث منها كان في ميسوره ان يتبين شكل عربة . كانت عربة مكشوفة يحرها جواد صغير أبيض . وكانت الضجة التي سمعها هي وقع حوافر الجواد على حصباء الطريق .

وقال في ذات نفسه :

- « ايّ عربية هذه ؟ ومن الذي وفد فيها في مثل هذه الساعة المبكرة من الصباح ؟ »

وفي تلك اللحظة قُرع باب غرفته قرعاً خفيفاً .
وارتعد من قمة رأسه الى اخمص قدميه . وصاح في صوت فظيع :

- « مَنْ هناك ؟ »

واجابه شخص ما :

- « انا يا سيدي العمدة . »

وتبيّن صوت المرأة العجوز ، صوت بوابته .
وقال :

- « حسن ، وماذا تريدن ؟ »

- « سيدي العمدة ، إنها الساعة الخامسة على وجه الضبط . »

- « وماذا يعني ذلك ؟ »

- « سيدي العمدة ، إنها العربية . »

- « أية عربية ؟ »

- « العربية المكشوفة . »

- « أية عربية مكشوفة ؟ »

- « ألم يطلب سيدي العمدة ان توافيه الى هنا عربية مكشوفة ؟ »

فقال :

- « لا . »

- « يقول السائق إنه جاء نزولاً عند إرادتك . »

- « ايّ سائق هذا ؟ »

- « إنه سائق مسيو سكوفليير . »

- « سائق مسيو سكوفليير ؟ »

وأجفله هذا الاسم ، فكان يرفأ أومض أمام وجهه .

وقال :

- « آه ، نعم ! مسيو سكوفليو . »

ولو قد كان في امكان المرأة المعجوز ان تراه في تلك اللحظة اذنت لعصف بها الذعر .

وران صمت طويل . وتأمل لهبَ الشمعة ، في انطباعة بلهاء ، واخذ بعض الشمع المحرق من حول القليل وأداره بين اصابعه . وانتظرت المرأة المعجوز ، ومع ذلك فقد غامرت فرفعت الصوت مرةً اخرى :

- « سيدي العمدة ، بمَ ينبغي ان أجيب ؟ »

- « قولي ان ذلك حسن ، وإني أهبط السلم . »

٥

عصيّ في الدواليب

كان البريد من آراس الى مونتروي سور مير لا يزال يجري ، في ذلك العصر ، بمركبات بريديّة ترقى الى عهد الامبراطورية . وكانت هذه المركبات البريديّة عربات خفيفة ذات درلايين ، تُفرش داخلها بجلد أصهب ، وزوّدت بنوابض ذات مفاصل ، وليس فيها غير مقعدين اثنين احدهما للسائق ، والآخر للسافر . وكانت الدواليب ملحة بتلك المحاوو الطويلة المشاكسة التي تختلف العربات الاخرى وراءها ، والتي لا تزال تُرى على طرق ألمانيا . وكانت الرسائل تُحمل في صندوق مستطيل ضخّم قائم خلف العربّة الخفيفة ، فهو يؤلف جزءاً منها . وكانت هذا الصندوق مدهوناً باللون الاسود ، على حين كانت العربّة مدهونة باللون الاصفر .

وكانت هذه العربات ، التي لا يشبهها اليوم شيء ، شائبة حديداء ،

فاذا ما رآها المرء من مسافة بعيدة راحفة فوق طريق ما عند الافق خالها تلك الحشرات التي يدعونها الأرضة ، في ما الظن ، والتي تسحب بأجسادها الهزيلة قطاراً طويلاً يمتد خلفها . بيد انما كانت تنطلق في سرعة بالغة . كانت مركبة البريد التي تغادر آراس كل ليلة ، في الساعة الواحدة ، بعد تسليم البريد الوارد من باريس ، تبلغ مونتروي سور مير قبل الساعة الخامسة صباحاً بقليل .

وتلك الليلة اصطدمت مركبة البريد الهابطة الى مونتروي سور مير ، من طريق هدين ، لحظة دخولها الى المدينة ، عند احد المنعطقات ، بعربة مكشوفة صغيرة شدة اليها جواد ايض . كانت تلك العربة تنطلق في اتجاه معاكس ، ولم يكن فيها غير شخص واحد ، رجل متلفع برداء فضاض . واصيبت عجلنا العربة المكشوفة بصدمة قاسية . وصاح سائق مركبة البريد طالباً من الرجل ان يقف ، ولكن المسافر لم يصغ لكلامه ، وواصل انطلاقه في سرعة عظيمة . وقال سائق مركبة البريد :

- « هوذا رجل متعجل الى حد شيطاني ! »

وكان الرجل المنطلق هكذا على عجل هو ذلك الذي شهدناه يناضل في غمرة من القلق العنيف المثير للشفقة .

الى اين كان ذاهباً ؟ إنه ما كان قادراً على ان يجيب . لماذا كان ينطلق في سرعة ؟ لم يكن يدري . كان يندفع الى امام ، كيفما اتفق . الى اين ؟ الى آراس ، من غير ريب . ولكن لعله كان ذاهباً الى مكان آخر ايضاً . وفي بعض اللحظات ، استشعر ذلك ، فارتعدت اوصاله . لقد غاص في تلك الظلمة وكأنه يغوص في لجة فاعرة فاهما . كان شيء يستحسه ، كان شيء يجذبه . ما الذي كان يعتل في ذات نفسه ؟ ذلك ما لا يستطيع احد ان يصفه ، وذلك ما يفهمه كل انسان . فمن ذا الذي لم يدخل ، ولو مرة واحدة في حياته ، في كهف الجهول المظلم هذا ؟ ولكنه لم يعترض شيئاً ، لم يقرر شيئاً ، لم يُبزم شيئاً ، لم يفعل

شيئاً . إن ايأاً من أفعال ضميره لم يكن نهائياً . كان ، أكثر من ايأاً وقت مضى ، عند نقطة الابتداء .

لم كان ذاهباً الى آراس ؟

وكرر ما سبق ان قاله لنفسه حين حجز عربة سكوفليو ذات العجلتين من انه - مهما تكن النتيجة - فليس ثمة بأس في ان يرى بعينه ؛ وان يحاكم الاشياء بنفسه ؛ وان ذلك نفسه عملٌ حفيف ؛ وأن عليه ان يعرف ما الذي يجري ؛ وانه ليس في ميسوره ان يقرر شيئاً من غير ان يلاحظ ويبحث ؛ وان الامر للضئيل يبدو ، على البعد ، اشبه بالجبل الكبير ؛ وان ضميره قد يطعن على كل حال ، اذا ما رأى الى شائغتيه هذا ، وهو بانس من البائسين ، اطمئناناً كبيراً فيرتضي ان يتوك هذا الرجل يمضي الى سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة مكانه ؛ وان بما لا ريب فيه ان جافير سوف يكون هناك ؛ وان بروقه هذا ، وشونيلدو هذا وكوشباي هذا ، وهم من تزلأ سجن الاشغال الشاقة القدماء ، سوف يكونون هناك ايضاً ؛ ولكنهم لن يتعرفوه من غير شك . هراء ! بالها من فكرة ! وأن جافير كان على بعد مئة فرسخ عن الحقيقة ؛ وان جميع الظنون والافتراضات منصبة على شائغتيه هذا ؛ وانه لم يكن ثمة ، اذن ، خطرٌ على الاطلاق .

واضاف قائلاً لنفسه انها ساعة قائمة من غير ريب ، ولكنه يجب أن يجنازها ؛ وانه على أية حال يملك قدره - مهما يكن شيئاً - بيده ؛ وأنه هو سيد هذا القدر . وتثبتت بهذه الفكرة .

ولكي نقول كل شيء ، ننصّ هنا على أنه كان ، في أعمق اعماقه ، يؤثّر ان لا يذهب الى آراس .

ومع ذلك ، فقد كان في طريقه اليها .

وعلى الرغم من استغراقه في التفكير ، فقد ألهم بسوطة الجواد ، الذي كان ينهب الارض في ذلك الحب النظامي ، الثبت ، الكامل ، الذي يجناز فرسخين ونصف في الساعة الواحدة .

وكلما اندفعت العربية المكشوفة الى أمام ، استشعر في ذات نفسه شيئاً يرتدّ الى وراء .

وعند الفجر بلغ الارضَ الفضاء . كانت مدينة مونثروي سور مير قد خلّفت وراءه على مسافة بعيدة . ورأى الى الافق يشرق . وبَصُرَ - ولكن من غير ان يراها - بجميع صور الضحى الشتويّ الباردة تمسّ أمام عينيه . إن للصباح أشباحه ، مثل الليل . انه لم يرها . ولكن على غير وعي منه ، وفي ضرب من النفاذ يكاد يكون هادياً ، أضافت ظلال الاشجار والتلال السوداء تلك الى وضعه النفسيّ المضطرب شيئاً لست أدريه ، شيئاً كالحلم مثووماً .

وكلما اجتاز بواحد من تلك المنازل المنعزلة القاطنة هنا وهناك على جانب الطريق ، قال في ذات نفسه :

— « ولكنّ في داخل هذا المنزل اناساً نائمين ! »

وكانه خيب الجواد ، وجلجلة جهازه ، ودووان العجلتين على حصاء الطريق تحدث صوتاً رقيقاً رتيباً . إن هذه الاشياء لتكون فائدة حين يكون المرء مبتهجاً ، وفاجعة حين يكون محزوناً .

كان النور غامراً حين انتهى الى مَسَدَيْن . ووقف أمام احد الحانات لكي يدع جواده يتنفس ، ولكي يعمل على ترويده بشيء من الشوفان . وكان هذا الجواد ، كما ذكر سكوفليور من قبل ، من سلالة جياد « يولونيه » الصغيرة ، فهو ذو رأس كبير اكثر مما ينبغي ، وبطن ضخم اكثر مما ينبغي ، وعنق قصيرة ، ولكنه ذو صدو عريض ، وكفل ضخم ، وقائمة مهزولة وقيقة ، وقدم ثابتة . سلالة بشعة ولكنها قوية سليمة . كان الجواد المناو قد اجتاز خمسة فراسخ في ساعتين ولم تعُلْ مؤخرته قطرة واحدة من العرق .

ولم يغادر العربية المكشوفة . وفجأةً انحنى خادم الحان الذي حمل الشوفان ، وأنشأ يفحص الدولاب الأيسر .

وقال هذا الرجل :

— « هل اجتزت مرحلة واسعة على هذا النحو ؟ »

فأجاب ، وهو ما يكاد يقطع حبل تفكيره :

— « لماذا ؟ »

فقال الخادم :

— « هل أقبلت من مكان بعيد ؟ »

— « من نقطة تبعد خمسة فراسخ عن هذا المكان . »

— « آه ! »

— « لماذا تقول : آه ؟ »

وانحنى الخادم كرة أخرى . واعتصم بالصمت لحظةً ، مستمراً بصره

على الدولاب ، ثم انتصب قائلاً :

— « من الممكن ان يفكر المرء ان هذا الدولاب قد فرغ اللحظة

من اجتياز خمسة فراسخ . ولكن من الثابت انه لن يستطيع اجتياز

ربع فرسخ بعد الآن . »

ووثب من العربة الى الارض .

— « ماذا تقول ، يا صديقي ؟ »

-- « اقول إنها لمعجزة ان تكون قد اجتزت خمسة فراسخ من غير

ان تسقط أنت وجوادك في حفرة ما ، على الطريق . من الخير لك

ان تلزم الحذر . »

كان اذئذٍ بالغٌ قد اصاب الدولاب حقاً . ذلك بأن الاصطدام

بمركبة البريد كان قد كسر اثنين من انصاف محاوره ، وحلّ وثاق

المركز ، فليس في وسع ثقب اللولب ان يُمسكه بعد .

وقال مخاطباً خادم الاصطبل :

— « ايها الصديق ، الا يوجد صانع عجلات هنا ؟ »

— « من غير شك ، يا سيدي . »

- « تكررتم عليّ باستدعائه . »
- « إنه هنا ، عليّ بُعد خطوتين . هاي ! ايها المعلم بورغابار ! »
وكان المعلم بورغابار ، صانع العجلات ، واقفاً على عتبة دكانه . فاقبل
وفحص العجلة ، وغضن وجهه كما يغضن الجراح وجهه عند رؤيته رجلاً
مكسوة .

- « هل تستطيع ان تصلح هذه العجلة ، في الحال ؟ »
- « نعم يا سيدي . »
- « متى تستطيع ان استأنف الانطلاق ؟ »
- « غداً . »
- « غداً ! »
- « ان إصلاحها يقتضي عمل يوم بكامله . هل أنت متعجل جداً يا سيدي ؟ »
- « أجل ، أنا متعجل جداً . يجب ان انطلق بعد ساعة ،
علي الاكثر . »

- « متعيل ، يا سيدي . »
- « سوف ادفع لك ما تشاء . »
- « متعيل . »
- « حسن . بعد ساعتين . »
- « ذلك متعيل ، اليوم . يجب ان أصلح اثنين من انصاف
المهاور ، ومركز الدولار . إن سيدي لا يستطيع ان يستأنف السير
قبل غد . »

- « إن مهمتي لا تستطيع ان تنتظر حتى الغد . اليس في إمكاننا
ان نستعيز عن هذا الدولار بغيره ، بدلاً من ان نصلحه ؟ »
- « كيف ذلك ؟ »
- « انت صانع عجلات ؟ »
- « من غير شك ، يا سيدي . »

- « ليس عندك دولاب تيعني اياه ؟ عندئذ يكون في ميسوري
أن انطلق في الحال . »

- « دولاب للاستبدال ؟ »

- « نعم . »

- « ليس عندي دولاب يلائم عربتك تماماً . انت كل دولابين
يشكلان زوجاً . وان الدولابين لا ينسجم احدهما مع الآخر كيفما
اتفق . »

- « اذا كان الامر كذلك فبعتي زوجاً من الدواليب . »

- « يا سيدي ، ليس كل الدواليب تلائم كل المحاور . »

- « ولكن جرّب . »

- « لا فائدة ، يا سيدي . ليس عندي ما ابيعه غير دواليب
عربات ائقال . نحن نعيش هنا في منطقة صغيرة . »

- « هل عندك عربية ذات دولابين تعبرني اياها ؟ »

وكان صانع العجلات قد ادرك ، من اللعة الاولى ، ان العربات
المكشوفة كانت عربية مستأجرة . فبرز كتفيه .

- « انت ثعنى عناية حنة بالعربات التي تستأجرها ا واني خليق بان
احتفظ باحداها فترة طويلة قبل ان أعيرك اياها . »

- « حسن ، يعني اياها . »

- « ليس عندي واحدة . »

- « ماذا ؟ حتى ولا عجيئة ذات غطاء ؟ أنا لست متعنتاً ،

كما ترى . »

- « نحن هنا نعيش في بلد صغير . » قال صانع العجلات ذلك ، ثم

اضاف : « ولكن عندي ، تحت السقفة العتيقة هناك ، عربية قديمة

مكشوفة ذات اربع عجلات هي ملك لمواطن من مواطني المدينة

عهد الي في حفظها ، مواطن يستعملها في التاسع والعشرين من شباط

دائماً . سوف اعيرك اياها . إنها ليست لي طبعاً . ويجب ان لا يراها
المواطن تجري . والى هذا ، فهي عربة مكشوفة ذات اربع عجلات ،
وهي تحتاج الى جوادين .

- سوف آخذ جوادين من جياذ البريد .

- الى اين يقصد سيدي ؟

- الى آراس .

- ويريد سيدي ان يصل الى هناك اليوم ؟

- أجل .

- بأن تأخذ جياذ البريد ؟

- ولم لا ؟

- هل يرضى سيدي بأن يصل هذه الليلة في الساعة الرابعة
صباحاً ؟

- لا ، طبعاً .

- اعني ، كما ترى ، ان هناك شيئاً ينبغي ان يقال في ما يتعلق

بأخذ جياذ للبريد ... هل يحمل سيدي جوازه ؟

- نعم .

حسن . اذا اخذ سيدي جياذ البريد فإنه لن يصل الى آراس

قبل غد . نحن هنا مفرق طرق . إن المحطات لا تستخدم الا خدمة وديئة ،

والحيل في الحقول . لقد بدأ موسم الحراثة منذ ايام ، والحاجة ماسة

الى كثير من الدواب المقرونة . والجياذ تؤخذ من كل مكان ، ومن

مراكز البريد ايضاً . وسوف يتعين على سيدي ان ينتظر ثلاث ساعات

او اربع ساعات ، على الاقل ، في كل محطة . وفوق هذا ، فأنت

على المرء ان يثني على قدميه . ان هناك كثيراً من الهضاب يجب ان

تورقى .

- حسن ، سوف أنطلق على صهوة الجواد . لحلّ وثاق الفرس

وافضل ما بينه وبين العربية . في استطاعة شخص ما في هذا المكان ان
يسمعي سرجاً ، من غير شك .

- « طبعاً . ولكن هل يحتمل هذا الجواد السرج ؟ »

- « صحيح . لقد نسبت ذلك . انه ان يحتمله . »

- « واذن ... »

- « ولكنني سوف اجد في القرية ، من غير شك ، جواداً

أستأجره . »

- « جواداً يذهب الى آراس في انطلاقة واحدة ؟ »

- « نعم . »

- « ينبغي ان يكون ذلك جواداً ليس في منطقتنا نظيره . ويجب ان

تشتريه قبل كل شيء ، لأن احداً لا يعرفك هنا . ولكنك لن تجد

مثل هذا الجواد ، سواء للشراء ام للاستعارة ، وسواء أدفعت فيه

خمسة فرنك او دفعت فيه الف فرنك . »

- « ماذا يجب أن أعمل ؟ »

- « خير ما تعمله ، كرجل ذي ادراك ، هو ان أصلح الدولاب ،

وان تستأنف رحلتك غداً . »

- « غداً يفوت الاوان . »

- « لعنها الله ! »

- « أليس ثمة مركبة بريـد قاصدة الى آراس ؟ متى تصل

الى هنا ؟ »

- « الليلة . كلتا المركبتين تقوم بالرحلة ليلاً . مركبة البريد الصاعدة

ومركبة البريد الهابطة . »

- « كيف ! أو تحتاج الى يوم كامل لاصلاح هذا الدولاب ؟ »

- « يوم كامل ، بل يوم طويل ! »

- « ولو جرّدت عاملين لاصلاحه ؟ »

- « ولو جرّدت عشرة عمال . »
 — « واذا شددت انصاف المحاور بالحبال ؟ »
 — « انصاف المحاور يستطيع ان اشدها بالحبال . أما مركز الدولار فلا . ثم إن إطار الدولار الحديدي في حال غير حسنة ، ايضاً . »
 — « أليس في المدينة مؤجّر عربات ؟ »
 — « لا . »
 — « ألا يوجد فيها صانع عجلات آخر ؟ »
 وأجاب خادم الاصطبل وصانع العجلات في آن معاً ، وبهزة من رأسها :
 — « لا . »

واستشعر بهجة غامرة .

كان واضحاً ان العناية الالهية تدخلت في الامر . إنها هي التي كسرت دولار العربية المكشوفة ، وصدّته عن سبيله . وهو لم يستلم لذلك لأول وهلة ؛ بل بذل كل جهد ممكن لاكمال رحلته . لقد استنفد ، في اخلاص وتدفيق ، جميع الوسائل . وهو لم يتراجع لا في وجه الشتاء ، ولا في وجه التعب ، ولا في وجه النفقات ؛ وليس ثمة ما يؤنب نفسه من اجله . واذا لم يستطع ان يذهب الى أبعد من هذا فليس ذلك من شأنه . الذنب لم يعد ذنبه . إن ذلك لم يكن من عمل ضميره . ولكن من عمل العناية الالهية .

وتنفس . تنفس في حرية وبإل الصدر للمرة الاولى منذ زيارة جافير . لقد بدا له ان اليد الحديدية التي اعتصرت فؤاده طوال عشرين ساعة قد تراخت .

لقد تراءى له ان الله كان في جانبه الآن ؛ كان في جانبه على نحو جبلي .

وقال في ذات نفسه إنه فعل كل ما في وسعه ان يفعله ، وأنه لم

يبقى عليه الآن الا ان يرتدّ على آثاره ، في هدوء .

ولو ان حديثه مع صانع العجلات جرى في احدى غرف الخان اذن
لا شهده احد ، ولما سمعه امرؤ على الاطلاق ، واذن لظلّ هناك ،
ولكان من المحتمل ان لا تُضطر الى رواية اى من الاحداث التي سوف
نقرأ نأها بعد . ولكن ذلك الحديث جرى في الشارع . وخلق بكل
محاوره في الشارع ان تنشيء حتماً حلقةً من الناس . فهناك دائماً
قوم لا يطلبون اكثر من ان يكونوا نظارة . ففيما كان يجاور صانع
العجلات تحلّق حولهما نفر من القادين والراجلين . وبعد ان استمع احد
الغلمان الصغار الى الحديث الدائر بضع دقائق - ولم يكن احد قد انتبه
اليه - انفصل عن الحشد واطلق ساقيه للريح .

وفي اللحظة التي وطن فيها المسافر عزمه - بعد المذاكرة الباطنية
التي اشرنا اليها - على ان يرجع من حيث اتى ، عاد هذا الغلام الصغير ،
تصبّه امرأة عجوز .

وقالت المرأة :

- « سيدي ، يقول لي ولدي انك راغب في استئجار عربية ذات
دولابين . »

وكان في هذا الكلام البسيط ، تنطق به امرأة عجوز قادها الى هناك
غلام صغير ، ما جعل العرق يتصبب من ظهره . لقد خيّل اليه انه
رأى اليد التي تحرّر منها اللحظة تعاود الظهور ، خلفه في الظلّ ، وهي
على اتم الاستعداد لأن تقبض عليه من جديد .

واجاب :

- « أجل ، ايّها المرأة الطيبة ، أنا أبحث عن عربية ذات دولابين
أستأجرها . »

ثم سارع الى القول مضيقاً :

- « ولكن ليس ثمة واحدة في هذه المنطقة . »

فقلت المعجوز :

- « اجل . هناك واحدة . »

فتدخل صانع العجلات قائلاً :

- « اين هي اذن ؟ »

فأجابت المعجوز :

- « في بيتي . »

وارتعدت اوصاله . كانت اليد المشؤومة قد اطبقت عليه كرة اخرى .
وكان لتلك المرأة المعجوز ، في الواقع ، ضربٌ من عُجَيْلَةٍ ذات
غطاء مصنوعة من خيزران ، وكانت قائمة تحت سقفة ما . وتدخل
الحداد وخادم الخان ، وقد اغضبها ان يفلت المسافر من بين ايديها :
- « انها عربية ودينة غنية . - إنها خالية من النوايض . - صحيح
ان المقعد قد عُلق في الداخل بسيور جلدية . - إن المطر ينفذ
اليها . - إن دواليبها صدئة ثلثتها الرطوبة . - انها لا تستطيع ان
تذهب الى أبعد بكثير من العربية المكشوفة . - إنها عربية سخيفة حقاً -
وان هذا السيد ليخطيء اعظم الخطأ اذا امتطاها . » الخ . الخ .
كل ذلك كان صحيحاً . ولكن هذه العربية الرديئة ، هذه العربية
السخيفة ، هذا الشيء ، كائناً ما كان ، كانت تجري على دولابين ، وكان
في استطاعتها ان تذهب الى آراس .

ودفع ما سُئل ان يدفعه ، وعهد الى صانع العجلات في إصلاح
العربية المكشوفة على ان يستلمها حين يعود ، وقرن الجواد الابيض الى
العُجَيْلَةِ ذات الغطاء ، وامطى متنها ، واستأنف السير في الطريق التي
سلكها منذ الصباح .

ولم تكد العجيلة تنطلق به حتى اعترف بأنه استشعر ، قبل لحظة ،
ابتهاجاً ما لدن خطر له انه لن يذهب بعد الى حيث كان ذاهباً .
وفحص ذلك الابتهاج في ضرب من الغضب ، فوجد أنه احمق . ولماذا

يستثمر الفرح اذا ارتدت على عقبه ؟ وعلى اية حال ، فهو يقوم بهذه
الرحلة بطَوْعِهِ . إن احداً لم يُكرهه عليها .
ولا ريب في ان شيئاً ما لن يقع إلا اذا اراد هو ان يقع .
وفيما هو يغادر هدين ، سمع صوتاً يصيح :
- « قف ! قف ! »

واوقف العُجَيْلَةَ بحركة عجيلى كان لا يزال فيها شيء لا أدريه من الحتمي
والتشجيع هو اقرب ما يكون الى الأمل .
وكان الصائح غلام المرأة المعجوز .
وقال :

- « سيدي ، اني أنا الذي جئتك بالعجيلة . »
- « ثم ماذا ؟ »
- « إنك لم تعطيني شيئاً . »

واستثمر - وهو الذي كان يعطي الجميع ، ويعطيهم في كثير من
السواء - أن هذا المطلب مغالى فيه ، وأنه يكاد يكون بغيضاً .
وقال :

- « آه ، أنت الذي جئت بها ، أيها الشعاذ ! انك لن تنال
شيئاً ! »

وألمب الجواد بالسوط ، واستأنف انطلاقه في خبيبٍ خاطف .
كان قد أضع كثيراً من الوقت في هدين ، وكان يريد ان يعوّض
ما أضعه . وكان هذا الجواد الصغير بأسلاً ، وكان يجر العجيلة بقوة
فرسين اثنين . ولكنّ الناس كانوا في شهر شباط ، وكان المطر قد
هطل ، وكانت الطرق رديئة . وفوق هذا فلم يعد هو على متن عربته
الأولى . كانت العجيلة تقضي في عسر ، وكانت ثقيلة جداً . وإلى هذا
فقد كانت ثمة مرتفعات شديدة الانحدار .

واقتضاء الانتقال من هدين الى سان بول أربع ساعات . أربع

ساعات لكي يجناز خمسة فراسخ .
وفي سان بول تقدّم الى أول خان ، وقاد الجواد الى الاصطبل ،
بعد ان فصله عن العُجيلة . وكما وعد سكوفلير ، وقف قرب المعلق
بينما كان الجواد يتناول طعامه . كان يفكر في أشياء محزونة مشوّشة .
ووفدت زوجة صاحب الخان الى الاصطبل .

— « الا يريد سيدي أن يتناول طعام الصباح ؟ »
فقال :

— « ولكنّ ، هذا صحيح . إن لي شهية حنة ايضاً . »
وتبع هذه المرأة ، وكانت ذات وجه كَظَر طروب . وقادته الى
قاعة منخفضة حيث كانت بضع طاولات مغطاة بقماش مشمع .
وقال :

— « عجلي . يجب أن استأنف السير . أنا مستعجل . »
وسارعت خادم فلنكية ضخمة الى إعداد المائدة له . ونظر الى هذه
الفتاة وقد داخلته الارتياح .
وفكّر فيما بينه وبين نفسه :

— « ذلك ما أوجعني . أنا لم اتناول طعام الصباح . »
كان فطوره قد أُعِدَّ . فانقضَّ على الرغيف ، ونهش قطعة منه ، ثم
أعاده في تريدة الى الطاولة ، ولم يمسه بعد ذلك قط .

وكان سائق عربات يتناول الطعام على طاولة اخرى . فقال لهذا الرجل :

— « ما الذي يجعل خبزهم مريئاً الى هذا الحد ؟ »

وكان سائق العربات ألمانياً ، فلم يفهم كلامه .

ورجع الى الاصطبل لكي يكون الى جانب جواده .

وبعد ساعة ، كان قد غادر سان بول ، واتجه نحو « تانك » التي لا
تبعد عن آواس غير خمسة فراسخ .

ما الذي كان يعمل اثناء هذه الرحلة ؟ لم كان يفكر ؟ لقد رأى

الى الاشجار تمرّ به ، شأنه في الصباح ، والى السطوح المبنية من طين وقش ، والى الحقول المروثة ، والى مشاهد الريف الذائب بعضها في بعض ، والمتغيرة عند كل منعطف من منعطفات الطريق . ومثل هذه المشاهد تشبع النفس في بعض الاحيان ، وتكاد ان تطرد التفكير . واي شيء يمكن ان يكون اشدّ كآبة وأعمق حسرة من رؤية الف شيء للمرة الاولى وللمرة الاخيرة ؟ وغير بعيد ان يكون قد عقد ، في أحلك جزء من عقله ، مقارنة بين هذه الآفاق المتغيرة وبين الوجود الانساني . إن حقائق الحياة كلها لا تقفأ تفرّ من وجهنا على نحو موصول . وإن الظلمات والنور لتتداخل وتتأزج . فبعد الجهر * الكسوف . إننا ننظر ، إننا نستعمل ؛ إننا نعدّ ايدينا لنمسك بالذي يحدث ؛ إن كل حادثة هي منعطف من منعطفات الطريق ؛ وفجأة ننتهي الى الشيفوخة . نحن نشعر صدمة طفيفة ، فاذا كل شيء اسود ، واذا بنا تقيّنين باباً مظلماً . ويقف جواد الحياة القاتم هذا الذي كان يُقلّتنا ، ونرى شعماً محبباً مجهولاً يُطلقه في الظلمات .

وهبط الفسق لحظة شاهد الاطفال المنصرفون من المدرسة هذا المسافر يدخل الى تانك . صحيح أن النهار كان ما يزال قصيراً . ولم يقف في تانك . وفيها هو ينطلق خارجاً من القرية رفع ريفي كان يصلح الطريق رأسه وقال :

- « ان جوادك متعب جداً . »

كانت البهية ، في الواقع ، تعدو عدواً هو الى المشي أقرب . واضاف الريفى :

- « أذهب انت الى آراس ؟ »

- « نعم . »

* تجبرت العين : لم نمر في الشمس .

« اذا ذهبت بهذا البطء فلن تصل باكراً . »
ووقف فرسةً وسأل الريفي :

« ما المسافة التي تفصل آراس عن هذا المكان ؟ »

« سبعة فراسخ طويلة ، تقريباً . »

« كيف ذاك ؟ إن كتاب البريد لا يشير الى اكثر من خمسة

فراسخ وربع . »

فأجابه الريفي :

« آه ! اذن ، فانت لا تعرف ان الطريق قيد الاصلاح ؟

سوف نجدها منقطعة بعد مسيرة ربع ساعة من هنا . وليس ثمة وسيلة

للذهاب الى ابعد من ذلك . »

« حقاً ؟ »

« سوف تتعطف نحو الشمال ، ونسلك الطريق التي تقود الى

كارانسي ، ثم تعبر النهر . وبعد أن تصل الى كامبلين تتعطف نحو

السين ؛ تلك هي طريق مون - سان - إيلوا التي تقود الى آراس . »

« ولكن الليل قد هبط . ولسوف اضلّ سبيلي . »

« ألت من ابناء هذه المنطقة ؟ »

« لا . »

« والى ذلك ، فهذه كلها طرق ضيقة اكثر مباشرةً من الطريق

العامة . »

قال الريفي هذا ثم اضاف :

« إسمع ، يا سيدي . اريد ان اقدم اليك نصيحة ؟ إن جوادك

متعب ؛ فارجع الى ثالك . إن فيها نزلاً حسناً . ثم هناك . ولسوف

يكون في إمكانك ان تذهب الى آراس غداً . »

« ولكن يجب ان اكون هناك الليلة . »

- « هذه مسألة أخرى . اذن فارجع على اية حال الى الحان وخذ جواداً إضافياً . وفي ميسور الغلام الذي سينطلق مع الجواد ان يديك سبيلك عبر الطرق الضيقة . »

وعمل بنصيحة الريني ، فارتدّ على آثاره ، وبعد نصف ساعة كان يجتاز بالمكان نفسه ، ولكن في خبيب تامّ ، ومع جواد إضافي جيد . وكان غلام من غلمان الاصطبلات ، دعا نفسه مائق عربات ، قد جلس على سائق العربة .

ومع ذلك ، فقد استشعر أنه يضيع كثيراً من الوقت . كان الظلام قد امسى حالكاً .

وانتهيا الى احدى السبل الضيقة . وغدت الطريق مروعة . ومقطت العُجبة في ثلم إثر ثلم . وقال للسائق :

- « إلزم الحُجب اضعف لك العطاء . »

وإثر احدى الرجات ، انكسرت قطعة الحُشب الامامية المعلق بها سَيْرُ الجرّة .

وقال سائق العربة :

- « سيدي ، لقد انكسرت قطعة الحُشب الامامية ، ولست ادري كيف أقرن جوادي الآن . وهذه الطريق رديئة جداً في الليل ، فاذا رغبتَ في ان ترجع الى ثالك وتبيت فيها فعندئذ يكون في إمكاننا أن نصل الى آراس في ساعة مبكرة من صباح غد . »
فأجابه قائلاً :

- « هل عندك قطعة من حبل وسكين ؟ »

- « نعم ، يا سيدي . »

وقطع غصن شجرة واستعاض به عن الاداة الخشبية المكسورة . وهكذا ضاعت عشرون دقيقة أيضاً . ولكنها ما لبثا ان انطلقا

خياً .

كان السهل مظلماً . وكان ضباب منخفض ، أسود كثيف ، يوحف فوق الهضاب ، ويطفو متلاشياً كال دخان . وانبثق من السحاب وميض ضئيل . وملأت ربيعٌ عذبة مقلبة من جانب البحر أرجاء الاقن كله بصوت شبه ما يكون بذلك الذي يحده شخصٌ يجرّك بعض الاثاث . ورائت سباً الذعر على كل ما لحته عيناه . عجباً ، كيف ترتعد جميع الاشياء تحت انفاس الليل القضيعة !

وعصف به البرد . إنه لم يأكل شيئاً منذ الليلة البارحة . واسترجع ، على نحو غامض ، ذكرى مسيره الليلي الآخر في ذلك السهل الواسع المنبسط قرب د ... كان ذلك منذ ثمانية أعوام ، ولقد بدا له وكأنه لم يكن إلا أمس .

ودق جرس ساعة بعيدة . فسأل الغلام :

« كم الساعة الآن ؟ »

« الساعة ، يا سيدي . وسوف تبلغ آراس في الساعة الثامنة .

لم يبق أمامنا غير ثلاثة فراسخ . »

وفي تلك اللحظة خطر له لأول مرة - ولقد بدا عجبياً في نظره أن لا يفكر في ذلك من قبل - أن كل العناء الذي يتجشبه قد يكون غير ذي غناء ، وأنه ما كان يعرف حتى موعد الهلكة ، وأنه كان من واجبه ان يستعلم عن ذلك على الاقل ، وان من البلاهة ان ينطلق في مثل هذه السرعة من غير ان يعرف ما اذا كان لذلك فائدة ما . ثم تمثّل في ذهنه بعض الاعتبارات : ان جلسات محاكم الجنايات تستمل عادة في الساعة التاسعة صباحاً ، وان هذه الدعوى لن تستغرق وقتاً طويلاً ، وان سرقة التفاح هذه سوف تكون موجزة جداً ، وان المسألة كلها سوف تكون مسألة تحقيق الهوية ، وأنه لن يكون ثمة غير أربعة

شهود أو خمسة وشيء من الكلام قليل يقوله الحمامون ؛ وانه قد يصل
الى هناك بعد ان ينتهي كل شيء !
والهيب السائق الجوادين بسوطه . كانا قد عبرا النهر ، وخلقنا مون
- مان - ايلي وراءهما .
واحلوك اقل اكثر فأكثر .

انتهى الجزء الثالث
ويليه الجزء الرابع وبه يتم المجلد الاول
من البؤساء

البؤساء

لشاعر فرنسة العظيم
فيكتور هيجو

٤

نقله إلى العربية
مُنِير العَبَّاسِي

دار العلم للملايين
بيروت

LES MISÉRABLES

Par

Victor Hugo

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

أيسار (مايو) ١٩٥٥

الاخت سيمبليس تجرّب

وفي غضون ذلك ، في تلك اللحظة بالذات ، كانت فانتين في جدّال . كانت قد قضت ليلة سيئة جداً . سعالٌ مروع ، وحُمى متضاعفة ، واحلام مزعجة . وفي الصباح ، حين أقبل الطبيب ، كانت تهذي . كان قلقاً ، وكان قد طلب ان يحاط علماً بمجيء ميو مادلين حالما يتم ذلك . كانت طوال الصباح مفتحة كئيبة . انها لم تتكلم إلا قليلاً ، ولقد راحت تثني غطاء سريرها متمسة ، في صوت منخفض ، ببعض الحسابات التي بدت اشبه ما تكون بحساب المسافات . كانت عيناها غائرتين مغمورتين . ولقد تراءتا كأن النور كاد يفارقهما ، ولكنها كانتا تلتصمان ، في بعض اللحظات ، وتوهجان ، وكأنهما كوكبان . لكأنّ ضياء السماء يملأ — عند اقتراب ساعة مظلمة ما — اولئك الذين يغادرون ضياء الارض .

وكلما سألتها الاخت سيمبليس عن حالها كانت تجيبها جواباً لا يتغير .

— هـ بخير . اريد ان ارى ميو مادلين . هـ

قبل بضعة اشهر ، حين فقدت البقية الباقية من حشمتها ، البقية الباقية من حياتها ، البقية الباقية من سعادتها ، كانت خيال نفسها . اما الآن فقد أمت شبح نفسها . كان الألم الجدي قد أتم عمل الألم المعنوي . فاذا بهذه الخلقة البالغ عمرها خمسة وعشرين ربيعاً ذات جبين متجمد ، وخدين متوهلين ، ومنخرين مقروصين ، ولثة متقلصة ، وبشرة

ورصاصة ، وعنق عظيمة ، وتوتوتان * فانتتان ، واوصال مهزولة ،
وجلد ترابيّ شاحب ، وشعر وخطه المشيب . وأسفاه ! كيف يرعجل
المرضُ الشيخوخة !

وعند الظهيرة ، اقبل الطيب كرة اخرى ، وترك بعض الوصفات ،
وسأل عن العدة أوفدَ على المستشفى ام لا ، وهزّ رأسه .
كان من عادة مسيو مادلين ان يفد في الساعة الثالثة لـيُرى المرأة
المريضة . وإذ كانت الدقة من الرفق ، فقد كان دقيقاً في المواعيد .
وحوالي الساعة الثانية والنصف نبا الفراش بفانتين . وفي مدى عشرين
دقيقة سألت الراهبة اكثر من عشر مرات :

— د كم الساعة ، اينها الاخت ؟

وأعلنت الساعة الثالثة . ولم تكد تستكمل دقائقها حتى انتصبت فانتين
في فراشها ، وهي التي كانت لا تستطيع في العادة ان تنقلب على جنبها
إلا في عسر ، وشابكت يدها العجفاوين الصغراوين في ضمة تشجبة ،
وسمعتها الراهبة تطلق من صدرها احدى تلك الزفرات العميقة التي تبدو
وكأنها ترفع ثقلاً ثقيلاً . ثم إن فانتين التفت ونظرت الى الباب .

إن أحداً لم يدخل . إن الباب لم يفتح قط .

وقعدت هكذا طوال ربع ساعة ، مسرّة عينها على الباب ، غير
مبدية حراكاً ، وكأنها كانت تحبس أنفاسها . ولم تجرؤ الراهبة على
الكلام . واعلنت ساعة الكنيسة الثالثة والربع . وانطرحت فانتين على
وسادتها .

ولم تقل شيئاً ، وشرعت تثني غطاء فراشها من جديد .

وانقضى نصف الساعة ، ثم انقضت الساعة ، ولكن أحداً لم يأت .
وكلما دقت الساعة ، كانت فانتين تنهض ، وتنظر الى الباب ، ثم تنطرح
على فراشها ككرة اخرى .

* الترموقة : العظم الذي بين ثغرة النحر والمناق . وجها تراف .

كان في ميسور المرء ان يطلع على افكارها في وضوح ، ولكنها لم تلفظ اسماً ما . انها لم تتشك . انها لم تلم . لقد سمعت على نحو فاجع ، ليس غير . ولقد كان خليقاً بالمرء ان يزعم ان شيئاً مظلماً كان يُسِف فوقها . كان لونها أزرق ضارباً الى السواد ، وكانت شفتاهما زرقاوين . وابتسمت بين الفينة والفينة .

واعلنت الساعة الخامسة . وعندئذ سمعتها الراهبة تقول في صوت منخفض جداً ، وفي رفق :

— ولكن ما دمت انا ذاهبة غداً ، فإن من الخطأ ان لا يأتي اليوم ! ،

واستولى العجب على الاخت سيمبليس لتأخر ميسو مادلين . وفي غضون ذلك حدثت فانتين الى مظلة سريرها . لقد بدت وكأنها تحاول ان تتذكر شيئاً . وفجأة انشأت تغني في صوت واهن اشبه بالهمس . وأصفت الراهبة . كانت هذه هي الاغنية التي أنشدتها فانتين :

سوف تشتري أشياء جملة جداً ،
ونحن ننتزه في الضواحي .
ان البنفسج أزرق ، وإن الورود حمراء ،
إن البنفسج أزرق ، وأنا أحب أحبتي .

أمس وفدت مريم المذراء ،
الى فراشي في رداء موسى ،
وقالت لي : « هنا تحت حجابي ،
يختفي الطفل الذي سألتي إياه يوماً . »
أسرعي الى المدينة ، واشتري نسيجاً طلياً ،
اشتري خيوطاً ، واشتري كتباً .

سوف تشتري أشياء جملة جداً ،
ونحن ننتزه في الضواحي .

أيتها المذراء المقدسة الطيبة ، لقد وضعت

الى جانب فراشي مهداً مزينا بالصائب .
ولو ان الله اعطاني اجل كوكب من كواكبه
اذن لاحتبب الطفل الذي اعطيتني اياه اكثر .
- « سيدتي ، ما الذي أصنّه هذا النجّ القطني ؟ »
- « اصني جهازاً لمولودتي الجديدة . »

إن البنفسج ازرق ، وان الورود حمراء .
إن البنفسج ازرق ، وانا احب احبتي .

- « اغلي هذا القماش القطني . » - « اين ؟ » - « في النهر . »
اجلي منه ، من غير ان تلتفه او تلويه ،
تنورة جبلة ، تنورة طويلة جداً
اريد ان اوعيتها واملأها بالازهار .
- « إن الطفل لم يد هناك ، يا سيدتي ، فاعمل ؟ »
- « اجلي منه كفتاً أدسن به . »

سوف نشري اشياء جبلة جداً ،
ونحن نتنزه في الضواحي .
إن البنفسج ازرق ، وان الورود حمراء ،
إن البنفسج ازرق ، وانا أحب احبتي .

كانت تلك اغنية قديمة من اغاني هدهدة الاطفال تعودت في ما مضى
ان تنشدها لصغيرتها كوزيت قبيل النوم ، ولم تخطر لها ببال منذ ان
فارقت طفلتها خمس سنوات خلت . لقد غنتها في صوت جدّ محزون ،
وفي لحن جدّ عذب بحيث لم يكن في ميسورها الا ان تستدر الدموع
حتى من عيني راهبة واستشعرت الأخت ، برغم تعودها الصرامة ، ان
غبرة تنحدر على خديها .

واعلنت الساعة السادسة . وبدأت فانتين وكأنها لم تسمع . لقد بدت
وكانها لا تلقي بعداً بالاً لأيا شيء حولها .

ووجهت الأخت سيمبليس فتاة لتسأل بوابة المصنع هل عاد ميسو

مادلين ، وما اذا كان يعتزم المجيء الى المستشفى وشيكاً ، ام لا ؟
ورجعت الفتاة بعد بضع دقائق .

كانت فانتين لا تزال جامدة لا تتحرك ؛ ولقد بدت مستغرقة في
أفكارها الخاصة .

وفي خمس ، روت الفتاة للاخت سيبيليس ان العدة ارتحل ذلك
الصباح نفسه ، قبل الساعة السادسة ، على متن عربة صغيرة مكشوفة
يقودها جواد ابيض ، على الرغم من شدة البرد ؛ وانه ارتحل وحده
من غير ان يصطحب حتى سائقاً ؛ وان احداً لم يعرف الطريق السي
سلكتها ؛ وان بعضهم قال انه شوهد ينعطف متخذاً طريق آراس ؛
وان آخرين كانوا واثقين من انهم التقوا به في الطريق المؤدية الى باريس ؛
وانه حين ارتحل بدا ، كعادته ، لطيفاً جداً ، وانه اكنفى بأن قال
للبوابة ان لا ينتظروا عودته تلك الليلة .

وفيما المرأتان تتهامان ، موليتين ظهرهما سرير فانتين - الراهبة
تسجوب ، والحادمة تخمّن - نهضت فانتين في سريرها على
الركبتين ، بذلك النشاط الحثوي المرافق بعض الامراض العصبية
والذي تختلط فيه حركة الصخرة الطلقة بهزال الموت المروع ، واستندت
قبضتها المنشجبتين على الوسادة ، مُطلعةً رأسها من فتحة الستارة ،
وانشأت تصفي . وفجأة صاحت :

- و انتما تتحدثان هناك عن مسيو مادلين ! لماذا تتكلمات بصوت
منخفض جداً ؟ ما الذي فعله ؟ لماذا لا يجيء ؟

كان صوتها أجش خشناً الى حد خيل للمرأتين انهما سمعتا صوت
رجل . والتفتتا نحوها مذعورتين .

وصاحت فانتين :

- لماذا لا تجيان ؟

فتلجلجت الحادمة :

— « لقد قالت لي البوابة انه ان يستطيع المجيء اليوم . »
وقالت الراهبة :

— « الزمى الهدوء ، يا ابنتي . اضطجعي من جديد . »
ومن غير ان تغير فانتين وضعها ، استأنفت الكلام في صوت مرتفع ، وفي نبوة ثاقبة وآمرة في آن معاً :

— « إنه لا يستطيع المجيء ؟ ولم لا ؟ انما تعرفان السبب . كننا تنهماان به فيما بينكما . اريد ان اعرف السبب . »
وامرعت الخادمة الى الممس في اذن الراهبة :

— « أجيبها بقولك إن اعمال المجلس البلدي تشغله . »
واحرّت الاخت سيمبليلس احمراراً طفيفاً . كان ما اقترحته عليها الخادمة كذبة . ومن ناحية ثانية ، فقد بدا لها ان إعلام المريضة بالحقيقة جدور به أن يكون ، من غير شك ، ضربة فظيمة ، وأنه كان خطراً في مثل حال فانتين . ولم يستمر هذا الاحمرار طويلاً . لقد رفت الاخت عنها الهادئة المحزونة نحو فانتين ، وقالت :

— « إن السيد العمدة قد ذهب . »
ووثبت فانتين وقعدت على قدميها . والتفت عيناها . لقد أشرق فوق ذلك الوجه الموجه الموجه ابتهاج خارق .
وصاحت :

— « ذهب ! لقد ذهب ليأبني بكوزيت ! »
ثم انها بسطت يديها نحو السماء ، وغدا يحياها كله بمتنعا على الوصف .
وتحركت شفتاها . كانت تصلي في صوت خفيض .
حتى اذا انتهت صلاتها قالت :

— « ايها الاخت ، انا شديدة الرغبة في ان اضطجع من جديد ،
ولسوف أفعل كل ما تظلين مني . لقد كنت شكية في هذه اللحظة ،
وانا ألتس عفوك لأنني تكلمت بمثل ذلك الصوت العالي . إن من القبيح

جداً ان يتحدث المرء بصوت عالٍ . انا اعرف ذلك جيداً ، اينها
الاخت الصالحة ، ولكن انظري كم انا سعيدة . انت الرب لطيف .
وان مـيو مادلين طيب . تصوّري انه ذهب الى مونفيرماي لكي
يجيئني بصغيرتي كوزيت . »

واضطجعت من جديد ، وساعدت الراهبة على تسوية الوسادة ،
وقبلت الصليب الفضي الصغير الذي يطوّق جيدها ، والذي كانت
الاخت سيبيليس قد منحتها إياه .

وقالت الراهبة :

— و حاولي ، يا ابنتي ، ان تسترخي الآن ، ولا تتطقي بعدُ بكلمة . ،
وأمسكت فانتين بيديها النديتين يد الراهبة التي آلمها ان تستشعر
هذا العرق .

— « لقد ذهب هذا الصباح قاصداً الى باريس . الواقع انه ليس في
حاجة حتى الى المرور بباريس . ان مونفيرماي تقع الى اليسار بعض
الشيء ، في طريق المسافر القادم الى هنا . انت تذكرين ما قاله لي ،
امس ، عندما حدثته عن كوزيت : قريباً جداً ، قريباً جداً ! تلك
مفاجأة يريد ان يقدمها اليّ . هل تعرفين ؟ لقد طلب اليّ ان اوقع
على رسالة لاسترجاعها من تيناردييه وزوجته . ان يكون عندهما
ما يقولانه ، اليس كذلك ؟ سوف يرجعان كوزيت اليّ . لأنها نالا
اجورهما . إن السلطات ان تسمح لهما بأن يجهزا طفلة بعد ان تدفع
اليها اجورهما . اينها الأخت ، لا تؤمّني اليّ بضرورة الامتناع عن
الكلام . انا سعيدة جداً ، انا في صحة حسنة جداً . لم اعد احس
بألم على الاطلاق ، وسوف ارى كوزيت من جديد . بل وانني جائعة
جداً . لقد انقضت خمس سنوات لم أرها خلافاً . إنك لا تتصورين ،
إنك لا تستطيعين ان تتصورتي ، أيّ سلطان يفرضه الاطفال عليك . والى
هذا ، فسوف تكون جميلة جداً ، سوف ترين ! وإن لها ، لو عرفت ،

اصابع وردية صغيرة فاتنة جداً ! أولاً ، سوف يكون لها يدان جميلتان جداً . يومَ كان عمرها سنة كانت لها يدان مضحكتان . - هكذا ! يجب ان تكون قد كبرت الآن . إنها في السابعة من عمرها . انها سيدة صغيرة . انا ادعوها كوزيت ، ولكن اسمها أوفرازي . اسمي . هذا الصباح كنت انظر الى الغبار الذي كان يعلو الموقد ، فخطر لي انني لا بد سأرى كوزيت كرة اخرى في وقت قريب جداً ! يا الهي ! ما أفدحه من خطأ ان يسلخ الانسان سنوات عديدة من غير ان يرى اولاده ! يجب علينا ان نذكر ان الحياة ليست ابدية . اوه ! كم كان جميلاً من السيد العمدة ان يذهب ! هل صحيح ان الجو بارد جداً ؟ هل ارتدى معطفه على الاقل ؟ سوف يكون هنا غداً ، اليس كذلك ؟ هذا ما سيجعل يوم غدٍ عيداً . وغداً صباحاً ، ايها الاخت ، سوف نذكريني بأن أعتز قلنسوتي الصغيرة المصنوعة من الوشي . ان مونفيرماي بلدة ريفية . لقد اجتزت هذه الطريق ، مرة ، على قدمي . كانت الرحلة طويلة جداً بالنسبة الي . ولكن العربات العمومية تتطلق في سرعة بالغة ! إنه سوف يكون هنا ، غداً ، مع كوزيت . كم تبعد مونفيرماي عن هذا البلد ؟ »

فأجابت الراهبة ، ولم تكن لديها أيما فكرة عن المسافات :

- « اوه ! أعتقد اعتقاداً قوياً بأنه سيستطيع ان يكون هنا غداً . »

فقلت فانتين :

- « غداً ! غداً ! سوف ارى كوزيت غداً ! انظري ، يا راهبة الرب الصالحة ، أنا لم اعد مريضة . انا مرحة . واني جديرة بأن أرقص اذا سألني امرؤ ان افعل . »

وما كان في ميسور من 'قدر له ان يراها قبل ربع ساعة ان يفهم هذا . كان لو أنها كلها وردياً الآن ، وكانت تتكلم في نبوة طبيعية تمور

بالنشاط . ولم يكن وجهها غير بسة . وبين الفينة والفينة كانت تضحك فيما هي تخاطب نفسها في صوت خفيض . إن ابتهاج الأم يكاد يكون مثل ابتهاج الطفل .

وأستأنفت الراهبة كلامها :

« حسن ، أنت سعيدة الآن ، فأطيعني . لا تتكلمي أكثر مما

فعلت . »

وألقت فانتين رأسها على الوسادة وقالت في صوت كالهمس :

« أجل . اضطجعي كرة أخرى . كوني حكيمة ما دمت

ستفوزين بابتك . إن الاخت سيمبليس على صواب . كل من في هذا المكان على صواب . »

ثم انها شرعت تنظر بعد ذلك - من غير أن تتحرك او تدبر رأسها - الى ما حولها ، بعينين مفتوحتين الى اقصى مدى ، وبانطباعة بهيجة . ولم تنطق بكلمة اضافية .

وأغلقت الراهبة الستارة ، وجاءة ان تتسلم المريضة للرقاد .

وبين الساعة السابعة والساعة الثامنة اقبل الطبيب . واذ لم يسمع صوتاً ، فقد حسب ان فانتين نائمة . فدخل الغرفة في تؤدة ، واقترب من سريرها على رؤوس أصابعه . وفتح الستارة ، وعلى ضوء انقشيدل الباهت رأى عيني فانتين الواسعتين الحادثتين تنظران اليه .

وقالت له :

« سيدي ، سوف تسمع لما بأن ترقد الى جانبي في سرير صغير ،

أليس كذلك ؟ »

وظنّ الطبيب انها تهذي . وأضافت :

« انظر . إن هنا مكاناً يتسع لما قاماً . »

وانتهى الطبيب بالاخت سيمبليس جانباً ، فأعلمته ان مسيو مادلين

غادر البلدة في رحلة تستغرق يوماً أو يومين ، وأنها رأت من الخير -

وقد أعوزها اليقين - ان لا تخدع المربضة التي اعتقدت ان العمدة قصد
الى مونفيرماي ، وان من الجائر ، على أية حال ، ان يصدقَ ظنها .
وأقرَّ الطبيب ذلك .

وانقلب الى سرير فائتين كرة أخرى . فأضافت :

- « وفي الصباح ، عندما تستيقظ ، سوف يكون في إمكاني أن أقول
صباح الخير لهذه المرة الصغيرة المسكينة . وفي المساء سوف يكون في
إمكاني ، انا التي لا تنام ، ان أسمعا وهي نائمة . ان انقاسها الصغيرة
هي من العذوبة بحيث تردّ اليّ العافية . »

وقال الطبيب :

- « أعطيني يدك . »

وبسطت ذراعها ، وصاحت ضاحكة :

- « آه ! وبيدك ! في الواقع ، هذا صحيح ، إنك لا تدري .
ولكنني قد شفيت . كوزيت سوف تأتي غداً . »

ودُهِش الطبيب . كانت في حال خيرٍ من ذي قبل . كانت تُعسر
التنفس قد خفّت ، وكان نبضها قد قوي . إن ضرباً من الحياة الجديدة
قد دبّ فجأةً في جسد هذه المخلوقة المسكينة المنهكة القوى .

وثابتت :

- « اياها الطبيب ، هل اخبرتك الراهبة ان مسيو مادلين ذهب ليجيء
بالطفلة الصغيرة ؟ »

واوصاها الطبيب بالصمت ، وباجتناب كل انفعال أليم . ووصف لها
نقيع الكينا الخالصة ، ناصحاً ، اذا عاودتها الحمى ليلاً ، بأن تُسقى دواءً
مسكرناً . وفيما هو يمضي لسبيله ، قال للراهبة :

- « انما احسن حالاً . واذا شاء حسن الطالع ان يرجع العمدة

بالطفلة الصغيرة في غداً فعلاً ، فمن يدري ؟ إن ثمة نوباتٍ تدعو الى
الدهش . وكثيراً ما رأينا الجذل العظيم يشفي من الامراض في الحال .

انا اعلم جيداً ان هذا مرض عضويّ ، وانه قد انتهى الى مراحل الخطيرة ، ولكن هذا كله لغز عجيب ! إننا قد نوفق الى انقاذها . »

٧

المسافر يصل ويعد العدة للرجوع

كانت الساعة الثامنة مساءً ، تقريباً ، عندما بلغت العُجيلة التي تركناها على الطريق فناء دار البريد في آراس . وتوجّل الرجل الذي تبعناه حتى هذه اللحظة ، وردّ على مجاملات المشرفين على الفندق في ذهول ، وأعاد الجواد الاضافي ، وقاد الجواد الصغير الابيض بنفسه الى الاصطبل ؛ ثم دفع باب غرفة البليارد القائمة في الدور الاول ، وجلس على كرسيّ ، وأسند مرفقيه الى الطاولة . كان قد أنفق اربع عشرة ساعة في هذه الرحلة ، التي توقع أن يقوم بها بستّ ليس غير . وأقرّ نفسه على ان الغلطة ليست غلطته ؛ أما في أعماقه فلم يكن غاضباً لذلك . ودخلت ربة الفندق .

— « اريد سيدي ان ينام ، اريد سيدي ان يتعشى ؟ »
وهز رأسه .

— « يقول صبيّ الاصطبل ان جواد سيدي متعب جداً ! »
وهنا قطع حبل الصمت :

— « ألن يكون الجواد قادراً على العودة صباح غد ؟ »
— « اوه ، يا سيدي ؟ إنه في حاجة الى يومي راحة على الأقل . »
وسأل :

— « اليس مكتب البريد هنا ؟ »

— « نعم يا سيدي . »

وقادته صاحبة الفندق الى المكتب . وبرز جواز سفره وسأل ما اذا كان في إمكانه ان يعود تلك الليلة الى مونتروي سور مير على متن مركبة البريد . ولم يكن قد بقي غير مقعد واحد ، هو المقعد المحاذي للسائق . فاحتجزه ودفع أجر السفر .

وقال رئيس المكتب :

« لا تنسَ ان تكون على أهبة السفر ، هنا ، في تمام الساعة الواحدة صباحاً . »

حتى اذا تمّ ذلك غادر الفندق وشرع يتمشى في المدينة . كان لا يعرف آراس ، وكانت الشوارع مظلمة ، فراح يذرعها كيفما اتفق . ومع ذلك فقد بدا وكأنه يُججم في عناد عن ابّ يسأل عابري السيل ان يدلوه على الطريق . وعبر نهر كرينشوت الصغير ، فوجد نفسه في تيه من الشوارع الضيقة ما لبث ان ضلّ فيها السيل . وأقبل مواطن يحمل فانوساً . وبعد شيء من التردد وطّن العزم على ان يتحدث الى هذا الرجل ، ولكن بعد أن نظر الى امام والى وراءه وكأنما كان يخشى ان يسمع احد السّؤال الذي كان على وشك ان يطرحه . وقال :

« سيدي ، أين يقع قصر العدل من فضلك ؟ »

فأجاب المواطن ، وكان رجلاً عجوزاً :

« انت لست من أبناء هذه المدينة ، يا سيدي ؟ حسن ، إتبعني .

انا ذاهب الى قصر العدل على وجه الضبط ، يعني الى دار البلدية ، ذلك لأنهم يصلحون القصر في هذه اللحظة ، فالحاكم تعقد جلساتها في دار البلدية مؤقتاً . »

فأله :

« وهل تعقد محكمة الجنايات هناك ؟ »

« من غير شك ، يا سيدي . ان دار البلدية ، كما ترى ، كانت قصر

الاستف قبل الثورة . فقد شيد مسيو دو كونزييه ، الذي كان اسقفاً عام اثنين وثمانين ، قاعة رحبة . وهناك في هذه القاعة تجري المحاكمات . وفيما كانا يتخذان سبيلهما نحو تلك الدار قال له المواطن :
- « اذا كان ما يرغب فيه سيدي هو ان يشهد محاكمة فأحسب انه قد جاء متأخراً بعض الشيء . ان الجلسات تختتم عادة في الساعة السادسة . »

ومع ذلك ، فحين بلغا الساحة العامة اراه المواطن اربع نوافذ طويلة مضادة ، عند واجهة بناية واسعة مظلمة
- « قساً ، يا سيدي ، لقد وصلت في الوقت المناسب ؛ انك ذو حظ سعيد . أترى هذه النوافذ الاربع ؟ تلك هي محكمة الجنايات . إن ثمة نوراً . وإذن فهم لمّا ينتهوا . لا بد ان القضية قد تطاولت ، فهم يعقدون جلسة مساءية . هل تهك هذه القضية ؟ أهى قضية جنائية ؟ هل انت شاهد من شهودها ؟ »
فأجابه :

- « انا لم أقبل لغرض ما . انا اريد ان اتحدث الى احد المحامين ليس غير . »
فقال المواطن :

- « هذه مسألة اخرى . قف يا سيدي ! هوذا الباب . وهوذا الحاجب هناك . وليس عليك إلا ان ترتقي السلم الكبيرة . »
واتبع ارشادات المواطن . وما هي الا بضع دقائق حتى وجد نفسه في قاعة احتشد فيها خلق كثير ، وتناوت جماعات من المحامين في اروابهم يتهايمون هنا وهناك .

ان بما يقبض النفس دائماً ان يرى المرء الى هذه الجموع من الرجال المتشبهين بالسواد يتجادلون اطراف الحديث في ما بينهم ، بصوت خفيض ، على عتبة قاعة المحكمة . ومن النادر ان تنطلق المحبة والشفقة من

تلك الاقوال كلها . ان ما ينطلق منها في الاغلب أحكام تُلفظ سلفاً .
وكل هذه الجُمُوع تبدو في عين الملاحظ الذي يمرّ ويفكر أشبه بجمهرة من
الحلايا القائمة حيث تتصرف صنوف من الارواح المادرة الآزّة الى
انشاء مختلف ضروب الابنية المظلمة ، على نحو مشترك .

وكانت هذه القاعة المضاءة ، على رحبها ، بمصباح مفرد ، قاعة قديمة
من قاعات القصر الاسقيي ، وكانت بمثابة غرفة انتظار . كان باب ذو
مصراعين - وكان مغلقاً في تلك اللحظة - يفصلها عن القاعة الكبرى
حيث عُقدت محكمة الجنايات .

وكانت الظلمة من الشدة بحيث لم يستشعر ايّ خوف من مخاطبة
أول محامٍ التقاه ، قائلاً :

- « سيدي ، الى اين صارت المحاكمة ؟ »

فأجابه المحامي :

- « انتهت . »

- « انتهت ! »

ورُدت هذه الكلمة في نبوة جعلت المحامي يستدير .

- « عفواً يا سيدي ، لعلك احد انساب المتهم ؟ »

- « لا . انا لا اعرف احداً هنا . وهل حُكم على المتهم ؟ »

- « طبعاً . إن شيئاً غير ذلك لم يكن ممكناً . »

- « بالاستغال الشاقة ؟ »

- « مدى الحياة . »

وتابع في صوت واهن الى درجة جعلته لا يكاد يُسمع :

- « لقد اثبتوا هُويته ، اذن ؟ »

فأجابه المحامي :

- « أية هوية ؟ لم يكن ثمة هوية ينبغي ان تُثبت . كانت المسألة

بسيطة . كانت هذه المرأة قد قتلت طفلها ؛ ولقد اقيم الدليل على انها

ارتكبت هذه الجريمة ، ولم يقتنع الحكمون بأنه كان ثمة سابق تصور
وتصميم ؛ فعُكِّم عليها بالسجن مدى الحياة .
فقال :

— « هي امرأة اذن ؟ »
— « طبعاً . انها الفتاة الليوسينية . ممن كنت تحدثني اذن ؟ »
— « عن لا شيء . ولكن ما دامت الجلسة قد انتهت فعلام لا تزال
القاعة مضاءة ؟ »

— « تلك قضية اخرى بدىء النظر فيها منذ ساعتين تقريباً . »
— « اية قضية اخرى ؟ »
— « اوه ! وهذه قضية واضحة ايضاً . إنه لصٌ من نوع ما ؛ ذو
سوابق ؛ عبدٌ من عبيد الاشغال الشاقة الارقاء . إنها دعوى سرقة .
لقد نسبت الاسم . إنه يبدو اشبه بقطاع طريق . ولو لم يكن له
من ذنب غير سَحْلِهِ مثل هذا الوجه لبعثتُ به الى سجن المحكوم عليهم
بالاشغال الشاقة . »
وسأله :

— « سيدي ، هل ثمة وسيلة ما للدخول الى القاعة ؟ »
— « اظن ذلك غير ممكن ، حقاً . إن ثمة حشداً كبيراً . وعلى
اية حال ، فقد رُفعت الجلسة الآن للاستراحة . ولقد غادر بعض النظارة
المكان ، وفي إمكانك ان تحاول عندما يُستأنف النظر في القضية . »
— « من اين يُدخل الى القاعة ! »
— « من ذلك الباب الكبير . »

وفارقه المحامي . وفي بضع ثوانٍ اجتاحته ، في وقت واحد تقريباً ،
وعلى نحو متنازع تقريباً ، جميع الانفعالات الممكنة . كانت كلمات
هذا الرجل اللامبالي قد ثقت قلبه ، بالتناوب ، مثل إبر من جليد ،
او مثل نصال من نار . وحين علم ان الامر لم ينقض بعدُ اخذ نفساً .

ولكنه لم يكن قادراً على ان يجزر أكان شعوره ذاك ارتياحاً أم كان ألماً .

واقترب من بعض الجماعات واصفى الى ما يقولون . واذا كان جدول الدعاوى مثقلاً فقد رأى القاضي ان ينظر في دعوتين بسيطتين قصيرتين في يوم واحد . كانوا قد بدأوا بمحاكمة قاتلة ابنها ، وهما هم الآن ينظرون في دعوى المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ، دعوى المجرم ذي السوابق ، دعوى « المتعسر الحير » . هذا الرجل سرق شيئاً من التفاح ، ولكن يبدو ان الدليل لم ينهض على ذلك . ان الذي نهض عليه الدليل هو انه كان من قبل من نزلاء سجن الاشغال الشاقة في طولون ، وهذا ما أفسد قضيته . لقد أنجز استنطاق الرجل ، وأخذت إفادات الشهود ، ولكن بقيت ثمة مرافعة التهامي ، ومطالبة النيابة العامة ، ومن العسير ان يتم ذلك قبل منتصف الليل . واغلب الظن ان الرجل سوف يُدان ؛ فقد كان النائب العام طيباً جداً ، وما كان ليخطيء احداً من متهميه . كان رجلاً ذا موهبة ، وكان ينظم الشعر . ووقف حاجب قرب الباب المؤدي الى قاعة المحكمة . وسأل هذا الحاجب :

— « سيدي ، هل سيفتح الباب قريباً ؟ »

فقال الحاجب :

— « الباب لن يُفتح . »

— « كيف ! اني يُفتح عند استئناف الجلسة ؟ ألم ترفع الجلسة

للاستراحة ؟ »

فاجابه الحاجب :

— « لقد استؤنفت المحاكمة ، ولكن الباب لن يُفتح ككرة اخرى . »

— « لم لا ؟ »

— « لأن القاعة مملأى . »

- « ماذا ؟ ألم يبق ثمة مقعد ؟ »

- « لم يبق مقعد واحد . الباب مقفل . وليس في استطاعة أحد

أن يدخل . »

وبعد صمت ، أضاف الحاجب :

- « الواقع انه لا يزال ثمة مقعدان او ثلاثة خلف السيد رئيس

الحكمة ، ولكن السيد رئيس المحكمة لا يجيز لغير موظفي الحكومة

أن يجلسوا عليها . »

قال الحاجب ذلك ، وولاة ظهره .

وانحسب مطأطأة الرأس ، واجتاز الغرفة المحاذية ، وهبط السلم

في ببطء ، وقد بدا متردداً عند كل خطوة . ولعله كان يشاور نفسه ،

فالصراع العنيف الذي كان دائراً في ذات نفسه منذ الليلة البارحة لم

يكن قد انتهى . وفي كل لحظة كان يشهد تحولاً جديداً ؛ حتى اذا بلغ

منبسط السلم انحنى على الدرايزون ، وطوى ذراعيه . وفجأة ، فتح

ستره ، واخرج محفظته ، وتناول قلماً ، وترزع ورقة ، وكتب عليها

في عجل - على ضوء باءت منبثق من مصباح ذي مرآة عاكسة - هذا

السطر : مسيو مادلين ، عمدة مونتروي سور مير . ثم ارتقى السلم

من جديد في خطوات واسعة ، واخترق الجموع ، وتقدم نحو الحاجب

مباشرة ، وقال له في نبرة ذي السلطان :

- « إحمل هذه الى السيد رئيس المحكمة . »

وتناول الحاجب الورقة ، وألقى نظرة عليها ، وامتنل الامر .

دخول بامتياز

ومن غير ان يحسب هو ذلك ، كان لعمدة مونتروي سور مير ضربٌ من الشهرة . فطوال سبع سنوات طبقت شهرة فضيلته آفاق « بولونية الدنيا » كلها ، لتنتهي بعد ذلك الى ان تغطي حدود الاقليم الصغير وتذيع في مديرتين او ثلاثٍ من المديريات المجاورة . قالى جانب الخدمات الجليلة التي أسداها الى البلدة الرئيسية من طريق إحياء صناعة الحرز الاسود ، لم يكن ثمة قضاء من أقضية اقليم مونتروي سور مير البالغ عددها مئة وواحداً واربعين ليس مدينأ له بنعمة ما . بل لقد سبق له ان عمل ، عند الاقتضاء ، على إنعاش الصناعة في المناطق الاخرى ومد يد العون اليها . وهكذا عاضد باعتباره ورأسماله ، حين مستت الضرورة الى ذلك ، مصنع النسيج الرقيق في بولوني ، ومصنع غزل الصوف في فريسان ، والمصنع المائي للنسوجات القطنية في « بور سور كانش » . وفي كل مكان كان اسم مسيو مادلين يُلفظ في إجلال . ولقد حسدت « آراس » و « دوويه » مدينة مونتروي سور مير الصغيرة المحظوظة على عهدتها .

وكان مستشار محكمة دوويه الملكية الذي رئس جلسة محكمة الجنايات هذه في آراس يألف - شأن كل امريء - هذا الاسم الذي ينعم بأعظم التبجيل وأكثره شهرة . فما إن فتح الحاجب ، في هدوء ، ذلك الباب الموصل ما بين غرفة المذاكرة وقاعة المحكمة ، وانحنى خلف كرسي الرئيس مقدماً اليه الورقة التي «خطت» عليها السطر الذي قرأناه اللحظة ، مضيفاً : « هذا السيد يرغب في ان يشهد الجلسة » حتى

انى بحركة عجلى تنضح بالاحترام ، وتناول قلماً ، وخطّ بضع كلمات في ادنى الورقة ، واعادها الى الحاجب قائلاً :

- « دعه يدخل . »

كان الرجل التمس الذي نروي قصته قد ظل واقفاً قرب باب القاعة ، في المكان نفسه ، حيث تركه الحاجب من قبل ، وبالوضع نفسه الذي غادره عليه . لقد سمع ، من خلال هواجسه ، شخصاً يقول له : « هل يرغب سيدي في ان يشرفني بالحقاق بي ؟ » . كان هو ذلك الحاجب عينه الذي ولاه ظهوره منذ لحظة ، والذي انحنى له ، الآن ، حتى الارض . وفي الوقت نفسه قدّم اليه الحاجب قصاصة الورق فنشرها . واذا اتفق ان كان موقفه قرب المصباح ، فقد استطاع ان يقرأ :

« إن رئيس محكمة الجنايات يقدم احترامه الى مسير مادلين . »
وسحق الورقة بين يديه وكان هذه الكلمات القليلة خلّفت في ذات نفسه طعناً غريباً مريباً .

وتبع الحاجب .

وبعد بضع دقائق وجد نفسه منفرداً في شبه ردهة مطوّقة بالحشب ، ذات مظهر صارم ، مضاءة بشمعين اثنتين وضعتا على طاولة منغطاة بقماش اخضر . كانت الكلمات الاخيرة التي قالها الحاجب وهو يفارقه لا تزال تَوْن في أذنه : سيدي ، انت الآن في غرفة المذاكرة وليس عليك إلا ان تدير بمك هذا الباب النحاسي لتجد نفسك في قاعة المحكمة خلف كرسيّ الرئيس . » وفي ذهنه اختلطت هذه الكلمات بذكرى غامضة للاروقة الضيقة والسلام القاعة التي اجتازها منذ لحظة .

وكان الحاجب قد تركه وحيداً ، وكانت اللحظة الحاسمة قد أزفت . وحاول ان يستجمع افكاره ، ولكنه لم يوفق الى ذلك . ففي تلك الساعات ، بحاجة ، حين نكون في أمس الحاجة الى ان نلّم بحقائق الحياة الموجعة نتقطع خيوط الفكر في الدماغ . كان في قلب تلك

الغرفة التي يتشاور فيها القضاة ويصدرون أحكامهم . لقد رأى في سَكينة بلهاء الى تلك الغرفة الصامتة الرابعة التي أزهقت فيها ارواح كثيرة ، والتي سيدوي اسمه فيها في الحال ، والتي كان قد رُءُها يجتازها في هذه اللحظة . لقد نظر الى الجدران ، ثم نظر الى نفسه وقد ادَّعه ان تكون هذه هي تلك الغرفة ، وان يكون هذا هو إياه .

وكان قد سلخ ما يزيد على اربع وعشرين ساعة لم يذق خلالها طعاماً ما . كانت رجات العُجيلة قد رتّت جسده ، ولكنه لم يستشعر ذلك . لقد بدا له انه لا يحسّ بشيء .

واقترّب نحو إطار اسود معلق على الجدار كانت يشتمل خلف لوح زجاجي على رسالة قديمة خطتها يد جان نقولا باش ، عمدة باريس ، الذي تولى منصب الوزارة ايضاً ، وكانت مؤرخة ، نتيجة خطأ من غير شك ، هكذا : « ٩ حزيران السنة الثانية » * وقد وجهها « باش » الى رجال البلدية مضمناً ايهاا ثبناً بالوزراء والنواب الذين اعتقلوا ضمن حدود منطقتهم . ولو ان امرأاً شاهده وراقبه آنذاك إذن لحُبل اليه من غير ريب ان تلك الرسالة بدت غريبة جداً في نظره ، إذ لم يرفع عينه عنها ، وإذا قرأها مرتين أو ثلاث مرات . لقد قرأها من غير ان يلقي اليها بالاً ، ومن غير ان يدري ما الذي كان يفعله . كان يفكر بفانتين وكوزيت .

وحقاً فيها هو يفكر استدار على غير وعي منه فوقعت عيناه على المسك النعاسي الخاص بالباب الذي يفصل ما بينه وبين قاعة محكمة الجنابات . كان قد نسي ذلك الباب تقريباً . واضطرب بحياه ، وكانت

* أي السنة الثانية من الجمهورية ، ويتجلى الخطأ في كلمة « حزيران » على اعتبار ان الثورة الفرنسية ألفت هذه الشهور وأحلت محلها تقويماً خاصاً . والشهر الذي يوافق حزيران في تقويم الثورة هو شهر بريرال Prairial (من ٢٠ نوار الى ١٨ حزيران) وشهر ميسيدور Messidor (من ٢٠ حزيران الى ١٩ تموز) .

من قبل ساكناً . ومُتمرت عيناه على ذلك المسك النعاسي ، ثم غدا
منشدهتين محدقتين ، وامتلأنا بالذعر شيئاً بعد شيء . وتصيبت من رأسه
قطرات العرق ، وتحدّرت على صدغه .

وفي إحدى اللحظات أوماً ، في ضرب من السلطان مزوج بالتمرد ،
تلك الأيماة التي لا سبيل الى وصفها والتي تعني وتقول بأفصح لسان :
حسن ! ومن ذا الذي يكرهني على ذلك ؟ ثم إنه استدار في سرعة ،
فرأى امامه الباب الذي دخل منه ، فتقدم نحوه ، وفتحه ، وخرج .
إنه لم يعد في تلك الغرفة . لقد أمسى خارجها ، في احد الاروقة -
في رواقٍ طويل ضيق تجزّته الدرجات والابواب الفرعية التي تشكل
مختلف ضروب الزوايا ، كانت تسيّر ههنا وههناك مصابيح معلقة على
الجدران هي اشبه بقنديلات المرضى . كان الرواق الذي دخل منه .
وأخذ نفساً ، واصفى . لم يكن ثمة صوت ما خلفه ، ولم يكن ثمة
صوت ما امامه . وركض وكأن احداً كان يطارد .

حتى اذا اجتاز عدداً من منعطفات هذا المجاز ، اصفى كرة ثانية .
كان لا يزال محوطاً بالصمت نفسه ، والظلّ نفسه . وضاق نفسه ،
وترنح ، واستند الى الجدار . كان الحجر بارداً ، وكان العرق مثلوجاً
على جبينه . وتصدّر وهو يرتعد .

وهناك ، في غمرة من الوحدة ، وقد وقف وسط هذه الظلمة ،
وارتجف من البرد وربما من شيء آخر ايضاً ، أنشأ يفكر .

كان قد فكر طوال الليل . وكان قد فكر طوال النهار . ولم
يسمع الآن ، في ذات نفسه ، غير صوت واحد يقول : « وأنساه ! »
وانقضت ربع ساعة على هذا النحو . واخيراً حتى رأسه ، وزفر في
كرب ، وأرخم ذراعيه ، وارندت على آثاره . لقد مشى في بطنه ،
وكانه يحمل ثقلاً ثقيلاً . لقد تراءى وكأنما ألقي القبض عليه فيما هو يفرّ
وأعيد ادراجه .

ودخل غرفة المذاكرة من جديد . كان مقبض الباب هو اول ما وقعت عليه عيناه . ولتتمتع ذلك المقبض ، المستدير المصنوع من نحاس مصقول ، أمامه مثل نجم مشؤوم . ونظر اليه كما ينظر حَمَلٌ الى عين نمر .

ولم تسكن عيناه من مفارقة ذلك المقبض .
وبين آونة واخرى ، كان يخطو خطوة نحو الباب .
ولو قد أصفى اذن لسمع ، كضربٍ من الدمدمة المختلطة ، الضجة المنبعثة من القاعة المجاورة ، ولكنه لم يُصغ ولم يسمع .
وفجأة ، ومن غير ان يدري كيف ، وجد نفسه قرب الباب .
وأمسك بالمقبض في تشجج ؛ وفتح الباب .
كان في قاعة المحكمة .

٩

موطن تسكون فيه الينيات

وخطا خطوة ، واغلق الباب خلفه على نحو ميكانيكي . وظل واقفاً متأملاً ما يراه .

كانت قاعة فسيحة ، مضاءة اضاءةً باهتةً جداً ، يغيرها الضجيج حيناً ويرين عليها الصمت حيناً ، حيث كانت آلية الدعوى الجنائية كلها معروضة ، برزانتها الحقيمة الجدادية ، على انظار الجمهور .

ففي احد اطراف القاعة ، ذلك الذي وجد نفسه فيه ، كان قضاة غافلون مرتدون أرواباً متهرقة يقضون اظافرم ، أو يطبقون اجفانهم . وفي الطرف الاخر كانت جبهة في أسمال بالية ؛ ومحامون في مختلف الاوضاع ؛ وجنود أولو وجوه محتشمة وصارمة ، والواح خشبية عتيقة ملوثة تطوق الجدران ،

وسقف قذر ؛ وطاولات مغطاة بنسيج صوفي غليظ هو الى الصفرة اقرب منه الى الخضرة ؛ وأبواب مسودة من أثر الايدي ؛ ومصاييح حافات ترسل الدخان اكثر مما ترسل النور معلقة الى مسامير دقت في خشب الجدران ؛ وشموع في شمعدانات نحاسية موضوعة على الطاولات ؛ وظلمة وبشاعة ، وكآبة ، ومن ذلك كله انبعثت انطباعة كالحة وجليلة . ذلك ان الناس استشعروا انهم في حضرة ذلك الشيء الانساني العظيم الذي ندعوه القانون ، وذلك الشيء الالهي العظيم الذي ندعوه العدالة .

ولم يلتفت احد من افراد ذلك الحشد اليه . كانت الأعين كلها مصوَّبة الى نقطة واحدة : مقعد خشبيّ منديل الى باب صغير في محاذاة الجدار القائم الى يار الرئيس . وعلى هذا المقعد الذي أضاءته عدة شموع ، كان رجل يحيط به اثنان من رجال الدرك . كان ذلك الرجل هو المتهم .

إنه لم يبحث عنه ؛ لقد رآه . لقد مضت عيناه نحوه على نحو طبيعيّ وكأنما كانتا تعلمان سلفاً أين هو .

وخيل اليه أنه يرى نفسه ، وقد تقدمت به الحنّ ، وعلى شيء من التباين في المحيّا من غير شك ، ولكن في شبه كامل من حيث الهيئة والمظهر . رأى نفسه بهذا الشعر المنفوش ، وبهاتين الحدقتين الذهباوين المحزونتين ، وبهذا القميص الذي يشبه ذاك الذي كان يرتديه يوم دخل مدينة د ... ، يملأه الحقد ، حاجباً في ذات نفسه تلك الذخيرة البشعة من الافكار المروّعة التي سلخ تسعة عشر عاماً في جمعها فوق ارض السجن .

وقال لنفسه وهو يرتعد :

« يا الهي ! هل سأصبح هكذا مرة ثانية ؟ »

لقد بدا هذا المخلوق في الستين من عمره ، على الأقل . كان قه في مظهره شيء جاف ، أبله ، مروّع على نحو لا سبيل الى وصفه .

وعلى صوت الباب ، كان الناس قد اصطفوا ليفسحوا له في مجال
الدخول ، وكان الرئيس قد التفت . وإذا افترض ان الداخل هو عمدة
مونتروي سور فقد حتى رأسه تحية له . وكان النائب العام قد
رأى ميو مادلين في مونتروي سور حيث استدعي غير مرة بحكم وظيفته ،
فعرفه وحتى رأسه تحية له ايضاً . أما هو فكاد ان لا يلحظها . كان
فريسة لضرب من الهلوسة . وتأمل في ما حوله .

قضاة ، كاتب محكمة ، درك ، حشد من الرؤوس الفضولية الى
حد وحشي - لقد شهد ذلك مرة في ما مضى ، منذ سبع وعشرين
سنة . هذه الاشياء المروعة - لقد وقع عليها كرة اخرى . لقد كانت
هناك ؛ لقد كانت تتحرك ؛ لقد كانت كائنات ذات حياة . إن ذلك لم
يَعُدْ جهداً من جهود ذاكرته أو وهماً من اوهام خياله ، ولكنهم
درك حقيقيون ، وقضاة حقيقيون ؛ وحشد حقيقي ، واناس حقيقيون
من لحم ودم . لقد قضي الأمر . لقد رأى مشاهد ماضيه الميخنة ،
بكل ما في الحقيقة من فظاعة ، تعاود الظهور وتحيا من حوله كرة
اخرى .

كان ذلك كله فاغراً فيه امامه .

واستبد به الذعر ، وانغص عينيه ، وصاح من اعق اعماق دوحه :
« ابدأ ! »

وبلعبة فاجعة من اعب القدر التي كانت تثير افكاره كلها وتكد أن
تذهب بعقله كانت نسخة اخرى عن نفسه تجلس هناك ! لقد كان القوم
كلهم يدعون هذا الرجل الذي يحاكمونه جان فالجان !
كان امام عينيه رؤيا لم يُسَمَّع بها من قبل . ضرب من التمثيل
لأرهب لحظة في حياته يقوم به طيفه .

كان كل شيء هناك : الاداة نفسها ، والساعة نفسها من الليل ،
ووجوه القضاة والجنود والنظارة نفسها تقريباً . الفرق الوحيد انه كان

يوقع فوق هامة الرئيس تثال المصوب ، وهو شيء لم يكن يُرى في قاعات المحاكم يوم صدر الحكم عليه . فحين حاكموه ، لم يكن الرب هناك .

كان خلفه كرسيّ ، فألقى بجسده عليه وقد عصف به الذعر إذ خطر له ان القوم قد يرونه . حتى اذا جلس أفاد من ركाम من الاوراق كان على منصة القضاة لكي يخفي وجهه عن القاعة كلها . أمسى في ميسوره ان يرى من غير ان يُرى . وشيئاً بعد شيء استعاد سكنته . لقد انعس في روح الواقع . لقد بلغ من الهدوء ذلك المبلغ الذي يمكن المرء من الاصغاء .

كان ميسو باماتابرا محلفاً بين المحلفين .

وبحث عن جافير ، ولكنه لم يره . كان مقعد الشهود مجرباً عنه بطاولة كاتب المحكمة . والى هذا فقد كانت قاعة المحكمة مضامة اضافة جدّ باهتة ، كما قلنا منذ لحظة .

وحين دخل كان محامي المتهم يختم مرافعته . واستثير انتباه القوم كلهم الى اقصى درجات الاستنارة . كانت المحاكمة قد استغرقت ثلاث ساعات ؛ وطوال هذه الساعات الثلاث كان النظارة قد شاهدوا رجلاً - كائناً مجهولاً ، مخلوقاً بانساً ، ابله الى ابعد الحدود او داهية الى ابعد الحدود - يرزح شيئاً بعد شيء تحت ثقل احتمال رهيب . وكان هذا الرجل ، كما سبق منا القول ، متشرداً عُثر عليه في احد الحقول حاملاً غصناً مثقلاً بالتفاح الناضج ، كان قد انتزع من شجرة في مزرعة مسيجة تدعى مزرعة بَييروُن . من كان هذا الرجل ؟ لقد أُجري تحقيق ؛ وُسمِع الى شهود ؛ ولقد أُجمعوا كلهم على رأي واحد ؛ وانبثقت اضاء من المناقشة كلها . وقال الانهام : « ليس بين ايدينا هنا مجرد لص من لصوص الفاكهة ، مجرد سارق من مُرتاق القللات قبل ان تحصد . إن بين ايدينا هنا قاطع طريق ، مجرمّاً ذا سوابق لم يلتزم المكان الذي

فُرضت عليه الإقامة فيه بعد خروجه من السجن ؛ تزيلاً قديماً من نزلاء
سجن الاشغال الشاقة ؛ فانكراً من اخطر الفُتاك ؛ شريراً يدعى جان
فالجان تطارده العدالة منذ دهر طويل ، وكان قد ارتكب لثاني سنوات
خلت ، لدن خروجه من سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في
طولون ، سرقة في الطريق العام ، والسلاح في يده ، ضد غلام
من صافوا يدعى جيوفيه الصغير ، وهي الجريمة المتصوص عليها في
المادة ٣٨٣ من قانون العقوبات ، والتي نحتفظ من اجلها بحق المطالبة
بانزال أقصى العقوبة عندما تُثبت الهوية قضائياً . لقد ارتكب الان
سرقة جديدة . إنها قضية من قضايا العودة الى الجريمة . أحكموا عليه
لسرقته الجديدة . أما جريمته السابقة فسوف يقاضى من اجلها في ما بعد . ،
وأمام هذا الاتهام ، وأمام إجماع الشهود ، كان الانفعال الذي غلب على
المتهم هو الانشدهاء . كان يقوم بحركات وإشارات تقييد الانكار ، أو
يحدّق الى السقف . لقد تكلم في عر ، وأجاب في ارتباك ، ولكن
شخصه كله - من قمة رأسه الى اخص قدميه - انكر التهمة . لقد بدا
اشبه بأبله في حضرة هؤلاء الرجال الاذكياء المتألمين لمقاتلته ، واشبه
بغريب وسط هذه الجماعة التي أمسكت به . ومع ذلك فقد كان ينتظره
غدٌ منذر بأعظم الشر ، وكانت الاحتمالات تتزايد كل لحظة ؛ وكانت
كل فرد من افراد النظارة ينتظر في قلق أشد من قلقه هو ، ذلك
الحكم الفاجع الذي بدا متأرجحاً فوق رأسه اكثر فأكثر . وكانت ثمّة
احتمال يومي ، وراء سجن الاشغال الشاقة ، الى عقوبة الموت اذا ما
أثبتت هويته . وانتهت قضية جيوفيه الصغير الى إاداته . من كان هذا
الرجل ؟ من اي نوع كانت غفلته ؟ أكانت بلاهة أم مكراً ؟ أكان
يعرف اكثر مما ينبغي أم كان لا يعرف شيئاً على الاطلاق ؟ تلك كانت
اسئلة اختلفت فيها آراء القوم وبدت وكأنها تقسم المحلفين الى شيع .
كان ثمّة شيء مخيف وشيء خفي في المحاكمة . إن الفاجعة لم تكن قائمة

وحسب ؛ لقد كانت غامضة .

وكان محامي الدفاع قد رافع مرافعة جيدة بتلك اللغة الاقلبية التي طالما كانت قوام بلاغة المحاماة ، والتي اصطنعها من قبل جميع المحامين سواء في باريس أو في رومورانتين أو مونبيريون ، والتي لم يعد يتكلم بها اليوم - بعد ان اصبحت كلاسيكية - غير خطباء النيابة العامة الرسميين الذين تلائمهم تلك اللغة ، بطنطنتها الوقور وجلها المهية . لغة يدعى فيها الزوج بعلًا ، والزوجة بعله ، وباريس مركز الفنون والحضارة ، والملك العاهل ، وصاحب السيادة الاسقف الحنوبر المقدس ، والنائب العام الشارح البليغ لانتقام القانون ، والمرافعة النبرات التي سمعناها المحطة ، وعصر لويس الرابع عشر العصر العظيم ، واحد المسارح هكل ملبومين ، * والاميرة المالكة دم ملوكنا الفخيم ، واحدى الحفلات الموسيقية عيداً احتفالياً موسيقياً ، والجنرال الذي يقود قوات المديرية المحارب اللامع الذي ، الخ ؛ وتلاميذ اللاهوت هؤلاء الاكليركيين الناضري العود ، والاخطاء المنسوبة الى الصحف الكذبة التي تقطرو سمها في أعمدة هذه النواطق بألسنة الاحزاب . الخ . الخ . وكان محامي الدفاع قد أسهب في الكلام على سرقة التفاح - وهو شيء لا يتلاءم والاسلوب الفخيم ، ولكن بيني بوسوويه ** نفسه اضطر ذات مرة الى ان يشير الى دجاجة ما في صميم موعظة تأيينية له ، فنصرف في أبهة وجلال . وكان المحامي قد قرر ان سرقة التفاح لم يقم عليها دليل مادي . ذلك بأن موكله ، الذي يصّر هو بوصفه محامياً على دعوته شافاتيرو ، لم يشاهد قط متسوراً الجدار أو قاصفاً الغصن . لقد قبض عليه وفي حوزته هذا الغصن (الذي آثر

* Melpomène وهي في الميثولوجيا ربة التراجيديا .

** Bossuet الخطيب الفرنسي الشهير ، وقد سبق التعريف به في هامش ماض .

(ص ٨٠) .

المحامي ان يدعو قَتْنَا) ، ولكنه قال إنه وجد على الارض قالنقطه .
 أين الدليل على العكس ؟ لا ريب في ان هذا الفصن كان قد كُبر
 ومُرق بعد تسوُّر الجدار ، ثم اطرحت على الارض يد السارق المهتد
 بالخطر . لا ريب في انه كان قة لصّ ، ولكن ما الذي يُثبت ان
 هذا اللص كان شاتانيو ؟ شيء واحد ليس غير . هو انه كان في ما
 مضى من المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . والمحامي لا ينكر ان هذه
 الصفة تبدو مع الاسف مُثبتة إثباتاً يقينياً . فقد سكن المتهم في فايفرول ،
 ولقد كان المتهم مشذب اغصان ، ومن الجائز ان يكون امم شاتانيو
 محرّفاً عن جان ماتيو ؛ كل ذلك كان صحيحاً ؛ واخيراً قالت اربعة
 شهود قد أجمعوا على نحو اكيد ، ومن غير ما تردد ، ان شاتانيو هو
 جان فالجان نفسه المحكوم عليه بالاشغال الشاقة ؛ وليس عند المحامي ما
 يعارض به هذه الادلة وهذه الشهادات غير إنكار موكله ، وهو انكار
 تقتضيه مصلحته . ولكن حتى اذا افترضنا أنه جان فالجان المحكوم عليه
 بالاشغال الشاقة فهل ينهض هذا دليلاً على انه سارق التفاح ؟ ذلك لا
 يعدو ان يكون حدثاً على الاكثر ، ولكنه ليس برهاناً . صحيح ان
 المتهم - وعلى المحامي ان يقرّ بذلك - بسلامة نية - قد اصطنع
 و اسلوباً وديناً في الدفاع . ، لقد أصرّ على انكار كل شيء ، انكار
 السرقة ، وانكار انه كان قد حُكم قبل بالاشغال الشاقة . ولو قد اعترف
 بالنقطة الاخيرة اذن لكان ذلك خيراً له من غير شك ، واذن لضمن
 له ذلك تاهل قضاة . ولقد نصحه المحامي بأن يسلك هذه السبيل ،
 ولكن المتهم رفض في عناد ، معتقداً من غير شك ان عدم الاعتراف
 بشيء يكفل له النجاة من العقوبة كلها . كان ذلك خطأ منه ، ولكن
 ألا ينبغي لنا ان نأخذ قصور عقله بعين الاعتبار ؟ ان هذا الرجل
 معتوه ، بلا خلاف . فالعذاب الطويل الذي قاساه في سجن الاشغال
 الشاقة ، والبؤس الموصول الذي عاناه خارج سجن الاشغال الشاقة قد

أصابه بالحبل ، الخ . الخ . انه لم يحسن الدفاع عن نفسه ، ولكن
 أياكون هذا سبباً لآداته ؟ اما مسألة جبريه الصغير فلم يكن عند المحامي
 ما يقوله فيها . إنها غير واردة في الدعوى على الاطلاق . ونتم المحامي
 دفاعه بأن توصل الى المحلفين والى المحكمة ، اذا ما بدت هوية جان
 فالجان واضحة لديهم ، ان يُنزلوا به العقوبات البوليصة التي "تنزل عادة"
 باولئك الذين لا يلتزمون المواطن المعينة لهم بعد الخروج من السجن ،
 لا العقوبة الخفيفة التي "تنزل بالمحكوم عليه بالاستئصال الشاق حين يرتكب
 جريمة جديدة .

وردة النائب العام على محامي الدفاع . كان غنياً منطبق الاسلوب ،
 مثل معظم النواب العامين .

لقد هنا محامي الدفاع على « صراخه » ، وأفاد من هذه الصراحة
 في براعة . لقد هاجم المتهم من خلال جميع النقاط التي سلم بها محاميه .
 فقد بدا المحامي وكأنه يسلم بأن المتهم كان جان فالجان فارتضى هذا
 التسليم . واذن ، فقد كان هذا الرجل هو جان فالجان . واعتبر
 الاتهام هذه النقطة حقيقة مقروءة ، فلا سبيل بعد الى المجادلة فيها .
 وهنا - وبأسلوب مجازي بارع ، رقي الى منابع الجريمة وأسبابها - أورد
 النائب العام ضد لا أخلاقية المدرسة الرومانتيكية ، وكانت آنذاك في
 فجرها ، مشيراً اليها بوصفها المدرسة الشيطانية ، وهو الاسم الذي خلعه
 عليها نقاد صحفيي « كوتيديين » وال « اوريفلام » . وعزا - ولم
 يكن ذلك خلواً من عنصر الاحتمال - الى هذا الادب الداعر جريمة
 شاتناتيو ، أو على الاصح جان فالجان . حتى اذا استنفذ هذه التأملات
 انتقل الى جان فالجان نفسه . من كان جان فالجان ؟ تلك هي صفة
 جان فالجان : غول متقياً ، الخ . إنا نجد نموذجاً لهذه الضروب من

الاصاف في حكاية تيورامين* التي لا غناء فيها ، من وجهة النظر المسرحية التراجيدية ، ولكنها تسدي خدمات جليلة ، كل يوم ، الى البلاغة القضائية . و « ارتعد ، النظارة والمخلفون . حتى اذا تمّ هذا الوصف استأنف النائب العام كلامه في اندفاع خطابي قصيد به الى أن ينير حماسة « جويدة الولاية » الى اقصى غايتها في صباح غد . « وانه لرجل بمائل الخ . الخ . الخ . متشرد ، متسول ، لا يملك من اسباب العيش شيئاً ، الخ . الخ . - تعود طوال حياته الماضية الاعمال الاجرامية ، ولم يُفد غير قليل من أيامه التي قضاها في سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، كما تثبت الجريمة التي ارتكبها ضد جيوفيه الصغير ، الخ . الخ . إن مثل هذا الرجل الذي أمسك به على الطريق العام في جرم السرقة المشهود ، على بضعة خطوات من جدار كان قد تسوّره ، وهو لا يزال يحمل بيده الشيء الذي سرقه - مثل هذا الرجل يُنكر الجرم المشهود ، يُنكر السرقة ، ينكر تسوّر الجدار ، ينكر كل شيء ، ينكر حتى اسمه ، ينكر حتى هويته ! وبالإضافة الى مئة اخرى من الادلة التي لن نرجع اليها عرفه اربعة شهود : جافير - جافير ، مفتش الشرطة العفّ النزيه ، وثلاثة من رفاقه القدماء في العار ، هم بروفيه ، وشونيلديو ، وكوشباي المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . وبمّ يردّ على هذا الاجماع الصاعق ؟ بالانكار . ياله من تصلب ! انتم سوف تقيمون العدل ، ايها السادة المخلفون ، الخ . الخ . وفيما النائب العام يتكلم ، اصغى المتهم فاغراً فاه بضرب من الذهول الذي لا يخلو من بعض الاعجاب . كان واضحاً انه ما كان قادراً على ان يصدق ان في إمكان رجل ما ان يتكلم هكذا . وبين الفينة والفينة ، عند المقاطع الاكثر

* Thérémène رجل دولة أثيني وخطيب بليغ ، ولكنه كان ذا خلق متقلب متلون . وقد أسهم سنة ٤١١ ق.م في قلب النظام الديموقراطي في أثينا ، ثم اتهم بالخيانة فعُكِم عليه بشرب الشوكران السام عام ٤٠٣ . وثيرامين ايضاً أحد شخوص رامين في تراجيديته « فِدر » Phèdre .

« هوة » من مطالعة النيابة ، وفي تلك اللحظات التي كانت الفصاحة فيها تعجز عن ان تملك نفسها فتفيض في سيل من التبعوت الفاضحة وتحيط بالمتهم وكأنهم عاصفة - كان يحرك رأسه في تودة من اليقين الى الشك ، ومن الشك الى اليقين ، ضرب من الاحتجاج الكتيب الاخرس قنع به منذ بدء المناقشة . ومرتين أو ثلاث مرات سمعه النظارة الاشد قرباً منه يقول في صوت كالهمس : « كل ذلك ناشيء عن انه لم يسألوا مسير بالو ! » ولفت النائب العام نظر المحلفين الى هذا الوضع الابله - وهو مدبر من غير شك - الذي لا يدل على الغباء ولكن على البراعة ، والمكر ، وتعود مخادعة العدالة ، والذي يُظهر في ضوئه الاقوى « فساد هذا الرجل الخلقي العميق الجذور . » وختم مطالعته بأن أدلى بتحفظاته حول مسألة جبرفيه الصغير ، طالباً إزال اقصى العقوبة بالمتهم

وكان اقصى العقوبة بالنسبة الى هذه الجريمة ، كما نذكر ، الاشغال الشاقة مدى الحياة .

ونفض محامي الدفاع ، فبدأ بتهنئة « السيد النائب العام » على « مطالعته الرائعة » ، ثم ردة عليه على قدر ما استطاع ، ولكن في نبرة اضعف . كان واضحاً ان الارض مادت تحت قدميه .

١٠

طراز الانكار

وأزفت لحظة اختتام المحاكمة . فأصدر الرئيس امره الى المتهم بأن ينهض ، ووجه اليه السؤال المألوف :
- « هل عندك ما تضيفه الى دفاعك ؟ »

ونفض الرجل وهو يطوي بين يديه قلنسوة رهيبة كانت معه . وبدأ وكأنه لم يسمع .

وكرر رئيس المحكمة السؤال .

وهذه المرة سمع الرجل ، وبدأ أنه فهم . لقد أجفل مثل امرئ يفيق من الرقاد ، وأجال عينيه في ما حوله ، ونظر الى الجمهور ، والى الدرك ، والى محاميه ، والى المحلفين ، والى هيئة المحكمة ، ووضع قبضتي يديه الضخمتين على الحاجز القائم أمامه . ونظر كرة اخرى . وفجأة ستمر عينيه على النائب العام وبدأ يتكلم . كان ذلك أشبه بثورة بركان . ولقد بدا من الطريقة التي نادت فيها الكلمات من بين شفثيه مقطعة ، عاصفة ، متصادمة ، مختلطة ، أنها كانت كلها تريد ان تنطلق في آن معاً . قال :

— « احب ان اقول هذا : أني كنت صانع عجلات في باريس ؛ وأن ذلك كان في محلّ ميو بالو ايضاً . كانت حياة قاسية حياة صانعي العجلات تلك . فأنت مضطر دائماً الى ان تعمل في الهواء الطلق ، في أفنية الدور ، تحت السقائف حين يكون معلّمك رجلاً طيباً ، ولكن ليس داخل جدران المحلّ ، لأن العمل يقتضي سعة من الارض ، كما ترى . وفي الشتاء كان البود من القسوة بحيث يتعين على المرء ان يضرب كفّاً بكفّ لكي يستشعر الدفء ، ولكن معلّمينا ما كانوا يميزون لنا ذلك ، قائلين انه مضيعة للوقت . إنه لمن اصعب الاشياء ان تمسك بالحديد حين يكون الجليد مغطياً حصاه الطريق . إنه يهزّي الانسان في سرعة . وهكذا تشيخ وانت بعد فتى في هذه الصناعة ، وما تكاد تبلغ الاربعين حتى تكون قد انتهيت . اما انا فكنت في الثالثة والخمسين . كنت مريضاً مرضاً شديداً ، وفوق هذا فقد كانت العمال خبثاء جداً ! إنهم حين يتجاوز الرجل الساذج مرحلة الشباب يسمونه « الطائر العجوز » ، و « البهيمة العجوز » ! ولم اكن أكب

غير ثلاثين «سو» في اليوم ؛ فقد كانوا يدفعون اليّ اقلّ ما يستطيعون من أجر ، وكان اصحاب العمل يُفيدون من شيخوختي . والى هذا فقد كانت عندي ابنتي التي حملت غسالةً على خفة النهر . وكان ما تكسبه قليلاً ، ولكن دخلي ودخلها كانا يمكّناننا من العيش . وكان عملها مرهقاً ايضاً . كانت تسليخ النهار كله غائصةً حتى خصرها في طبق الغسيل الخشبي ، تحت المطر ، تحت الثلج ، وفي قلب الريح التي تقصّ الوجه ، وفي غمرة الصقيع . لا فرق ، فالغسل ينبغي ان يتمّ . إن ثمة أناساً ليس عندهم كثير من الملابس الداخلية ، فهم ينتظرون هذه الملابس . واذا لم تغسل نخسر زبائنك . وألواح الطبق غير متأسكة جيداً ، فقطرات الماء تنصبّ عليك من كل مكان . وتبلل المياه ثيابك وتغور فيها أبعد فأبعد . إنها تنفذ . ولقد اشتغلت ايضاً في مصبغة و الاطفال الحمر ، حيث تصل المياه بالانابيب . وهناك لا يتحتم عليك ان تعمل في قلب الطبق الخشبيّ . إنك تغسل الثياب قدّامك تحت الانبوب ، وتنظفها بعد الغسل خلفك في الحوض . واذا كانت تقوم بهذا العمل ضمن اربعة جدران فلم تكن تبرّد كثيراً . ولكن كان ثمة بخار ماء حارّ الى حد فظيع ، وكان ذلك يُتلف العينين . كانت ترجع الى بيتها في الساعة السابعة ليلاً ، فتأوي الى فراشها سريعاً . كانت الأعياء يهدّ قواها . وكان زوجها يضربها . لقد ماتت . إنها لم تكن سعيدة جداً . كانت فتاةً فاضلة لا تذهب الى المراقص ابداً ، فتاة هادئة جداً . واذكر أنها آوت الى فراشها في « ثلاثاء المرفع » من احد الاعوام في الساعة الثامنة . انتبه . انا اقول الحقيقة . وليس عليك إلا ان تسأل . آه ، أجل ، إسأل ! ما أشدّ بلاهتي ! إن باريس واسعة جداً . ومن ذا الذي يعرف الاب شاتانيو فيها ؟ ولكن هناك ميو بالو . اذهب الى محل ميو بالو . ولست ادري ما الذي تريدونه مني بعد هذا ؟

وكفّ الرجل عن الكلام ، ولكنه لم يجلس . كان قد نطق بهذه الكلمات في صوت مرتفع ، سريع ، خشن ، قاسر ، أبحّ ، وبضرب من السداجة الغاضبة الضاربة . ومرة واحدة قطع كلامه لكي ينهني نهبةً لأحد افراد النظارة . وكانت ضروب التوكيدات التي كان يلقاها أمامه كيفما اتفق تنطلق منه وكأنها شهقات ، وكان يضيف الى كل منها ايماءة حطّاب يقطع الحشب . حتى اذا انتهى انفجر النظارة بالضحك . فنظر اليهم ؛ واذا رآهم يضحكون ، ومن غير ان يعرف لماذا ، شرع هو نفسه يضحك .

وكان ذلك نذيراً بشراً .

ورفع الرئيس صوته ، وكان رجلاً يقطّاً رفيقاً .

لقد ذكر « السادة المحلفين » بأن « السيد بالو » صانع العجلات القديم الذي قال المتهم إنه كان يعمل في خدمته ، قد استدعي ولكنه لم يحضر . كان قد أفلس ، ولم يكن في الامكان العثور عليه . ثم إنه التفت الى المتهم وحشّه على الاصغاء الى ما سيقوله له ، وأضاف :

— « انت في وضع يتطلّب التفكير . إن أثقل الفرائض لتوهق كاهلك ، وقد تقودك الى عواقب مشؤومة . ايها المتهم ، إني أسألك - لمصلحتك الشخصية - مرة أخيرة ان تجيبني في وضوح عن هذين السؤالين : اولاً ، هل تسوّرت ، حائط مزرعة بيرون ، وكسرت الفصن وسرفت التفاح ، يعني هل ارتكبت جريمة السرقة بالاضافة الى التسوّر ام لم تفعل ؟ ثانياً ، هل انت جان فالجان المحكوم بالاشغال الشاقة والمطلق سراحه ، ام لا ؟ »

وهزّ المتهم رأسه في انطباعة ذكية ، مثل رجل فهم ما قيل جيداً وعرف بأي شيء يعتزم ان يجيب . وفتح فمه ، والتفت نحو الرئيس ، وقال :

— « قبل كل شيء ... »

ثم نظر الى قلنسوته ، ورفع بصره الى السقف ، واعتصم بالصمت .

وقال النائب العام في صوت فظّ :

- « ايها المتهم ، انتبه ! انت لا تجيب عن شيء مما سئلت انت تجيب عنه . ان اضطرابك يدينك . من الواضح ان اسمك ليس ماثاتيو ، وانك جان فالجان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة المنتزعة باديء الامر تحت اسم جان ماثيو ، الذي كان اسم أمه ؛ وانك عثت في أوفيري ، وأنك ولدت في فايفرول ، حيث كنت مشدب اغصان . ومن الواضح انك سرقت تفاحاً ناضجاً من مزرعة بيبوتون بالاضافة الى تسوّر ك الجدار . إن السادة المحلفين سوف ينظرون في هذا . »

كان المتهم قد عاود الجلوس آخر الأمر . ولكنه ما لبث ان نهض فجأة ، حين أتمّ النائب العام كلامه ، وصاح :

- « انت رجل رديء جداً ، أنت ! ذلك ما كنت أريد أن أقوله . أنا لم اعثر على هذه الكلمة باديء الامر . إنني لم امرق شيئاً قط . إنني رجل لا اجد ما آكله كل يوم . كنت قادمأ من آبي ، وكنت امشي إثر وابل من المطر جعل الارض كلها صفراء بالوحل ، حتى لقد فاضت المستنقعات ، فكنت لا ارى غير طلائع الاعشاب منبثقة من الرمل على حافة الطريق . ووجدت على الارض غصناً يحمل بعض التفاح ، فالتقطت الغصن من غير ان ادري انه سوف يورثني أمأ . فمذ ثلاثة اشهر وأنا طريح السجى ، أنقل من مكان الى مكان . أنا لا استطيع ان اقول اكثر من ذلك . انهم يتكلمون ضدي ، ويقولون لي : « اجب ! » وإن الدركي ، الذي هو رجل طيب ، يدفع مرفقي ويهمس : « اجب الآن ! » أنا لا احسن التعبير عن نفسي ؛ أنا لم أتلق العلم قط ؛ أنا رجل فقير . انكم جميعاً مخطئون لعدم رؤيتكم ذلك . أنا لم امرق ، لقد رفعت عن الارض أشياء كانت موجودة هناك . انت تتحدث عن جان فالجان ، جاث ماثيو ! أنا لا أعرف هذين الشخصين . لا ريب انها رجلان قرويان . لقد اشتغلت عند

مسيو بالو في « جادة المستشفى » . انا ادعى شائعاتيو . ينبغي ان تكون ذكياً حتى تخبرني اين 'ولدت' . انا نفسي لا ادري . فليس لكل الناس بيوت يولدون فيها . ولو كان لكل الناس مثل هذه البيوت اذن لكان ذلك مريحاً باكثر مما ينبغي . انا اعتقد ان ابي وأمي كانا يهجان على وجهيهما في الشوارع ؛ ولكنني لست واثقاً . حين كنت طفلاً كانوا يدعونني « الصغير » أما الآن فأنا ادعى « العجوز » . هذان هما اسما معبودتي . خذ ذلك كما تشاء . لقد كنتُ في اوفيري ، وكنت في فافيرول . عجباً ! الا يستطيع الانسان ان يكون في أوفيري وفافيرول من غير ان يكون من نزلاء سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ؟ اقول لك اني لم اسرق ، واني الاب شائعاتيو . كنت اعمل عند مسيو بالو ؛ لقد عشتُ في منزله . لقد تعبتُ من هرائك الذي لا نهاية له ! لماذا يطاردني الناس كلهم كالكلاب المسعورة ؟ »

كان النائب العام لا يزال واقفاً . فوجه الخطاب الى الرئيس :

- « سيدي الرئيس ، امام الانكارات المشوشة ، ولكن الحاذقة جداً ، التي يعتصم بها المتهم الذي يحاول ان يوقع في روع المحكمة انه معتوه ، والذي لن ينجح في ذلك - فتحن سوف نحول بينه وبين النجاح - نلتبس ان تسندعوا الى هذه القاعة ككرة اخرى ، اذا شئتم وشاءت هيئة المحكمة ، كلاً من المحكوم عليهم بروفه ، وكوشباي ، وشونيلدير ، ومفتش الشرطة جافير ، وتستجوبوهم للمرة الاخيرة حول هوية المتهم وانه هو وجان فالجان المحكوم عليه بالاشغال الشاقة شخص واحد . »

فقال الرئيس :

- « احب ان اذكر السيد النائب العام ان مفتش الشرطة جافير الذي دعت واجباته الى التوجه الى حاضرة احدى المديرات المجاورة ، قد غادر هذه القاعة ، بل غادر المدينة ، بعد ان ادلى بشهادته مباشرة .

لقد منحناه هذا الاذن بموافقة السيد النائب العام ومحامي المتهم .
فاجاب النائب العام :

- « هذا صحيح . وفي غيبة ميسو جافير ارى من الواجب ان اذكر السادة المحلفين بالذي قاله هنا منذ ساعات قليلة . ان جافير رجل محترم يشرف ، بنزاهته القاسية الصارمة ، المهام الدنيا ولكن الهامة في وقت معاً . وهذه هي التعابير التي انطوت عليها شهادته : « لست في حاجة حتى الى حذر معنوي وأدلة مادية لكي أناقض إنكارات المتهم . انا اعرفه معرفة تامة . ان اسم هذا الرجل ليس شائناً . انه مجرم قديم 'حكم عليه بالاشغال الشاقة ، شريراً جداً وخيف جداً ، يدعى جان فالجان : ان سراحه لم يُطلق عند انتهاء اجل عقوبته إلا في أسفٍ بالغ . لقد قضى تسعة عشر عاماً في سجن الاشغال الشاقة بسبب من سرقة موصوفة . وخمس مرات او ست مرات حاول ان يفر من السجن . وبالإضافة الى سرقة جيوفيه الصغير ومزرعة بيرون يخيل اليّ ايضاً انه هو الذي قام بسرقة منزل صاحب العظمة اسقف د ... المتوفى . لقد رأيته كثيراً يوم كنت نائباً لضابط حرس سجن الاشغال الشاقة في طولون . اعود فأقول اني اعرفه معرفة تامة . »

وبدا هذا التصريح ، المصوغ في عبارات بالغة الاليجاز والدقة ، وكلما ترك اثراً قوياً في نفوس النظارة والمحلفين . وختم النائب العام كلامه بأن اصرّ ، ما دام جافير غائباً ، على ضرورة الاستماع مرة ثانية للشهود الثلاثة بروفيه ، شونيلديو ، وكوشباي ، واستجوابهم في مهابة .

واصدر الرئيس أمره الى احد الحجاب . وبعد لحظة 'فتح باب حجرة الشهود ، وقاد الحجاب - يصعب دركي على اتم الاستعداد لأسداء العون - بروفيه المحكوم عليه بالاشغال الشاقة . وحسب النظارة أنفاسهم ، وخفقت القلوب جميعاً وكأنما كانت لها نفس واحدة ليس غير .

وكان بروفيه هذا يرتدي السترة السوداء والرماية الخاصة بالسجون .

المركزية . كان في نحو الستين ، وكان له وجه رجل من رجال الاعمال وسبياً وغد من الاوغاد . إنها في بعض الاحيان يسيران جنباً الى جنب . وكان قد اصبح شيئاً أشبه بسجان في ذلك الحبس الذي أعادته اليه آثام جديدة . كان واحداً من اولئك الرجال الذين يقول فيهم رؤساؤهم : « إنه يحاول ان يجعل من نفسه عنصراً مفيداً . » وشهد كهنة السجن شهادة طيبة في ما يتصل بعاداته الدينية . ويجب ان لا ننسى ان ذلك إنما جرى في العهد الذي شهد عودة آل بوربون الى العرش .

وقال الرئيس :

— « بروفيه ، لقد أنزلت بك عقوبة سائنة ، وليس في استطاعتك

ان تقسم اليين . »

وخفض بروفيه عينيه .

وتابع الرئيس كلامه :

— « ومع ذلك ، فقد يظلّ — حتى في الرجل الذي أذله القانون —

اذا سمحت العدالة الالهية بذلك ، إحساسٌ بالشرف والانصاف . الى

هذا الاحساس أتوجّه ، مناشداً ، في هذه اللحظة الحاسمة . فاذا كان لا

يزال حياً فيك ، وهو ما ارجوه ، ففكّر قبل أن نجيبني . فكّر ،

من ناحية ، بهذا الرجل الذي قد تقضي عليه كلمة منك ، ومن ناحية

ثانية ، بالعدالة التي قد تنير سبيلها كلمة منك ايضاً . إن اللحظة هبيرة ،

ولا يزال امامك مدسع للتراجع اذا اعتقدت انك كنتَ مخطئاً . اها

المتهم ، قف ! بروفيه ، انظر جيداً الى المتهم ؟ اجمع شتات ذكرياتك

وقل لنا ، بذمتك وضميرك ، ما اذا كنت نصرّ على ان هذا الرجل

هو جان فالجان رفيقك القديم في سجن الاشغال الشاقة ؟ »

ونظر بروفيه الى المتهم ثم التفت كرة ثانية نحو هيئة المحكمة :

— « نعم ، يا سيدي الرئيس . لقد كنت أول من عرفه ، وانا

أصرّ على ذلك . هذا الرجل هو جان فالجان . دخل سجن طولوز

سنة ١٧٩٦ وخرج منه سنة ١٨١٥ . لقد خرجت انا في العام الذي تلا .
إن سيا الحبل تبدو على وجهه الآن ، ولكن لا ريب في ان الشيخوخة
هي التي خبئته . أما في سجن الاشغال الشاقة فقد كان مرانياً ذا وجهين .
أنا أعرفه ، على وجه التأكيد .

فقال الرئيس :

« إجلس ! ايها المتهم ، إبقَ واقفاً . »

وجيء بشونيلدو ، وهو محكوم بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، كما
بدا من رداءه الاحمر وقلنسوته الخضراء . كان يتحمل عقوبته في سجن
طولون الخاص بالمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ، ولقد اقتيد من هناك
لهذه المناسبة . كان رجلاً ضئيل الجسم ، في نحو الخمسين من العمر ،
نشطاً ، متجمد البشرة ، مهزولاً ، أصفر ، وقحاً ، قلقاً . وكان في
اوصاله كلها وفي شخصه كله ضرب من الضعف المرخي ، وفي نظراته
قوة هائلة . كان رفاقه في سجن الاشغال الشاقة قد لقبوه بـ « جو - في »
- ديو ، * .

ووجه الرئيس اليه الكلمات نفسها التي وجهها الى يروفيه تقريباً .
وحين ذكره بأن عاره قد حرمه الحق في ان يُقسم ميمناً ، رفع شونيلدو
رأسه ونظر الى الجمهور في وجوههم . ودعاه الرئيس الى ان يجمع شتات
أفكاره ، وسأله ، كما سأل يروفيه من قبل ، ما اذا كان لا يزال يبصر
على انه يعرف المتهم .

وانفجر شونيلدو ضاحكاً :

« يا الهي ! ما اذا كنت أعرفه ! لقد سلخنا خمس سنوات
مشدودين الى السلة الحديدية نفسها . انت متاء مني ، اليس كذلك ،
ايها الفلام العجوز ؟ »
فقال الرئيس :

« Je - nie - Dieu وترجمتها : « أنا أنكر وجود الله . »

- « اجلس . »

واقناد الحاجب كوشباي . وكان هذا المحكوم عليه ايضاً بالاشغال الشاقة مدى الحياة ، والموق من سجن الاشغال الشاقة ، واللابس رداء احمر مثل شونيلدير ، فلاحاً من لورد ، ونصف دبّ من البيريديه . كان يرعى الماشية في الجبال . ولقد انزلت به قدمه من راعٍ الى قاطع طريق . وما كان كوشباي اقل فظاظَةً من المتهم ، ولقد بدا اكثر بلاهة منه . كان واحداً من اولئك الرجال التعمين الذين ترممهم الطبيعة رسماً خفيفاً وحوشاً كامرة ، ثم يأتي المجتمع فيتم عمله فيهم جاعلاً منهم عبيداً أرقاء في سجن الاشغال الشاقة .

وحاول رئيس المحكمة ان يحرك عواطفه ببضع كلمات جدية مؤثرة ، وسأله كما سأل زميليه الآخرين ، ألا يزال يصرّ ، من غير ما تردد أو عسر ، على انه يعرف الرجل الواقف أمامه .

فقال كوشباي :

- « إنه جان فالجان . انه هو نفسه الذي كانوا يدعونه « جان

رافعة الانتقال » بسبب قوته الهائلة . »

وكان كل من التوكيدات التي أرسلها هؤلاء الرجال الثلاثة ، في إخلاص ونية حسنة من غير شك ، قد أثار في صفوف النظارة مهمة من التنبؤ الغاضب ضدّ المتهم ، مهمة كانت تزدد قوةً وتطاولاً كلما أضيف الى التوكيد السابق توكيدٌ جديد . وأصغى المتهم نفسه اليها في تلك السبحة المنشدّة التي كانت ، في زعم الاتهام ، وسيلة دفاعه الرئيسية . ولقد سمع رجال الدرك المجاورون له يغمغم من بين أسنانه عقب التوكيد الاول : « آه ، حسناً ! هذا واحد منهم ! » وإثر التوكيد الثاني قال في صوت أعلى وفي سبحة من الارتياح تقريباً : « حسن ! » . حتى اذا سمع التوكيد الثالث صاح : « عظيم ! »

وخاطبه الرئيس قائلاً :

- « ايها المتهم ، لقد سمعت . هل عندك ما تقوله ؟ »
فأجاب :

- « أقول : عظيم ! »
ومرت في صفوف النظارة ضجة او شكت ان تغزو المحلفين . كانت
واضحاً أن الرجل قد هلك .
وقال الرئيس :

- « ايها الحجاب ، أقرتوا النظام . اريد أن أختم القضية . »
وفي هذه اللحظة أتى بعضهم بحركة على مقربة من رئيس المحكمة .
وسمع صوت بصيح :

- « بروفيه ، شونيلديو ، كوشباي ! أنظروا الى هذه الجهة ! »
كان ذلك الصوت فاجعاً وفظيئاً الى حد جعل جميع الذين سمعوه
يحسّون وكأن الدم قد جمد في عروقهم . وصوّبت الأعين كلها نحو
النقطة التي انبعث منها الصوت . كان رجل من أولئك الذين احتلوا
مقاعد الشرف خلف هيئة المحكمة قد نهض ، ودفع الباب المنخفض الذي
يفصل المحكمة عن مجلس القضاة ، ففتحه ، ووقف في وسط القاعة . وعرفه
الرئيس ، والنائب العام ، ومسيو باماتابوا ، وعشرون شخصاً آخرون ،
وصاحوا في آنٍ معاً :
- « مسيو مادلين ! »

١١

شانماتيو يزداد دهشاً على دهش

كان هو في الواقع . لقد اضاء مصباح كاتب المحكمة وجهه . كان
يمسك قبعته بيده . ولم يكن ثمة اي اضطراب في ملابسه ؛ فقد كانت

سقوطه الطويلة المشقوقة الذيل (الريدنغوت) مزورة في غابة . كانت
شاحباً جداً ، وكان يرتعد ارتعاداً طفيفاً . اما شعره الذي كان اشيب
عند وصوله الى آراس فقد ابيض امسى الآن أبيض تماماً . كان قد ابيض
خلال الساعة التي قضاها هناك .

وأُتِلعت نحوه الاعناق كلها . كان الاثر الذي تركه هذا الموقف في
نفوس الناس ممتنعاً على الوصف . وعبرت بالنظارة لحظة تردد . كانت
الصوت موجعاً جداً ، وكان الرجل الواقف هناك يبدو هادئاً جداً الى
حد جعل الناس لا يفهمون شيئاً أول الامر . وتساءلوا من الذي صاح .
إنهم لم يستطيعوا ان يصدقوا ان هذا الرجل الهادي قد اطلق تلك
الصيحة المروعة .

ولم تستمر هذه الحيرة غير بضع ثوانٍ . وحتى قبل ان يستطيع
الرئيس والنائب العام ان يقولوا كلمة ، وقبل ان يستطيع رجال الدرك
والحجاب ان يأتوا بايماة ، كان الرجل الذي دعاه القوم كلهم حتى تلك
اللحظة مسيو ماداين قد تقدم نحو الشهود كوشباي ، وبروفيه ،
وشونيلديو .

وقال :

— « ألا تعرفونني ؟ »

وظل الثلاثة ذاهلين ، ولم يشيروا بحركة من الرأس الى انهم لم
يعرفوه . وأدى كوشباي ، وقد استبد به الرعب ، التحية العسكرية .
واستدار مسيو ماداين نحو المحلفين وهيئة المحكمة ، وقال في صوت
رخيم :

— « ايها السادة المحلفون ، أطلقوا سراح المتهم . سيدي الرئيس ،
أصدر امرى باعتقالي . انه ليس الرجل الذي تبحثون عنه . انا ذلك
الرجل . انا جان فالجان . »

ولم يتنفس ايماغم . كان صمت اشبه بصمت القبور قد تعقب الانشداد

الأول . كان في مبدور المراء ان يستشعر في القاعة ذلك الضرب من الهول الديني الذي يعصف بالجمهور حتى يُنجَزَ عملٌ عظيم .
ومع ذلك فقد كان وجه الرئيس موسوماً بالحزن والمشاركة الوجدانية .
لقد تبادل نظرة خاطفة مع النائب العام ، وبضع كلمات مهبوسة مع مساعديه من القضاة . ثم التفت الى النظارة وسأل في نبوة فهما الجميع :
- « هل يوجد طبيب هنا ؟ »

وانبرى النائب العام للقول :

-- « سادتي المحلفين ، إن الحادثة الغريبة غير المرتقبة التي تقلق النظارة لتوقع في نفوسنا ، كما توقع في نفوسكم ، شعوراً لا حاجة بنا الى التعبير عنه . فأنتم جميعاً تعرفون ، من طريق الشهرة على الاقل ، ميو مادلين المبعجل ، عمدة مونتروي سور مير . فاذا كانت بين النظارة طبيب فتحن نضم ضوتنا الى صوت السيد الرئيس فنرجوه ان يتلطف ويمد يد العون الى ميو مادلين ، ويقوده الى مقره . »

ولم يدع ميو مادلين النائب العام يتم كلامه ، بل اعترضه في جرس مفعم بالوداعة والسلطان . وهذه هي الكلمات التي لفظها . هذه هي بالحرف الواحد كما دوتها حال اختتام الجلسة واحد من الذين شهدوا هذا الموقف ، وكما لا تزال ترن في آذان اولئك الذين سمعوا قبل اربعين سنة من هذا التاريخ تقريباً .

- « اشكرك ، يا سيدي النائب العام ، ولكنني لست مجنوناً . سوف ترى . لقد كنت على وشك ان ترتكب غلظة كبيرة . أطلق سراح هذا الرجل . إني اقوم بواجب . انا ذلك المحكوم التمس . انا الشخص الوحيد الذي يرى بوضوح في هذا المكان ، وإني لاقول لك الحقيقة . إن ما عمله في هذه اللحظة يراه الله الذي في الاعالي ، وهذا يكفي . في استطاعتك ان تلقي القبض عليّ ، ما دمت موجوداً هنا . ومع ذلك ، فقد بذلت غاية جهدي . لقد استوت تحت اسم

آخر ؛ لقد غدوتُ غنياً ؛ لقد غدوت عمدةً ؛ لقد أودت ان اعاود
الدخول الى دنيا الرجال الفاضلين . يبدو ان هذا غير ممكن .
وبالاختصار ، فهناك اشياء كثيرة لا يستطيع ان اقولها ؛ انا لن اووي
لك قصة حياتي ، ولسوف تعرفها في يوم من الايام . لقد سرقت صاحب
السيادة الاسقف ؛ هذا صحيح . لقد سرقت جيفيه الصغير ؛ هذا صحيح .
لقد كانوا على صواب حين قالوا لك ان جان فالجان كان وجلاً نعساً
خيئاً جداً . ولكن الغلطة كلها قد لا تكون غلطته . اسمعوا ، ايها
السادة القضاة ، إن وجلاً يسربله الذلّ بقدر ما يسربلني ليس لديه احتياج
يوجهه الى العناية الالهية ، او نصيحة يقدمها الى المجتمع . ولكن
انتهبوا . إن العار الذي حاولت ان اخرج من حضيفه مفسدٌ للرجال .
إن سجون الاشغال الشاقة تصنع المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة . خذوا
هذا مثلاً ، اذا شتم . فقبل ان ادخل سجن الاشغال الشاقة كنت فلاحاً
بسيطاً ، قليل الحظ من الذكاء ، شبه معتوه . ولكن سجن الاشغال
الشاقة غيّرني . كنت ابلاً ، فاصبحت شريراً . كنت 'حطبة' ،
فأصبحت جذوة ناو . وفي ما بعد انقذتني الحكمة والطيبة كما سبق
للقسوة ان اضاعتني . ولكن ، عفواً ، انتم لا تستطيعون ان تفهموا ما
أقوله . سوف تجدون في منزلي ، بين رماد الموقد ، قطعة الاربعين
'سو' التي سرقتها لسبع سنوات خلت من جيفيه الصغير . ليس
عندي ما اقوله غير هذا . ألقوا القبض عليّ ! يا الهي ! إن النائب
العام هزّ رأسه . أنت تقول : ' مسيو مادلين قد اصيب بالجنون .'
أنت لا تصدقني ! هذا شيء محزن . لا تدينوا هذا الرجل ، على
الاقل ! ماذا ؟ هؤلاء الرجال لا يعرفونني ! ليت جافير ذاك كان
هنا . لقد كان خليقاً به هو ان يعرفني !

وليس في ميسور شيء ان يعبر عن الكتابة الرفيعة الكالحة التي انطوت
عليها النبرة المصاحبة لهذه الكلمات .

والتفت الى الثلاثة المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة :

« حسناً ، أنا أعرفك ، يا بروفيه ! هل تذكر ... ؟ »

وتعهل ؛ وتردد لحظة ، ثم قال :

« هل تذكر رحالة البنطلون تلك ، المزروعة ، ذات الرقع ، التي كانت لك في سجن الاشغال الشاقة ؟ »

وأجفل بروفيه إجمالة دهش ، وحدق اليه من قمة رأسه الى اخص قدميه بنظرات مروعة . أما هو فتابع كلامه :

« وانت يا شونيلديو الذي لقيت نفسك بـ « جو - بي - ديو » ، لقد احترقت كتفك اليسرى احتراقاً صيفاً لانك القيتها ذات يوم على كانون مليء بالجر لكي تمحو هذه الاحرف الثلاثة T.F.P. التي لا تزال ترى على تلك الكتف برغم ذلك . أجيني ، هل هذا صحيح ؟ »

فقال شونيلديو :

« هذا صحيح ! »

ثم انه التفت الى كوشباي :

« كرشباي ، ان لك قربَ مَعْطِفِ ذراعك اليسرى تاريخاً تُنقش بأحرف زرقاء بواسطة الذرور المحترق . انه تاريخ هبوط الامبراطور الى البر ، عند مدينة « كان » ، ١ آذار ١٨١٥ . ارفع رُذْنَكَ . »

ورفع كوشباي رُذْنَه . وصوبت جميع الاعين المحيطة به الى ذراعه العارية . وجاء دركي بمصباح . كان التاريخ هناك .

والتفت الرجل النعس الى النظارة والى هيئة المحكمة وعلى شفتيه ابتسامة لا تزال ذكرهاها تمزق قلوب الذين شاهدوها . كانت ابتسامة النصر . وكانت كذلك ابتسامة اليأس .

وقال :

« انتم ترون جيداً أني أنا جان فالجان . »

ولم يبقَ في تلك القاعة لا قضاة ، ولا متهمون ، ولا رجال درك ؛

لم يبقَ فيها غير عيون مسددة ، وقلوب خافتة . ولم يعد احدٌ يذكر الدور الذي كان يتعين عليه القيام به . لقد نسي النائب العام أنه إنما وُجد هناك ليدعي ؛ ونسي الرئيس أنه إنما وُجد هناك ليرثس الجلسة ؛ ونسي محامي الدفاع أنه إنما وُجد هناك ليدافع . ومن عجب ان سؤالا ما ، لم يُسأل ؛ وان سلطة ما ، لم تتدخل . إن من خصائص المشاهد الرفيعة الذرى أن تستولي على كل نفس ، وان تجعل من كل شاهد مُشاهداً . ولعل احداً من القوم لم يكن يعي ، بجلاء ، تلك الخبرة التي تمت له . وليس من ريب في ان احداً منهم لم يقل في ذات نفسه إنه رأى ، ثقة ، تالِقَ ضياء عظيم . ومع ذلك فقد احسّوا جميعاً ، احاساً باطنياً ، أنهم قد بُهروا .

كان واضحاً ان جان فالجان مائلٌ أمام أعينهم . لقد أطلقت تلك الواقعة شعاعها . ولقد كان بروز ذلك الرجل كافياً لكي يغمر بالضياء تلك القضية التي كان الفموض يكتنفها من افطارها ، قبل لحظة . ومن غير ما حاجة الى تفسير اضافي فهم الحشد في الحال ومن اللجة الاولى ، وكأنما كان ذلك بضرب من الكشف الكهربائي ، هذه القصة البسيطة الرائعة ، قصة الرجل الذي استسلم الى العدالة لكي لا يُحكَم على رجل آخر مكانه . اما التفاصيل ، أما ضروب التردد ، أما صنوف المقاومة الصغيرة الممكنة فقد ضاعت في هذه الحقيقة الضخمة الساطعة .

كانت انطباعة ما لبثت ان تلاشت ، ولكنها كانت في تلك اللحظة أقوى من أن تقاوم .

وتابع جان فالجان كلامه :

— « انا لا اريد ان أعطل الجلسة اكثر مما فعلت . أنا ذاهب ، ما دمت لم أعتقل . أن عندي اشياء كثيرة يجب ان أقوم بها . والسيد النائب العام يعرف من أنا ، ويعرف الى أين سأذهب ، ولسوف يصدر أمره باعتقالي حين يشاء . »

ومشى نحو الباب الخارجى . ان صوتاً ما ، لم يرتفع . وان ذراعاً ما ، لم تمتد لتسعه . لقد تنحّوا كلهم عن سبيله . كان يعمر نفسه في تلك اللحظة شيء الهى لا يوصف يجعل الحشود تنكص على أعقابها وتخلى الطريق لرجل ما . واتخذ سبيله من خلال الجمع في خطى وثيدة . ولم يُعرف قط من الذي فتح الباب . ولكن الثابت أنه كان مفتوحاً حين انتهى اليه . وعندئذ استدار وقال :

« سيدي النائب العام ، انا دائماً تحت تصرفك . »

ثم وجه الخطاب الى النظارة قائلاً :

« انتم جميعاً ، انتم الذين تضمكم هذه القاعة جميعاً ، تعتبرون اني جدير بالرحمة ، اليس كذلك ؟ يا الهى ، حين أفكر بالذي كنت على وشك ان أفعله بخيل الى أني جدير بالحسد . ومع ذلك ، فقد كنت اتنى لو ان هذا كله لم يحدث . »

وخرج . وأغلق الباب كما قد فتح من قبل ، لأن اولئك الذين يقومون بأعمال عظيمة سامية هم ابدآ على ثقة من ان شخصاً ما من افراد الحشد سيخدمهم .

وبعد اقل من ساعة صدر حكم المحلفين مبرئاً المدعو شافاتيو من اي تهمة . وأطلق سراح شافاتيو في الحال فاتخذ سبيله مشدوهاً ، معتقداً ان الناس جميعاً قد أصيبوا بالجنون ، غير فاهم شيئاً من هذه الرؤيا .

الكتاب الثامن

ضَرْبَةُ مُعَاكِتَةٍ

١

بأية امرأة ينظر مسيو مادلين

الى شعره

وآذن الصبح بالانبلاج . لقد قضت فانتين ليلةً محمومة ، أرقية ، مليئة - مع ذلك - بالرؤى السعيدة . ومع الفجر استسلمت للرقاد . واغتصمت الاخت سيبلبس التي سهرت على راحتها هذه الفرصة لتذهب وتعدّ مقداراً جديداً من سائل الكينا . ولم تكد الراهبة الطيبة تمضي بضع لحظات في مختبر المستشفى ، منكبّة على عقاقيرها وزجاجاتها ، محدّقة اليها عن كتب بسبب الضباب الذي يلقيه الضحى على الاشياء كلها ، حتى ادارت رأسها فجأة ، وأطلقت صيحة واهنة . كان مسيو مادلين

واقفاً امامها . كان قد دخل عليها ، اللحظة ، في صمت .
وصاحت :

— « هذا انت ، يا سيدي العمدة ! »

فأجابها في صوت خفيض :

— « كيف حال المرأة المسكينة ؟ »

— « إنها احسن ، الآن . ولكن القلق كان قد استولى علينا حقاً . »

وقصّت عليه ما جرى ، وأن فانتين كانت مريضة جداً الليلة البارحة

ولكنها الآن احسن حالاً لأنها اعتقدت أن السيد العمدة ذهب الى

مونفيرماي ليجيئها بابنتها . ولم تجرؤ الراهبة على أن تسأل السيد العمدة ،

ولكن سيّاه أنباتها ، في وضوح ، انه ليس قادماً من هناك على الاطلاق .

وقال :

— « هذا كله حسن . لقد أحسنت صنعاً حين احجبت عن خداعها . »

فقالت الراهبة :

— « اجل ، ولكن الآن ، يا سيدي العمدة ، حين تراك ولا ترى

ابنتها معك ، ما الذي سنقوله لها ؟ »

وفكّر لحظة ثم قال :

— « ان الله سوف يلهينا ما نقول . »

فغمغت الأخت في صوت كالهس :

— « ولكننا لا نستطيع أن نكذب عليها . »

وتدفقت اشعة النهار على الغرفة ، فأضاءت وجه مسيو مادلين .

واتفق أن رفعت الأخت عينها ، فصاحت :

— « يا الهي ! ايها السيد ! ما الذي اصابك ؟ إن شعرك أبيض كله ! »

فقال :

— « أبيض ! »

ولم تكن عند الاخت سيمبليلس مرآة . فبحثت في صندوق يحتوي

على بعض الادوات واخرجت منه سراً كان طيب المستشفى يتثبت بواسطتها من ان مريضاً ما قد مات فهو لا يتنفس البتة .
وتناول مسيو مادلين المرأة ، ونظر الى شعره وقال :
- « حقاً ! »

ونطق بهذه الكلمة في لا مبالاة وكأنما كان يفكر في شيء آخر .
واستشعرت الاخت قشعريرة اوقعها في اوصالها شيء مجهول لحته في هذا كله .

وسألها :

- « هل أستطيع أن أراها ؟ »

فقلت الاخت وهي ما تكاد تجرؤ على أن تغامر بطرح السؤال :

- « ألن يعيد اليها سيدي العمة ابنتها ؟ »

- « طبعاً . ولكن ذلك يحتاج الى يومين او ثلاثة ، على الاقل . »
فاستطردت الاخت في خشية :

- « اذا لم ترَ سيدي العمة هنا فلن تعلم أنه قد رجع . وعندئذ يكون من اليسير عليها ان تتصبر . حتى اذا جاءت الطفلة اعتقدت بصورة طبيعية ، ان السيد العمة قد جاء بها اللحظة . وهكذا لا نضطر الى ان نكذب عليها . »

وبدا مسيو مادلين وكأنه يفكر بضع لحظات ، ثم قال في رصانته الهادئة :

- « لا ؛ ايها الاخت ، يجب ان اراها . لعله أن لا يبقى لديّ متسع من الوقت . »

ولم يبدُ ان الراهبة قد لاحظت « لعل » هذه التي خلعت مغزى غامضاً وفريداً على كلمات السيد العمة . فأجابت خافضة رأسها وصوتها في احترام :

- « اذا كان الامر كذلك فهي نائمة . ولكن في استطاعة سيدي

أن يدخل . »

وأبدى بعض الملاحظات عن باب لا يُفلق في 'يسر فهو يطلق ضجة قد توقظ المريضة .

ثم دخل غرفة فانتين ، واقرب من سريرها ، وفتح الستارة . كانت نائمة . وكان نَفْسُها يخرج من صدرها بذلك الصوت الفاجع الميَّز لهذه الامراض ، والذي يمزق قلوب الامهات التعمسات وهن يشهدن رقاد اولادهن المشرفين على الموت . ولكن هذا التنفس المرهق قليلاً ما عكّر ذلك الضرب من الصفاء الذي يعزّ على الوصف والذي شاع في حياتها ، وغير هيتها اثناء الرقاد . كان شحوبها قد غدا بياضاً ، وكان خدّها فرمزين . واختلجت احقانها الطويلة الشقراء - الجمال الوحيد الذي بقي لها من بُنُوليتها وصباه - فيما هي ما تزال مُغمضة 'مسدلة . وارتمد شخصها كله ، وكأنما كان ذلك الارتعاد برفرة الجناحين السلذين كان يُشعر بها ولكنها لا يُريان ، واللذين كانا على وشك ان ينتشرا ويحملاها . ولو قد رآها المرء على هذه الحال اذن لما كان في مبالوره ان يظنّ مطلقاً أنها كانت مريضة شبة ميتوس منها . لقد بدت وكأنها على اهبة الطيران لا على اهبة الموت .

إن الفصن ليرتجف حين تمتد يده اليه لتقطف الزهرة ، وانه ليبدو وكأنه يرتدّ الى الوراء ويقدم نفسه في آن معاً . والجسم البشري ينكشف عن شيء من هذا الاختلاج في اللحظة التي تمتدّ فيها اصابع الموت الحفية لاختطاف الروح .

وظل مسيو مادلين فترة من الوقت جامداً لا يتحرك امام هذا السرير ، ناظراً الى المريضة حيناً والى تمثال المصلوب حيناً ، كما قد فعل منذ شهرين يوم وفد للمرة الاولى لكي يراها في هذا المأوى . كانا لا يزالان كلاهما هناك في الوضع نفسه ، هي نائمة وهو مصلياً . كل ما في الأمر ان شعرها الآن ، بعد ان تقضى هذان الشهران ، أمسى أشيب

وان شعره أسمى ابيض .
ولم تكن الراهبة قد دخلت معه . لقد وقف الى جانب السرير ،
واصبمه على شفتيه وكأنما كان في الغرفة شخص ما ، يريد ان يسكنه .
وفتحت عينيها ، ورأته ، وقالت في سكونة ، وبابتسامة :
- « وكوزيت ؟ »

٢

فانتين سعيدة

إنها لم تجفل بالدهش ولا بالابتهاج . لقد كانت هي الابتهاج عينه .
وكان هذا السؤال البسيط : « وكوزيت ؟ » قد طرح بايمان عميق
جداً ، وثقة مكينة جداً ، ونجوة كامنة من القلق والشك بحيث لم
يستطع أن يجد كلمة يجيب بها عنه .
وتابعت :

- « لقد عرفت انك كنت هناك . كنت نائمة ، ولكني رأيتك .
لقد رأيتك فترة طويلة من الزمن . لقد تتبعتك بعيني طوال الليل .
كانت تحيط بك هالة من المجد ، وكانت ترفرف حولك مختلف الوجوه
الساوية ! »

ورفع عينيه نحو تمثال المصلوب .
واستطردت :

- « ولكن قل لي ، ابن كوزيت ؟ لماذا لا تضعها في سريري
لكي يكون في إمكاني ان اراها لحظة أستيقظ ؟ »
واجابها على نحو آلي بشيء ما ، لم يوفق بعد الى تذكره فقط .
وكان الطبيب قد اقبل لحسن الحظ ، وكان قد احيط علماً بذلك ،

وتقدم لتجدة مسيو مادلين ، قائلاً :

- « إلزمي الهدوء يا ابنتي ، إن طفلتك هنا . »

وشعّت عينا فانتين بالجذل ، وأضاءتا بحبّاتها كله . وشبكت ذراعيها في سبّا
مفعمة بكل ما يمكن ان تنطوي عليه الصلاة من أعنف العنف والطف اللطف .
وصاحت :

- « اوه ، إحملوها اليّ ! »

وهمّ مؤثر من اوهام الأمّ . كانت كوزيت لا تزال ، في نظرها ،
تلك الطفلة الصغيرة التي 'تحمل بين الذراعين .
وتابع الطبيب كلامه :

- « ليس الآن . ليس في هذه اللحظة . انت لا تزالين محبوسة
بعض الشيء . وان رؤية ابنتك قد تشيرك ونسيء الى صحتك . ينبغي
ان نشفيك أولاً . »
فقاطعته في حدة :

- « ولكنني مُشفيت ! اقول لك إنني مُشفيت ! هل هذا الطبيب
مجنون ؟ انا اريد ان ارى ابنتي ، انا ! »

فقال الطبيب :

- « رأيت كيف عصف بك الانفعال ؟ ما دمت في هذه الحال
فلن استطيع ان اسمع لك برؤية ابنتك . ليس يكفي ان تريها ؛ يجب
أن تعيشي من أجلها . وحين تغلبين العقل اجيئك بها أنا بنفسي . »
وخت الأم المسكينة رأسها :

- « سيدي الطبيب ، ألتمس عفوك . ألتمس عفوك باخلاص . في
الماضي ما كنت لأتكلم كما تكلمت الان ولكنني ابتليت بعدد كبير
من المصائب جعلني لا ادري ، في بعض الاحيان ، ما أقول . انا
افهم ، انت تخشى الانفعال . سوف أنتظر ما شئت لي ان أنتظر . ولكنني
اقسم لك ان رؤية ابنتي لن تؤذي . أنا اراها الآن ؛ انا لم أرفع عيني عنها منذ

الليلة البارحة . دعمهم يحملونها الي الآن ، فلن أكلمها إلا في رفق .
هذا كل شيء . أليس طبيعياً جداً ان ارغب في رؤية ابنتي التي قصدوا
الي مونفيرماي خصيصاً لكي يأتوني بها ؟ انا لست غاضبة . انا ادري
اني سوف اكون سعيدة جداً . فطوال الليل ، رأيت اشياء بيضاء
ووجوهاً تبسم لي . وحين يجلو للسيد الطيب ، سوف يحمل الي صغيرتي
كوزيت . لقد فارقتني الحتى ، لأنني قد شفيت . انا احس جيداً اني
لم اعد اشكو شيئاً على الاطلاق ، ولكنني سوف أعمل وكأنني مريضة
ولن اتحرك لكي أدخل السرور على ائمة السيدات في هذا المستشفى .
وعندما يَرَبِّنَ اني مخلدة الي السكينة يقلن : يجب ان نعطيها ابنتها .
كان مسيو مادلين جالساً في كرسي الى جانب السرير . والتفتت
نحوه ، وبذلت جهداً واضحاً لكي تبدر هادئة و « عاقلة جداً » كما
قد قالت في وَهْن الداء ذاك الذي يشبه الطفولة ، لكي يروها لينة
الجانب الى حد بعيد ، فلا يكون ثمة عقبة تحول دون رؤيتها كوزيت .
بيد انها ، على الرغم من كبحها جماح نفسها ، لم تتألك عن ان توجه الى
مسيو مادلين ألف سؤال .

- « هل كانت رحلتك سعيدة ، يا مسير مادلين ؟ اوه ! كم
كنت كريماً في ذهابك لكي تأتيني بها ! ولكن قل لي كيف حالها ؟
هل استطاعت ان تحتل الرحلة في سهولة ؟ وأسفاه ! لأنها لن تعرفني .
لقد نسيتني الصغيرة المكيئة بعد هذه الغيبة كلها ! ان الاطفال لا ذاكرة
لهم . لانهم مثل العصفير . اليوم يرون شيئاً ، وغداً يرون شيئاً
آخر ، ثم لا يذكرون شيئاً . ولكن قل لي هل كانت ثيابها الداخلية
بيضاء ؟ هل كان تيناردييه وزوجته يعينان بنظافتها ؟ كيف كانا
يفغذيانها ؟ اوه ! لو كنت تعرف كم قاسيت في طرح هذه الاسئلة
كلها على نفسي أيام شفاي ! اما الآن ، فقد انقضى ذلك . انا سعيدة .
اوه ! ما اشد شوقي الى رؤيتها ! سيدي العمدة ، هل وجدتتها جميلة ؟

ليست ابنتي جميلة حقاً ؟ لا شك في انك احسست بالبرد الشديد في تلك
العربة العمومية ! اليس في إمكانهم ان يجيئوا بها الى هنا لحظةً صغيرة
فقط ؟ في استطاعتهم بعد ذلك ان يرجعوها ثانيةً في الحال . قل !
أنت الذي تتمتع بالسلطة هنا ، هل ترغب في ذلك ؟ »
وأمسك بيدها قائلاً :

« كوزيت جميلة . كوزيت في حال حسنة . سوف تزينها عما
قريب ، ولكن الزمي الهدوء . أنت تتكلمين بسرعة اكثر مما ينبغي .
والى هذا فأنت تخرجين ذراعيك من السرير ، وهذا ما يملك
تسعين . »

والواقع ان نوبات سعال شديدة كانت تقاطع فانتين عند كل كلمة
تقريباً .

ولم تذمر فانتين . لقد خشيت ان تصكرن قد اضعفت ، بتوصلاتها
المملوكة اكثر مما ينبغي ، تلك الثقة التي رغبت في إيجائها ، وشرعت
تتحدث في موضوعات ليست ذات أهمية .

- « مونفيرماي جميلة ، اليس كذلك ؟ في الصيف يذهب الناس
الى هناك التماساً للمتعة . هل يكسب تيناردويه وزوجته كسباً حسناً ؟
ان قليلاً من الناس يمرّون بتلك المنطقة . ان فندقها ليس اكثر من
مطعم حقير . »

وظل مسيو مادلين ممسكاً بيدها ، ونظر إليها في قلق . كانت
اضحاً انه اقبل ليخبرها أشياء كان عقله يتردّد الآن أمامها . وكانت
الطبيب قد عاها وانسحب . ولم تبقى الى جانبها غير الاخت سيمبليس .
ولكن في غمرة الصمت ، صاحت فانتين :

- « انا اسمعها ؟ اوه ، يا الهي ! انا اسمعها ! »

كان ثمة طفل يلعب في الفناء - ابنُ البوابة او عاملةٌ ما . كانت
احدى تلك المصادفات التي يلتقيها المرء ، والتي تبدو وكأنها تؤلف

جزءاً من الوضع المسرحي الحفيّ للاحداث الفاجعة . ولم يكن ذلك
الطفل غير فتاة صغيرة تروح وتجيء وتركض ، لكي تنعم بالدفء ، وتغني
وتضحك في صوت مرتفع . وأسفاه ! بأي شيء لا يمتزج لعبُ الاطفال
ومرحهم ! كانت هذه الطفلة هي التي سمعتها فانتين تغني .
وقالت :

- « اوه ، هذه كوزيتي ! أنا اعرف صوتها ! »
وانصرفت الطفلة كما اقبلت ، وتلاشى الصوت ، وأصفت فانتين فترةً
أخرى . ثم اكفهرت وجهها ، وسمعا ميسو مادلين تهمس :
- « ينبغي ان يكون هذا الطبيب شريراً جداً حتى لا يسمح لي
برؤية ابنتي ! ان لهذا الرجل وجهاً مشؤوماً ! »
ومع ذلك فقد عاودها اتجاه أفكارها البهيج . واستمرت تتحدث
الى نفسها ، ورأسها على الوسادة :

- « كم سنكون سعيدتين ! سوف يكون عندنا حديقة صغيرة
قبل كل شيء . ان ميسو مادلين قد وعدني بذلك . ان طفلي سوف
تلعب في الحديقة . يجب ان تعرف الاحرف الابدعية الآن . سوف
أعلمها كيف تهجي الحروف . انها ستطارد الفراشات في الاعشاب .
ولوف اراقبها . وبعد ذلك نحتفل بنناولها القربان اول مرة . آه ، متى
سيكون تناولها الاول ذاك ؟ »
وبدأت تعدّ على اصابعها .

- « ... واحد ، اثنين ، ثلاثة ، اربعة ... إنها في السابعة من
عمرها . بعد خمس سنوات . سوف ترتدي خماراً ابيض ، وجوارب
ذات ثقوب ، وسوف تبدو مثل سيدة صغيرة . اوه ، ايها الاخت
الطيبة ، انت لا تعرفين مبلغ حماقتي ؛ انا افكر الآن في تناول
ابنتي الاول ! »
واخذت في الضحك .

كان قد أفلت يد فانتين . واصفى الى هذه الكلمات كما يصفي المرء الى ربح نهب ، فعيناه مطرقتان الى الارض ، وروحاه غائصة في تأملات لا يُسبر لها غور . وفجأةً كفت عن الكلام ورفعت رأسها على نحو آلي . كانت فانتين قد غدت بخيفة .

ولم تتكلم بعد ، ولم تتنفس بعد . كانت قد جلست في سريرها نصف جلية وقد خرجت كتفها المهزولة من قميصها . وغدا وجهها ، الذي كان مشرقاً قبل لحظة ، شديد الشحوب ؛ وبدأت وكأنها تصوب عينها المتسعة بالذعر الى شيء مروّع واقف أمامها في الطرف الآخر من الغرفة .

وصاح :

« يا الهي ! ماذا دهاك ، يا فانتين ؟ »

ولم تجب ؛ ولم ترفع عينها قط عن الشيء الذي بدت وكأنها تنظر اليه ، ولكنها مدت ذراعه بأحدى يديها ، وأشارت اليه بالآخرى ان ينظر خلفه .
والفت ، فرأى جافير .

٣

جافير منشرح الصدر

فلنسرَ ما الذي كان قد حدث .

كانت الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل عندما غادر ميسو مادلين قاعة محكمة الجنايات في آراس . وكان قد رجع الى فندقه في اللحظة التي حان فيها موعد انطلاق عربة البريد التي احتجز فيها ، كما نذكر ، مقعداً له . وقبل الساعة السادسة صباحاً كانت قد بلغت

مونتروي سور مير حيث كان أول ما عمله ان حمل البريد ورسالته الى مسيو لافيت ، ليقتصد بعدد الى المستشفى ويرى فانتين .

وفي غضون ذلك كان النائب العام قد وجه الخطاب الى هيئة المحكمة - بعد أن زايله تأثير الصدمة الاولى بُعيد مغادرة مسيو مادلين القاعة - آسفاً للخبل الذي اصاب عمدة مونتروي سور مير المبجل معلناً ان يقينه لم يطرأ عليه تعديل ما نتيجةً لهذه الحادثة الغريبة التي سوف تنجلي في ما بعد ، طالباً - في انتظار ذلك - إدانة شائغاتيرو هذا الذي كان واضحاً انه جان فالجان الحقيقي . وكان جلياً ان إصرار النائب العام كان مناقضاً لعاطفة الجميع : النظارة ، وهيئة المحكمة ، والمحلفين . ولم يجد محامي الدفاع كبير عسر في أن يدحض هذا الخطاب وان يقرر ان وجه القضية قد تغير ، بعد الذي اعلنه مسيو مادلين ، يعني جاث فالجان الحقيقي ، وان هذا التغير كان كلياً ، وانه لم يكن امام المحلفين الآن غير رجل بريء . وخلص المحامي من ذلك الى اطلاق بعض الحكم ، غير الجديدة كثيراً مع الأسف ، حول الاخطاء القضائية ، الخ . الخ . وفي تلخيصه للدعوى أيد رئيس المحكمة محامي الدفاع . وبعد بضع دقائق كان المحلفون قد برأوا ساحة شائغاتيرو .

ومع ذلك فقد كان النائب العام في حاجة الى جاث فالجان ما ، واذا خسر شائغاتيرو فقد استولى على مادلين .

وبعيد إطلاق سراح شائغاتيرو مباشرة خلا النائب العام الى رئيس المحكمة . وكان موضوع حديثها يدور على « ضرورة القاء القبض على شخص السيد عمدة مونتروي سور مير . » وكانت هذه العبارة الحافلة بالاضافات هي تلك التي كتبها النائب العام بخط يده في التقرير الذي رفعه الى كبير النواب العامين .

وإذا انقضى أثر الانفعال الاول فلم يبدِ رئيس المحكمة غير اعتراضات قليلة . يجب ان تتخذ العدالة مجراها . والى هذا فيتعبن علينا ان

نعترف ، لكي لا نكتم شيئاً ، ان الرئيس - على الرغم من كرم نفسه وذكائه قلبه - كان في الوقت نفسه ملكياً متحمساً ، بل ملكياً يكاد يكون متأججاً ، وكان قد اصاب بصدمة عندما كان عمدة مونتروي سور مير يتحدث عن غزو الارض الفرنسية عند « كاث » فقال « الامبراطور » بدلاً من «يُونابرت *Buonaparte*»

وهكذا صدر الامر بالاعتقال . وبعث النائب العام به الى مونتروي سور مير بواسطة رسول انطلق على جناح السرعة فدفعه الى مفتش الشرطة جافير .

ونحن نذكر ان جافير كان قد رجع الى مونتروي سور مير بعد ادلائه بشهادته مباشرة .

وكان جافير قد نهض ، وما كاد ، من فراشه حين حمل اليه الرسول الأمر بالاعتقال ومذكرة الجلب .

وكان الرسول هو نفسه شرطياً ، وكان رجلاً ذكياً استطاع ، بكلمتين ، أن يحيط جافيرَ علماً بكل ما جرى في آراس . وكان الأمر بالاعتقال ، الحامل توقيع النائب العام ، 'مفرغاً في هذه العبارات : -

« ان المفتش جافير سوف يلقي القبض على جسد السيد مادلين ، عمدة مونتروي سور مير الذي ثبت خلال جلسة اليوم انه هو المحكوم بالاشغال الشاقة المطلق السراح ، جان فالجان . »

ولو ان امراً لا يعرف جافير رآه حين دخل رواق المستشفى لما كان في ميسوره ان يحزر شيئاً بما كان يجري ، ولحسب ان سياه طبيعية الى ابعد حد يمكن تخيله . كان غائباً ، هادئاً ، رزيناً ، وكان شعره الاشيب صقيلاً أملس ، على نحو كامل ، وكان قد ارتقى السلم في بطئه المعتاد أما من قدر له ان يعرفه معرفة عميقة ، وان يتأمله في انتباه ، فقد كان خليقاً به أن يرتعد . كان ايزيم طوق قميصه

الجلديّ تحت أذنه اليسرى بدلاً من ان يكون على رقبته . وكان ذلك يتمّ عن احتياج لم يُسمع بمثله من قبل .

كان جافير شخصية كاملة لا تفضن في واجبه او في ستورته العسكرية . وكان مدققاً مع الآثمين ، قاسياً على اضرار ستورته .

ولكي ينحرف ابريم طوق قيصره عن موضعه لا بد ان يكون قد عصف به انفعال من الانفعالات التي نستطيع ان ندعوها زلازل النفس . كان قد اقبل في غير مبالاة ، وكان قد اصطحب من أحد مراكز الجند المجاورة عريقاً واربعة أنفار ، وترك الجنود في الفناء ، وسأل البوابة ان تدله على غرفة فانتين ، ففعلت من غير ان ترتاب في امره ، اذ كانت متعودّة ان ترى بعض الرجال المسلحين يسألون عن السيد العمدة .

حتى اذا بلغ جافير غرفة فانتين ، ادار المفتاح ، ودفع الباب في لطف مبرضة او جاسوس من جواسيس الشرطة ، ودخل .

ولو اردنا ان نصطنع الدقة في التعبير لقلنا إنه لم يدخل . لقد ظل واقفاً لدى الباب نصف المفتوح ، وقبعته على رأسه ، ويده اليسرى في معطفه المزركر حتى ذقنه . وفي انثناء مرفقه كان في ميسور المرء ان يرى رأس عصاه الضخمة الرصاصي ، وكانت قد اخفت وراءه .

وظلّ هكذا نحواً من دقيقة لم يحسّ بوجوده احد . وفجأة ، رفعت فانتين عينيها ، ورأته ، ودعت مسيو مادلين الى الالتفات .

وحالما التقت عينا مادلين بعيني جافير غدا جافير - من غير ان يتحرك ، ومن غير ان يبدل مكانه ، ومن غير ان يقترب - مروّعاً فظيماً . ان اياً من العواطف الانسانية لا يمكن ان تكون مخيفة كالاحتياج .

كان وجهه شيطانٍ عثر على ضحيته من جديد . وكان يقينه بأنه قد ألقى القبض ، آخر الامر ، على جان فالجان قد اظهر

على بحياه كل ما كان في ذات نفسه . لقد ارتفعت أعماقه المضطربة الى السطح . وكان الحزبي الذي استشره بسبب من انه ضل الاثر وخدع عن ذات نفسه ، بضع دقائق ، في مسألة ثنائيو - كان هذا الحزبي قد ضاع في الغرور الذي استشره بسبب من انه وفتق الى أن يحزر ، منذ البدء ، على هذا النحو البارع ؛ ومن انه احتفظ منذ دهر طويل بغريزة لا تكذب صاحبها . وتجلي ارتياح جافير في مسلكه المفعم بالسلطان والجبروت . لقد انتشرت بشاعة الانتصار فوق جبينه الضيق . كان ذلك أكل صورة من صور الهول يمكن لوجهه جذلات ان يتكشف عنها .

كان جافير ، في تلك اللحظة ، في السماء . ومن غير أن يحدد احاسيسه على نحو واضح ، ولكن في حدث مشوش أشعره بضرورته وبنجاحه ، مثل ، هو جافير ، العدالة والنور والحقيقة في مهمتها السماوية كدثرة للشر . كانت من ورائه ومن حوله أعماق لا نهاية لها من اللطة ، والعقل ، والسابقة ، والضمير القضائي ، وانتقام القانون ، وجميع النجوم التي في القبة الزرقاء . لقد صان النظام ؛ لقد أطلق وعود القانون ؛ لقد انتقم للمجتمع ؛ لقد مد يد العون الى المطلق . لقد وقف منتصب القامة وسط هالة من المجد . لقد كان في انتصاره بقية من نحدٍ ومن صراع . كان في وقفته المتفطرة ، المتألفة ، يعرض في جلال كامل البهيمة فوق البشرية الجديرة برئيس ملائكة ضار . وكان الظل الرهيب للعمل الذي يقوم به يُبدي ، في تجمع كفه المتشنج ، بوارق السيف الاجتماعي الغامضة . كان يدوس بعقب قدمه ، في سعادة وفي حق ، على الجريمة ، على الرذيلة ، على التمرد ، على الهلاك الابدي ، على الجحيم . كان يتألق ، وكان يُبدي ، وكان يتسم . كان ثمة عظمة لا يمكن إنكارها في هذه الصورة الفظيعة من صور القديس ميشيل . *

* كبير الملائكة ، وقائد جند السماء .

لم يكن جافير ، رغم انه مخيف ، خسيباً قط .
 إن النزاهة ، والاخلاص ، وسلامة النية ، واليقين ، وفكرة الواجب
 هي اشياء قد تصبح بشعة ، حين تخطىء ، ولكنها تظلّ برغم بشاعتها
 عظيمة . إن جلالها الخاص بالضمير الانساني ، ليستمرّ في هولها . إنها
 فضائل ذات رذيلة واحدة : الخطأ . فالابتهاج الصادق الذي لا يعرف
 الرحمة والذي يتكشف عنه المتعصب في عمل من أعمال القسوة يحتفظ
 بأشعاع فاجع لا تقدر على وصفه ، أشعاع يوقع في نفوسنا الأجلال .
 ومن غير ان يشعر بذلك ، كان جافير في سعادته التي توحى بالذعر
 يستحق الرثاء ، مثل كل رجل جاهل يكسب معركة . إن شيئاً لا
 يمكن ان يكون أوجع او أقطع من هذا الوجه الذي تكشف مما
 يمكن ان ندعوه شرّ الخير .

٤

السلطة تسترد حقوقها

لم تكن فانتين قد رأت جافير من يوم ان اختطفها العدة من هذا
 الرجل . ولم يأخذ دماغها المريض بأيّ تحليل ؛ إلا انها لم تشكّ في أنه
 اقبل لالقاء القبض عليها . وما كان في ميورها ان تتعمل هذا الوجه
 الرهيب ؛ لقد استشعرت وكأنها 'تحتضر' ؛ وأخفت وجهها بيديها الاثنتين ،
 وصاحت في ألم نفسيّ مبرّح :

« مسيو مادلين ، أنقذني ! »

وكان جان فالجان - ونحن لن ندعوه منذ اللحظة بغير هذا الاسم -
 قد نهض . وقال لفانتين في جرس ليس ألطف منه ولا اكثر هدوءاً :
 - « إلزمي السكينة . إنه لم يأت من اجلك . »

ثم التفت الى جافير وقال :

- « انا اعرف ماذا تريد . »

فاجاب جافير :

- « ها ، أسرع ! »

كان في الطريقة التي نُطِقت بها هاتان الكلمتان شيء لا يمكن التعبير عنه ، شيء يذكرّك بوحش ضار وبرجل مجنون . إن جافير لم يقل : « ها ، أسرع ! » ولكنه قال : « هيا ... أسرع ! » وليس في إمكان علم الاملاء ان يعبر عن النبوة التي أطلق فيها هذا الكلام . لأنه لم يكن كلاماً بشرياً قطّ ؛ كان زئيراً .

ولم يجر على مألوف عاداته ، ولم يدخل قطّ في الموضوع ، ولم يبرز أيّا مذكرة جلب . كان جان فالجان ، في نظره ، ضرباً من المقاتل الخفيّ الذي لا سبيل الى فهمه ؛ كان مصارعاً غامضاً سلخ خمسة اعوام وهو يغالبه من غير أن يَظهر عليه . إن هذا الاعتقال لم يكن بداءة ، لقد كان خاتمة . واكتفى بالقول :

- « ها ، أسرع ! »

وفيا هو يقول ذلك لم يخطّ خطوة واحدة ، ولكنه ألقى على جان فالجان نظرةً أشبه بالكلاّب المعدني كان من عاداته أن يجذب بها البؤساء نحوه ، بالقوة .

كانت هي النظرة نفسها التي استشعرت فانتين أنها نفذت الى نخاع عظامها قبل شهرين اثنين .

وكانت فانتين قد فتحت عينها عندما أطلق جافير صيحته . ولكن العدة كان هناك ، فمن أيّ شيء يمكن أن تخاف ؟

وتقدّم جافير الى منتصف الغرفة ، صائحاً :

- « هاي ، هناك ! ألن تأتي ؟ »

ونظرت المرأة المسكينة الى ما حولها . لم يكن ثمة احد غير الراهبة

والعمدة . الى من يمكن ان يكون هذا الكلام الاستخفاف المحقر
موجهاً ؟ اليها وحدها ليس غير . وارتعدت اوصالها .
ثم انها رأت شيئاً عجباً ، شيئاً عجباً لم يتمثل لها نظيره حتى في
احلك لحظات الحزن وهذيانها .

لقد رأت جاسوس الشرطة جافير يمسك بخناق السيد العمدة ؛ لقد
رأت السيد العمدة يحني رأسه . وبدا لها وكأن العالم يتلاشى امام ناظرها .
كان جافير قد أخذ بخناق جان فالجان فعلاً .
وصاحت فانتين :

- « سيدي العمدة ! »

وانفجر جافير بالضحك . وكشف ضحكه الرهيب هذا عن اسنانه كلها .
وقال :

- « لم يُعدْ هنا شيء اسمه سيدي العمدة ! »

ولم يحاول جان فالجان ان يزجج اليد القابضة على طوق ستونه للطوبه
المشتوقة الذيل .
وقال :

- « جافير »

وقاطعه جافير :

- « نادني ايها السيد المفتش ! »

فتابع جان فالجان كلامه :

- « ايها السيد ، اريد ان اقول لك كلمة على انفراد . »

فقال جافير :

- « تكلم بصوت عال ! تكلم بصوت عال ! ان الناس يتكلمون

معهم بصوت عال ! »

وتابع جان فالجان كلامه ، خافضاً صوته :

-- « انما اريد ان اتقدم اليك برجاء »

- « اقول لك تكلم بصوت عالٍ . »
- « ولكن هذا شيء ينبغي ان لا يسمعه احد غيرك . »
- « وما يعني ذلك ؟ لن اصني لكلامك ! »
واستدار جان فالجان نحوه ، وقال في سرعة وفي صوت منخفض جداً :
- « أمهلني ثلاثة ايام ! ثلاثة ايام لكي اذهب وأجيء بطفلة هذه
المرأة المسكينة ! سوف ادفع كل ما هو ضروري في سبيل ذلك . وفي
استطاعتك أن ترافقني اذا شئت . »

فصاح جافير :

- « اتضحك عليّ ؟ هاي ؟ ما كنت اعتقد انك ابله الى هذا الحد !
انت تطلب مهلة ثلاثة ايام لكي تقرّ ثم تزعم انك تريد ان تذهب
لكي تأتي بطفلة هذه الفتاة ! ها ! ها ! هذا جيل ! هذا جيل ! »
وارتعدت فانتين .

وصاحت :

- « ابنتي ! تذهب لكي تجيئني بابنتي ! واذن ، فهي ليست هنا !
أيتها الاخت اجيبي ، اين كوزيت ؟ انا اريد ابنتي ! مسيو مادلين !
سيدي العدة ! »
وخطب جافير الارض بقدمه .

- « ها هي الاخرى ، الآن ! اخري ، اينها الفتاة الخالعة العذار !
مسكينة هذه البلاد التي يكون فيها المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة ولاية ،
والتي يمرض فيها بنات الهوى مثل الكونتيسات ! ها ! ولكن هذا كله
سينغير . لقد آن الاوان ! »

وحدّق الى فانتين تحديقاً موصولاً ، ثم اضاف ممسكاً ككرة اخري
بعقدة رقبة جان فالجان ، وقبضه ، وطوق سترته :

- « اقول لك انه لم يبق هنا شيء اسمه مسيو مادلين ، ولم يبق شيء
اسمه سيدي العدة . إن هناك لهما ؛ ان هناك قاطع طريق ؛ ان هناك

رجلاً محكوماً عليه بالاشتغال الشاقة يدعى جان فالجان ! انه هذا الذي امسك به ! ذلك ما يوجد هنا ! ،

وانتصبت فانتين في جلستها ، معتمدة على ذراعيها التوتوتين وعلى يديها . ونظرت الى جان فالجان ، ونظرت الى جافير ، ونظرت الى الراهبة . وفتحت فيها وكأنها تريد ان تتكلم ، وانطلقت من جنبرتها حشرة ، واصطكت اسنانها ، ومدت ذراعيها في ألم نفسي مبرح ، وفتحت يديها في تشنج ، متحسنة ما حولها مثل مشرف على الفرق . ثم انقلبت فجأة على ظهرها ، فوق الرصادة .

واصطدم رأسها بمقدم السرير ، فارتدت منقلباً على صدرها . كان فيها فاغراً وكانت عيناها مفتوحتين خامدتين .
لقد ماتت .

ووضع جان فالجان يديه على يد جافير المسكة به ، وفتحها وكأنه يفتح يد طفل . ثم قال لجافير :
- « لقد قتلت هذه المرأة . »

فصاح جافير في خنق :

- « كفى هراء ! انالم اجيء الى هنا لأستمع الى مواظ . وفتر هذا كله . الحرس تحت . إمش في الحال ، وإلا وضعت يديك في الحديد ! »
وكان في زاوية الغرفة سرير حديدي عتيق منهدم كانت كل من الراهبتين تتخذ منه سريراً نقلاً حين تسهر على خدمة المرضى . فما كان من جان فالجان إلا ان مضى الى ذلك السرير ، وانتزع في طرفة عين مقدمه الواهن - وما كان ذلك بعسير على عضلات كمضلاته - ونظر الى جافير ، والقضيب الحديدي في قبضة يده .

وارتدت جافير نحو الباب .

وفي ببطء ، تقدم جان فالجان ، متشبهاً بالقضيب الحديدي ، نحو سرير فانتين . حتى اذا انتهى اليه ، استدار وقال لجافير في صوت لا يكاد يُسمع :

- و أنصحك بأن لا تزعجني الآن .

وارتعد جافير ؛ ذلك شيء لا يتطرق إليه الشك .

وخطر له ان يمضي ليستدعي الحرس ، ولكن جان فالجان قد يغتم هذه الفرصة فيفرّ . وهكذا ظلّ معتمصاً بعقب عصاه ، وأمسد ظهره الى إطار الباب ، من غير ان يرفع عينيه عن جان فالجان .

واراح جان فالجان مرفقه على القضيب الحديدي ، وأراح رأسه على يده ، وحدّق الى فانتين وقد تمدّدت امامه وليس بها حراك . وظلّ هكذا ذاهلاً ، أكم ، غير مفكّر من غير شك بأيّ شيء في هذه الحياة . ولم يبق على حياءه ، وفي هيئته ، غير شفقة تمتنع على التعبير .

وبعد بضع لحظات من الاستغراق في التفكير انحنى فوق فانتين ، وخاطبها في صوت خفيض .

ماذا قال ؟ ما الذي يستطيع ان يقوله هذا الرجل الهالك لهذه المرأة الميتة ؟ ما كانت تلك الكلمات التي نطق بها ؟ إن أحداً على ظهر هذه الارض لم يسمعها . هل سمعتها المرأة الميتة ؟ إن ثمة أوهاماً مؤثّرة ربما كانت حقائيق سامية . والشيء الذي لا سبيل الى الشك فيه هو أن الاخت سيمبليس - الشاهدة الوحيدة لما قد جرى - كثيراً ما روت أنها لحظةً همس جان فالجان في أذن فانتين رأت في وضوح ، ابتسامةً يعجز البيان عن وصفها تُشرق على هاتين الشفتين الشاحبتين وفي هاتين العينين القانتين ، المغممتين بدهشة القبر .

وأملك جان فالجان رأس فانتين بيديه ، وقوّاه على الوسادة ، ففعل الأم برأس طفلها ، ثم عقد وثاق منامتها ، وأدخل شعرها تحت قفلسوتها . حتى اذا تمّ له ذلك أغمض عينها .

وفي تلك اللحظة بدا وجه فانتين مشرقاً على نحو عجيب .

إن الموت هو المدخل الى النور العظيم .

وتدلّت يد فانتين على جانب السرير . ودكع جان فالجان أمام

هذه اليد ، ورفعها في رفق ، وقبلها .
ثم انه نهض ، والثفت الى جافير قائلاً :
- « والآن ، انا تحت تصرفك . »

٥

قبر ملائم

ووضع جافير جان فالجان في سجن المدينة .
وأثار اعتقال ميسو مادلين خواطر الناس في مونتروي سور مير ،
بل الاصح ، ان نقول إنه احدث هزة فوق العادة . ويؤسفنا ان لا
نستطيع كتمان هذه الحقيقة : وهي أنه ما كادت تذيع تلك الجملة
المفردة : كان عبداً وقيماً من عبيد سجن الاشغال الشاقة حتى انقضت
من حوله الناس كلهم تقريباً . وفي اقل من ساعتين 'نسي جميع الخير
الذي اسداه الى البلد والناس ، ولم يعد هو غير محكوم عليه بالاشغال
الشاقة . ، ومن الانصاف ان نقول إن تفاصيل الحادث كما وقع في
آراس لم تكن قد عرفت بعد . وطوال النهار كانت احاديث مثل
هذه 'تسمع في كل جزء من اجزاء المدينة :

- « الا تعرف ؟ لقد كان محكوماً بالاشغال الشاقة أطلق سراحه ! »

- « من هذا ؟ »

- « العمدة . »

- « عجباً ، ميسو مادلين ؟ »

- « نعم . »

- « حقاً ؟ »

- « ان اسمه ليس مادلين . إن له اسماً خفياً : باجان ، بوجان ، بيجان ! »

— « آه ، يا السَّهي ! »
— لقد أُلقي القبض عليه .
— « التقي القبض عليه ! »
— « ووضِع في سجن المدينة ريثما يُنقل . »
— « ريثما يُنقل ؟ الى أين سوف ينقل ؟ »
— « سوف يساق الى محكمة الجنايات لسرقة في الطريق العام كان قد ارتكبها في ما مضى . »

— « حسناً ! لقد ارتبِت فيه دائماً . لقد كان هذا الرجل طيباً أكثر مما ينبغي ، كاملاً أكثر مما ينبغي ، لطيفاً أكثر مما ينبغي . لقد رفض ان يتقاضى اجراً ، وكان يمنح الدراهم لكل من يلتقيه من هؤلاء الاوباش الصغار . لقد فكرت دائماً بأنه لا بد ان يكون ثمة قصة رديئة خلف هذا كله . »

واخذت « الصالونات » كلها - على الخصوص - بهذا الرأي .
واطلقت سيدة عجوز ، مشرّكة بصحيفة « الراية البيضاء » ، هذه الملاحظة التي يكاد يتعذر على المرء ان يسبر غورها :

— « انا لست آسفة . ان ذلك سوف يلقي درساً على البوناپرتين ! »
وهكذا تبدّد في مونتروي سور مير ذلك الطيف الذي كان يُدعى فيها مسيو مادلين . إن ثلاثة اشخاص او اربعة اشخاص من اهل المدينة كلها ، لبس غير ، ظلوا اوفياء لذكراه . وكانت البوابة العجوز التي عملت في خدمته واحدة من هؤلاء .

وفي مساء ذلك اليوم نفسه كانت هذه العجوز الفاضلة جالسة في كوخها ، وهي ما تزال مشدوّهة ، وقد غرقت في تفكير حزين . كان المصنع قد أغلّق طوال النهار ، وكان الباب الكبير الذي تدخل منه العربات قد أوصد بالحديد ، وكان الشارع مقفراً . ولم يكن في المنزل احد غير الراهبتين ، الاخت بيريتو والاخت سيبليلس ، وكانتا ساهرتين

امام جثمان فانتين .

وحوالى الموعد الذي تعود مسيو مادلين العودة فيه الى منزله نهضت البوابة الامينة على نحو آليّ ، واخذت مفتاح غرفة مسيو مادلين من احد الادراج ، والشعدان الذي اعتاد ان ينير به سبيله ليلاً وهو يرتقي السلم ، ثم علقت المفتاح بمسار كان من دأبه أن يتناوله منه ، ووضعت الشعدان الى جانبه ، وكأنا كانت تتوقع عودته . ثم انها عاودت الجلوس في الكرسي ، واستأنفت تأملاتها . لقد عملت العبور المسكينة ذلك كله من غير ان نعي .

وانقضى على ذلك اكثر من ساعتين . وفجأةً أجفلت صائحة :
- « ولكن ، يا الهي ! لاني انا التي وضعت مفتاحه في المسار ! »
وفي تلك اللحظة ، فُتحت نافذة كوخها . وامتدت يدٌ من خلال تلك الفرجة ، واخذت المفتاح والشعدان ، وأضاءته بالشمعة المشتعلة . ورفعت البوابة عينها فافرة الفم . ووثبت الى شفتيها صيحة ، ولكنها خنقتها .
لقد عرفت اليد ، والذراع ، وُردن الريدينغوت .
كان مسيو مادلين .

وظلت صامئةً بضع دقائق ، قبل ان توفق الى الكلام ، مصعوقةً كما عبرت هي نفسها في ما بعد حين روت الحادثة .
واخيراً صاحت :

- « يا الهي ! السيد العمدة ! لقد حببتُ انك ... »
وصحنت . كان من الجائز ان تأتي خاتمة جلستها وقد أعوزها الاحترام لطلعها . فقد كان جان فالجان هو دائماً - في نظرها - السيد العمدة .
وأنتم فكرها ، قائلاً :

- « في السجن . لقد كنت هناك . لقد كسرت قضيباً حديدياً من احدى النوافذ ، وهزرت من أعلى سطح ما ، وها أنا ذا . لاني ذاهب الى غرفتي . قولي للاخت سيمبليس اني اوده ان اراها . انها من

غير شك الى جانب تلك المرأة المسكينة .

وامثلت العجز الأمر في سرعة بالغة .

ولم يوصها بشيء . كان وانقأ من انها خليفة بان تحرسه أحسن مما يحرس نفسه .

وما عرف احد قط كيف 'وفتق' الى ان يدخل الى فناء الدار من

غير ان يفتح الباب الكبير الخاص بالعربات . كان لديه مفتاح يحمله

ابداً في جيبه ، مفتاح عمومي يفتح باباً جانبياً صغيراً . ولكنهم قد

فتشوه من غير ريب ، وانتزعوا منه ذلك المفتاح الذي تعنونه الأبواب

كلها . إن هذه النقطة لما 'تجمل' حتى الآن .

وارتقى السلم التي تقود الى غرفته . حتى اذا بلغ الدور الأعلى ترك

شمعدانه على درجات السلم الأخيرة ، وفتح باب غرفته في رفق ، وتلمس

سيله نحو النافذة فأغلقها وأغلق مصراعها ، ثم ارتدت على آثاره ، فحمل

الشمعدان ، ومضى الى غرفته ككرة أخرى .

ولم يكن الحذر غير ذي غناء . فنحن نذكر ان نافذة غرفته يمكن

ان 'توى' من الشارع .

وألقي نظرة على ما حوله ، على طاولته ، على كرسيه ، على سريره

الذي لم يضطجع فيه منذ أيام ثلاثة . لم يكن ثمة ايما اثر من فوضى

الليلة التي قبل البارحة . ذلك بأن الخادمة كانت قد رتبت الغرفة ؛ بيد

أنها كانت قد التقطت من الرماد عقي العصا الحديديتين وقطعة الاربعين سو

التي سوتها النار . ووضعها جميعاً ، بعد تنظيفها ، على الطاولة .

وتناول ورقة وكتب : هاهما عقي عصاي الحديدتان وقطعة الاربعين

سو المسروقة من جيبه الصغير ، والتي تحدثت عنها في حكمة الجنايات .

ثم وضع القطعتين الحديديتين والقطعة الفضية على الورقة بحيث تكون أول

شيء يراه الداخل الى الغرفة . وأخرج من احدى الخزائن قيصاً له عتيقاً

ومزقه . وهكذا حصل على بضع قطع من القماش لف بها الشمعدانين

الفضيين . وفي ذلك كله لم يكن ثمة تعجل أو احتياج . وحتى فيما هو

يلفّ شمعاني الاسقف انشأ يقضم قطعة من الخبز الاسود . ولعلّ ذلك كان من خبز السجن الذي حمله معه حين فرّ .
ولما نهض الفئات الذي 'وجد على ارض الغرفة ، حين أجرت العدالة في ما بعد تفتيشاً دقيقاً ، دليلاً على ذلك .
وخفق شخصٌ ما الباب خفقتين رفيفتين .
وقال : « ادخل . »

كانت هي الاخت سيبليس .
كانت شاحبة الوجه ، محمّرة العينين ؛ وكانت الشمعة التي تحملها ترتجف في يدها . إن لصدّات القدر هذه الخاصة ، وهي اننا مهما تكن أحاسيسنا مكبّوحة أو حسنة الانضباط فان تلك الصدّات تنزع الطبيعة البشرية من أعماق نفوسنا ، وتكرهنا على ان 'نبديها للناس . ففي غمرة من انفعالات ذلك اليوم كانت الراهبة قد عادت امرأةً ككرة اخرى .
كانت قد ذرفت الدمع ، وكانت ترتجف .
وكان جان فالجان قد كتب بضعة أسطر على قصاصة من ورق ،
فقدّمها الى الراهبة قائلاً :

« ايها الأخت ، سوف تقدمين هذه الى الكاهن . »
ولم تكن الورقة مطوية . فألقت نظرة عليها .
وقال جان فالجان : « في استطاعتك ان تقرأها . »
وقرأت : « إني أرجو سيدي الكاهن ان يتولى أمر العناية بكل ما أتركه هنا . وأرجو أن يدفع من ثمن ذلك نفقات محاكمتي ونفقات دفن هذه المرأة التي توفيت اليوم . أما الباقي فيوزع على الفقراء . »
وحاولت الراهبة ان تتكلم ، ولكنها تلعجبت فلم تنطلق من فمها سوى اصوات غير 'مبينة . بيد أنها ما لبثت ان وفّقت الى القول :
« ألا يريد السيد العمدة ان يرى هذه البائسة المسكينة للمرة الاخيرة ؟ »
فقال :

« لا . إنهم يطاردونني . ولست أحب ان يلقوا القبض عليّ في غرفتها . ذلك خليق به ان يزعمها . »

ولم يكذب كلامه حتى أقبلت من جانب السلم ضجة شديدة . لقد سمعا جلبة أقدام ترتقي السلم ، والبوابة العبوز تقول في نبوات مرتفعة الى أبعد الحدود ، ثاقبة الى أبعد الحدود :

« يا سيدي الطيب ، أقسم لك بالله ان أحداً لم يدخل الى هنا طوال النهار وطوال الليل ، وأنا لم أغادر باب كوخه ولو مرة واحدة ! » فأجابها رجل :

« ومع ذلك فهناك نور في هذه الغرفة . » وتبيننا في ذلك الكلام صوت جافير .

كانت الغرفة منظمة على نحو يجعل الباب يحجب ، حين يُفتح ، زاوية الجدار القائم الى اليمين . وأطفاً جان فالجان الشمعدان ، وحسّر نفسه في تلك الزاوية .

وخّرت الاخت سيمبلبس على ركبتيها قرب الطاولة .

وفُتح الباب .

ودخل جافير .

وسمع خمس عدة رجال واحتجاجات البوابة في الرواق .

ولم ترفع الراهبة عينها . كانت نصلي .

كانت الشمعة فوق الموقد ، وكانت لا ترسل غير ضوء باهت .

ولمح جافير الراهبة ، ووقف مرتبكاً .

ويذكر القراء ان جوهر جافير ، وعنصره ، والوسط الذي يتنفس فيه كان اجلال السلطة كلها . كان متجانساً اكمل التجانس ، وكان لا يرضى اعتراضاً او تقييداً . وينبغي ان نعلم ان السلطة الاكبركية كانت عنده اسمى السلطات . كان تقياً ، سطحيّاً ، دقيقاً في هذه النقطة شأنه في النقاط جميعاً . ففي نظره كان الكاهن روحاً ليس تخطيء ابداً ، وكانت

الراهبة مخلوقة لا تأثم ابداً . كانا وحين يعزلهما عن هذا العالم باب مفرد لا يفتح ابداً إلا لكي يسمح للحقيقة بالانطلاق .
وهكذا لم يكده يلمح الراهبة حتى كان حافزه الاول يدعوه الى الانسحاب .
ولكن كان ثمة واجب آخر يمسك به ، ويدفعه بصلف في طريق معاكس . كان حافزه الثاني يقتضيه ان يبقى وان يغامر فيطرح سؤالاً واحداً على الاقل .

كانت هذه هي الاخت سيبليلس التي لم تكذب في حياتها قط . كان جافير يعرف ذلك ، وكان يحلها على نحو خاص بسبب من ذلك .
وقال : « ايتها الاخت ، هل انت وحدك في هذه الغرفة ؟ »
وانقضت لحظة رهيبة استشمرت البوابة المسكينة خلاها وكأنها على وشك ان تصاب بالاغماء . ورفعت الراهبة عينها ، واجابت :
- « نعم . »

وتابع جافير :
- « اعذريني اذا اصررت ، فهذا واجبي : ألم تري هذا المساء شخصاً ، رجلاً ، كان قد فرّ ، ونحن نلاحقه - هذا الرجل ، جان فالجان ، ألم تَرَيه ؟ »
فأجابت الراهبة : « لا . »

لقد كذبت . كذبت كذبتين متعاقبتين ، احداها اثر الاخرى ، ومن غير ما تردد ، وفي سرعة ، وكأنها متضلعة من ذلك .
- « ألتس عفوك . »

قال جافير ذلك ، وانسحب منحنياً في احترام .
ابه ايتها الفتاة المقدسة ! انت لم تعودى من اهل هذا العالم منذ سنوات عديدة . لقد التحقت باخواتك - العذارى - وباخوتك - الملائكة - في الضياء . فلنذكرك لك هذه الكذبة في الجنة !
كان توكيد الراهبة لجافير شيئاً حاسماً عنده الى درجة جعلته لا يلحظ

حتى غرابة هذا الشعدان ، المطفأ منذ لحظة ، المرسل دجانه على الطاولة .
وبعد ساعة ، كان رجل يمشي عبر الاشجار والظلمات مبتعداً في
سرعة عن مونتروي سور مير موجهاً وجهه شطر باريس . كانت هذا
الرجل هو جان فالجان . ولقد ثبت ، بشهادة اثنين أو ثلاثة من سائقي
العربات الذين التقوا به ، أنه كان يحمل صرة ، ويرتدي دراعة . من
اين جاء بهذه الدراعة ؟ إن احداً لم يدّر . ومع ذلك ، فإن عاملاً
عجوزاً كان قد توفي في مستشفى المصنع قبل ايام قليلة ، غير مخلف
شيئاً خلا هذه الدراعة . فلعلّ هذه ان تكون تلك التي ارتداها جان فالجان .
بقيت كلمة اخيرة عن فانتين .

إن لنا جميعاً أمماً واحدة : الارض . لقد أعيدت فانتين الى هذه الأم .
وارتأى الكاهن ، ولعله أحسن في ذلك صنعاً ، ان يحتفظ باكبر
قدر ممكن من ثمن ما خلفه جان فالجان ليوزعه على الفقراء . وعلى أية
حال ، فبسن كان يتصل ذلك ؟ برجل محكوم عليه بالاشغال الشاقة ،
وبيئت من بذات الهوى . وهذا هو السبب الذي من اجله بسّط الاحتفال
بدفن فانتين ، وقصره على الكفاف الذي يدعى حقل الفخاري *
وهكذا دُفنت فانتين في هذه الزاوية المحيطة من المقبرة ، الزاوية
التي هي لكل فرد وللناس جميعاً ، والتي يضع فيها الفقراء . ولكن
الله يعرف حسن الحظ أين يجد النفس . لقد أضجعت فانتين في الظلام ،
بين الرمم التي ليس لها اسم . لقد تحملت فوضى رفات الموتى
واختلاطه . لقد طرحت في الجذث العمومي . إن قبرها كان مثل سريرها .

* اي مقبرة الفقراء والغرباء . جاء في انجيل متى (٢٧ : ٧) : « قشاوروا
واشترؤا بها حقل الفخاري مقبرة للغرباء . »

فهرست القسم الاول : « فانتين »

ص	
٥	مقدمة
١٧	كلمة اولى
	الكتاب الاول : رجل مستقيم
٢١	١ . ميو ميريل
٢٥	٢ . ميو ميريل يصبح مونينور بينفينو
٣٢	٣ . اسقف صالح - اسقفية جافية
٣٦	٤ . الاعمال تتكافأ مع الاقوال
	٥ . كيف جعل مونينور بينفينو ثوبه
٤٤	الكنهوتي يمر طويلاً
٤٧	٦ . كيف كان يجمع بينه
٥٤	٧ . كراغات
٥٩	٨ . فلسفة ما بعد الغداء
٦٤	٩ . الاخ كما تصوره الاخت
٦٩	١٠ . الاسقف في حضرة ضياء مجهول
٨٦	١١ . تحفظ
٩٢	١٢ . عزلة مونينور بينفينو
٩٧	١٣ . منتقداته
١٠٢	١٤ . افكاره

الكتاب الثاني : السقوط

١٠٧	١ . بعد مسيرة يوم بكامله
١٢٣	٢ . الفطنة تسلم للحكمة
١٢٨	٣ . بطولة الطاعة المياء
١٣٥	٤ . تفاصيل حول مجانب بوتارليه
١٤٠	٥ . سكون
١٤٧	٦ . جان فالجان

١٥٤	٧	أعماق القنوط
١٦٤	٨	الوج والظل
١٦٧	٩	مظالم جديدة
١٦٩	١٠	الرجل يستيقظ
١٧٢	١١	ما الذي يقه
١٧٧	١٢	الاسقف يعمل
١٨٢	١٣	جيرفيه الصغير

الكتاب الثالث : في عام ١٨١٧

١٩٤	١	سنة ١٨١٧
٢٠٦	٢	رباعية مزدوجة
٢١٢	٣	اربعة ازاء اربع
٢١٩	٤	تولوميس مبتج الى شرجة غمله على انشاد اغنية اسبانية
٢٢٣	٥	في حانة بومباردا
٢٢٧	٦	فصل من محبة الذات
٢٢٩	٧	حكة تولوميس
٢٣٨	٨	موت فرس
٢٤٣	٩	نهاية الابتهاج البهجة

الكتاب الرابع : الايداع يعتي التخلي احياناً

٢٤٨	١	امّ تلتقي أمّا
٢٦١	٢	رسم اعدادي اول لوجيون مبهمين
٢٦٤	٣	القبرة

الكتاب الخامس : الانحدار

٢٦٩	١	قصة تحين في صناعة الزجاج الاسود
٢٧١	٢	مسيو مادلين
٢٧٦	٣	اموال مودعة عند لافيت
٢٨٣	٤	مسيو مادلين في ثياب الحداد
٢٨٦	٥	بوارق غامضة في الاق
٢٩٣	٦	الاب فوشلوفان
٢٩٨	٧	فوشلوفان يصبح بستانياً في باريس
٣٠٠	٨	مدام فيكتورين تنفق خمسة وثلاثين فرنكاً على الاخلاق

- ٩ . نجاح مدام فيكتورين ٣٠٤
 ١٠ . عاقبة النجاح ٣٠٨
 ١١ . المسيح هو غلصنا ٣١٦
 ١٢ . بطالة مسيو باماتابوا ٣١٧
 ١٣ . حل لبعض مشكلات الشرطة البلدية ٣٢١

الكتاب السادس : جافير

- ١ . بداية الراحة ٣٣٥
 ٢ . كيف يمكن لجان فالجان ان يصبح « شان » ٣٤١

الكتاب السابع : قضية شافغاتيوي

- ١ . الاخت سيمبليس ٣٥٤
 ٢ . ذكاه المعلم سكوفلير ٣٥٨
 ٣ . عاصفة في دماغ ٣٦٥
 ٤ . اشكال يتخذها المذاب خلال النوم ٣٩١
 ٥ . عصي في الدواليب ٣٩٦
 ٦ . الاخت سيمبليس نجرب ٤١٩
 ٧ . المسافر يصل ويعد المدة للرجوع ٤٢٩
 ٨ . دخول بامتياز ٤٣٦
 ٩ . موطن تكون فيه البيئات ٤٤٠
 ١٠ . طراز الانكار ٤٤٩
 ١١ . شافغاتيوي يزاد دهاءاً على دهش ٤٥٩

الكتاب الثامن : ضربة معاكسة

- ١ . بأية مرآة ينظر مسيو مادلين الى شعره ٤٦٦
 ٢ . فانتين سميدة ٤٧٠
 ٣ . جافير منشرج الصدر ٤٧٥
 ٤ . السلطة تتردد حقوقها ٤٨٠
 ٥ . قبر ملائم ٤٨٦

انتهى المجلد الاول
 ويليه المجلد الثاني